الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص. ب ٤١٢٣ بيروت ــ تلفون ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle

Beyrouth - LIBAN

الادارة : شارع سوريا ــ بناية درويش

B.P. 4123 - Tel. 232832

صاحبها ومديرها المسؤول

الدكتور سهيل إدريس

Propriétaire - Rédacteur

SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير

عايدة مطرجي إدريس

Secrétaire de rédaction

AIDA M. IDRISS

العدد الثالث

أذار (مارس)

السنة السابعة عشرة

* *

No. 3

Mars 1969

17 ème année

هذا العدد

« الثورة الفدائية » : عنوان هـذا العدد الممتاز الذي تصدره « الآداب » ينم عن معناه ، ولا يحتاج الى اكثر من توضيح أمر واحد : هو ان العمل الفدائي الذي تقوم به الآن عناصر محدودة من الشعب العربي مدعوٌ لان يتحول الى ثورة فدائيـة شاملة ، لا تقتصر علـى الميدان العسكري والمقاومة المسلحة ، بل تمتد الى جميع مرافق الحياة العربية ، وتبث روح التضحيـة والفداء في كل ركن من اركان المجتمع العربي الـذي تنخره آفاتٌ لا حصر لها ولا عد .

ان الفساد الذي يعشش في كل زاوية مـن زوايا الحياة العربية ، فـي السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة ، يحتاج الى مطهِّر يضع حدا للتخريب الذي يشلُّ كل عمل مخلص ويعطِّل كل رغبة في الاصلاح . والفداء وحده ، حين يشيع في الجسم العربي كله ، هو المطهِّر الحقيقي ، بل لعله المطهِّر الوحيد الـذي يحمل البرءَ والشفاء من العاهات التي يعانيها هذا الجسم ، فيمتنع عليه ان يقـوم بدوره فـي تأمين حيـاة سليمة للانسان العربي .

***

وقد حرصنا ان نضمِّن هذا العدد مادة متكاملة تعالج موضوع الثورة الفدائية . وبالرغم من اننا لـم نستطع ان ننفِّذ جميع جوانب الخطة التي وضعناها ، بسبب تخلُّف بعض الادبـاء المكلفين او اعتذارهم فـي اللحظات الاخيرة ، فاننا نرجو ان نكون قد قدَّمنا ألوانا من البحث والدراسة والمسرحيـة والشعر والقصة تعطي صورة واضحة للمستوى الذي بلغته هذه الفنون، وللهموم الكبرى التي تشغل أذهـان المفكرين والادبـاء العرب في معركة التحرير التي تخوضها الامة العربية.

وقد ضاق العدد عن استيعاب جميع المادة التـي كان يفرض ان تندرج فيـه ، ولكننـا سننشرها فـي اعدادنا القادمة التي ستكون ، كمـا كانت جميع اعداد « الآداب » منـذ هزيمـة حزيـران ، مخصصة لادب المقاومة والفداء .

« الآداب »

الثورة العربية في الفكر العربي

بقلم احمد عباس صالح

يخيل لي انه من الافضل ـ قبل كل شيء ـ حين ننظر الى الحركة الفدائية الفلسطينية ، أن ننظر اليها في ذاتها ، أعني ألا نحاول اكتشاف دوافعها من الخارج ، سواء كانت فكرية أو اجتماعية ، أو سياسية بأي معنى . وهذه الفكرة تخطر على الذهن اذ يحاول الانسان أن يتأمل تلك الانفجارة المفاجئــة ، التي ظلت منتظرة فترة طويلة ، ومتوقعة في كل لحظة ، ليس فقط منذ قيام اسرائيل ، أي منذ عشرين سنة ، بل قبل ذلك بكثير ، منــذ الهجرة اليهودية ، ومنذ الاستيطان المنظم ، ومنذ ظهور الكتابات الصهيونية الاولى التي لم يكن لها الا معنى واحد ، هو القاء العرب الذين يقيمون في فلسطين في سلة المهملات ، بل القــاء العرب جميعا في هذه السلة . فــلم يكن للعرب خلال الكلمات الكثيرة التي ألقيت في المؤتمرات الصهيونية أي وجــود ، لم يكونوا طرفا في النزاع . ولا شك ان هناك صورا من ردود الفعل العربية داخل فلسطين وخارجها ، ولكن الموقف حسم بواسطة الاطراف العليا ، وكانت مشكلة حسمه كامنة في القدرة على التــوفيق بين الآراء المتناقضة والمصالح المتعارضة في هذه القوى . أما العرب فلم يدر معهم نقاش على الاطلاق ، وكانت الكلمة النهائية معهم بضع طلقات .

وقد أسفر الاستيطان المتسلل عــن استيطان علني ، عن دولة . وتجمعت الجيوش العربيــة وتفرقت ، وكأنها نجــدة قبيلة لا صراع كيانات . وقامت دولة اسرائيل .

ولم تتصور الاطراف المعنية أن تكون لتلك البقعة « المتخلفة » من العالم ، والتي كانت مزقا من الامبراطورية العثمانية المريضة ورثتهــا أوروبا الفتية ، مقاومة تذكر ، وقد خبر الاستعماران البريطاني والفرنسي وسائل كبح جماح هذه المنطقة . وكان العالم العربي محملا بكل آثــار القرون السالفة التي انتهت الى الخلافة العثمانية بكل ما فيها من خير أو شر . ولم تكن أوروبا غازية ومستعمرة وتبحث عن الغنائم فحسب ، بل كانت تمقت هذا « الشرق » مقتا تاريخيا متعصبا . وكانت تفترســه افتراسا .

ولم تنشأ الفكرة الصهيونية الا في ظل هذه الظروف ، في ظـل التصفية للدولة الشرقية التي جثمت على أطراف أوروبا وورثت بيزنطه القديمة بثياب شرقية فاقعة .

هنا ظهرت كل الاحــلام ، وأصبح في مقدور اليهودي المشرد هو الآخر أن يحلم ، وكان العالم العربي بالنسبة لاوروبا وراء الاسوار ، منفى لمن تلفظه الحضارة الجــديدة ، ولا بأس أن يقبل « المشرد » أن ينفي نفسه هنالك . لا بأس أن يكون محطة وصول ، وأن يكون خــادم الخان كلما حطت الرحال .

وصحت توقعات « الاطراف المعنية » : لم تكن هناك مقاومة حاسمة، وجاءت كل الحسابات سليمة .

وكان الفكر العربي في شبــه غيبوبة ، كل دولة تبحث لها عن هوية ، وظهرت النزعة الفرعونية في مصر على أثر الاكتشافات الاثرية ، كما ظهرت النزعات الفينيقية والاشورية في غيرها من البلدان العربية. ومن غرائب الصدف ان هذه الاكتشافات لم يقم بها العرب أنفسهــم ، بل رجال من أبناء الغزاة ، من « الاطراف المعنية » ، وبصرف النظـر عن دلالاتها العلمية فقد وجدنا فيها بطاقة هوية ، وكأننا كنا نبحث عــن نسب ضائع .

وحينما قامت اسرائيل كنــا منهكين فــي حركات التحرير مــن الاستعمار الطارىء ، ومنهكين فــي التخلف المزري ، والى جانب ذلــك كنا مفتونين بالعالم الحديث . وكنا نعيش تحت أسماء كبيرة وهميــة نصطنعها اصطناعا تعويضا عما نحسه من نقص بازاء العالم الحديث .

كنا قد نسينا المغامرة المتحدية ، لم نعرف المخاطرة ، ولا السباقات الخطرة ، ولا جنون تحدي الموت ، ذلك الجنــون الخلاق الذي لا تعيش بغيره أمــة من الامم . كنا كالعجائز نتشبث بحياة مريضة لا طعم لها ، ونخاف الموت في كل خطوة ، ونطلب السلامة في الفكر والعمل .

ولكن انصافا للحق ، كان هذا قدرا تاريخيا ، كان تراكمات عصــور مــن التحلــل والتمزق ، لا يقضى عليهــا بضربة واحــدة ، ولا بحيويــة جيل واحد .

فمهما تكن طبيعة الامبراطورية العثمانية ، فانها كانت آخر تجمــع شرقي ، حين كان العالم يتعامل على أساس انه شرق وغرب ، في مواجهة القوى الفتية ، وهو تجمع يحمل كل ما ورثه من الامبراطورية العباسية القديمة ، تلك الامبراطورية التي انهــارت داخليا بعد قرن واحد من قيامها ، ثم ضيهت كل شيء ، وأورثت شعوبها رذائل ليست أقل ممــا أورثته الامبراطورية الرومانية لشعوبها . وفي الامبراطورية العثمانية ، تبلورت هذه الرذائل واكتسبت اضافات جديدة . وبدافع من حب البقاء حاول تجمع بديل أن يقوم في مصر بقيادة محمد علي ، ولكن الوقت كان قد فات ، وضرب التجمع في أوانه من هذه الاطراف المعنية .

وحين قامت الثورة العربية في العقد الثاني من هذا القرن كــانت تنشد الاستقلال عن تركيا لتقع في براثن الاستعمار الاوروبي الجديد ، ولم يكن التفكير العربي يملك القدرة على الرؤية الصحيحة، كما لم يكن يملك الامكانيات للاستفادة من هذه الرؤية لو أتيحت له .

ومنذ سقوط محمد علي ، وفشل الثورة العربية ، لم يقم تجمــع جديد الا في ستينات هذا القرن . أعني انه لم تقم « محاولة » للتجمع الا في ستينات هذا القرن ، عقب ثورة يوليو ١٩٥٢ في مصر والثورات الاخرى المتلاحقة في الوطن العربي ، وقامت ثورة التحرير الجزائريــة بدورها الحاسم والدموي والذي كنا نفتقر اليه .

واستفاد التجمع الجديد من ظروف مواتية ، أبرزها تغير خريطــة العالم ، وثانيها روح التوثب العربية ، أو ما يمكن أن نسميه بريح الثورة العربية الجديدة ، المصاحبة لعملية الصحــو عقب حركات الاستقلال والثورات التي اتخذت طابعا تقدميا .

وكان من الممكن أن نحذر حين يجد التجمع قبولا ، أو لا يجــد معارضة حقيقية . فهو تجمع ظهر قبل أوانه ، ولم يستفد من دروس الفشل السابق . وكان مــن الضروري أن يتم في « لهوجة » ، ودون فكر علمي مخطط وتنظيم حقيقي للجماهير . وبالتالي لم تقم لديــنا شبهة في انه الطعم الملقى لنا ، وقد التهمنــاه بكل بساطة ، وظننا ان في استطاعتنا اذابة كل التناقضات في هذا التجمع . وقبل أن نستطيع الوقوف على أقدامنا ، كنا نتحدث عن الدولة العظمى الموحدة .

وتاه الفكر العربي في الحــديث عن الوحدة قبل الاشتراكية أو الاشتراكية قبل الوحدة . وألقيت أسئلة كثيرة من هذا الطراز . وألقيت قضية فلسطين في الظل حتى تتم الوحدة وتقوم الدولة العظمى بتصفية اسرائيل .

وحين نفتش في الفكر الذي طرح نفسه منذ عدوان ١٩٥٦ حتــى عدوان ٥ يونيو ١٩٦٧ لا نجد الا ان قضية فلسطين قضية مؤجــلة .

وهكذا أجل الفلسطينيون دورهم في انتظار قيام الدولة العظمى الموحدة . وكان هناك كلام كثير عن الاشتراكية والمجتمع الصناعي ، وكأن هذا في الامكان وعلى مرمى البصر تقف اسرائيل . لقد ظننا في لحظة من لحظات الخدر التاريخي ان معركة التحرر الوطني قد حسمت ، وان البلاد العربية قد نالت استقلالها ، ولم نستطع أن نرى وجه الشبه بين اسرائيل كقاعدة عسكرية ، وبين السويس مثلا كقاعدة عسكرية قبل جلاء الانكليز .

ان معركة التحرر الوطني لم تنته ، ولقد غير الاستعمار مواقفه فقط . وعلينا الآن أن نسأل ما هو دور قاعدة السويس القديمة الا الوثوب عند اللزوم لرد الامور الى ما كانت عليه ، وهو الدور نفسه الذي تلعبه اسرائيل .

وتحت الشعارات الطنانة والدراسات الكثيرة التي ملأت عشرات الكتب الضخمة لم نلتفت الى الحقيقة البسيطة ، وهي ان ثورات التحرير لا تؤجل نفسها . وان حروب التحرير ليست جيوشا مجيشة ، ولا علما عسكريا كلاسيكيا ، لان القوة التي تواجهها حرب التحرير قوة أكثر تنظيما بحكم سيطرتها ، وبحكم الاحتياطي الضخم الذي يكمن خلفها الى ما وراء الباسيفيكي . أن حرب التحرير حرب جماهيرية من الدرجة الاولى ، وهو ما لم ندركه ولم نحاول ادراكه ، بل استبدلنا به أحلاما من طراز آخر .

ودون أن نلاحظ ، وكما نقول عن أنفسنا ، من منطق تضخيم الذات ، بدونا أمام العالم بصورة مقلوبة : مجموعة من الدول الكبيرة تحاول أن تفترس دويلة صغيرة . ونحن الذين أعطينا هذه الصورة المقلوبة لانفسنا . ويبدو اننا أول من صدق نفسه ، ولم يستطع الفكر العربي أن يسبر أغوار الموقف ، وما زال بيننا من يجادل في ان اسرائيل ثكنة عسكرية للامبريالية العالمية ، ويريد التعامل معها بمعزل عن القوى الكبرى التي وراءها .

ان قضيتنا كما يفهمها رجل الشارع البسيط هي اجلاء القوى الدخيلة ، اجلاء الاحتلال العسكري ، تحرير الارض العربية من الاستعمار الصهيوني أو العالمي أو أيا كان اسمه . ولكن هذا ـ على بساطته ـ لم يكن مفهوما . وعلى العكس من ذلك كنا نظن اننا نستطيع بالذكاء الخارق أن نخدع كل الاطراف ، وأن نصدق ان الامبريالية التي تخوض أعنف معركة في تاريخها ستتخلى عن الشرق الاوسط تحت ضغوط التغييرات الداخلية والانظمة الجديدة ، ولم تلتفت هذه الانظمة التفاتة جدية الى مغزى تحركها في اطار من الحساسية والرهبة من اثارة غضب القوى الامبريالية في أخص شؤوننا ، حتى عند تعيين وزير أو موظف كبير في موقع حساس . لقد نفينا بأنفسنا من العمل الوطني ـ لهذا السبب ـ كل العناصر التي قد تحدث قلقا لدى القوى الكبرى التي تعتبر الشرق الاوسط ملكا حلالا لها . وعندما كنا ننشر بعض الكتب الثورية كنا في المقابل ـ ومن أجل هذه الحساسية ـ ننشر الكتب التي تريد ترويجها هذه القوى ، وكان يتم تحت أعيننا تجنيد بعض العناصر فكريا ـ على الاقل ـ لخدمة المضامين الاجتماعية التي ترتاح لها هذه القوى ، وكنا نفسر ذلك بنزعتنا الى الحرية والانفتاح على كل التيارات . وعند لحظة الصدام الحقيقية كنا عراة تماما أمام أعدائنا . وعقب الهزيمة بدأنا نكتشف قليلا اننا شئنا أو أبينا منطقة نفوذ ، وعلى الانظمة الجديدة لكي تتعايش أن تفهم هذه الحقيقة وأن تحسب حسابها .

ولعلنا ـ حين بدأنا ننظر الى خريطتنا ـ اكتشفنا اننا كمصادر ثروة وكخطوة مواصلات حيوية وكموقع استراتيجي فضلا عن كوننا سوقا تبادلية ، لم نزل في اطار القوى الامبريالية ، وان جهادنا الحذر ونجاحاتنا المحدودة مرفوضة أيضا على تواضعها .

وخلال عشرين سنة من الوجود الاسرائيلي لم نكسب شبرا واحدا من أرض فلسطين ، وبمراجعة مساحة فلسطين المغتصبة منذ سنة ١٩٤٨ حتى الآن نجد الامتدادات المتوالية ، قطعة وراء قطعة ، وها هي ذي اسرائيل تمتد الى خارج فلسطين ، وتضع أصابعها على اراض شاسعة خارج المساحة التي كنا نتنازع عليها الى سنة ١٩٤٨ !

وعلى الرغم من كل محاولاتنا لتهدئة خواطر الامبريالية العالمية ، فاننا لم نكسب تأييدا واحدا حتى في أتفه الامور . ولم نراجع هذه الحقيقة ، لم نتبين حتى الآن ان الانظمة العربية مهما يكن مدى ولائها أو مهادنتها للامبريالية فانها غير مأمونة ، لاحتمالات وقوعها تحت تأثير جماهيرها ، وتحت الحاجات الازمات العنيفة التي يعيشها مجتمع متخلف كمجتمعنا .

وتستطيع اسرائيل أن تباهي بديمقراطية يرضى عنها ليبراليو الغرب ، وأن تكون أحزابا ، وأن تسمح بحزب شيوعي ، وأن تشكل اتحادا للعمال ، وأن يتشدق بعض أبنائها بأن لهم حرية معارضة السلطة الصهيونية في الحكم الاسرائيلي ، وأن ترتفع بداخلها أصوات تنضح بالبطولة الكاذبة تدعي العطف على العرب ، بل وتأييد العرب في بعض الاحيان . وقد نجد أصواتا تهاجم الامبريالية الاميركية لا تقل في جهيرها عن تلك الاصوات التي نسمعها في أي بلد معاد للاخطبوط الاميركي . ولكن كل هذا مقبول ، ولا يبعث على شيء من القلق لانه بعد كل ذلك ، وفوق كل ذلك ، يعتمد الوجود الاسرائيلي على الدعم الامبريالي وسط المحيط العربي . ان تلك الجزيرة الضئيلة لا مكان لها الا في حضن الامبريالية العالمية ، وهو فهم مشترك ومتبادل بين اسرائيل والحركة الصهيونية بشكل عام وبين الامبرياليه .

أما المجتمع العربي الذي لا يسمح فيه بصيحة تحرر من أي نوع ، فهو مصدر قلق للامبريالية . ان مجتمعات شيوخ البترول ـ على حد زعم كاتب صهيوني يدعي التقدمية ـ أكثر اقلاقا للامبريالية الاميركية من الحزب الشيوعي الاسرائيلي . ومن المؤسف أن نضطر أحيانا لتنبيه بعض كبار المفكرين الغربيين الى حقائق هامة ، وهي ان كبح جماح التقدمية في العالم العربي تشترك فيه قوى الاجهزة الاميركية ، قبل أن يشترك فيه شيوخ البترول هؤلاء .

ان الجماهير الاسرائيلية مرتبطة في النهاية بالكيان الاسرائيلي ، بالوجود الاسرائيلي ، وهذا الوجود المحفوف بالمخاطر ـ بلا حماية من الامبريالية ـ يجرد كل أشكال النشاطات التقدمية في اسرائيل من حقيقتها ، يجعلها مجرد لافتات تصلح للدعاية ، للتباهي الاسرائيلي عند المقارنة بين المجتمعات العربية « الرجعية » وبين المجتمع الاسرائيلي « التقدمي » .

واني أذكر هنا بالمرارة تجربة غاية في الغرابة والتناقض . فقد قرأت مقالا منذ عدة شهور في لندن ، لكاتب اسرائيلي عضو في الكنيست كما قال هو عن نفسه ، وشارك في حرب يونيو ، وهاجم بعض التصرفات الاسرائيلية في تقرير نشره على العالم ـ كما يقول ـ خصص مقاله هذا للوم العالم الاشتراكي والاحزاب الشيوعية ـ لانه كشيوعي ـ يجد نفسه منفيا عن حضور المؤتمرات الشيوعية ، عن الاستماع الى آرائه ، عن الجلوس معه في مقهى واحد لتناول قدح من البيرة ، انه لا يستطيع أن يتنفس بالاحترام اللائق بمفكر عصري ثوري ، ولا أن يتمشى باطمئنان في سان جرمان أو في سلس أو غيرها من الاحياء الشهيرة ، لانه ـ مع كونه شيوعيا ـ منبوذ لانه اسرائيلي . ثم يتباهى بأن اسرائيل مع ذلك ، دولة ديمقراطية ، وانها بجميع المقاييس الحديثة ، وبالمقارنة الى المجتمعات العربية ، دولة تقدمية .

وتأكدت أن أحدا لم يقتنع من قراء هذا المقال الذي أفردت له مجلة « نيو ستسمان » التي عرفت للعالم بأنها من المجلات ذات النزعة التقدمية صفحتين كاملتين ، وأبرزت عنوانه في أول الصفحة الاولى . ولكن كيف يرد المواطن العربي ؟ كيف يستطيع أن يعري هذا الزيف ، وهو لن يستطيع أن يدافع عن بعض الانظمة العربية التي قدمت في المقال على سبيل المقارنة ؟

انه على العكس من ذلك ، يجد المواطن العربي التقدمي نفسه غريبا كل الغربة ، غير مفهوم على الاطلاق ، حتى بالنسبة لبعض العناصر التقدمية . وقد تحولت في النهاية حرب يونيو الى دفاع عن الوجود

ـ التتمة على الصفحة ١١٤ ـ

القضيّة

— ١ —

أريد بندقيه
خاتم أمي بعته
من أجل بندقيه
محفظتي رهنتُها
دفاتري رهنتُها
من أجل بندقيه

اللغة التي بها درسنا
الكتب التي بها قرأنا ..
قصائد الشعر التي حفظنا
ليست تساوي درهما ..
أمــام بندقيه

— ٢ —

اصبح عندي الآن بندقيه
الى فلسطين خذوني معكم
الى ربى حزينة كوجه مجدليه
الى القباب الخضر .. والحجارة النبيّه
عشرين عاما .. وأنا
أبحث عن أرض .. وعن هويه
أبحث عن بيتي الذي هناك
عن وطني المحاط بالاسلاك
أبحث عن درّاجتي
وعن رفاق حارتي
عن كتبي .. عن صوري
عن كل ركن دافيء .. وكل مزهريه

— ٣ —

الى فلسطين خذوني معكم
يا أيها الرجال
أريد ان أعيش أو أموت كالرجال
أريد ان أنبت في ترابها
زيتونة .. أو حقل برتقال
أو زهرة شذيه ..
أصبح عندي الآن بندقيه
قولوا لمن يسأل عن قضيتي ..
بارودتي .. صارت هي القضيه

— ٤ —

أصبح عندي الآن بندقيه
أصبحت في قائمة الثوار
أفترش الاشواك والغبار
وألبس المنيه
على سلاحي تورق الاشجار
ومن جروحي تطلع الاقمار
ويشرق النهار ..
ارادتي من حجر
وقبضتي اعصار
مشيئة الاقدار لا تردني
أنــا الذي اغيِّر الاقدار
أنــا مع الثوار ..
أنــا من الثوار
من يوم أن حملت بندقيتي
صارت فلسطين على أمتار ..

— ٥ —

يــا أيها الثوار
في القدس ، في الخليل ، في بيسان ، في الاغوار
في بيت لحم .. حيث كنتم أيها الاحرار
تدفقوا كالسيل والامطار
تكاثروا .. كالعشب والازهار
تقدمــوا ..
تقدمــوا ..
فقصة السلام مسرحيه ..
والعدل مسرحيه ..
الى فلسطين طريق واحد
يمر من فوهة بندقيه ...

نزار قباني

الثورة الفدائية والثورة النقدية

بقلم مطاع صفدي

تتضح أزمة الثورة العربية يوما بعد يوم ، على ضوء الانتصارات، اكثر مما تتضح على ضوء الهزائم والنكسات . ذلك أن الهزيمة سريعا ما تكشف للعيان عن عواملها وأسبابها ، وان كان ذلك بعد وقوعها . واما الانتصار فمن الصعب ان يرى الوجدان العام عيبا فيه ، أو نذيرا بخطر وانتكاس . وهو لانه انتصار ، فانه يعفي الكثيرين من حمل القلق او الحذر ، ويغرق الوعي القومي بالخدر الكسول ، وتبدأ حركة التملص من المسؤوليات ، والقائها على التكتلات الرسمية او ما يشبهها .

وقد يرى الناس أننا لا نعيش في هذه الايام اي انتصار . وان بلادة الهزيمة وحدها هي التي ما زالت تغرقنا في مستنقعها . ولكن عندما نستوعب حقيقة المنعطف التاريخي الذي تمر به الثورية العربية اليوم ، وهي تتحقق بأسلوب الثورة الفدائية على صعيد العمل ، واسلوب الثورة النقدية على صعيد النظر ، فاننا نكتشف ولا ريب ، اننا نعيش لحظة اعداد لانتصار . انتصار حقيقي هذه المرة ، لا جلبة له ولا دعاية ، لا أبواق ولا برامج اذاعية وأناشيد حماسية . انه من طبيعة الثمرات الاجتماعية والتاريخية ، التي قد لا يهدف اليها تنظيم او قيادة مسؤولية . ولكنها تختمر وتتحقق ، وتبني ظاهرتها الواقعية بفكرها وعلائقها الموضوعية الخاصة ، وتفرض موضوعيتها تلك بقوة القوانين الجغرافية والفيزيائية ذاتها . ولا فرق ان استطاع ان ينتبه اليها وعي فيلسوف ، او حذاقة سياسي ، او براعة انتهازي . فلقد سبقتنا دائما تحولات الارضية التاريخية الاجتماعية لمختلف ظواهر الثورية والسياسية والفكرية . وكان الانفصام الواقع بين هذه الارضية وبين الوعي ، هو الاساس لكوننا نخون الثروات العفوية ، التي تقدمها لنا تحولاتنا اللاارادية ، المنبثقة من حركة المجتمع ذاته ، ونستبدلها دائما بالعملة المزيفة ، فنصنع لنا سوقا من البضائع الوهمية ، وننصب فوق رؤوسنا طواحين الدونكيشوتية ، في عصر العقول الالكترونية ، ونهتبل الاضواء الصارخة لنختصر الطريق الاصيل نحو بناء الحقيقة بضوئها البسيط المتواضع .

فمن نافلة القول اذن ان ندعي ، ونحن في قعر الهزيمة ، اننا منتصرون . ولكن من العجز الفكري ايضا ان نخاف من مواجهة البوادر التحولية الجذرية ، التي تمور بها ارضية وجودنا الاجتماعي والتاريخي، من خلال ظروف النكسة ذاتها . ان هذه التحولات هي مؤونة الانتصار الجديد . ولذلك كان لهذا الانتصار ايضا اخطاره ونذيره ، كما له ايجابيته وبشيره .

ان هذا الانتصار يتجلى في هذا التحقق الموضوعي لوجهي الثورة العربية الجديدة : الثورة النقدية ، واداتها الواقعية المباشرة ، الثورة الفدائية .

ان الثورة النقدية يمارسها اليوم المجتمع العربي بكل طبقاته وافراده وفئاته . وتنعكس انعكاسات متفاوتة على بعض الانتاج المكتوب، الذي يساهم فيه جيل جديد من المفكرين والادباء والشعراء ، ويشترك فيه مثقفون من مختلف الاتجاهات والمواقف ، وخارج المواقف المصنفة المعروفة سابقا .

وحتى لا تأتي هذه الثورة النقدية عبثا في الفراغ والتجريد ، فقد اقترنت تلقائيا بنمو الثورة الفدائية ، على ارض الواقع والحياة اليومية لمراحل ما بعد الهزيمة .

واذا كانت الثورة الفدائية اشد وضوحا وتجسيدا من الثورة النقدية ، فان تطور العمل الفدائي واتساعه تنظيما وفعالية ، سوف ينخل الثورة النقدية ثمراتها الايجابية عن القشور وعما يصحبها من ظواهر عبثية تارة ، واخرى تهديمية وانحرافية ، ويبقي على عناصرها الجوهرية التي ستؤلف الاساس الموضوعي للفكر العربي التقدمي الجديد .

***

ان انبثاق ثورة الفداء يقدم أوضح برهان مباشر على ان الثورية العربية لم تستطع بعد ان تنجز مرحلة التحرر من الاحتلال الاجنبي . اي ان مرحلة التحرر الوطني ما زالت هي الدور التاريخي الطبيعي الذي تعيش فيه الثورية العربية . فالاحتلال الصهيوني من حيفا الى الضفة الغربية للاردن عرضا ، ومن قناة السويس الى حدود دمشق الجنوبية طولا ، لا يعني الا ان قلب الوطن العربي قد عاد الى السيطرة الاجنبية مرة اخرى . واذا دققنا في ألفاظنا ، وجدنا أن كلمة (عاد) ليست سوى المجاز ، واما الواقع ، فان الاحتلال لم يذهب ، ولم يعد . ولكنه مستمر . واستمراره يتطور من شكل الى اخر ، حسب ضرورات التحول الظاهري للممارسة الاستعمارية .

ولذلك فان انبثاق الثورة الفدائية ، يعني تفجير الاداة الوحيدة لمقاومة الاحتلال ، وهي اداة التحرير الشعبية ، اي النضال المسلح . ولقد كان على الثورية العربية ان تكتشف هذه الاداة طيلة العشرين من الاعوام المنصرمة ، التي انقضت في الصراع الفئوي الضيق ، الفاقد للقاعدة الشعبية ، الهادف للسلطة ، المنسحب من الاصطدام الواقعي مع قوى الاحتلال المباشر وغير المباشر ، الداخلية والخارجية .

فاذا كان الاستعمار الصهيوني قد تم له احتلال قلب الوطن العربي خلال اقل من عشرين عاما ، فمعنى ذلك أن قوى الاحتلال كانت تتعاظم طيلة الفترة ، التي كانت فيها الثورية العربية تعتقد أنها تنمو وتقوى ، وليس العكس ، كما تراءى لنا في اوهامنا الايديولوجية والاعلامية السابقة .

ومعنى ذلك ايضا ، ان شعوب العالم الثالث تخدع نفسها عندما تعتقد ان ثمة مراحل عليا بعد انجاز التحرر الوطني . والحقيقة أن الهدف كله هو بلوغ التحرر الوطني ، وهو ما زال أبعد هدف ، وخاصة في العالم العربي . اذ ان الاستعمار ما زال متشبثا بفكرة الاحتلال ، ولكنه حاول ان يحققها بوسائل خادعة جديدة . ولعل من اخطر هذه الوسائل اقتناع الشعوب بان جلاء الجيوش للدول المستعمرة التقليدية كبريطانيا وفرنسا ، معناه تحقق الاستقلال والسيادة الوطنية . اذ ان التجربة العربية توضح ان الاستعمار عندما يعتقد ان اسس الاحتلال غير المنظور تواجه تهديدا حقيقيا ، فانه يلجأ الى لعبة الاحتلال المنظور ، بقواه ، او قوى غير مباشرة ، تابعة له . ان جلاء الجيوش الفرنسية عن سوريا ولبنان ، والجيوش البريطانية عن العراق ومصر والاردن والخليج العربي ، قد حل محله ، ومنذ البداية ، الاحتلال الصهيوني في الارض التي تتقاطع عندها اوطان العرب جميعها . وهو سائر في طريق التوسع حتى يتم له تحقيق الانفصال التاريخي الاكبر ، حلم اوروبا القديم ، بين جناحي الامة العربية ، المغرب والمشرق . وهو سائر كذلك ، في طريق اغلاق ساحل البحر الابيض المتوسط من شماله الى جنوبه ، دافعا بالعرب .. نحو الداخل ، نحو الصحراء !

ان تجديد الاحتلال ينبثق هذه المرة من فكرة التمليك والتوطين ، بدلا من السيطرة الخارجية بالجيوش النظامية والادارة الاجنبية . ههنا يتحقق يوما بعد يوم مخطط الغزو المتملك من الوطن ، بطرد مواطنيه خارجا عنه . أمام هذا الواقع ليس للثورة العربية الا العودة الى شكل الثورة الوطنية المسلحة .

واذا كان لدينا في تاريخ ثوراتنا الوطنية بعض النماذج من الثورات الفلسطينية والسورية والعراقية والمغربية ، وصولا الى اعلاها وهي ثورة الجزائر الحديثة ، فان ظروف هذا النوع الجديد من تطوير الاحتلال الى شكل الغزو المتملك (1) ، يفترض قيام ثورة من نوع خاص وفريد ، لم يسبق له مثيل تقريبا .

والعطب الاساسي الذي نخر صميم الثورة العربية المعاصرة ، ابتداء من الخمسينيات ، هو انها لم تدرك حقيقة هذا الغزو . وكان من جراء ذلك انها لم تمر بالمرحلة النقدية الشاملة ، وعجزت عن تحريك امكانيات الامة العربية من جذورها الشعبية ، وطاقاتها الحضارية . فتحولت الى منطق الصراعات السياسية المحلية ، مستخدمة مشكلة فلسطين كظاهرة اعلامية ، لا غير .

واما اليوم ، فان مناخ الاثارة الذي حققه الغزو الاسرائيلي الجديد، قد بدأ يخلق تحريضا كيانيا يوضح شيئا فشيئا أسس الوعي بالغزو والرد عليه . ولقد بدأ هذا الرد بانبثاق الفدائية . وانطلقت الفدائية بحرب الافراد ، وهي نفسها المقدمة الطبيعية لحرب الشعوب .

ان الوعي بالغزو يتحقق من خلال الكشف عن طبيعة الغزو وعقليته وأدواته وقواه الخلفية والمتقدمة ، وفي الوقت ذاته يكشف عن طبيعة المقاومة ، وما يمكن ان تثيره من مشكلات كيانية شاملة ، وواقعية مباشرة . فما هي اسرائيل ، وكيف يقوم مجتمعها ، وما هي اسس تكوينها القريبة والبعيدة ، وما هي علاقاتها المصيرية بمصالح الدول الكبرى ، ذلك هو السؤال الذي يثيره الوعي بالغزو والغزاة .

ومن هي الامة العربية ، كيف يقوم مجتمعها ، وما هي مشكلاتها الثقافية والمادية ، وما هي امكانياتها الظاهرة والكامنة ، وكيف يمكن تنظيمها كلها في اطار الامة المقاومة ، ذلك هو السؤال الثاني الذي يطرحه الوعي بالغزو ، ليكشف عن المقاومة والمقاومين والصيرورة الكفاحية الجديدة ، التي ستفير وضع التحدي الاساسي كله .

ان الثورة النقدية ، تحقق لهذا الوعي بالغزو ، بشطريه : التحدي والرد ، المدخل الاساسي الذي يصقل الوعي من جميع اوهامه ، عن عدوه وعن ذاته ، ويحقق لاول مرة ، المواجهة الكاملة بين الحقيقة والثورة . ولا يمكن للثورة ان تقوم بهذه المواجهة الكاملة للحقيقة ، الا اذا تحررت من نوعين من الاوهام : الاوهام الايديولوجية ، والاوهام الذاتية للمجتمع غير الثوري ، المتخلف . والاوهام الايديولوجية تقوم على الانفعال الامي ثقافيا ، والمراهق نفسيا ، بالنظريات بدون قدرة على النقد والتمحيص والمقابلة ، وبدون قدرة على الملاءمة بين الفكرة الصحيحة ومكانها من الواقع والمجتمع .

والاوهام الذاتية تقوم كذلك على الانفعال غيبيا وآليا ، بعقلية التخلف وآليات سلوكه واعتقاداته . ومحاولة تغطية هذا الانفعال ، اما باصطناع البرجزة الغربية الظاهرة ، او باصطناع الثورية المراهقة الامية . هذا هو الوجه الداخلي للمواجهة الكاملة بين الثورة والحقيقة.

اما الوجه الخارجي لها ، فيتحقق بالاعتراف الموضوعي الكامل بكل ما لدى الغزو والغازي من وجود عقلي وعلمي واجتماعي وعسكري ، وفهم قوانين هذا الوجود كما هو ، لا كما تشتهي امراضنا وعقدنا .

يبقى ان عملية هذه المواجهة بين الثورة والحقيقة ، بوجهيها الداخلي والخارجي ، يتطلب منا كذلك وفي الاساس — وهذا اهم شرط — تحقيق الظرف الاولي للمارسة النقدية ، وهو التفكير والمقايسة بحسب ثقل الحقائق المدروسة نفسها ، لا بحسب الاعتبارات الخاصة بأية مؤسسة ، لها سلطة الكبت ، والتخويف ، وفرض اشباه الحقائق .

فالفدائية التي تنطوي على الشهادة الكاملة ، تتطلب الفدائية في حقل المواجهة النقدية ، في جو البراءة الذاتية الكاملة ، والعراء الموضوعي من أية سلطة فكرية أو اعتقادية .

ان حرب التحرير من الغزاة ، ينبغي أن تدعمها حرب التحرير من الاوهام والعقبات الداخلية ، التي تبدد قوى المقاومة أو تضللها ، أو تحرفها عن هدفها الاصلي . ان فك الطوق عن مشكلة البحث عن قوى المقاومة وراء الشهداء والابطال ، يتطلب سيادة نموذج العالم فوق نموذج الثوري التقليدي ، وسيادة فعالية العلم فوق فعالية التخلف والثورية التقليدية .

وتأتي الثورية الجديدة ، لكي تضع الخطة المثلى لتنظيم القوى الحقيقية للامة ، وجعلها ترد على وجهي التحدي على الغزو المنظم بالمقاومة المنظمة ، وعلى التخلف الموروث بالتقدم الشمولي والتحديث الموضوعي .

ونحن اليوم في منطلق هذا الطريق ثورة نقدية ، وثورة فدائية . ولكننا وقفنا في هذا المنطلق بحكم الظروف الموضوعية . ولم تتم لنا بعد عمليات الوعي الكامل لهذا الموقف ، وكيف يمكننا أن نستخرج منه كل امكانياته ، وأن ننمي منه خطة المستقبل الثوري الجديد .

والواقع ان الثورة الفدائية تنقل الثورة العربية لاول مرة الى أرض الكفاح الدموي الحقيقي ، كوسيلة مطلقة للرد على الغزو الخارجي من جهة ، والرد على التخلف الثوري داخليا . فان انتظام الجيل في أخلاقية الفدائية يدخل الامة عصر المطهر العظيم ، الذي لم تعانه بعد ، منذ أقدم ثوراتها الداخلية الفاصلة . فبدلا من التآمر السياسي ، والممارسات الفئوية ، وأشكال المراهقات التأدلجة ، في نطاق الثوريات التقليدية ، تنبجس الشعلة الفدائية لتحدد الجبهات الحقيقية ، على أساس التضحية بالدم .

وبدلا من صور التمرد الفردي والعبثي ، والانحرافات العقلية والخلفية ، التي عمت جيل النكبة الاولى ، فان جيل الثورة الفدائية ، تقدم له تاريخيته أعظم الظروف موضوعية لخلع تاريخ ، وتأسيس التاريخ الموعود . ذلك أن الثورة الحقيقية لا تولد الا بجيل منالضحايا الواعية .

غير ان فدائيتنا المعاصرة تصحبها في الآن ذاته ، حركة شاملة في التطهر العقلي من الغيبيات ، والتطهر الاخلاقي من نفاق الاستعباد واسترقاق القيم المزيفة ، والتطهر العملي من ممارسة الالتواء والانحراف والدسائس الانقلابية . فكلما تعاظمت معركة الفداء على الحدود ، كلما تهيأت أسس الاعداد لاخلاقية الحرب الشعبية الصحيحة السليمة ، خارج الشعارات والشراذم .

ومن هنا جاء الوعي بالثورة الفدائية ضرورة كيانية لاستمرارها ، وتطورها الى الحرب الشعبية المنظمة ، من أعماق الداخل الى حدود الخارج . فما تحتاجه هذه الامة لولادة حقيقية ، هي حرب واحدة حقيقية ، حربالشعوب وراء الجيوش ، وليس الجيوش بدونالشعوب.

ان اعادة تنظيم المجتمع العربي حسب استراتيجية الحرب الشعبية ، يعني تشريك المجتمع كله بمصيره . وهذا يعني اذابة أي شكل من أشكال الاقطاع السياسي القديم والحديث ، والغوص الى أعماق الكتلة الجماهيرية الكبرى ، التي ما زالت غائبة عن الفعل ، أسيرة للانفعال السلبي وحده ، بما يقال لها ، وبما يعمل باسمها ، وبالنيابة عنها ، قسرا أو جهلا .

— التتمة على الصفحة ١٧٦ —

1 — يجب الاعتقاد أنه حتى في حال أنسحاب اسرائيل من بعض الاراضي المحتلة ، فان مخطط الغزو لن تتخلى عنه اسرائيل ، وسيظل هذا المخطط في اوقات السلم فعالا من وراء حدودها ، الى ان تحين فرصة جديدة للتوسع وهكذا .. وهذا يعني ان وجود اسرائيل صغيرة او كبيرة ، يعني وجود امكانية الغزو ، اليوم وغدا .

زهرة من دم

مسرحية في ثلاثة فصول

بقلم

الدكتور سهيل ادريس

الاشخاص

نزيه
هشام
فتحي ‏ ‏ ‏ ‏ فدائيون
سعيد
الياس
احمد : جاسوس للعدو
زياد : أخو نزيه وليلى
ليلى : أخت نزيه وزياد
الام : أم نزيه وزياد وليلى
الضابط الاسرائيلي
راشيل : مجندة اسرائيلية
جنود اسرائيليون

الفصل الاول

غرفة استقبال عادية في منزل عربي من منازل قرية بيت فوريك القريبة من نابلس في الارض المحتلة من فلسطين . الى اليسار باب الدخول . الى اليمين باب لغرفة نوم علق فوقه صورة كبيرة لرجل عربي يرتدي الكوفية والعقال . والى اليمين كذلك باب آخر يؤدي الى المطبخ . أريكتان في الغرفة وبضع كراسي وطاولة .

المشهد الاول

نزيه ، هشام ، فتحي ، سعيد ، الياس ، الأم ، ليلى

(الفدائيون الخمسة جالسون أرضا في غرفة الاستقبال يتناولون الطعام . الام جالسة خلفهم على أريكة . ليلى تدخل المطبخ بين حين وحين ، تأتيهم بالطعام وتخدمهم) .

هشام (يمضغ الطعام بنهم) : هم م م م ... لذيذ ، لذيذ ! (ملتفتا لفتحي) هذا أكل ! أما ذلك الذي أردت أطعامنا اياه في الوادي ...

فتحي (يأكل هو أيضا بنهم) : كل ما يؤكل عند الجوع يسمى أكلا ! (ليلى تضحك) .

هشام (ملتفتا لليلى) : أراد أن يطعمنا .. تعرفين ماذا ؟ حية والله العظيم !

ليلى (متقززة) : حية ؟ أعوذ بالله !

فتحي : أقسم انها من الذ أنواع الطعام !

نزيه : خاصة بعد يومين من الجوع !

فتحي : كانت المعلبات قد نفدت ، وقرأ لنا سعيد كل ما نظمه في حياته من قصائد غرامية فاشلة ، وأصم الياس آذاننا بأزجاله ، وحكيت أنا كل ما أعرفه من نكت ...

سعيد (مقاطعا) : بايخة !

فتحي (متمما) : ... ولم يعد شيء ينفع في حملنا على نسيان الجوع ...

هشام : عند ذلك ، راح يفتش في الوادي ، ثم عاد يحمل حية طويلة ، فاشعل نارا وشواها ، وأخذ يأكل منها ويتلمظ ... (يكز بوجهه) .

فتحي : كنت أتوقع أن يقرف طالب الطب الناعم المرفه حين يرى ...

نزيه (مقاطعا) : ولكن اعترف ، هشام : ألم يكن ، بعد ذلك ،

أقدرنا على الصمود في المشي ؟

هشام : وماذا حصل ؟ هل متنا من الجوع ؟

سعيد : كان في خيالك ، أنت ، طيف يغذيك ...

فتحي : حتى حين تجد الطعام هنا لذيذا ، فلذلك سبب آخر :

هشام : وما هو ؟

سعيد : أوه . لا تكن غبيا ، أو لا تتظاهر بالغباء . أيـة أنامـل صنعت هذا الطعام ؟

(ليلى تغضي مبتسمة)

فتحي : على أي حال ، أعطينا ، آنسة ليلى ، رغيفين آخرين !

(تخرج ليلى الى المطبخ)

الياس : ما شاء الله ! التهمت كل الخبز ؟ أقسم أنك ستظـل جائعا ما دمت حيا !

فتحي : معك حق . سأظل جـائعا للطعام .. وللمرأة ! (يلتفت فجأة الى الام ، مستدركا) المعذرة !

ليلى (راجعة من المطبخ) : خـذوا ! هذا كل ما بقي عندنا مـن خبز !

فتحي (مختطفا الخبز) : هاتي ، آنسة ليلى !

الياس (بصوت مرتفع) : أنظروا ! أنظروا ! هل لاحظتـم كيف نشل الخبز ؟

سعيد : انحراف مهني ! (يضحكون) .

الياس : متى تتخلى عن عادة النشل ، فتحي ؟

فتحي : الانسان لا يتخلى ، بين ليـلة وضحاها ، عن عاداته ، لا سيما اذا كانت عادات مربحة !

هشام : بالله عليك ، فتحي ، احـك لليلى ولامهـا كيف امتهنت النشل ، وكيف تخليت عنه !

فتحي : أوه ... هذه قصة طويلة !

هشام : قلها مختصرة ، بالله عليك !

فتحي : كل ما في الامر اني جعت ذات يـوم ، فسرقت . وحين شبعت وجدت ان السرقة لذيذة .. لذيذة مثل الطعام الذي يأكـله الجائع ! (يضحكون) .

نزيـه : ولكنك لم تقل لماذا جعت ، فتحي ؟

فتحي : كنت أعمل في مصنـع صغير للحلويات ، براتب ضئيل جدا . وحين طلبت زيادة في الاجر ، طردني صاحب المصنع . وظللت أسبوعين لا أجد عملا . كان علي أن أعيل أمي . (صمت) لكني أؤكـد لكم اني لم أسرق ولم أنشل يوما الا بداعي الجوع .

الام : هل كانت أمك تعرف انك كنت ...

فتحي : لا . كنت أخفي عنها ذلك .

ليـلى : وما الذي جعلك تتخلى عن عادتك تلك ؟

فتحي (بعد لحظة صمت) : صور عـديدة رأيتها في الجرائد . صور النازحين الجدد بعد عدوان ٥ حزيران . كان بينها خصوصـا صورة أم وطفلها ماتا جوعا لان بيتهما قد سرق منهما . وهناك بيوت أخرى كثيرة قد سرقت ، فتشرد أصحابها أو ماتوا . ثم قلت لنفسي : ان عدوان اسرائيل على الارض العربيـة كان أكبر عملية نشل فـي التاريخ . (صمت) . وبعد ذلك قررت أن أتخلى عن النشل والسرقة ، وأن أنضم الى أولئك الذين صمموا على أن يردوا البيوت لاصحابها ، ويحولوا دون أن يمـوت الاطفال جـوعا ، ودون أن تتشرد الامهات والشيوخ تحت أشعة الشمس المحرقة .

نزيه : أؤكد لك ، ليلى ، ان فتحي يتـولى في مجموعتنا أشق الاعمال وأكثرها مخاطر (صمت) هو الذي وضع العبوة الناسفة عند باب مولد الكهرباء أمس الاول . وهو الذي سارع لنقل واحد مـن رفاقنا الجرحى تحت رصاص العدو ...

ليلى : هل أصيب أحد ؟

نزيه : جرح اثنان ، ولكننا نقلناهما . وهما يعالجان الآن .

هشام : أمضينا يومين رهيبين . ظلوا يطاردوننا خمس ساعـات ليلة أمس الاول ، ويطلقون نيران رشاشاتهم فـي اتجاهنا من غير أن نرد بطلقة واحدة . ثم زرعوا السماء بالمصابيح ، فاختبانا حتى انطفأت .

سعيد : لم أقل لكم ما الذي تذكرته ، ونحن في مخبانا نتفـرج على المصابيح المضاءة في السماء (صمت) تذكرت ليلة أقمنا فيهـا حفلة للاطفال لعبوا فيها ، تحت ضوء المصابيح ، حتى ساعة متأخرة من الليل . لا شك في انها كانت حفلة ...

هشام (مقاطعا) عفوا ، سعيـد (لليلى) لم نبلغك ، ليلى ، ان سعيد زميل لك ، ولكنه من لبنان .

ليلى : حقا ؟ أهلا وسهلا ، اننا نحب لبنان كثيرا !

سعيد : شكرا ، آنسة ليلى . (مستدركا) ولكن نرجو أن تحبوه لاسباب أخرى ، بالاضافة الى الاسباب التقليـدية المعروفة : جـوه ، حرياته ، مصايفه ، هواؤه العـذب ... (لحظة) نريده أن يشـارك مشاركة حقيقيـة في صنع المصير المعربي ..

نزيه (لليلى ، باسما) : .. وهذا سعيد .. يضرب لنا المثـل على ذلك حين ينضم الينا ...

ليلى (لسعيد) : أية مادة كنت تدرّس ؟

سعيد : لم أكن أدرّس مادة بعينها . كان عندي روضة أطفال .

ليلى : هل أغلقتها ؟

سعيد : لا . يديرها الآن أخي الاكبر . (صمت) أقول : فـي تلك الليلة اشتد حنيني لاولئك الاطفـال ، وقارنت بين تلك المصابيح التي أضأناها في الحديقة ليلعب أولادنا على نورها ويمرحوا ويضحكوا، وهذه التي أضاءوها هم ...

الياس (متمما) : ... ليقتلوا ويمرحوا ..

نزيه : نعم . ان حياة أطفالنا ستكون أقسى وأحفل بالاخطار .

سعيد : كان لدي يقين ثابت بأن جيلنا مصاب بكثير من الفسـاد والانحلال . انه كالشجرة التي شاخت وكف نسغها عن بث الحياة فـي عروقها . (صمت) أما جيل أولادنا ، فهو النبتة الفتية التي ستكون ، بالتعهد ، أنقى وأصلب .

ليلى : لكن ، لماذا تخليت عن روضة الاطفال ؟

سعيد : لم أتخل عنها . لكنني لو قعـدت ، بحجة اني أحـاول تربية جيل جديد ، لما تجنبت الاحتقـار . ان علينا ، نحن أيضا ، ان نعطي القدوة لمن يأتي بعدنا .

الام : أليست لك أسرة في لبنان ، بالاضافة الى أخيك ؟

سعيد : مات أبواي منذ سنوات . وأسرتي هي .. أطفال الروضة كلهـم !

الام : سادعو الله أن يردك سالما اليهم . (صمت) .

نزيه : اننا بحاجة الى فنجان قهوة يا أم نزيه !

ليلى (ضاحكة) : متـى تكف عـن مناداتها هكـذا : أم نزيـه ، كأنها ليست أمك أو كأنك لست ابنها !

نزيه : حين أناديها هكذا ، أشعر بمزيد من الرجولة !

الام : الرجولة ! نحن نشكو انك تملك منها أكثر مما ينبغي ! ان المرحوم (تنظر الى الصورة المعلقة) لم يكن أصلب ولا أقسى ، عـلى ما اشتهر به من صلابة وقسوة !

نزيه : لكن جيلنا يحتاج من المعاناة والشدة أكثر مما كان يحتـاج جيل أبي .

ليلى : هذا لا ينفي انه كان جيلا رائدا !

نزيه : نحن نقر انه كان الجيل الرائد ، غير أن هذا لا يعفينا مـن أن نتجاوزه . لا بد لجيلنا من أن يفيد من تجاربه ليكون أقدر عـلى التضحيـة .

الام (بلهجة احتجاج) : أوه .. التضحية ! التضحية ! كفـانا تضحيات يا نزيه ! لقد ضحى أبوكم بنفسه . أليس ظلما أن يتحمـل بيت واحد التضحية بالآباء والابناء ؟ (صمت) كنت سعيدة يا نزيـه أن أراك تتجه في دراستك الى العـلوم الهندسية ، وكنت أرى مـن حسن الطالع انك لم تكن تتعاطى السياسة . وعلى ما عانيته من بعدك

عنا في ألمانيا ، كنت مرتاحة الى ان مستقبلك ...

نزيه (مقاطعا) .. ما كان لمستقبلي يا أم نزيه أن ينقطع عن حاضري .. حين اتجهت الى دراسة الهندسة ، لم يكن في ذهني على الاطلاق أن أتخلى عن الاهتمام بقضايا الوطن (لحظة) كنت أريد أن أرسي هذا الاهتمام على قاعدة صلبة من العلم والتقدم .. ولكن آمال الغد لا تستطيع أن تنفصل عن معطيات الواقع (صمت) كانت العيون الاجنبية التي تنظر الي في البلد الاجنبي تطفح بالحذر والريبة . كانت تعمّق احساسي باللاانتماء والضياع . وكان علي أن أحارب على جبهتين : أن أبني لنفسي ، ولو بالخيال ، عالما ذا حدود وأبعاد يمكنها أن تمنحني شعور الانتماء ، وأن أتحمل مسؤوليتي في آن أقضي على ذلك الحذر وتلك الريبة ، وأن أزرع بدلا منهما في العيون الاجنبية ثقة وايمانا بعدالة قضيتنا . (صمت) ولكن الذي حدث هو انهزيمتنا العسكرية طوحت بكل الابعاد والمنظورات ، فاذا بالحذر ينقلب الى ألوان كثيرة من الاحتقار والكره والسخرية ، واذا بجيل كامل من الشباب يتقلص الى احساس بالخزي والعار لم يكن يملك أن يداريه الا بالتواري في الغرف أو الهرب الى الحقول والغابات حيث يستطيع أن يجتر عذابه ويتمصص ألمه ... كنا نفر من النظرات التي كانت تنطق صامتة بأننا ان كنا ننتمي الى شيء ، فالى تلك الهزيمة التي تنشر الصحف صورها وتذيع الاذاعات أخبارها في اطارات محكمة من السخرية والشتيمة والازدراء ... كنا في العواصم الاجنبية نحن أيضا مهزومين ، بل لعلنا كنا في بعض الضمائر المهزومين الحقيقيين ، المسؤولين عن الهزيمة ، لاننا تركنا أرضنا تسحب من تحت أقدامنا ، لاننا لم نتشبث بها بأيدينا وأصابعنا وأظافرنا .. لاننا عهدنا في الدفاع عنها الى من لا ينتمون لتربتها ، ولا يحسون خفق رمالها . (صمت) وتتحدثين عن مستقبلي يا أم نزيه .. ازاء هذا المستقبل ، كنت بين أن أبقى في البلد الاجنبي ، أتسكع في الشوارع ، وأبتلع الاهانة ، وأميت احساسي بالخمر والنساء والغيبوبة ، وبين أن أعود لاحاول قبل أن أحمل الناس على الثقة بي ، أن أسترد ثقتي بنفسي وبجيلي وبشعبي ..

الام : ولكن ، نزيه ... أمن الضروري أن يشتغل الجميع بالسياسة ؟

نزيه : هذا ليس شغلا بالسياسة يا أم نزيه . انها اليوم قضية أن نكون أو لا نكون .

أم نزيه (كأنها لم تسمع) : ألم يكن من الافضل مثلا أن يتابع هشام دراسة الطب في بيروت ؟

هشام (ضاغطا على أعصابه) : أرجوك ، امراة العم . لقد اخترت أنا أيضا العمل الفدائي بملء ارادتي ..

أم نزيه : ولكننا كنا ننتظر تخرجك في العام القادم حتى يتم ...

ليلى (مقاطعة بصوت عصبي) : أمي ، أرجوك . لا تتحدثي في هذا الامر . انه يعنيني وحدي (تخرج غاضبة) .

أم نزيه : يا ربي ... بت لا أفهم شيئا . انني لا أفهمهم ولا يفهمونني ... عفوكم يا أولادي . لا أستطيع أن أحتمل بعد . ولكن.. ما دمتم لا تريدونني أن أخاف عليكم ، فسأصمت (تنادي) ليلى ، ليلى . لا بأس . عودي يا ليلى . سأمتنع عن هذا الحديث (تعود ليلى خافضة رأسها) .

نزيه (ضاما اليه أمه) : انني أفهمك يا أم نزيه . ولكنني أرجوك أن تفهمي أنت أيضا هموم هذا الجيل .

فتحي (بخبث) لعل السيدة أم نزيه تخاف على هشام الذي كان يعيش ...

هشام (مقاطعا) : عيشة ناعمة مرفهة ... أليس كذلك ؟ أليس هذا ما تريد أن تقوله ؟ ولكن لماذا ؟ (يرتفع صوته) لماذا تريدونني أن أظل مسمرا في ماضي ؟ لماذا تعتقدون انني لا أستطيع أن أتغير ؟ لماذا ترددون أن طالب الطب المرفه سيبقى على طبعه ، مهما حاول ، ومهما رأى ؟...

نزيه : هدىء أعصابك ، هشام . فتحي لا يريد الا المزاح ..

هشام : لا .. ليس هذا مزاحا . انه لا ينقطع عن تعييري بالماضي (يلتفت الى فتحي) هذه الاصابع (يفتح يديه) ليست في خشونة أصابعك . ولكنها مع ذلك تلطخت بالدم الحقيقي ، لامست حروق النابالم على أجسام الاطفال الطرية ، احترقت بلهيب تلك الحروق .. كنت طوال تلك الليالي أحس عليها نار الحروق .. وهي حتى هذه اللحظة ترتعش ! (صمت) ألا تعتقد ، فتحي ، انني في تلك الايام الرهيبة ، نسيت كل ألوان الرفاهية ، ان طالب الطب المرفه خرج يعمّد حياته بفظائع لم تعرفوها أنتم ، خرج يعيش قبل الاوان وجه الحياة الفظيع كأنه انتقام من ماضيه ، هذا الذي تعيرونه به ...

فتحي (باسما) : حسنا ، حسنا . لقد نجحت في اثارتك . أتعرف لماذا ؟ انني أزداد اعجابا بك حين تثور !

نزيه : أرجو ألا نعود الى اختلاق مثل هذا الجو . اننا هنا جماعة واحدة . لقد نذرنا أنفسنا لعمل واحد ، على ما بيننا من اختلاف . ان أمامنا أياما قاسية . فلا ينبغي أن نواجهها وبيننا نزاعات ..

سعيد : ليست هذه بالنزاعات ، نزيه . انها لا تؤثر على هدفنا المشترك ، بل هي دليل حيوية وتميز في الشخصية .

الام : نزيه .. هل حدثت أخاك زياد بما رجوته منك ؟

نزيه : انني أراك قلقة عليه أكثر مما ينبغي يا أم نزيه .

الام : رجوته أكثر من مرة أن يظل منشغلا بدرسه .. ولكن ...

نزيه : وبم أجاب ؟

ليلى : انه لا يجيب بشيء .

نزيه : ان زياد فتى صغير .

الام : ألا ترى يا ابني انه يكبر بسرعة ؟ انه شديد الاهتمام بتلك الامور ...

ليلى : هذا طبيعي يا أمي . انك دائما تحدثيننا عن هذا البيت ، ورب هذا البيت ، وتاريخ هذا البيت ... فهل تتصورين ان بامكان زياد أن ينقطع عن جذوره ، حتى لو أراد ذلك ؟

نزيه : لا تخافي يا أم نزيه . ليس من خطر عليه .. انه بالفعل لا يزال صغيرا .

الام : آوه ، صغير ، صغير ... لا أسمع الا هذا عنه ، وقلبي يحدثني بغير ذلك . لماذا اذن تراه حريصا هذا الحرص على لقائكم ومتابعة أنبائكم ؟ انه ينتظر عودتك يا ابني بلهفة تفوق لهفتي .

نزيه : انا أخوه الاكبر ، ومن حقه أن يخاف علي .

الام : ولكن ... هل نظرت في عينيه هذه الايام ؟

نزيه : ماذا تقصدين ؟

الام : ان فيهما بريقا جديدا لا أعهده . بريقا كنت أرى مثله في عيني أبيه حين كان يودعني ليخرج برفقة اخوانه الى معركة مع اليهود لم نكن نعرف أيعود منها سالما أم لا يعود . بريق من يريد أن يصبح رجـلا !

ليلى : أمي ، كل الصغار يطمحون أن يصبحوا كبارا !

الام : أوه ، ليلى .. دعينا من نظرياتك التربوية ! (تنهض) سأعد لكم القهوة (ملتفتة الى نزيه) ولكن عدني يا حبيبي أن تقنع أخاك بالانصراف الى درسه .

نزيه : حسنا . سأحدثه ولتسلم يداك مسبقا على القهوة . أريد ان أستبقي منها على لساني نكهة أصابعك يا أم نزيه (ينحني فيقبل أناملها فتقبل هي رأسه ثم تخرج) أسبوع لم نذق فيه فنجان قهوة (بلهجة من يتنبه) أرجو ألا ننسى أنفسنا أيها الرفاق . ينبغي ألا نطيل البقاء هنا . لا بد أن يطوق العدو المنطقة بعد الكمين الذي نصبناه عند الفجر .

ليلى : هل قتلتم أحدا ؟

نزيه : بالطبع . رأينا ثلاثة من جنودهم يسقطون داخل سيارة الجيب .

فتحي (مشيرا الى الياس) : كان هو الذي أصاب اثنين منهم .

نزيه : ان الياس هو أمهرنا في التصويب !

سعيد : هذا طبيعي ممن يتدرب على الرماية منذ كان في الخامسة عشرة ، منذ رأى أباه يصفع !

الياس : ألا تعجبون اذا قلت لكم اني رأيت في وجه الجندي الاول الذي أطلقت عليه النار ملامح من وجه ذلك اليهودي الذي صفع أبي ؟ أقسم لكم بذلك ! كانه هو ، أو كانه ابنه . لست أدري كيف تذكرته ، بعد عشرين عاما . لقد تمثلتني ، وأنا في المكمن ، صبيا في الخامسة عشرة ، ينظر الى أبيه وهو يتلقى صفعة ذلك اليهودي الذي انبثق في أرض بيارتنا ، فلا يفعل شيئا الا أن يبكي ، ثم يستسلم ليد أبيه ، فيسيران ذليلين ، يطردهما اليهودي بالصراخ والشتائم ويهددهما بالقتل . وفجر اليوم ، كان ذلك الصبي هو الذي يصوّب البندقية ويطلق النار على رأس جندي يشبه ذلك اليهودي ، ويقول لنفسه انه الآن يرد صفعة أبيه رصاصة . خذها يا ابن اللئيمة ، في رأسك ، بين عينيك ! واذ سقط الجندي ، أحسست كأن يدا تربت على كتفي ، كأنها يد أبي . وأطلقت النار على الجندي الثاني ، بينما كان فتحي يصيب جنديا ثالثا ، قبل أن تتمكن سيارة الجيب من الفرار .

سعيد : أما أنا ، فلم تتركا لي أحدا أصيبه ! (يضحكون) .

الياس (متمما) : وحين اختفت السيارة ، أحسست بسكينة عجيبة تهبط علي ، وفجأة انبعثت في أنفي رائحة الارض . رائحة غريبة كانت تملأ بيارتنا ، وكنت من قبل أعجز دائما عن تذكرها ... وانثالت على عيني صور البيت والحقل والساقية والبئر وشجر الزيتون والبرتقال ، فأسبلت جفوني كأني أود أن أحتفظ بهذه الصور الى الابد .

ليلى : انها صور تعمر خيالات مئات الالوف من الذين نزحوا من أرضهم ..

سعيد : ولكنها تنتمي الى ذلك النوع من الاحلام التي لا يمكن الا أن تتحقق ، لانها مشدودة الى جذور الارض ، منبثقة من أغصان الشجر ، ممزوجة بعبير الليمون .

فتحي (ضاحكا) : أخشى أن ينسينا الشعر قسوة الواقع ! (لحظة) هل ترون أن نخرج الآن ؟

هشام : نشرب القهوة ثم نخرج .

نزيه (لليلى) ليلى ، قبل أن تعود أم نزيه ، ألا تعتقدين انها على حق بشأن زياد ؟ بدأ يقلقني أنا أيضا ، وان كنت أحاول أن أخفي ذلك .

ليلى : الحقيقة انني أحاول عبثا اخراجه من صمته . انه في غيابكم يصاب بالخرس . لا يوجه الي كلمة ، كأنني لست أخته . أو كأنني لست تلك المخلوقة التي تتحرق الى أي انسان تحدثه في هذا الفراغ الذي تخلّفه حين تغادر المنزل . يصمت ويصمت كأنه في غيبوبة ، كأنه معكم ، يرافقكم في حركاتكم وتنقلاتكم ، يقطع معكم الفيافي والاودية ، يتربص ويكمن ويحبس أنفاسه ويقذف المتفجرة ويضع القنبلة الموقوتة على الخط الحديدي . يصمت كأنه عازم على ألا يتكلم بعد أبدا ... وهو يقضي وقته كله في القراءة ، لا في كتبه المدرسية ، بل في تاريخ القضية وتطوراتها .

هشام : أما أنا ، فقد حدثني منذ دقائق .

نزيه : متى ، وماذا قال ؟

هشام : دخلت عليه غرفته دون أن تلحظوا غيابي . كل ما قاله انه يريد أن ...

(فجأة يطرق الباب طرقا عنيفا ، ويرتفع من خلفه صوت يقول : « افتحوا فورا والا كسرنا الباب » . يشير نزيه الى رفاقه ، وينسحب معهم بسرعة الى غرفة النوم اليمنى . تبادر ليلى الى لف الصحون والاطباق بالخوان المبسوط على الارض وتحمله الى المطبخ . يطرق الباب مجددا طرقات أعنف ، ويرتفع الصوت مهددا هذه المرة بنسف البيت كله . تعود ليلى ويبدو عليها التردد وهي تنظر الى باب المطبخ ، حيث كانت أمها قد دخلت ، وباب غرفة النوم اليمنى الذي أغلقه نزيه خلفه . ثم تتقدم برباطة جأش فتفتح الباب الخارجي . يبرز ضابط اسرائيلي ، والى جانبه أربعة جنود اسرائيليين والجميع شاهرون رشاشاتهم . تخرج الام مذعورة من المطبخ) .

المشهد الثاني

الام ، ليلى ، الضابط الاسرائيلي ، أربعة جنود اسرائيليين

الضابط (شاهرا مسدسه) : لا تأتوا بأية حركة ، والا أطلقنا النار فورا (يجيل نظره في القاعة) في هذا البيت واحد من المخربين . اذا لم يستسلم على التو ، نسفنا البيت بمن فيه !

الام (بصوت مرتجف) : ليس عندنا ..

الضابط (بلهجة سريعة) : لا فائدة من الانكار ، نحن على يقين من ان مخربا موجود في هذا البيت !

الام (بصوت يزداد ارتجافا) : أؤكد لكم ...

ليلى (مقاطعة ، كأنها اتخذت قرارا حاسما) : اسمعي يا أمي .. لا فائدة من الانكار حقا . (للضابط) لحظات أيها الضابط . سأدخل وأقنعه بالاستسلام . (تنتقل نحو باب غرفة النوم اليمنى) .

الام (صارخة) : ليلى ...

ليلى (ملتفتة الى أمها ، ناظرة اليها نظرة صارمة) : أمي !

الضابط : لا تحاولوا أية مناورة . ان كتيبة كاملة من قواتنا تحيط بالمنطقة .. ولن يصعب علينا أن ...

(ينفتح فجأة باب الغرفة اليمنى ، قبل أن تبلغه ليلى ، ويبرز على عتبته زياد ، رافعا ذراعيه علامة الاستسلام ، حاملا باحداهما بندقية حربية) .

المشهد الثالث

الام ، ليلى ، الضابط الاسرائيلي ، أربعة جنود اسرائيليين ، زياد

زياد : انني أستسلم !

الام (صارخة) : زياد .. ابني .. انه ولدي ، وليس هو ..

ليلى وزياد (مقاطعين معا) : أمي !

ليلى : بلى يا أمي . لا فائدة من ... (تختلس النظر الى باب الغرفة اليمنى)

زياد (للضابط) : لا أريد أن أقوم هنا بمعركة . ان حياة أمي وأختي وبيتهما أعز علي من حريتي .

الضابط (يشير الى جنديين فيتقدمان ويمسكان بزياد ، بينما يأخذ جندي ثالث بندقيته) : ماذا ؟ تمارس التخريب وأنت في هذه السن ؟ (يجس ذراعه بأصابعه) أنت ما تزال رخص العود ... لم يبق عندكم رجال ؟ (تنفرج أساريره وينفجر ضاحكا) ومتى كان عندكم رجال ؟ يصمت لحظة ثم يلتفت فجأة الى ليلى) ليس عندكم الا نساء ، نساء جميلات أحيانا ! (يدنو من ليلى فتتراجع ، فيزداد منها قربا) هل أخيفك يا .. جميلتي ؟ (تصرخ الام وهي تنهار على كرسي قريب) .

زياد (محاولا أن يتخلص من قبضة الجنديين) : دعها وشأنها ! أتيتم تطلبونني ، فخذوني . ولنتركهما في أمان !

الضابط : حسنا ، حسنا ، لا يأخذكم الذعر ! قصدت الى المزاح ، فليس لدينا الآن وقت للغزل ! (مستدركا) لعل ذلك سيأتي فيما بعد ! (بلهجة جادة) حسنا فعلت باستسلامك . معنا جميع معدات النسف . غير انني لم أكن أتصور أن يكون المخرب الخطير الذي تتحدث عنه تقاريرنا هو هذا الفتى الذي لا يتجاوز ... قل لي : كم هي سنك ؟

زياد : لست طفلا الى الحد الذي تظن . انني في السابعة عشرة .

الضابط : أكاد لا أصدق ذلك .. متى أتيح لك أن تتدرب وتقوم ... بعمليات التخريب تلك ؟ ولكن لا بأس ! ستقوم أجهزتنا بالتحقيق في ذلك ، فيما بعد ...

الام (بلهجة متقطعة) : لم يقم ... بأية ... عملية

الضابط : حسنا .. حسنا ! نسمع هذا من جميع الامهات !

ليلى : حين تقومون بالتحقيق ، تظهر لكم هذه الحقيقة .

الضابط : اذا لم يكن هو المخرب المطلوب هنا ، في هذا البيت ، فأين هو المخرب الحقيقي ؟ أيكون مختبئا في ثقب ما من البيت ؟

ليلى (برباطة جأش) : تفضلوا وانبشوا ثقوب البيت !

الام (مغمضة عينيها وهي مسترخية على الكرسي) : يا الهي !

الضابط (يشير الى جنديين) : أدخلا ففتشا هنا (يومىء الى المطبخ . يدخلان المطبخ ، بينما يخيم الصمت على الجميع ، ويتبادل زياد وليلى نظرة مذعورة خاطفة ، حابسين أنفاسهما . يخرج الجنديان فيومئان برأسهما علامة النفي) حسنا .. أدخلا هنا (يشير الى باب الغرفة اليسرى ، ولكنه يستدرك بسرعة بعد أن نظر في ساعته) : أوه .. عودا ... لقد تأخرنا الآن ، وأمامنا خمسة بيوت أخرى (يتنفس زياد وليلى الصعداء) تكفينا هنا هذه الغنيمة (ينظر الى زياد) وربما كانت لنا عودة (غامزا أحد الجنود) لنحصل على غنيمة أدسم ! (مختلسا النظر الى ليلى) .

الام (ناشجة بالبكاء) : لكنه ولدي ... ليس هو ...

زياد (للضابط) اسمح لي فقط ، قبل أن تأخذوني ، أن أعانق أمي ..

الضابط : لا بأس . أنتم العرب مشهورون بعاطفيتكم !

ليلى : نحن عاطفيون لاننا انسانيون .

الضابط (ملتفتا الى الجنود ، باسما) : ليست صديقتنا جميلة فحسب ، بل هي أيضا فيلسوفة !

ليلى (وكأنها لم تسمعه) : أما أولئك الذين يتنكرون للانسانية ، أولئك الذين يستثيرون عطف الآخرين بالتضليل والاكاذيب ، فانهم ...

الام (بلهجة لاهثة) : ليلى ، حبيبتي .. (تنظر الى زياد)

ليلى (ناظرة بدورها الى زياد) : عفوا ، زياد ! (للضابط بلهجة جافة) انه بين أيديكم . هل تنتظرون شيئا آخر ؟ (يبدو عليها القلق ، ولكنها تمتنع عن اختلاس النظر الى الغرفة اليمنى) .

(زياد يقترب من أمه فيعانقها دون كلام وهي تبكي)

ليلى (معانقة أخاها بسرعة ، مجالدة نفسها) لا بد أن نلتقي قريبا ، زياد .

الضابط (بلهجة سريعة) : هذا غير مستبعد على الاطلاق ! لكنه متوقف عليك أنت بالدرجة الاولى !

ليلى (ترميه بنظرة احتقار ، ثم تلتفت الى أخيها) : لتحرسك عناية الله ، زياد !

الضابط (مشيرا الى الجنود المسكين بزياد ، ثم ملتفتا الى ليلى) : الى اللقاء اذن يا آنسة ... ليلى !

(تسرع ليلى فتصفق باب الخروج خلفهم بقوة وعصبية ، تتوقف قليلا في وسط الحجرة ، متطلعة الى باب الغرفة اليمنى . يرتفع نشيج الام تدريجيا فيما يهتز جسدها . تتجه ليلى الى أمها ، فتتعانقان وتأخذان معا في بكاء شبه صامت .

تمر دقيقتان ، ثم تسمع جلبة داخل الغرفة اليمنى ، وأصوات مكتومة . ثم يبرز هشام على الباب يمسك باحدى ذراعيه نزيه ، وبالاخرى فتحي ، وخلفهم الياس وسعيد .)

المشهد الرابع

الام ، ليلى ، نزيه ، هشام ، فتحي ، الياس ، سعيد .

(يحاول هشام أن يتخلص من نزيه وفتحي اللذين يمسكانه من ذراعيه ، ولكنه عبثا يحاول . تمضي لحظة صمت) .

هشام (لليلى) : كم كان عددهم ؟

ليلى : خمسة . لماذا ؟ ماذا هناك ؟

سعيد : انه يريد أن يخوض معهم معركة . ولو وحيدا .

فتحي : ونحن جميعا غير موافقين .

نزيه : ان قوانا غير متكافئة . ثم أننا لا نريد أن نعرض هذا البيت للدمار . سيعودون لكي ينسفوه ، اذا خضنا معهم أية معركة . سواء أكان النصر حليفنا أم الهزيمة . ولذلك فنحن لا نوافق هشام .

هشام (بنبرة غضب) : ولكن كيف توافقون على أن يأخذوا زياد ، هذا الذي أراد أن يفتديكم بنفسه ، وهو لا يحسن بعد حمل بندقية ؟ أتتركونهم يقتادونه من غير أن تحركوا ساكنا ؟ وما الذي لا يجعلكم تعتقدون انه انما خرج اليهم ، لا لكي يستسلم ، بل لكي يتيح لكم أن تستعدوا للمعركة وتباغتوهم فيما هو يحاورهم ؟ وما يدريكم انه لا يعاني الآن خيبة شديدة من موقفكم ، بل ندما على انه قام بهذه التضحية التي ... لا نستحقها ؟

ليلى : مهلا ، هشام ! لقد استسلم وهو يقول انه لا يريد معركة في البيت ، وان حياة أمه وأخته أعز عليه من حريته .

هشام : يستطيع أن يقول هذا أيضا دون أن يعنيه . ربما كان ذلك من قبيل المحاورة لتخديرهم وتضليلهم ، ريثما نستكمل استعدادنا للهجوم ..

نزيه : ليس هذا هو الفرض الوحيد ، ثم ان ذلك اجتهاد منه ليس من الضروري أن نلتزم به ، اذا صح انه قد خطر له . يجب علينا أن نتدبر عملنا بحكمة ، بروية .

هشام : الحكمة والروية ... كلمتان لا أحب أن تجولا كثيرا في فم الثوار !

نزيه : أنت تخطىء ، هشام ، اذا اعتقدت أن الثوري فوضوي !

هشام : لكن الثوري لا يقبل الاستسلام !

نزيه : هذا يتوقف على المقصود ب « الاستسلام » . (صمت) الظاهر في حركة زياد انها استسلام ، لكننا اذا تعمقنا معناها وجدناها تبلغ من الثورية ذروتها .

فتحي : لعله فكر بأن انقاذ خمسة فدائيين مدربين أشداء ، بينهم أخوه وابن عمه ، يستحق تضحية فتى مثله ...

ليلى : هذا تماما ما خطر لي حين سمعت ذلك الطرق الشديد على الباب ... التمعت هذه الفكرة في ذهني كأنها من ضمير الغيب ، فتوجهت الى الباب لافتحه وأنا مقتنعة بأن زياد سيقبل الفكرة حين أطرحها عليه . لكنه لم ينتظرني . أتى يعلن تسليم نفسه قبل أن أنبس بكلمة واحدة .

الام (بلهجة باكية) : لهفي عليك يا زياد !

نزيه : أم نزيه ، كنت تحدثيننا طويلا عما عانيته مع أبي حين كان في جيش الانقاذ . فلتذكري اننا ، من صمودك ومقاومتك ، سنستمد صمودنا ومقاومتنا ...

الام : صمدت يا نزيه أكثر مما أحتمل .. لا أستطيع أن أراكما تذهبان معا ، أنت وهو ... انني أحس بالانهيار في جسمي وروحي .

نزيه : لا ، أم نزيه . تعلمنا منك الصلابة وقوة النفس . ولن تتخلي عنهما الآن لمجرد انهم أخذوا زياد . أقسم لك بشرف أبي ونضاله أن انقذه وأعيده الى البيت .

الام : ولكنني أخشى أن ... يعذبوه !

هشام (بلهجة سريعة) : هذا ما أخشاه أنا أيضا ! (يحس انه أخطأ حين ينظر الى الام وهي تنتفض) أقصد أخشى أن يضطر الى الافضاء ... ببعض الاسرار .

نزيه : انه لا يعرف شيئا يفضي به .

هشام : لكن هذا لن يمنعهم من أن ...

نزيه (مقاطعا) : كفى هشام . وساوسك في غير محلها . ثم انه قد فات الاوان . لقد ابتعدوا الآن . وسنعرض أنفسنا لاخطار كبيرة اذا أردنا اللحاق بهم .

هشام (بلهجة غضب وأسى معا) : لكن .. كيف نسمح لهم بأخذ زياد ؟

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

بين غربة الصهيوني ومطرقة الفدائي

هذا التراب الغريب المرعب !

بقلم الدكتور شاكر مصطفى

« العرقوب » وتر آشيل نعرفه ... واشيل نفسه قد نعرفه .. انه في الالياذة الاغريقية القديمة ، شيطان الابطال .. ملك الميرميدون ، الذي حملته الآلهة من رجليـــه وهو طفل ، فغطسته في نهر الخلود فلن يموت .. أعداؤه في حصـــار طروادة قاسوا منـــه مر العدوان والرهق ، أما سهامهم فكانت تطيش عنه ، وأما النصال فلم تكن بالغـــة منه شيئا .. وخطر لاعدائه أن يسألوا العرافين والراسخين في العلم والآلهة ماذا يفعلون ؟ فانبئوا ان الالهة حين غطسته في النهر أمسكت به عند قدميه من العرقوب فلم يمسسه هناك ماء الخلود .. هناك اذن مقتله .. وما كان أسهل على خصمه البطـل « باريس » من أن يسدد سهمه المسموم الى ذلك الوتر .. وجندلت الاسطورة ..

بعد حزيران الذي لم ينقض بعد والذي ما زال ـ ولعله سيظـل طويلا ـ يرزح ولا جبل « ثبير » ، في الضمير العربي ، انتصب فجأة في هذا الشرق العربي شبح آشيل ، الشيطان الذي تحميه آلهة الدول الكبرى .. هل انتصب فجأة ؟ (أعيذ العقل السليم أن يحسب ذلك) . الطفولة السياسية فحسب ، ودجل السياسة هما كانا يزينان لنا قبل حزيران انـه غيـر موجود ، وانه الشلو الذي سوف ننتهب فـي مائدة شهية هينة لينة ... فلما انهارت الاشعار وتعملق العدو خارجا كالمارد من قمقم الصياد ، يعربد ويقهقه فوق الجثث والاشلاء ... في المـدن والصحارى والهضاب المحتلة ، وعلى مزق الكرامة الهتيك .. الشعوب وحدها رغم اللطمـــة التي تزيغ البصر ، هي التي أخذت تتلفت سائلة العرافين والعلماء والآلهة عن آشيل وعن وتر آشيل ، وعن العرقـــوب الذي هو المقتل .. ما هذا العدو ؟ وما أبعاد قواه ؟ وكيف حربـــه ؟ هذه الاسئلة مكتوبة بالف شكـــل في كل عين لهفة وحرقة ووعـــدا بالنضال . وأعرف ان هذا الشطر الصعب : أعرف عدوك ، يقوم على الصراط بين الدعاية للعدو وبين الدعوة ضده ، يقوم على ذلك الحـد الحرج بين أن يفجر بركان النقمة والثار ، أو أن ينتهي الى مارج مـن اليأس مهين . والانسان ، لانه الانسان ، مسوق لان يصدق ، لا الواقع ولكن ما يريد أن يصدق ، لان يصم الاذن عن قوة العدو ويؤمن بالعكس بما يتمنى أن يكون عليه العدو . ويتهمون العرب بهذا ...

دونو فان صاحب كتـــاب « نضال اسرائيل للبقاء » حول حرب حزيران يقول : « العرب يميلون الميل الشديد الى قبول ما يودون أن يسمعوه والى الغاء التحليـــل النقدي لما يريدون الايمـان به » . ويضرب مثلا على ذلك قصة غرق السفينة « جان دارك » عام ١٩٥٦ وهي ما تزال الى اليوم جارية في البحر ، وقصة ايمان العرب بأن السوفيات سوف يدخلون الحرب معهم ضد اسرائيل ، وأين الســوفيات ؟.. أهم العرب العرب حقا يؤمنون ؟.. كذب ما يفترون .. كل انسان كذلك ! ثم ألم يسهم الاعلام العربي الاعمى في توزيع هذا الحذر والضلال قراطيس وشعارات على الناس ؟

على ان أول امارات السلامة الحقيقية في هـــذه الجموع ، هو موقف الرفض الرائع الذي تقف ، وهو الواقعية الصارمة التي تواجــه بها الدمار .. هو التوق لان تفهم حتى الاعماق ما وراء الجـــراح ، رغم الجراح ...

هكذا نجد الشعب يبحث على طريقته العفوية السليمة عن المخرج الصحيح .. عن الــــوعي الحقيقي .. عن العدو ذلك المجهول ... ويسأل العرافين والعلماء والآلهة ... لقد أدرك بغريزته الهاديـــة ، ما لم يدركوه ، من ان المعرفة هي القوة .

وبعض أسباب الموقف القوي للعدو ، هذا النصر الذي حققـــه ثلاثا متتاليات في عشرين سنة ١٩٤٧ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، انـــه مسح بذلك على متناقضاته ومشاكله الداخلية ، وعلى تمزقه العرقي والفكري واللغوي التاريخي ، فاذا النصر يطوي كل ذلك ، يذيبه في قدر صهيوني واحد : هو المزيد من التماسك ، المزيد من القوة ، والمزيد من التوسع والعــدوان .

ان نقطة الانطلاق في صورة العدو أستعيرها من رواية صهيونية ومن روائية ، من زعماء ذلك القبيل ... موشي دايان الذي تعرفون ، له ابنة : يعيل دايان ، أدركتها حرفة الادب ، واذا كان أبوها .. كان للصهيونية مزارعا وعسكريا وأثريا ، فهي على آثاره أيضا ، ولكنها من الجيل الثالث الذي بدأ يشك في قيم الآباء .. ولها الان أكثر مـــن رواية . في روايتها الثانية « طوبى للخائفين » التي صدرت منذ أربع سنوات ، تروي (يعيل) من خلال عائلة عفري ، المهاجر الصهيوني ، في احدى المستعمرات ، الصورة الخلفية للتكوين الصهيوني القائم في الارض المحتلة اليوم . وفي الرواية بعض ما يروى . اذ يتصدى الاب عفري الذي يمثل الصهيوني الحديث ، مستعمر الارض ، لابنه الفتـى نمرود وقد عرف انه يتردد على الكنيس للصلاة بتأثير يهودي عتيق ، فيقول عفري لابنه في ثورة : في القديم حين كنا في روسيا كان لا بد من اطاعة التلمود ، والمحافظة على الدين . أما الآن فقد أصبح لدينا شيء أهم : الارض ، أنت الآن اسرائيلي ، أما أنا فلم أكن أكثر مـــن يهودي . في روسيا كان اسمي موئيل وقد بدلته حين جئت هنـــا واتخذت اسم عبري . لقد تركت هنـــاك كل ما يتعلق بي من متاع واقارب ووجدت هنا ربا جديدا ، هذا الرب الجديد هو خصب الارض ، هو زهر البرتقال ، الست تشعر بهذا ؟ ويتناول عفري من تراب الارض حفنة يسكبها في كف الصبي ويقول : امسك هذا التراب ، أقبض عليه ، تحسسه ، تذوقه ، هذا هو ربك الوحيد .

هذه الفقرة الكافرة تفتح نافذة على الجذر الاعمق والاخفى فـي الفكر الصهيوني ، تفضح في نسيجه المكون نقطة الغور التي شغلت خط الصهاينة منذ هرتزل الاول حتى دايان الاخير . بن غوريون يعترف بهذا . يعترف ان ما يربط اليهود ليس الدين اليهودي ، فاليهــود الملحدون يهـــود أيضا . وليس العرق ، فهم ليسوا من عرق واحد ، وليس اللغة فهم يجهـــلونها وتكاد تكون لغة متحجرة ، ولكن رؤيـــا « العودة » ، العودة الى أرض الميعاد ..

ويضيف العجوز الذي تعطيه شيبته في عيون اليهود ملامح قضاة اليهود الاولين : « كل الشعوب نشأت وتكونت ملتصقة بأرض معينـــة الا اليهود ... بينما الدين اليهودي هو دين ذو أرض ، هو أول ديـــن ذو أرض معينة .. » .

ما فعلت الصهيونية كي تصل الى هذه الارض قصة تمتد عـلى أعناق سبعين سنة ان لم تكن مائة سنة أيضا : هجرة تزحف ، ومــال يجمع ، ووعود تعطى ، وكلب استعماري وضياع عربي جهول ، وضجيج بكل أفق .. تعرفون بلى تعرفون المأساة ، بعضكم عاشها بأعصابه ودم أهله . الصرخة التي جمدتها الفأس على فم الطفل فما تنطلق ، والامعاء

ألتي رشقتها القنبلة على شجرة تهتز ، والرعب الذي تحجر عينــا مستديرة بوجه العجوز الى الابد ، قبية الهول ، دير ياسين الاشلاء ، صور ما تزال تحرق الاجفان لهبا ، هذا التاريخ ندعه للتاريخ ونحلـل على برودة الجبين ـ ان كان للحمى أن تكون باردة ـ المأســاة ذات الحديـن ...

ثمة في الجانب العدو هـذا المشروع الاقتصادي والسياسي الذي بدأته الصهيونية في مطلع هذا القرن منطلقة فيه من أسطورة ، بـلى مـن اسطورة فحسب ، والذي تحـول الـى واقع يمتـد علـى حوالـي خمسين ألف كيلومتر مربع من الارض العربيــة . انه في الحجم الديموغرافي ، يمزق الاكباد لا من مليون عربي شريد ومليون عربـي محكوم ولكن من مائة مليون عربي أيضا ، بينما يعمل له ومن ورائـه ثلاثة عشر مليونا من اليهود في ٦٧ بلدا على الاقل من بلاد العـالم ، لدعم المليونين ونصف المليون الذين حشروا منهم في أرض فلسطين.. واذا كان النصر والهزيمة انما يقاسان بالنتائج المادية فما من شك في ان الحركة الصهيونية التي بـدأت بهرتزل ونوردا و ثم ركبها وايزمن وبن غوريون وانتهت اخيرا بجيل دايان ورابين قد انتصرت .. « نريد ارضا » كانت هي الصيحة ثم تحولت الى : « نريد هذه الارض » .. ثم صارت « نريد المزيد من الارض » ... ثم اضحت اخيرا « نريد الحدود الطبيعية لارضنا » ... وان صيحة اخرى لتتهيأ منذ الان منادية بالمدى الحيوي ... خطوة خطوة ، تحركوا ... اما نحن فقـد مشيناها ، رجعناها .. مشيناها خطى كتبت علينا .. ومن كتبت عليه خطى مشاها .. حائط المبكى القديم ، ملاحم الاضطهاد واساطيره ، المستعمرة الصهيونية ، خطوط الهجرة التي نصبت من « الدياسبورا » الى اليشوف على كل شراع متـاح ، الصناديق والفوهات ، الملاييـن ومزاريب المال ، الاحتلال ، الغصب الوحشي ، الفؤوس في الجماجم ، الجند المجنون بالدماء وريدا على وريد ... كل ذلك انما وضعـوه لخدمة فكرة واحدة : امتلاك التراب ، جوع الارض كان وراء المـأساة جمعاء . وايزمن قال : « أن بريطانيا انما تعهدت له بتسليـم ارض فلسطين خالية من سكانها العرب » . وبراندس مستشار الـرئيس الاميركي ويلسون ، فسر وعد بلفور بأن القصد منه هو ان يصبح اليهود اكثرية في فلسطين وعلى العرب ان يرحلوا الى الصحراء . «والكونغرس الاميركي طالب عام ١٩٤٢ باجلاء السكان العرب عن فلسطين ان هـم عارضوا في انشاء تلك الدولة المقترحة » . ما حسب احد حسـاب العرب ، كمية مهملة كانوا ، والمد الاستعماري في الاوج .

وقد تم نهب الارض بقرار دولي ، هو قرار التقسيم ٢٩ ـ ١١ ـ ١٩٤٧ ، ثم بالاحتلال الارهابي ١٩٤٨ . كان القرار الاول هـو الاذن الرسمي الذي لم يعط الصهيونية الحق في استخدام قواها العسكرية غير الشرعية فقط في احتلال قاعدة ارضية لليهود ، ولكن زودها ايضا بخريطة معترف بها رسميا من الناحية الدولية على الاقل للاستيـلاء على تلك القاعدة للدولة ... ما اهتمت دولة من تلك الدول التـي صوتت لقرار التقسيم فيما اذا كانت اسرائيل قد قتلت بـرنادوت الوسيط الدولي لانه لم يجد ان من حق اليهود اخذ تلك المساحة ، او فيما اذا كانت اسرائيل قد اغتصبت بالاحتلال مرة ونصف المرة ممـا قرره لها المجمع الدولي ... الناس في شغل عن كل اولئك ومـن ذا الذي قال ان احدا في الدنيا يهتم لكل اولئك ؟

في الازمات المصيرية تبدو هذه العودة للبدهيات نوعا من الكشف المجهول ، ويبدو تثبيت بعض القيم والمفاهيم قريبا من الخطر والشأن من اخراج المعجزة ومن الحاح الخبز اليومي . بلى .. اكرر ان الارض هي القضية ، وهي رهان النصر ، هل فيكم من قرأ البيان الذي اعلـن قيام اسرائيل منذ احدى وعشرين سنة ؟ الكلمة الاولى فيه تبدأ هكـذا « ارض اسرائيل هي مهد الشعب اليهودي ... » انه يتألف من تسـع عشرة فقرة ، ثلاث منها فقطلا تتحدث عن تلـك الارض ، الزعمـاء الصهيونيون الثمانية والثلاثون الذين وقعوا البيان ما شغلهم في ست عشرة فقرة منه الا حديث الارض ... « الرب الجديد » الذي وجدوه اخيرا ...

في نطاق الارض ، نطاق اغتصابها ، والاحتفاظ بها ، ثم التحـرك للمزيد منها ، يقوم هذا الواقع الاسرائيلي القائم اليوم . ويقوم علـى اساس خطتين كلاهما خطة خسف وعدوان : خطة تضرب اعمق الجذور واصلبها في الذي تم ابتلاعه من التراب الغريب ، وخطة اخرى تمـد الاطماع بالخطط والنظريات في الوقت نفسه ، لوجبة الغد . أرأيت افعى البوا الضخمة حين تقع على غزال أو صيد سمين كيف تبتلعـه ابتلاعا على المفاجأة والسرعة فيتكور في جسمها الافعواني ، وتهـدأ ، وتهدأ تنام بعض الوقت ريثما تتمثله ، اما عيناها فتظلان مفتوحتيـن في ترقب الصيد الاخر للغد ؟ ...

في الخطة الاولى : الهدف هو التغلغل العمقي فـي الارض . الارتباط الحميمي بها شاقوليا ، تثبيت القدم في التراب حتى اخفى اغوار التراب ، انهم لا يريدون ارضا فقط ، يريدون وطنا (هاآرتس) ، يريدون الغاء (المنفى = الدياسبورا) بخلق اليشوف الاخير (الوطن القومي) ، يريدون تحويل اليهودي التائه الى يهودي مستقر، اليهودي القديم الضائع ، يجب ان ينتهي ، ويبدأ اليهودي المواطن . كل جهدهم انما ينصب في هذين القطبين المتكاملين : نقل الهوية اليهودية الـى الارض ، ودمج اليهود بالمقابل في هذه الارض .

من خلال هذه الاشعة ، أشعة الارض والانغراس فيها ، اشعـة الحاجة والاطماع الارضية ، يتكشف الهيكل المكون للعدوان الصهيوني وتفهم فيه النسج والاخلاط وعقد الاعصاب ومرأى الدمـاء ، والقـوى المحركة . ولعلنا لا ننسى ان ثمة ثلاثة عشر مليون يهودي ينتظرون نجاح التجربة الصهيونية ليرثوا منا هذه الارض وما عليها .

ان التكتيك الصهيوني للثبات في الارض قد رسمه منذ خمـس وسبعين سنة ذلك الصهيوني الاول هرتزل قال : سوف نسير الـى ارض الميعاد حاملين شعار العمل ، وهكذا كان . بن غوريون بـدوره كان يقول باستمرار ان العمل يشكل الحق الطبيعي للملكية . اذن فيجب توسيع العمل الى ابعد مدى اقتصادي . فما حدود هذا العمل الصهيوني ؟ وكيف يبرز في الارض المحتلة ؟ ما هي الاسس التي تجعله ناجحا ؟ وكيف ينظم هذا المشروع الاسرائيلي من الداخل ؟

لنترك التنظيم السياسي لاسرائيل ، انه الواجهة التي تروغ . العمل الصهيوني الحقيقي يستخدمها ستارة مسرح :

رئيس الدولة الذي لا سلطة له ـ الدستور الذي لم يوضع بعـد لانهم لا يستطيعون الاتفاق عليه ـ الكنيست ذو المائة والعشرين عضوا بعدد ما كان في التاريخ الاقدم مجلس اليهود . ـ الانتخابات المباشرة على اساس القائمة الحزبية لا الترشيح الفردي والتي تجري كل اربع سنوات . والاحزاب ... من اليمين الديني القومي الذي يحتـل ١١ مقعدا في الكنيست ويمثله آغودات اسرائيل ، وعمال آغودات . الى اليمين الصهيوني الذي يشكله حزبا الاحرار وحيروت ولهما ٣١مقعدا، ثم الى الوسط الاشتراكي الذي يتركز فيه حزب الماباي ذو الـ ٤٥مقعدا وهو اقوى الاحزاب وفيه معظم من نعرف من رجال الحكـم القدامى والجيش . وبجانبه الحزب الذي شقه بن غوريون من ضلع الماباي فنال عشرة مقاعد : حزب رافي . ثم الى احزاب اليسار : المابام الاشتراكي اليساري ذو الثمانية مقاعد واخيرا الماكي الشيوعيون من تقليديين هم جماعة ماير فيلنر ـ حبيبي ، ومن منشقين جماعـة موشيه شنيه وميكونيس ولهم جميعا اربعة نواب بينهم عربي واحد .. والنـواب العرب ... بلى النواب العرب فهناك منهم اربعة والشيوعي خامسهم..

هذا التكوين السياسي ندعه .. ثمة وراء صورة الحكم ما هـو اكثر شأنا ، ثمة ثلاث ركائز : التنظيم الاقتصادي والاساس العلمي ـ والتكوين العسكري . اما التنظيم الاقتصادي لاسرائيل فتنظيم عجيب غريب يسمونه احيانا اقتصاد الغرفة الزجاجية ، ومن ابرز ميزات هذا الاقتصاد انه يزدري بكل قاعدة اقتصادية ، يحتقر ويتحدى كل خبرة وكل منطق متعارف عليه ... ثم انه اقتصاد فريد ، ما من اقتصاد في الدنيا يشبهه في التكوين والموازين والاهداف والنتائج . ثم انه رغم العنوان الاشتراكي العريض الذي يحمله ، اقتصاد رأسمالي الاشتراكية

ـ التتمة على الصفحة ١٢٤ ـ

الإنسان والأرض والموت ...

قصة بقلم سليمان فياض

ـ من التراب جئنا ، والى التراب نعود .

قالها عطية مازحا ، وضحكت مع ابتسامته سن امامية بارزة ، في جانب فمه . وتألق وجهه ببشر ساحر ، قد يكون آخر عهده بالدنيا . ونزل عطية الى حفرته ، واقعى مسندا ظهره الى جدارها الشمالي ، وفي يده قنبلة لاصقة ، اسندها الى ركبته ، وفي اليد الاخرى غابة مجوفة ، لا يزيد طولها عن اربع عقد . على رأسه كانت الخوذة الحديدية مشدودة الحزام أسفل ذقنه . حول عنقه كان منديل من « الموسلين » الاحمر ، معقود الطرف عند نحره . وتذكرت ، ربما لآخر مرة ، عينيه الضاحكتين دائما ، حتى في اللحظة التي يصحو فيها لتوه من نوم ثقيل .

بدأنا نغطي حفرته قرب السطح ، بأغصان رفيعة متجاورة ، جئنا بها معنا في سيارة ، من شجيرات برتقال وليمون . وتركنا الغابة المجوفة تطل من بينها ، بمقدار أصبع ، على سطح الارض . ومن اوراق البرتقال والليمون صنعنا سقفا آخر فوق الاغصان كسوناها بطبقة من الرمال . وتتابعنا في حفرنا تحت الشمس ، على طريق ممتد ، عند نهاية مجموعة من الهضبات . طريق ينفسح بعد أمتار قليلة من حفرة عطية ، على منبسط رملي كالميدان ، تتلوه مجموعة تالية من الهضاب .

وجاء دوري . شددت منديلي حول عنقي . واحكمت وثاق خوذتي الرصاصية ، وسترتي الطويلة الكمين ، وامسكت بيد كامل ، وأنا أنزل الى حفرتي الحادية عشرة . كانت القنبلة ثقيلة في يدي ، وحياتي ستصبح لمدة تزيد على نصف ساعة ، معلقة بهذه الغابة المجوفة في يدي الاخرى . ودرت حول نفسي ، رأينا الى السماء ، والتلال ، والافق المتعرج . وحدقت لحظة خاطفة في قرص الشمس المتوهج . لشدة الضوء تصبح الرؤية ظلاما . واقعيت مترنحا من صدمة الضوء في عيني ، مسندا ظهري الى الجدار الشمالي بحفرتي . اسندت القنبلة اللاصقة بيدي على ركبتي . وابتسمت للرفاق ، فابتسموا لي . سيظلون قريبا في الهضاب المحيطة بالسهل الرملي . ووعيت في لحظة، مع وجوه الرفاق ، احساسا بأن الحرب ذاتها تصبح عملا يوميا عاديا ، ورتيبا ، وغير مزعج ، حتى تأتي هذه اللحظات الخاطفة . عندما نسمع صوت انفجار ، وتخطف عيوننا بوهج الضوء ، وعاصفة الرمال والدخان. نفس اللحظة الخاطفة التي نصدم فيها بحائط يسقط تحت عيوننا ، او سيارة توشك في ومضة ان تدهمنا . ذات الاحساس عشته ، لاول مرة، حين حلقت في السماء ، في ظهيرة كهذه ، طائرة اسرائيلية ، انحدرنا تحتها سراعا ، الى شبكة من الخنادق ، في معسكر التدريب . ساعتها ، رفعت ساقي المدفع الرشاش فوق رأسي ، بساعدي . ورحنا ننتظر ان تهبط الطائرة مسرعة ، لنقصف صدرها وذيلها وجناحيها بالطلقات . واخذت اضحك ، كأن لعبة ما نمارسها الآن بشعور مغامر . لكن الطائرة لم تهبط . ظلت تحوم فوقنا . وقدرنا انها تقوم بتصوير المعسكر . واخذنا نراقب ، بخيبة أمل ، طلقات مدفعية بعيدة لجيشنا ، تحاول اصطيادها ، ثم تنفجر الطلقات بعيدا ، تاركة ، حول الطائرة ، كرات هلامية من دخان رمادي داكن ، ينبدد مع الهواء في ثوان معدودة .

قلت لدائرة الوجوه من حولي :

ـ وداعا .

وابتسموا لي ، وقال كامل :

ـ بل ، الى اللقاء .

ـ من يدري ؟

ـ ستخرج حيا .

قالها كامل مؤكدا ، دون ان يبتسم . واضاف :

ـ سوف ترى . فقط . لا تنس شيئا .

ـ لن انسى . دوري . الدبابة الحادية عشرة .

ـ ضع الغابة في فمك الآن .. اجعلها في وضع مائل ، حتى لا تضايقك ، هكذا .

وامال كامل الغابة في فمي ، واسندها بيده ، والرفاق يضعون اغصان البرتقال والليمون الرفيعة ، قريبا من حافة الحفرة . وراحت دائرة الضوء تتقاطع بالظلال في حفرتي الصغيرة ، على ثيابي ، وقاع الحفرة ، وجدارها الدائري . وأرحت ظهري جيدا الى جدار الحفرة . ولاحظت ان قلبي قد بدأ يدق بشدة في صدري ، ويعلو وجيبه في اذني .

وقال كامل ، وهو يغطي الاغصان بعناية ، بأوراق البرتقال والليمون :

ـ ارفعها في الوسط تماما . في سرة البطن .

وكرر ايضا نفس ما قاله للرفاق العشرة :

ـ ثم .. لا تخرج من حفرتك ابدا ، حتى نأتي اليك .

بدأ الضوء يتلاشى تماما من حفرتي ، والتراب يغطي الاوراق . الآن اصبحت الحفرة قبرا ، وعلي ان اواجه الملكين الموكلين بي . ملك الدفاع ، وملك الاتهام . ملك الحسنات ، وملك السيئات : من أنت يا عبد الله ؟ ما اسمك ؟ وما دينك ؟ وماذا فعلت في دنياك ؟.. وسمعت صوت اللحاد يخاطبني ، بذات الصوت الذي خاطب به جدي : يا عبد الله . اذا جاءك الملكان ، وسألاك ما اسمك وما دينك ، فقل لهما ... سأقول : انني اعيش رجلا . اسلم نفسي للحياة والموت معا . اعانق بوجودي دورة الحياة والموت . ذلك ما تفعله الشجرة حيال الضوء والتربة والرياح . ما يفعله الطير والنبات والحيوان . لا يتردد القط البري في الغابة عن مواجهة النمر الكاسر وهو لا يعلم ما نتيجة الصراع.

اختفت كل ومضة ضوء من حفرتي . اخذت انصت للدبيب الذي يبتعد ، مع الاقدام ، وعجلات العربات ، وساد الصمت . صمت العمق الراكد ، وقلب الارض يدق في قلبي . ثمة طنين لضغط منتفخ مكتوم في رأسي . سيكون مع الملكين مقرعتان . اذا كنت مذنبا سيضربانني بهما معا الى يوم الدين . سأغوص حتى الاعماق الى مركز الارض ، ثم اطفو اليهما ليضرباني من جديد . ووجدت نفسي اضحك في نفسي . موتي هو قيامتي وساعة ديني . يا له من خيال بدائي لعالم العدم والسكون . النصر او الشهادة . أعداؤنا يعتبرون قتلاهم ايضا شهداء . اذن : النصر او الموت . هذا افضل ، واكثر واقعية . ان اعيش لارى النصر ، واعيش في آمن النصر ، او أموت قبل أن يراه الآخرون من قومي . وربما جاء موتي هربا من عار الهزيمة والضياع . هذا هو الهدف الحقيقي من وجودي مقعيا في حفرة ضيقة . بوضع الموت هذا ، في بطن الارض ، أدافع عن حق قومي في كل ذرة من رمالها . صراع البقاء بيني وبينك يا عدوي . الاصلح يبقى ، بل الاقوى ، والاقوى هو الاصلح ليحيا . الاحق بدوام الامتلاك لهذه الارض ، فاواجه الموت برضا من أجلها .

فغمت رائحة الرمال والبرتقال والليمون انفي برائحة عطرية خصبة . خصوبة هذه الحفرة ، كرائحة العجين ، وصفار البيض ، وهذه القطرات التي كنت تستمنيها وحدك معانقا وسادتك في ظلام الليل ، بدت

الحفرة اشد حرا وقيظا . مع سخونة الظهر يثور نبع الحياة ، يدغدغ الحواس ، ويسري بنشوة ممضة تحت جلدك . حنين غامر للعناق ، عناق الجسد ، والارض ، والموت . حبات رمال رقيقة . تلتصق بقطرات العرق في وجهي ويدي . وخيط من العرق ينحدر في قناة ظهري باردا ورطبا . وقف الهندي اياما عديدة على ساق واحدة . ونام هندي آخر في قبره سبعين يوما ، دون طعام او شراب . فقط كان قد شرب لتر ماء ، وأكل أوزة كاملة ثم اغلقوا عليه قبره . في الساعة الخامسة والعشرين . الساعة التي لا وجود لها في زمن الليل والنهار . الساعة التي تبدأ مع عناق قلب لطعنة خنجر . ظل الارنب يعصر ماء حياته ، حتى جف تماما . بكل عضلة ونبضة ، حاول أن يخرج من سجنه . لكن سجني أنا صنعته بيدي في هذه الحفرة . عندما تأتي ساعة اللازمن ، لاواجه الموت ، سأكون قد مت فعلا .

أنصت . دقات قلبك تهدأ ، وتخفت ، طنين يعلو في اذنيك بصفير موصول . والظلام والسكون معك ، في هذه الحفرة . حيوات اخرى على مقربة منك ، في خط واحد ، على مسافات متساوية ، في منتصف الطريق الضيق بين الهضبتين . لو مدت غابات من البوص طويلة مجوفة ، بينك وبينهم ، الآن ، لتحدثت اليهم حديث انسان يحتضر . من هذه الغابة ، في فمك ، تجذب الاوكسيجين الى رئتيك . من انفك تخرج الكربون وتملأ به فراغ حفرتك الضيق . لذلك تشعر اللحظة بالدوار ، وتسمع صفيرا في اذنيك . دع هواء الغابة اذن يجدد ، بين حين وآخر ، فضاء جحر . وعلى رئتك أن تنتظر . بعمق وبطء ، فليكن بعد ذلك نهاية العالم . تحت ظلة من الخيش ، في ضوء الشمس المنقط ، دفنت نفسك حتى العنق ، في رمال الجربى ، على شاطىء النهر ، لتخرج الرطوبة مع عرقك ، وتمتصها الرمال . حر الحفرة الآن ، يصهر جسدك ، ينضج روحك ، يمنح نفسك صفاء غير محدود ، لن تنساه ابدا . ذوبانا في الكل . فناء في الارض . من قلب الشمس ، كانت هذه الارض والرمال ، وفي قلبها تتحد الآن . تلتقي بسر الكون والحياة . تلتقي بسر النار ، والتراب ، والماء ، والهواء . من يلتق بالسر العظيم ، مم يفزع اذن او يخاف ؟ ليس هناك من سر آخر ، خارج جوهر العناصر ، في ذرات هذه الرمال . أنصت :

ها هي سيارة الجيب تأتي . تقترب منك . الارض الحنون تنقل اليك هدير محركها . عجلاتها تنهب الارض . لا تبصر في وهج الشمس. وتموج السطح ، اطراف الغابات المتباعدة ، على مسافات منتظمة ، كعقد الاصبع . تمر فوقك . ثم فوق الحفرة العاشرة ، والتاسعة ، تتساقط حواليك حفنات قليلة من الرمال . تبتعد بسائقها ، ورجالها الثلاثة ، وفي أيدي الرشاشات ، وعيونهم على المدى ، مع الافق ، وراء الهضاب. لا شيء يثير ريبتهم .

« الطريق آمن . تقدموا » .

تقدمي ايتها الدبابات ، على اثرنا . ثم .. سكون . سكون . وجيب قلبك يعلو من جديد ، ويسرع . تتحد في الدقات الخفية الموهومة لهذه القنبلة : طق طق . طق طق . طق طق . تنحدر الدبابة الاولى من وهدة رملية ، وتقبل نحوك . كاملة البهاء والجلال في ضوء الشمس . ظلها يتأرجح سائرا معها . صوتها يسبقها على الطريق ، ويعلو هادرا في أذنيك . تمر فوقك . تتساقط مع ضجيجها الصاخب في اذنيك . حفنات جديدة من الرمال . ليس بوسع عجلة منها ، في هذا الطريق الضيق . أن تغوص فجأة في حفرتك . لا . لست لي . ستصافحك كف عطية ، تاركا على حديدك كلمته . كلمته الوحيدة لك : الموت . مري اذن . ثم قفي مع عطية لحظة واحدة ، خاطفة ، لا تكاد ترى أو تسمع . الهدير الثاني ، للدبابة الثانية ...

لا . كفى تخيلا ، وتوقف . لن يأتي شيء كما تتصور الآن . تلك تجربة خاصة لن تعيشها بخيالك . لن تصفها بكلماتك . لكن كل ذرة فيك ستعيها تماما ، حين تأتي . قف هنا . انتظر . عش لحظة الانتظار بلا نأمة ، ولا كلمة . تخشى ان تنام ؟.. اشغل نفسك اذن . لو كانت الاذنان لا تسمعان شيئا . والعينان لا تريان شيئا ، والفم لم يعرف طريق الكلمة ابدا . لظل العقل يفكر . خلية حية تعمل في جسدك . ترسل وتستقبل ، حتى بدون صورة أو كلمة او رقم . تطلب الطعام والماء وراحة النوم . تصنع توترات بهيجة ، واخرى حزينة . فقط سيكون الوجود والكون أنت . الظلمة والضوء . الحرارة والبرودة . والزمن . ما دام هناك فعل ، حتى في داخلك ، فهناك زمن . حركة . وجود حي . لذلك تشعر انك حي الآن ، حتى وانت في الظلمة مغمض العينين ، لا تسمع شيئا سوى صوتك الخاص في اعماقك ، وحركة الذرات الخفية في خلاياك . يقظة قصوى لم تعرفها أبدا في نوم او صحو . مواجهة الموت . مؤكد أنها هي ، تمنحك اللحظة ، ذروة الحياة، ذروة يعرفها كل محتضر . تعرفها الشمعة وهي تلقي آخر قبس باهر من الضوء . ذروة الحياة والنور في لحظة ، تمنحها لك الآن هذه الحفرة. لا . اللحظة التي تحياها الشمعة ، يعيشها المحتضر ، في الومضة الاخيرة .

يقولون . هناك ، على السطح ، فوق حفرتك . اننا بين يدي الموت ، في لحظة الاحتضار هذه . لحظة الحقيقة الوحيدة . نرى كل ما عشناه في ومضة ، شريطا خاطفا من دفق الذكريات . بعده نوصي من نحب . وبين يدينا حصاد من تجارب الساعات والايام والسنين . ولانني أواجه الموت ، في قاع حفرة ، وفي يدي قنبلة ، وثمة دبابة اثر دبابة ستمر فوقك . قد يكون موتك بلا لحظة احتضار . موتا كشعاع يتدفق فجأة ، ويتلاشى في اللحظة نفسها . تنسف معه كل خلاياك المفكرة . خلايا الذكريات ، والضحك ، والبكاء . لحظتي الآن تمتد عبر ثلاثين دقيقة ، في ستين ثانية ، في ستين لحظة . دهر بأكمله من صخب الاعماق في قاع محيط ، من وهج الانفجار في عين الشمس ، من حركة الازل والابد . سكون عامر بالصوت . ظلام دافق بالنور . والحركة كلها في هذا السكون والظلام . وسر الحياة الباهر في هذه الحركة . انى لي اذن بلحظة الشمعة ، في ومضتها الاخيرة ؟ لكنك مع ذلك ، تعيش لحظات المحتضرين ، عديد من المحتضرين ، لا لحظة واحدة . تعيشها هنا ، في حفرة ، في قبر مجوف من الرمال ، تقضي فيه وحيدا، كسجين في العصور الوسطى ، ودقات الزمن في حناياك أقوى واطول ما تكون ، على الارض ظل شجرة تتمايل في النسمة . فراشة تمرق في الضوء . نهار تتألق فيه الشمس . ليل توصوص فيه النجوم وتومض. عصفورة ملونة تشقشق . أشياء واحاسيس تملأ فراغ الزمن . هنا الكلمة ومضة . الذكريات ايضا ومضة . حياة بأسرها من الواقع والخيال لا تملأ فراغ الزمن . الزمن ؟ أي زمن ؟ تاريخ الدنيا بدأ معي. وسوف ينتهي أيضا معي ، على الارض يقولون . تصور الفكر أيضا يقول : ان الحياة كانت قبلي . وستكون ايضا بعدي . ثمة تاريخ كان، تشهد عليه الاعمار والموتى . من يولدون ، ومن يموتون . تاريخي الخاص ، وعالم هذه الحفرة ، يقول لي : لا . لا شيء قبل . لا شيء بعد . فعلى الارض كنت جزيرة منفية . وهأنذا ، في باطن الارض ، جزيرة منفية ايضا ، مع الفراغ والظلام . والوجود الذي كنته ، والعدم الذي انحدر اليه . لم ؟ مرارا قلت لنفسك يا رجل : دفاعا عن ارض امدت حياتي ، في جزيرتي الخاصة ، بالكلمة والمعنى ، بالدم ، والضوء، والفكرة .

★★★

في الليل ، سئمنا طول الليل . ونقودنا قد نفدت مع ايام الامتحان . تنادينا عبر الجدران والنوافذ . فرشنا الحارة بالحصر ، وجئنا بالكلوبات ، واقمنا حلقة ذكر ، توافد اليها اهل الحارة : حي . الله حي . حي . الله حي . وانتهزها عبد الرحمن فرصة ، فضاجع ربة البيت (كان زوجها يعمل في مستشفى الامراض السرية) التصق عبد العزيز بعبد الحافظ في عناق يائس ، ورائحة السردين ما تزال تفوح منذ يومين من سوق الثلاثاء القريب . وعبد الغفار ، البقال الشاعر ، ينسج قصيدة . يبحث لابياتها عن كلمات قافية ، على منوال « ظفر » .

مع طلوع النهار ، حملت سلة الغاب على ساعدي . اشتريت تذكرة

سفر ، وجلست بين القضبان انتظر مجيء قطار الدلتا . رأيت بائع الصحف يجري منفعلا ، وسمعته ينادي : الجيوش العربية تدخل فلسطين . فلسطين ؟. مع انني لا اعرف سوى القليل عن فلسطين ، احسست بصدمة . تركت سلتي ، ثم عدت أليها وفي يدي صحيفة . يا للكارثة . الانجليز يرحلون ، واليهود يحتلون البلدة . الهاجانا . الارجون زفاي . خفق شيء في قلبي . أحسست به يبكي . ان يحتلوا الارض ، هذا ممكن . في النهاية سيرحلون . لكن ، أن يطردوا اصحاب الارض منها ، ويبقوا هم ، هذه هي الكارثة . تذكرت غارة التتار الذين احرقوا مكتبة بغداد ، والحملة الصليبية التي راحت تبيد عرب الشام ، وتقيم لها المدن والممالك . وهذه غارة بربرية اخرى . وتذكرت حلقة الذكر ، والليلة الماضية . وشعرت بالعار من كل شيء ، وقشعريرة باردة ، تغلي بالدم ، تسري في الجذور من شعر رأسي .

انتبهت لنفسي . لا أدري متى ولا كيف ركبت قطاري . اشعر بضيق من كل الناس حولي . صعدت الى سطح القطار لاول مرة في حياتي جلست وحدي افكر كثيرا في لا شيء تقريبا . احساس بالمهانة الشخصية يبدد في نفسي كل الكلمات . لكنني كنت موقنا من شيء واحد : اللعنة على الانسان . وجدت نفسي على وشك الانفجار في بكاء هستيري . رحت اعدو فوق عربات القطار ، معه مرة ، وعكسه مرة . توقفت وانا الهث مفزعا من الخوف ، قريبا من كوة الضوء في سقف العربة . أخذت ارقب المزارع ، وعيناي على الارض والاشجار ، التي قد يأتيها اليهود يوما . لم لا . لقد ذهبوا الى هناك عند بيت المقدس . القطار يقترب من « ديرب نجم » . اصطدم عنقي بسلك تليفون . يمتد عبر طريق القطار ، فسقطت اتدحرج على سطحه المنحني . تشبثت يداي في اللحظة الاخيرة بجدار الكوة، فنجوت، ورحت اتحسس عنقي. جلده السلك بلسعة سوط ، تركت أثرا أسود . وتذكرت آية : « لنسفعن بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة » .

***

التقيت مع صديقي سيد . ثلثا القامة هو . اسمر . مستطيل الوجه . حاد الملامح . بارز الوجنات . عيناه الصقريتان تتوثبان ببريق الحيوية والحياة . في السادسة عشرة خرج سيد من الملجأ ، ومعه عمل وهواية . طوال ساعات النهار ، كان يعمل بحماس على نوله الخشبي . ينتج امتارا من اقمشة رخيصة لا يباع اكثرها . الماكينات اليدوية في المدن البعيدة تقف حاجزا بينه وبين السوق . ساعات فراغه بدأت تطول ، يحمل فلاوته الاسود الجميل ، ويأخذ في العزف . يقرأ كتاب « شمس المعارف » ، ويسحرنا بصلاته بالجن . خصوصا « شمهورس » ملك الجن في العالم السفلي . اخته الصبية السمراء العصبية كانت الوسيط العذري البريء بينه وبين شمهورس ، تتشنج ، وتصاب بالصرع ، ويحل في جسدها الصغير شمهورس الضخم المرعب . ثم تفيق ، وتنظر في مرآة تسريحة ، وتخبرنا بصوت شمهورس عما تراه في المرآة . صدقته طويلا ، كان يكذب ، ويدبر مختلف الحيل . لم يقل لي انه يكذب ابدا . لكنني كنت واثقا من كذبه . فجأة . اوقف سيد كل شيء . وتصوف . صوفية رغبة في المغامرة والتجديد كان تصوفه ، قلق ما لم اعلمه ابدا كان يملأ نفسه . أحس بمثله في نفسي . سأم يفوق كل حد ، وعدم رضا ، وحيرة الاشياء تبدو متناقضة ، غير مفهومة . بعناية كان سيد يقرأ الصحف . قال لي مرة :

ـ لم اخلق للنول . احت الفلاوت . اريد ان اكون محاربا . ادافع عن ارض لا املك فيها حجرا .

اخذني سيد معه الى انور . شاب اشقر . عريض الوجه . ازرق العينين كمياه البحر الذي لم أره . الف عمل وعمل كان يجيده انور . عمله الاساسي اصلاح السلام . في اصلاح السلام كان يعمل بمعسكر الانجليز في التل الكبير . كان معروفا باسم انور « التفاكشي » لدى اللصوص وقطاع الطرق الذين يأتون اليه بسلاحهم مع شرطة المركز ، في ظلام الليل . طرده الانجليز من المعسكر لتهريبه السلاح عبر ابوابهم واسلاكهم الشائكة ، وبرغم حراسهم .

ـ ابوه كان يونانيا ، وامه مصرية ، لذلك فذكاؤه بلا حد . انه عبقري .

هكذا قال سيد عن انور . جلست معه ومع سيد . تعارفنا . وجاء مصطفى . غريب الا اذكر منه سوى طوله ونحافته ، وانه يعمل الآن مدربا للجنود ، والطلاب الذين سيصيرون ضباطا ، عرض علينا انور خطة مغامرة رهيبة . اذا كنا لا نذهب الى فلسطين ، فلنذهب الى التل الكبير . العدو واحد . يهود هناك ، وانجليز هنا . كلاهما استعمار . حاولت ان أؤكد لانور ان اليهود اكثر خطرا من الانجليز ، الآن ، وغدا ، على ارضنا . لكن صوتي ضاع في موجة حماسه لمغامرته .

ـ البيت قبل المسجد .

قال انور . قلت :

ـ العكس يمكن ان يكون صحيحا .

ـ ما نعرفه خير مما لا نعرفه ، واولى .

كان الانجليز يقومون في الصباح بأداء الالعاب الرياضية السويدية . يقفون بين الفين وثلاثة آلاف في ساحة فسيحة بالمعسكر . وكان علينا ان نذهب الى المعسكر ، ونلتحق بعمل فيه ، وحين الخروج، نختفي مع مدافع رشاشة . سيدبرها انور ، في احدى المصفحات الواقفة بجوار الساحة . وسوف يكون هو في مقعد السائق . وفي لحظة الصفر يتحرك انور بالمصفحة في قلب الساحة . ونحصد ، انا وسيد ، بالرشاشات ، الجنود الانجليز يمينا ويسارا ، ثم يخرج بنا انور ، مندفعا بالمصفحة في لحظة الذهول من بوابة المعسكر . وعند ترعة الوادي سيكون مصطفى بانتظارنا في سيارة جيب ، سيدبرها أيضا انور . وقال أنور :

ـ مهما كانت النتيجة ، فالموت لا يهم . امام المئات الذين سيقتلون من العدو .

أكان انور ينتقم من الانجليز لطرده ؟ لكن . كيف سيعود للعمل في معسكر طرد منه ؟ ذلك ما يحيرني الآن داخل هذه الحفرة . امتلأنا حماسا للمغامرة ، واحسست اني في لحظة تتويج اودع فيها الدنيا . وانتظرنا ترتيبات انور واوامره . لكن انور لم يفعل شيئا . اصبحنا لا نجده في البيت ، ولا في اي مكان . قدرنا انه يدبر للمغامرة ، ثم نسينا ذلك مع مرور الايام . والقيت في نادي المدينة ، بصوت اجش ، محاضرة عن الخطر اليهودي الاستعماري . وكانت الشوارع مزدحمة بالمارة ، الذين راحوا يتوقفون ، ربما لمجرد صوت الميكروفون .

فجأة . رأيت انور ، في كوخ من الاغصان والاوراق الجافة والقش ، وسط حديقة المدينة ، كان ضامرا جدا ، في وجهه صفرة مسودة . يلبس ثوبا بلديا متسخا على اللحم . وشعر صدره الكث يسد فتحة الثوب ، حتى نقرة النحر في صدره العريض . بجواره كسرات جافة من الخبز اربع كسرات لو ضمت لشكلت دائرة . قال لي :

ـ انني افكر .

ـ في المغامرة ؟

ـ المغامرة ؟ هذه اشياء صغيرة لا تحل المشكلة بضربة معلم .

ـ خسارة .. هيه . فيم تفكر اذن ؟

بعينين زجاجيتين ما كانتا له ، حدق في قائلا :

ـ في الارض ، والناس .

ـ والنتيجة ؟

ـ سأعرف . يقينا سأعرف .

ـ تعرف ماذا ؟

ـ اسمع . انظر : أترى هذا الفقر ؟ هذه البيوت الحقيرة ؟ والشر الذي في نفس الكل ؟

فاجأني انور بما يقول ، فأخذت احدق فيه . واستمع اليه في دهشة :

ـ ليست هناك مشكلة ، لا يمكن الا تحل . المهم ان نستخدم هذا

ـ التتمة على الصفحة ١٠٧ ـ

أدب المقاومة العربية

مؤتمر العامة للنقد

بقلم الدكتور عز الدين اسماعيل

طبقة الجليد التي تطفو على سطح المحيط تحجب حركة الماء وتياراته تحتها ، ولكنها لا تعوقها عن الحركة أو تمنعها من الهدير . والصمت الذي تسمر فيه الكلمات على جدار اللحظة لا يعني ان الكلمات ماتت في النفس ، فكثيرا ما كان الصمت غلافا لما يضطرب في النفس من حركة وهدير . والغيمة التي تحجب وجه السماء لا تمنع الشمس من أن تتوهج ، او النجوم من اللمعان . والظلام الكثيف الذي يحجب الرؤية لا يطمس عين النفس ، فما تزال النفس وراء كل الحجب ترى وتستبصر . واليد قد ترسف في القيد ، وتظل الدماء في عروقها تفور وتمور .

والجليد الذي يطفو على سطوح عقولنا ، والصمت الذي ينعقد على ألسنتنا ، والغمام الذي يحجب وجه الحقيقة عنا ، والظلام الذي تكدس على طريقنا ، والقيد الذي يغل أيدينا ، كل ذلك لم يمنع عقولنا من أن تفكر ، وقلوبنامن ان تشعر ، ونفوسنا من ان ترى وتستبصر ، ودماءنا من ان تثور .

اتراني اتحدث هنا بلسان ادباء المقاومة العربية ؟ هذا مطمح عزيز ، فهم الذين يعيشون التجربة ، ونحن انما نعايشها معهم ومن خلالهم . أننا نحاول ان نراهم ، وان نفهمهم ، وان نتفهم ما يصنعون . لقد ظلوا يحترقون في صمت ، ولكنهم بدأوا يتوهجون ، واخذت اصواتهم تعلو وتدوي في الافاق . وقديما قال سقراط : تحدث حتى اراك ! وهم الآن يتحدثون ، ولعلهم كانوا طوال الوقت يتحدثون،ولكننا لم نرهم الا الان ، او لعلنا بدأنا نراهم ، لان اصواتهم لم تصلنا الا منذ عهد قريب .

اقول اننا بدأنا نراهم أو نحاول رؤيتهم ، ولعلنا كنا من قبل نحس بهم احساسا مبهما . كنا من قبل نعطف عليهم ، وهذا ادنى وادنأ اشكال الرؤية والتواصل ، وقد بدأنا الان نتعاطف معهم ، لانهم استطاعوا ان يقتحموا علينا صمتنا ، ان تقع اصواتهم ، لا مجرد كلماتهم ، في قلوبنا . لقد خدشوا قشرة الثلج ، وثقبوا اذن الصمت، وشدخوا وجه الغمام ، وفجروا في وجه العتمة شلالات نور . لقد صاروا حقيقة واقعة ملموسة .

***

ادباء المقاومة العربية الان امامنا واقع لا يمكن تجاهله ، وادبهم حقيقة لا يمكن اهمالها ، بل نرانا مشدودين الى منطقة جاذبيتهم بنفوذ واقعهم وسحر حقيقتهم . ان جاذبيتهم قوية ، وهي تزداد يوما بعد يوم ، ويتسع مداها في اطراد ، وتأسر اليها منا افواجا بعد افواج . وهم بذلك يشكلون ظاهرة جديدة وفريدة في حياتنا . ولكن يطلب منا بعد ذلك ان نتحدث عنهم ، أو عن ادبهم بالاحرى . وهنا يستشكل الامر . فقد صرنا نحبهم اشخاصا يشكلون ظاهرة جديدة وفريدة في حياتنا . صرنا نقترب منهم حتى نكاد نلامسهم بل نماذجهم ، وصاروا بالنسبة الينا أمثلة حية ، لا شخوصا ، ننظر اليها في اعتزاز ، ونحتضنها في حب . فهل نرانا نستطيع التجرد من كل هذه المشاعر حين يراد منا ان نتحدث عن ادبهم ، ام ان نظرتنا الى ادبهم ستلونها بالضرورة وتؤثر فيها نظرتنا الى واقعهم ؟ اننا قد نكون أميل في لحظة من اللحظات ، او في معظم الوقت ، الى السكوت عن ادبهم خشية احتمال ان تهتز امامنا صورة واقعهم المشرقة ، تلك الصورة التي نود لها ان تكون مشرقة وان تظل مشرقة . ومن ثم تنشأ صعوبة الحديث عن ادبهم ، لان اي حديث موضوعي عن هذا الادب لا يملك الا ان يفصل بين واقعهم من حيثهو صورة فريدة مشرقة ، وبين ادبهم من حيث هو نتاج روحي انساني ينتمي الى النتاج الروحي للانسان عبر الزمن في ماضيه وحاضره ومستقبله . اننا نحبهم ونعانقهم اشخاصا مكافحين ومثلا للنضال ، ولكننا لكي نتحدث عن ادبهم في موضوعية لا بد لنا من ان نقف على بعد معين من هذا الادب ، لا يلغي حبنا بحال من الاحوال ، ولكنه كذلك لا يسمح لهذا الحب أن يطغى على الحقيقة الموضوعية ، أو ان يلون الصورة امامنا بغير الوانها .

وكثيرون ممن يكتبون عن ادب المقاومة العربية لا يعرفون كيف يفصلون بين حبهم لادباء المقاومة وتقديرهم لادبهم ، او لعلهم يعرفون ولكنهم لا يقدرون ، لان الامر ليس سهلا كما قلنا ، بل انه لجد عسير . وهؤلاء انما يعكسون انفعالهم بواقع هؤلاء الادباء على ادبهم ، اي يحكمون على الادب من خلال علاقتهم الروحية بمنشئيه . ولست انكر ان يكون حبنا للاديب معينا لنا في بعض الاحيان على التماس افضل الوسائل « للاقتراب » من ادبه ، ولكننا ما ان خطونا اول الخطوات داخل عالمه الادبي حتى اصبحنا ملكا لهذا العالم وحده وصار هو ملكا لنا .

وقد نتج عن عدم قدرة كثير ممن يتحدثون عن ادب المقاومة على الفصل بين هذا الادب وشخوص مبدعيه من حيث هم « وقائع » لها تقديرها في الميزان الانساني أن غلب على حديثهم طابع الانفعال والخطابية والعبارات التعميمية المجنحة التي تعكس انطباعا اكثر مما تعكس رؤية موضوعية مفصلة . ولست الوم احداً من هؤلاء ، فلست انا نفسي واثقا - رغم اجتهادي في ان اكون موضوعيا - من انني لا افشل في بعض الاحيان من تجريد رؤيتي من اثار انفعالي المسبق . ولهذا أقول ان هناك محاولات نقدية يحاول فيها بعض النقاد انيتجردوا احيانا من اثار انفعالهم ، لكي يروا الشيء من حيث هو ، لا من خلال ارتباطاته العاطفية . وفي ظني ان ادب المقاومة قد تجاوز الان المرحلة التي تقتضي النظر اليه بعين العطف ، وصار يقتضينا البحث عن وسائل التعاطف معه والتماس مبررات هذا التعاطف .

***

يقول الناقد الياس شاكر في دراسة قصيرة له عن شعر محمود درويش وسميح القاسم : « شعر سميح القاسم ومحمود درويش عصي على الدراسة ، لانه شعر يستحيل تفكيكه ووضعه في قوالب جاهزة . ومن حسن الحظ ان الاكاديميين لم يفطنوا حتى الآن الى وضع قائمة بالقواعد التي يجب أن يتمشى عليها شاعر ينتج شعر مقاومة . ولو فعلوا لما صمدت قوالبهم اكثر من الوقت اللازم لولادة قصيدة . ان الشعر يرفض الحواجز ويحطمها ، ومتى كان الشعر الا ليقاوم ؟ »

ولست اود ان اناقش هذه المجموعة من الاحكام تفصيلا ، ولكن يكفيني أن اقول انه ليس هناك شعر هو « عصى » على الدراسة او « يستحيل تفكيكه » ، والا ما كان شعرا . اما وضع الشعر في قوالب جاهزة فعبارة لا محمول لها في المصطلح النقدي ، فليس هدف الدراسة النقدية للشعر أن تضعه في قوالب جاهزة . وكذلك لا أعرف ان مهمة الاكاديميين هي ان يضعوا قائمة بالقواعد التي يجب ان يتمشى عليها شاعر ، وأنا امارس العمل الاكاديمي منذ قرابة عشرين عاما ، فالاكاديميون يعرفون جيدا ان الشعر - كالفن اجمع - يرفض الحواجز ويحطمها .

ولما كان هدفي من هذا المقال لا دراسة ادب المقاومة والحكم عليه، بل تتبع الاسس العامة التي يصدر عنها النقاد في دراستهم لهذا الادب فانني أسمح لنفسي هنا بأن الاحظ رغبة الناقد الفاضل في ان يبقى هذا الادب ـ وعلى وجه التحديد شعر سميح القاسم ومحمود درويش ـ خارج دائرة النظر النقدي ، وكأنه لا يرى سبيلا الى دراسته فضلا عن الحكم عليه . وكأنه يريد ان يقول ان هذا الشعر ظاهرة متفردة ، وانه الى جانب تفرده فوق طاقة البشر .

عبارات هي في الغالب صادرة عن حب لهذين الشاعرين من حيث هما مثالا لواقع مشرق ومشرف ، لا عن « تعاطف موضوعي » ـ وأقصدها ـ مع شعرهما . ولم تكن نتيجة ذلك مجرد سكوت ـ ودعوة الى السكوت ـ عن هذا الشعر ، بل هجوما كذلك على تصورات وهمية لا نصيب لها من الواقع . وعبارة « التعاطف الموضوعي » التي اقصدها تتلخص بعامة ما ينبغي ان يسلكه ناقد أدب المقاومة وشعر المقاومة ، فعند ذلك تكون عاطفته طريقا الى الشعر الذي ينقده ، ثم يكون نقده موضوعيا في اطار هذه العاطفة . ولا أحسبني في حاجة الى مزيد بيان لهذا الاساس العام ، سواء أكان الناقد أكاديميا ! او غير أكاديمي . واظنه من حق النقد على نفسه ان يعرف طبيعة أرضه ، ومنطلقه الذي ينطلق منه . ولنسمِّ ذلك قاعدة اذا شئنا ، او لنسمه مبدأ عاما ، فالناقد يعرف كيف ينطلق من القاعدة او المبدأ لكي يستكشف كذلك عالم ما بعد القاعدة وما وراء المبدأ .

***

وظاهرة اخرى ملحوظة في نقد أدب المقاومة ، اعدها بالغة الخطورة جسيمة الخطر . ومن الصعب على الانسان ان يحسن الظن بها ويعزوها كذلك الى الاندفاع العاطفي في نقد أدب المقاومة ، ذلك الاندفاع الذي هو ظاهرة حضارية أدل ما تكون على تخلف العقلية ومحدودية رؤيتها ، وذلك عندما نقول بملء أشداقنا : « هذا هو الادب ولا أدب مثله ولا أدب سواه ، وهذا هو الشعر وكل ما قاله ويقوله الناس سوى ذلك فساقط في الميزان » . ومع اننا ما زلنا مولعين بهذا الطراز الاثيم من التفكير ، حين نتطرف في الحكم فنرى اشياءنا هي « افضل » الاشياء او « ارذل » الاشياء ، فانني اجد من الصعب علي ان احسن الظن بتلك الظاهرة ، لانني أحس وراءها باصرار الواعي الذي يتدبر ما يصنع.

وهذه الظاهرة ـ في ايجاز ـ تتمثل امامي في محاولة النظر الى أدب المقاومة ، سواء من جانب النقاد او من جانب الادباء انفسهم ، بوصفه بناء مستقلا ومنفصلا عن كل التجارب السابقة في ميدان الابداع . أي أنه أدب ينتمي الى نفسه ، ولا يعرف له جذورا قديمة او حديثة . وهذا خطأ فاحش في حق النظرة العضوية لوحدة الادب وتطوره . فأدب المقاومة لم يولد شيطانيا ، وهو كذلك ليس يتيم الابوين ، بل هو حلقة في سلسلة ممتدة تربط الماضي بالحاضر ، والحاضر بالمستقبل .

وما دمت هنا لا أدرس هذا الادب بل أتابع منطلقات النقاد في دراسته التماسا للاسس السليمة المناسبة فانني اجدني ملزما بأن استعرض اثر تلك النظرة الضيقة الى أدب المقاومة في مناهج نقاده ، مكتفيا في هذا ببعض الامثلة الدالة .

١ ـ يقول توفيق زياد في دراسة له عن ديوان « عاشق من فلسطين » لمحمود درويش : « مهما اعتمد رجل الفكر على تجربته الذاتية الخالصة ، فانها تظل مشوهة ومحدودة . ان الذي يقدر على دمج تجربته الذاتية بالتجربة العامة ، تجربة الجماهير صانعة التاريخ ، هو الذي يصبح قادرا على ان يقدم لها ما زادها الروحي الذي يلائمها على طول الطريق . ولذلك فمن طريق الدمج بين التجربة الذاتية وبين التجربة العامة ، بين القدرة على الاستيعاب ونوعية المادة المستوعبة ، عن طريق هذا الدمج المحكم ، يستطيع الشاعر ورجل الفكر عموما ان يفتح امامه عوالم الابداع ... »

أليس هذا ما كان يردده الدكتور محمد مندور ـ رحمه الله ـ وبألفاظ مشابهة ، وما سجله في كتابه عن « الشعر » حين تحدث عن « الوجدان الفردي » و « الوجدان الجماعي » ؟ ناهيك عما كتبه نقاد آخرون في نفس المعنى قبل مندور وبعده . وهنا نتساءل : أكان مندور وغيره يمهدون بهذا الى الحديث عن أدب المقاومة او شعر المقاومة أم كانوا يتحدثون بذلك وفقا لما أتاحته لهم تجارب الشعراء المحدثين بعامة؟ وحين يردد الشاعر توفيق زياد نفس الفكرة اليوم وينظر اليها على انها منطلق الابداع لدى شعراء المقاومة يكون واحدا من اثنين : اما انه كان منقطعا عن تطور الفكر النقدي العربي طوال العشرين عاما الماضية ، واما أنه يحاول ان يتغافل عن حقيقة ان التفكير النقدي النظري السابق ما زال فيه ما يصلح منطلقا لابداع شعر المقاومة او لتقويمه ، حتى يظن ان ادب المقاومة قد أنشأ بذاته نظريته الخاصة ، وكأنه مبتوت الصلة بكل التجارب العملية والنظرية التي سبقته .

٢ ـ ويقول ناقد آخر « ع. سالم » في مستهل دراسة قصيرة له عن ديوان « دخان البراكين » لسميح القاسم : « الامتزاج بكل حدث ، والتعمق بدراسة نواحيه وجيوبه ، والوعي التام لمسبباته وأبعاده ، هي الوحدة الفكرية التي يتطلبها كل عمل فكري ناضج . والادب الثوري المنطلق ، يتطلب الى جانب الفكر الناضج ، الثوب المعبر بصدق عن الجوهر ، والقادر على اظهار انسانية الافكار الثورية ، واقناعنا بعدالة حقدها المتحرك في أعماق الشعوب والطبقات المضطهدة والمستغلة . وهكذا يكون لدينا الادب القادر على تحطيم كل ما هو غير عادل ، ويساعد المضطهدين على بناء مستقبل أفضل ، ويدفعهم الى النضال من أجل هذا المستقبل الذي ينتظرهم ويسعون اليه . هذا ما أعتقد ـ هو المعيار الذي علينا ان نزن به أدبنا . وانطلاقا من هذا المفهوم ننظر الى الديوان ... » ويحاول الكاتب بعد هذا ، متخذا من هذه الافكار معياره النقدي ، ان يكشف مصداق هذه الافكار في ديوان « دخان البراكين».

ترى لو انه كان يكتب مثلا عن ديوان « النار والكلمات » للبياتي اما كانت هذه الافكار النظرية تجد مصداقا عمليا لها في هذا الديوان كذلك ؟ أريد مرة أخرى ان اقول انه اذا صح انه في القدرة وزن شعر المقاومة في ضوء أفكار نقدية مسبقة ، صلحت وما زالت تصلح ، لوزن الشعر العربي المعاصر ، ما كان منه شعر مقاومة وما لم يكن ، فانه يصبح من التعسف النظر الى هذه الافكار على انها ولدت في احضان شعر المقاومة ، وانها أصلح شيء له ، وانه أصلح شيء لها .

٣ ـ ويقول توفيق زياد ـ وهو في رأيي أنضج شعراء المقاومة ـ في دراسة له عن ديوان « موعد مع المطر » لفوزي عبد الله : « ... وفوزي في هذه القصيدة لم ينجح في اثارة انفعالنا وهز مشاعرنا كما نجح في القصائد التي أشرت اليها ، انك تشعر وأنت تقرأها ان حسنتها الوحيدة هي الاخلاص » . ويقول في نفس الدراسة : « لقد وفق فوزي في قسم من قصائد ديوانه من الناحية الفنية، فقدم لنا قصائد متماسكة مرنة وذات حركة ، واعطانا صورا ناجحة وتراكيب جيدة ، مثل ... »·

وفي الاقتباس الاول تظهر امامنا لغة النقد التقليدية ، مثل اثارة الانفعال وهز المشاعر ... تلك العبارات التي يمكن اطلاقها ـ سلبا او ايجابا ـ على أي عمل شعري . أما اتخاذ مبدأ « الاخلاص » معيارا نقديا ، وعده حسنة للشاعر فمبدأ حديث نسبيا ، كثر استخدامه في سنوات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ للحكم على شعراء لم نسمع عنهم منذ ذلك الحين . وقد ثبت من هذا انه مبدأ ينتمي الى روح العطف الذي ينبغي لكل فنان أصيل ان يرفضه او يسكت عن الابداع .

وفي الاقتباس الثاني نقرأ عبارات التماسك والمرونة والحركة والصور الناجحة والتراكيب الجيدة ، وهي عبارات طال الزمن على استخدامها في المصطلح النقدي ، ولا يمكن ان تكون حركة شعر المقاومة هي التي ولدتها او فرضتها .

ولست أظننا في حاجة الى مزيد من الامثلة لتأكيد محاولة النظر الى أدب المقاومة في اطار أفكار ومصطلحات يراد لها أن تكون جديدة وفريدة في بابها (لكي تؤكد بطريق غير مباشر جدة أدب المقاومة العربي

ـ التتمة على الصفحة ١٣٠ ـ

فدوى طوقان والبحث عن رؤيا جديدة

بقلم الدكتور عبد المحسن طه بدر

(١)

حين تركت الجماهير الفلسطينية العزلاء في الارض المحتلة وجها لوجه أمام الغزاة ، وحيدة في الميدان محاصرة بارهاب العدو وعسفه وضغوطه الاقتصادية ، وحين تخلصت من وهم الخديعة الذي كان يشل فعاليتها وتبنت قضيتها بنفسها ، تفجرت فعاليتها وقدرتها على المقاومة بشكل رائع يعطي درسا لكل دعاة الهزيمة والاستسلام واسطورة العدو الذي لا يقهر ، ويعلمنا موقف جماهيرنا في مقاومتها الباسلة أن أفضل الوسائل لمواجهة قضيتنا المصيرية هو ازالة كل الحواجز أمام الجماهير العربية لتبني قضيتها بنفسها وتنظيمها والالتحام بها لتخوض معركتها بعد أن أثبتت هذه الجماهير في الجزائر وفي الجنوب العربي وكما تثبت كل يوم في الضفة والقطاع انها قادرة على انتزاع النصر من أعتى القوى الاستعمارية المتفوقة عددا وعدة .

وفي الوقت الذي نتمنى فيه تقديرا لبطولة الشعب العربي في فلسطين الذي يتصدى من بنيه أطفال المدارس الابتدائية ، ونساء رفح وبنات غزة لكل « التفوق التكنولوجي » للعدو ، ويواجهونه بالسخرية وبوسائلهم البدائية بل وبأجسادهم أحيانا ، لا نستطيع الا أن نحمل المثقف الفلسطيني والعربي مسؤوليته الكاملة التي يتوجب عليه أن يتحملها ، أما اذا شاء أن يتخلى عن واجبه وأن يحتفظ بجسمه سليما ، فلا أقل من أن يبتعد عن مسير الجماهير وألا يعوقها أو يتطفل عليها ، أو يحقق لنفسه مكاسب زائفة على حسابها .

وحين يكتب عربي خارج الساحة عن أديب عربي على ساحة المعركة وفي مواجهتها وجها لوجه ، فانه يشعر بالحرج وبقدر كبير من الحساسية . فمن حق الثاني أن يقول للاول تمتع بحريتك المجانية كما تشاء ، وسجل عنترياتك كما تريد ، وتحدث عن المسؤولية وسود الصفحات فيما ينبغي للاديب العربي وما لا ينبغي له ، فهل خسرت شيئا ؟ وقد لا يكون موقف كل طرف من الاطراف على هذا القدر من الوضوح ، وذلك لان أرض المعركة لا تقتصر على أرض فلسطين وحدها ، وربما كانت قضية المثقف داخل الارض المحتلة أكثر وضوحا وأقل تعقيدا من المثقف خارج الارض ، ذلك لانه يتبين عدوه بصورة أكثر وضوحا ، وحين يتلقى الطعنة فهو يعرف اليد التي توجهها ، أما المثقف خارج الارض فمعركته أكثر التواء وأقل مباشرة .

ولو كانت القضية قضية أشخاص لاكتفينا بكلمة تشجيع نوجهها لكل مثقف داخل الارض المحتلة وبالشد على يده وباظهار تقديرنا لعمله، ولكن القضية ليست قضية أشخاص بل قضية ثورة وقضية مصير ، وهذا ما يفرض على كل من يدعي أو يزعم انه مثقف أن يضع قضية الذات في مرتبة ثانوية ، وأن يحاول أن يكون أمينا للثورة ـ قدر ما تسمح له امكانياته ـ وذلك بالمصارحة الكاملة حتى لا يقع شعبنا ومسيرته في هوة النظرة المثالية لزعمائه ومثقفيه وحتى لا يتحول احساسه الى احساس بالفجيعة حين يكتشف ان مثله العليا لم تكن مثلا عليا بالقدر الذي تصوره ، وان مثقفيه الذين وضع على رؤوسهم تاج المجد لا يستحقون أكثر من تاج من الشوك !

(٢)

وفي عدد تخصصه مجلة « الآداب » لادب الثورة ، وفي حديث



نتعرض فيه لشاعرة كبيرة كفدوى طوقان يصبح من الضروري أن نتحدث عن ماهية الثورة ، ثم عن مدى العلاقة بين الثورة وبين الادب ، وذلك حتى نكون على يقين من منهجنا وان لم نكن على نفس الدرجة من اليقين بالنسبة لاحكامنا أو لوجهة نظرنا .

حين تدرك الطليعة الواعية في مجتمع من المجتمعات ان نمط العلاقات السائدة في هذا المجتمع على اختلاف مجالاته قد أصبح نمطا باليا يعوق مسيرة هذا المجتمع في سعيه لتحقيق أهدافه تدرك ضرورة تغيير نمط هذه العلاقات على اختلاف مستوياتها من سياسية واجتماعية واقتصادية ، وهي في سعيها لاحداث هذا التغيير تعمد الى تنظيم الجماهير صاحبة المصلحة الحقيقية في التغيير لكي تحقق بها ومعها التغيير الذي تنشده . ولما كانت الطبقة المستفيدة من الوضع القائم غير مستعدة للتنازل عن مكاسبها وامتيازاتها ، لذلك تلجأ الجماهير بقيادة طليعتها الثورية الى العنف ، لازاحة الطبقة المستفيدة من مركز القوة وتمهيد الطريق للتغير المنشود الذي فرض ضرورة الثورة .

والثورة لذلك ليست مجرد رفض ولكنها رفض قيم مهترئة من أجل افساح الطريق أمام قيم أكثر تلبية لحاجات الجماهير ، وليست مجرد عنف ولكن العنف وسيلتها وأداتها ، وليس الاستيلاء على السلطة هدفها ولكنه الخطوة الاولى التي تمهد الطريق لها .

واذا كانت الثورة هي ادراك ضرورة التغيير والعمل لتحقيقه فما هي العلاقة التي تربط الشعر والادب بها ، وما هو الدور الذي يمكن أن يساهم به الادب في هذا المجال ؟

يفترض في الاديب انه انسان حساس ، بل أن ميزته الوحيدة على غيره من البشر تتمثل في انه أرهف احساسا من الآخرين . والواقع الخارجي أو العلاقات مع الآخرين هي مصدر أحاسيس الاديب وانفعالاته ، ولان ميزة الاديب تتمثل في مدى رهافة حسه ، فان من

المسلم به أن يكون أقدر من غيره على الاحساس بواقعه ، وبتعبير آخر أن يكون أقدر من غيره على الاحساس بضرورة التغيير ، والكشف عن العوامل التي تعوق ارادة التغيير في واقعه ، وكلما عمق احساس الاديب بواقعه ، كلما اتسع مجال رؤيته وأصبح بالتالي أقدر على المساهمة في الثورة والالتحام بها .

ونحن لا نضع مقياسا لثورية الاديب الا مدى عمق احساسه ، وتعبيره بصدق عما يحسه ، واذا صحت المقدمات التي قدمناها فاننا نرى من التعسف أن نفرق بين أدب جيد ثوري وبين أدب جيد ولكنه غير ثوري ، وذلك لان الادب الجيد ثائر بالضرورة بحكم أنه يكشف عن تناقضات الواقع ويمهد الطريق للمستقبل ، والادب الذي يعجز عن القيام بهذا الدور يكشف عن سطحيته في الاحساس أو عن زيف فيه وهو بالضرورة أدب غير جيد .

كما اننا لا نستطيع اتخاذ الموضوع مقياسا لثورية الاديب ، فرب شاعر اختار شعر الثورة مكرها لا بطلا ، فعنون قصائده بأعنف العناوين ثورية فاذا قرأت هذه القصائد أحسست أنه شاعر تقليدي الى أكبر حد ، ورب شاعر آخر يختار موضوعات تبدو وكأنها بعيدة عن مجال الثورة وهو مع ذلك ثائر الى أقصى حد ، واذا كنا نرفض أن يكون عنوان القصيدة هو مقياس ثوريتها فنحن نرفض أيضا وبالضرورة تقسيم الشعراء الى ذاتيين وموضوعيين ، فالشاعر لا يتحدث عن أي موضوع الا من خلال احساسه الذاتي ، واذا تعمق الشاعر الاحساس بأي موقف ذاتي فانه سيشد بالضرورة الى الاقتراب من الآخرين ، وكلما عمق احساسه كلما اختلط ألمه وقلقه بألم الآخرين وقلقهم .

واذا كان عمق الاحساس هو مقياسا لتمييز الادب الثائر الجيد ، من الادب السطحي التافه ، فان الاحتجاج الذي يطرح دائما في مواجهة مقياسنا هو مقياس الصدق ، فكثير من الادباء يقسمون « وهم صادقون » انهم يعبرون بصدق عما يحسون ، وان كأسا من الخمر أفضل عندهم من الدنيا وما فيها ، وان نظرة من عين امرأة جميلة تؤثر فيهم تأثيرا أشد من هموم الكون بأسره ، وأن ضياع قلم أحدهم يهز نفسه أكثر من ضياع أرض وطنه ، وسنجيبه بأننا نصدقه ، ولكننا نعتبره سطحي الاحساس ولا نستطيع أن نتعاطف معه أو ننتظر منه أدبا جيدا .

ويعبر تسطح احساس الاديب عن نفسه في أكثر من مظهر منها : اننا لا نلمح في انتاج الاديب أي صدى لرؤية جديدة للواقع ، ولكننا نسمع الصوت التقليدي الذي يخيل الينا اننا سمعناه آلاف المرات حتى سئمناه ، وقد يخيل اليك وأنت تقرأه انك قد قرأته مرات عديدة من قبل ، فهو يقدم اليك نفس الصور التي تعرفت عليها من قبل ويدعم القيم السائدة ، ولا يكشف عن أي توق أو رغبة في التغيير .

ومن مظاهر تسطح احساس الاديب تضخم ذاته بصورة تجعله يعتبر هذه الذات مقياس الكون فيفقد بذلك الاحساس الصادق بنفسه وبالآخرين وتختل في عالمه المقاييس والاحجام فيحس بأن ما يحدث له مقدس وما يحدث للاخرين لا أهمية له ، ولا يصبح للاخرين دور في شعره الا بمقدار ما يستخدمهم أداة لابراز ضخامته هو ، فاذا كان هو يتألم أو يشعر فهم لا يحسون ، واذا كان حيا فهم جامدون ميتون ، ومثل هذا الموقف يفصم كل صلة أو تعاطف بينه وبين الآخرين ويجعلهم أداة مسخرة لخدمة ذاته « المقدسة والنبيلة » !

وما دام يحس مشكلاته على هذه الصورة فهو يقدمها لا مفصولة عن الآخرين فقط ولكنها مفصولة عن العلاقات الاجتماعية الاخرى ، فهو حين يحب متفرغ للحب تماما ، وحين يتحدث في السياسة فلا مجال لتداخل العلاقات الاجتماعية الاخرى معها ، ومثل هذا الاديب لا يعنى بصغائر الامور ولكنه معني بجلائل الاعمال !

وحين يتسطح الاحساس على هذه الصورة وتفقد فيه المرئيات حجمها الحقيقي تصبح الرؤيا في كثير من الاحوال غائمة وضبابية ومعممة ويشتد صراخ الذات ونصبح عاجزين عن الاهتمام بصرختها أو تبين مصدر هذه الصرخة .

(٣)

ولا يخلو أدب معظم أدبائنا ، الكبار منهم والصغار على السواء ، من مظاهر الرؤية التقليدية ومن مظاهر تضخم الذات وانغلاقها ، وذلك لظروف حضارية لا محل لتفصيلها . ولعل هذا هو السبب الذي يكمن خلف الدور الثانوي الذي قام به أدبنا سواء في اكتشاف واقعه أو دفعه في طريق المستقبل . وقد كانت تجربة المرأة في مجال الادب أكثر صعوبة لانها عانت مع الرجل الظروف الحضارية نفسها التي أدت الى سقوطه في التقليدية أو انغلاقه أو ادعائه للرفض المستورد ، وذلك بالاضافة الى عوائق أخرى نبعت من وضعها الحضاري الخاص في مجتمعنا .

والشاعرة فدوى طوقان لم تستطع ـ كمعظم أدبائنا ـ الانفلات من ظروف عصرها ، وهي اذ تحاول التخلص من هذه المظاهر السلبية وخاصة بعد حزيران لم تستطع ولن تستطيع أن تنسلخ منها دفعة واحدة ، فليس ذلك من طبيعة الامور ، ولا أحد يستطيع أن ينسلخ من ماضيه بهذه البساطة .

ولقياس مدى نجاح فدوى في محاولتها التخلص من الرؤية التقليدية والانغلاق على الذات في قصائد ما بعد حزيران ، سنجعل من آخر ديوان لها نشرته قبل حزيران وهو « أمام الباب المغلق » نقطة الانطلاق لقياس مدى نجاح محاولات ما بعد حزيران .

لو اتخذنا موضوع قصائد ديوان « أمام الباب المغلق » مقياسا ، ما نرفضه كما سبق أن قدمنا ، لاعتبرنا الديوان ديوانا خاصا يدور حول محور واحد هو ذكريات الشاعرة وآلامها وآلام أسرتها ، فالقصيدة الاولى عن أردنية فلسطينية في انكلترا ثم قصيدة مهداة الى « وليم فولكنر » ثم ننتقل الى مجموعة كبيرة من القصائد خصصتها الشاعرة لرثاء أخيها ، ثم قصيدة من الشاعرة سلمى الخضراء الجيوسي وقصيدة مهداة اليها ، ثم قصيدة الى الصديق « ي » تتحدث فيها الشاعرة عن قصتها مع الحب ... الخ .

ونحن حين نرفض مقياس موضوع القصائد للحكم على الديوان فذلك لاننا ندرك أن الذات هي المنطلق الاول والحتمي للشاعر والاديب، ومقياس النجاح هو أسلوب المعالجة ، فحين تكون الذات نقطة البداية والنهاية معا يقع الشاعر في سلبية الانغلاق على ذاته ، أما اذا أحس احساسا عميقا بذاته فستصبح الذات نقطة انطلاق الشاعر الى الواقع في مجتمعه والى الانسان في كل زمان ومكان .

وتنجح فدوى طوقان في بعض محاولاتها في الديوان في الانطلاق من قيود الذات لتلتحم بالواقع ، ولكنها كثيرا ما تجنح الى الرؤية التقليدية أو الانغلاق على ذاتها .

ومن أفضل النماذج التي تحقق لها النجاح في ديوان « أمام الباب المغلق » قصيدة « أردنية فلسطينية تعيش في انكلترا » ، وعنوان القصيدة نفسه يكشف العجز عن تحقيق هوية من جاءت القصيدة على لسانها ، والقصيدة تبدأ بسؤال بسيط يسأله « انكليزي » عن وطن المتحدثة في القصيدة ، وننتقل من هذا السؤال البسيط لنجد أنفسنا أمام القضية ، قضية الذات ملتحمة بقضية شعبها كله وفي الوقت نفسه :

طقس كئيب
وسماؤنا أبدا ضبابية
من أين ؟! اسبانية
ـ : كلا
أنا من .. الاردن
عفوا من الاردن ؟ لا أفهم
أنا من روابي القدس
وطن السنى والشمس
يا يا ، عرفت اذن يهودية
يا طعنة أهوت على كبدي

ـ التتمة على الصفحة ١٣٦ ـ

قصاصات ورق

قصة بقلم فاروق منيب

يونيو الكئيب . وقت الغارة المشئومة . كان الجنين في بطنها ، والابنة بجوارها . وقفوا داخل البيت .. الواحدة بعد الظهر . هدف العدو مطار ... التصقوا ببعضهم ، قرروا ان يموتوا معا ، او يعيشوا معا . ضحكت الابنة في اليوم الاول والثاني . اما في اليوم الثالث ، فبدأت تبكي . ادركت خطر الحرب . لم يذق الطعام . اذنه على الراديو . اسقطنا ثلاثين طائرة ، اربعين ، خمسين ، ثمانين ، الى ما شاء الله . وعلى الناحية الاخرى ، رفع الراية البيضاء على بيتك يعصمك من الخطر . اطع اوامر جيش الدفاع الاسرائيلي . لا يصدق . نوع من الحرب النفسية . وفي اليوم الثاني نزل الى الشارع يهرول . يبحث عن ساحة التدريب . يلعن كل شيء ـ يريد أن يحمي زوجته واولاده . لحظة واحدة تعطيه الثقة ، لحظة الزحف على الارض . يفرد ذراعيه احداهما على الاخرى . يقبل التراب ، يا أرضي الحبيبة .. لن أجبن بعد اليوم .. طلقة المدرسة الثانوية تدوي في اذنه . ليته سار في الشوط الى نهايته ، لكن النحت استحوذ عليه . شده الى ساحته .. الحياة هي الفن ، والفن هو الخلاص ، البداية والنهاية ، العذاب والفرح .. لكن تمثاله يخذله ، ينزل من عليائه الى ارض الواقع ، يتحدث كالبشر ... يبتهج ثم يأرق ، يامل ثم ييأس ، يفزع في الليل ، يتهور في النهار ، وتلك هي المصيبة .. انفرط عقد الجبروت والقوة .

***

الآن ... يقعد وسط تماثيله يفكر ويتأمل . منذ لحظات هب من نومه مذعورا يجري :

ـ طفوا النور .. طفوا النور .. غارة ... غارة !

احتضنته زوجته مشفقة :

ـ لا يا حبيبي .. دا مش غارة .. دا رعد .!

أنباء غارة نجع حمادي ما زالت تعيش في وجدانه . ظل يثرثر وحيدا مكتئبا ، يمتلىء قلبه بالمرارة والسخط :

ـ كيف نزلوا ؟!.

ـ نزلوا أم لم ينزلوا .. ليست هذه هي القضية !.

ـ لا بد ان يتكون الجيش الشعبي ..

ـ لا بد .. لا بد ...

ـ ضعنا يا اولاد !.

ـ لا ... هم الذين ضاعوا .. الخونة والمرتشون ...

ـ حل سلمي .. وحل عسكري ...

ـ لا ... حل شعبي فقط . .

اليوم لم يسكن للسماء جفن . طول النهار وعيونها تدمع . وفي بعض الاحيان تبكي بحرارة ، ثم تشنج ، تريد ان تمزق شرايينها ... ثم تنتحر !. وهو صغير كان يفرح لسقوط المطر ، ورؤية البرق ، وسماع صوت الرعد ... أما الآن ، فان غضب الطبيعة يختلط بشبح الحرب . أين أيامك الصافية يا قوس قزح ؟!. لا فائدة من النوح . نحن نعيش في الحاضر الملتهب .

أمسك مطرقته ، راح يعالج كتلة الخشب الصغيرة بين أصابعه الحساسة : قطعة بيضاء بلون ... رمز السلام ... لم تعد الحمامة وحدها ترمز للسلام ... كل الحيوانات الاليفة رمز للسلام . احتضن نخلته الطيبة بين ذراعيه ، هي أيضا رمز للسلام منذ القدم ، رغم حشفها الخشن ... ولونها الداكن !. المهم ما في القلب .. ما في الخلايا والشرايين .. تظل النخلة تثمر على مهل ، في العام مرة ، لاجيال وأجيال ... منها الى باطن الارض مباشرة ... كل يتفاهم بلغته .. وفي السماء رزقكم وما توعدون . واذن فسوف ترتوي النخلة رغم حزنك يا يوسف !... لو استمعت الى همسها منذ سنين لكنت اليوم أسعد حالا . احذر الدعاية السخيفة ... لن أعطي بلحن اذا تغنيت في جمالي ... وصفت رونقي وحسني ... أعطي عندما تقدم لي الماء ، وتراعيني في الغذاء !. ولكنه معذور على كل حال .. فحين ينطلق كل شيء في اتجاه الريح الرابحة ، فمن الصعب ان يقف ضدها ! وما ضيعه في الدعاية السخيفة ، حاول أن يعوضه في خلق تماثيله !.

ألقى ببصره الى حديقته الخضراء : زهور الشتاء اللطيفة تغزل الوانها في زخرفة بديعة . ما قيمة الزهور ، وداخل البيت يشتعل بالنيران .. اللحظة للمدفع والصاروخ . كيف يشم رائحة زهرة ، والآخرون يشمون رائحة البارود وشياط الشظايا المحترقة ؟ تحسس جسد قطته ... لحظة سعادة غامرة ، حين يشعر بكتلة الخشب تتشكل بين يديه الى مخلوق جديد ، تتحول من ركود الموت والتفاهة ، الى نبض الحياة . لكن آه .. لو استمع الى صوت نخلته ... يجب ان يقترب منها ، يحتضن جذعها الحنون :

ـ نادم على ما فات يا عمتي الطيبة .

ـ هـه !

ـ تسخرين ؟!.

ـ لقد مضى وقت الاعتذارات .

ـ أريد ان أجسد السلام في رمز .

ـ جسد كما تريد ... ولكن ابتعد عن العواطف المتضخمة .

***

عند قدمي تمثاله ، رقد ... ربما ينقذه من الغم ، ينتشله من الضياع ... نظر الى كيانه الذي قد من الصخر ... الندوب تغطي صفحة وجهه ، الاسى في عينيه ، مهزوم يبحث عن خلاص .. اطياف السخط ترفرف حوله ، لكنه ما يزال يدخل الرعب الى قلبه ، يرمقه بنظرة حادة من طرف عينيه ، حزم الضوء ترتعش في الحديقة ، الارض تهتز تحت قدميه ، هذه النظرة يعرفها جيدا ، لم يفلت منها مرة واحدة : سهم موجه اليه ، لا يستطيع رده بسهولة . حاول تفاديه ، لكن عبثا ... وفي النهاية يسمع الصرخة المتوغدة ... الى اين المفر؟! هذا التمثال من صنع يديه ، ومن تصميم عقله ، تصور جمجمته ... قلبه ... روحه ... وكان كلما ضرب ضربة ، شعر انه يبرز عصبا من الاعصاب ... فكيف يتمرد عليه ؟!. قام وخبط رأسه بفيظ ليؤدبه ، فانحنى له مكسور الجناح ... وعلى تجاعيد وجهه ظهرت ملامح الشيخوخة المبكرة ... لم يفرح به بعد .

سمع خطوات زوجته تقترب ... وجهها الرائق يخفف من بلواه . كلماتها الهامسة يرتاح اليها .

***

أيام حرب السويس ، كانوا يسمونها حمامة السلام .. طيفها الرقيق يسعده كانا يسيران وسط المدينة . وفي أمسية شتوية ما نزل المطر ... وتحت احدى المظلات وقفا يتفاديانه :

ــ ماذا تقرأين ؟.
ــ أحب تولستوي ودستوفسكي ...
ــ لكني أحب الفلاحين ...
ــ لم اذهب الى القرية ...
ــ يستحيل ان تكوني مصرية !.

ومن أول زيارة الى قريته ، حمل اليها حفنة تراب : هذه وثيقتي اليك ... أستطيع أن أقدم البط والاوز هدية ... ولكن التراب هو الاصل .

ابتسمت : ــ عاوزه أروح بلدكم .

ذهبا معا الى المجوهراتي . حفرا أسميهما على دبلتين بلا تاريخ . ماذا يفيد التاريخ ؟!. نبض القلب المحب هو التاريخ .

***

همست له في اشفاق : ــ تأكل ؟!.
ــ يعني .
ــ مالك ؟!.
ــ لا شيء .
ــ خلصت التمثال ؟!.
ــ التماثيل كالشعر ... لا تفيد !.
ــ ضروري تعقدها ؟!.
ــ لا ... أبدا .

***

على مهل جاءته الذكرى المدفونة في أعماقه . غزة يا غزة .. أين أنت يا حبيبتي .. ليتني لم اعرفك !. ثلاثة ايام ومضت الذكرى ... شبعنا مهرجانات شعر ... تصدع رأسي من قصائد المدح والهجاء ... ويا أحمد المرتجى في كل نائبة ... داخت اعصابي من مخلوقات النمل العجيبة !. وكنت حبلى بالخطر ، رغم البسمة على شفتيك ، والضياء على جبهتك ... قدمت لنا أفخر اطباق الطعام : اللحم ، الدجاج ، الديوك الرومية . والسمك واروع اصناف الحلوى التي تشتهرين بها. وعلى شاطئك ... انحنينا ... نجمع الاصداف للذكرى .. آه ... لو صدفة واحدة الآن .... اصدافي القديمة ملكتها ابنتي ... وابني الجديد لم ير اصدافك بعد ... لم يعرفك بعد !. ماذا أقول له عندما يكبر ؟!.

وفي خان يونس القى بيننا صاحب الذراع الواحدة أبياتا من الشعر ... تعجبت من المعنى رغم سخطي على قرقعة المنابر ... لم نعد دمى مزوقة يتفرج علينا الناس ... واشار ببقية ذراعه المقطوعة الى جدار قريب : هنا كانت معركة للمقاومة مجيدة ... قطعت فيها ذراعي ، ومات اخي وآخرون . خجلنا لحظات ، ثم سرعان ما تذكرنا الغداء الدسم الذي ينتظرنا ... غرقنا في التجديف . الواقع يلطم خيط الرحلة بجهامته ولهيبه .

وبعد المأدبة الفاخرة خرج الاعيان وأصحاب النياشين والعقال الزاهي ، ... انقض المشردون الصغار على البقايا ، كادت تحدث معركة تشوه الصورة ... لولا لطف من الله ... أشرنا عليهم ان يتركوا الجوعى يأكلون ... والا ؟!.

وفي المساء غضب مني الرفاق ... كان السؤال يبدو سخيفا ... لا يليق بجلسة انس وتعارف :

ــ يا كتاب فلسطين ، ماذا تسجلون في بطاقاتكم الشخصية ... والجنسية بالذات ؟!.

كانت امنيتي الا يكتبوا اردنيين ... او لبنانيين .. او ... لا بد ان يسجلوا ... فلسطينيين !.

غزة يا غزة .. ما الذي ذكرني !.

وفي مواجهة البوابة الكئيبة وقفنا نلتقط الصور التذكارية ، نشير الى الارض المحتلة ... لحظتها لم أشعر انني مصري ... فلاح.. من أبو كبير ... او انشاص .. ادركت انني عربي ... فلسطيني .. محروم من أرضي ..

غزة يا غزة ، اشياؤك ما زالت عندي ، اصدافك تدفئني .. ما عرفتك !.

وسط الظلمة ، كانت دقائق لا تنسى ... محل ((لاباس)) يموج بالحركة ، بالميني جيب والميكرو جيب . الهواء المكيف الدافىء يلسع السيقان والافخاذ الزجاجية العارية . معذرة ... هي بينهم ، شعرها يسترسل على كتفيها في ضفيرتين طويلتين ناعمتين ، جبينها يتألق بالضياء مثلك يا غزة ... تحمل في اعماقها السر ... حطت كالطيف ، رفرفت على ارض القاهرة كالطير ... كانت تتعجب :

ــ هذه حياتكم ؟!.

وهو يرتشف عصير البرتقال :

ــ أحوال !.
ــ آه ... لو رأيتم الاغوار ؟!.
ــ تحبين حياتها ؟.
ــ مرفأي الذي ارتاح لديه .
ــ وأسعد لحظاتك ؟.
ــ عندما ينادوني ... بيا ... ختي ...
ــ لك أخوات ؟
ــ هم اخوتي ... أبي وأمي ... وكل وجودي .

وعلى الباب بعد ان ودعها لم يرفع عينيه عنها ، عن طيفها وهي تتيه وسط الزحام ... كقرص الشمس قبل أن يغيب ... ربما لن يراها بعد اللحظة ... وربما تشرق كل صباح .

***

وهو صغير ، شعر الوطن من خلال الاشياء الصغيرة : الاستحمام في الترعة ، أكل البلح الاحمر ، صيد السمك ، الاستغماية حول قصر الجن ، الذهاب مع أبيه الى سوق السبت ... كان أبوه يبكي في أخريات ايامه ، عندما تواجهه الصعاب ... ابنه الآخر مريض في مستشفى الامراض العقلية منذ خمسة عشر عاما .. فقد الذاكرة ، يتوق لرؤيته ، ولكنه لا يقدر . يبكي ... الكبار كالصغار ، دموعهم سهلة المنال ... مات أبوه صافي النفس .. نقي السريرة ...

ليته جسده في تمثال !.

***

ذات صباح ، عندما كان طالبا بالمدرسة الثانوية قرأ عنوانا في الجريدة : بيفن يصرح ، بريطانيا العظمى يستحيل ان تتخلى عن مصر ، تعتبرها قطعة منها ... غلى الدم في عروقه ، كان يخرج في المظاهرات، اما اليوم ، فعليه ان يقودها ، فناء المدرسة هادىء خامل ... الطلبة لم يتجمعوا بعد ، ملوا المظاهرات والاعتصام ، والمطالبة بالسلاح، لم يجد وقتا للتردد ... اعتلى حجر احد السلالم ، تشنج صوته بغضب ، لن نصبح قطعة من بريطانيا ابدا ، تحلقت حزم الطلبة ايها الزملاء ، انجرف السيل وراءه ... عاش كفاح الشعب المصري ... بيفن بيفن ... يسقط بيفن .. وطلع آخر مستقل .. بدأ حديثه بطلقة رصاص في الهواء ... فتأججت النفوس .. السلاح .. السلاح .. نريد السلاح .. ثم عاد الى قريته .. يحب اشجار البرتقال واليوسفي والمانجو ، يحتضن أشجار الكازورين والكافور ، يقبل رمالها ... يهمس لنفسه : هذه قطعة مني ، يستحيل ان افرط فيها .. من يومها لم يعتل منبرا. اتجه الى عالمه الخاص ، تماثيله ، ربما يجد فيها السلوى والعزاء .. يحقق زعامته الذاتية .

***

وبعد عشرين عاما يسقط تمثال القوة ، لا يستطيع صلب كيانه الا امامه اذا زاره زائر ، ينحني مهزوما ، خجلا ، يبكي على الذكريات ... يتحسر على الماضي ، لم يبق منه سوى عينين حادتين تجيلان النظر ، بحثا عن الخلاص ! يزأر في الفضاء ، فلا يجيبه سوى الصدى ... ان ضاعت الاكف والاذرع والعيون والآذان ... تضرب وتسمع وترى .. الى النهاية ... هي الضحية والفداء ... الضاربة والمضروبة .. القاتلة والمقتولة .. اخرج من قوقعتك يا ...

***

بالامس كان وزوجته يستعيدان الايام ، يرتبان امر المعابد يبتسمان، يقرآن اعلانا في احدى الجرائد ... فقد كلب أصيل من نوع

ــ التتمة على الصفحة ١٤٢ ــ

تجربة سميح القاسم الشعرية

نشيد الكرامة الإنسانيّة والصّمود

بقلم ايليا الحاوي

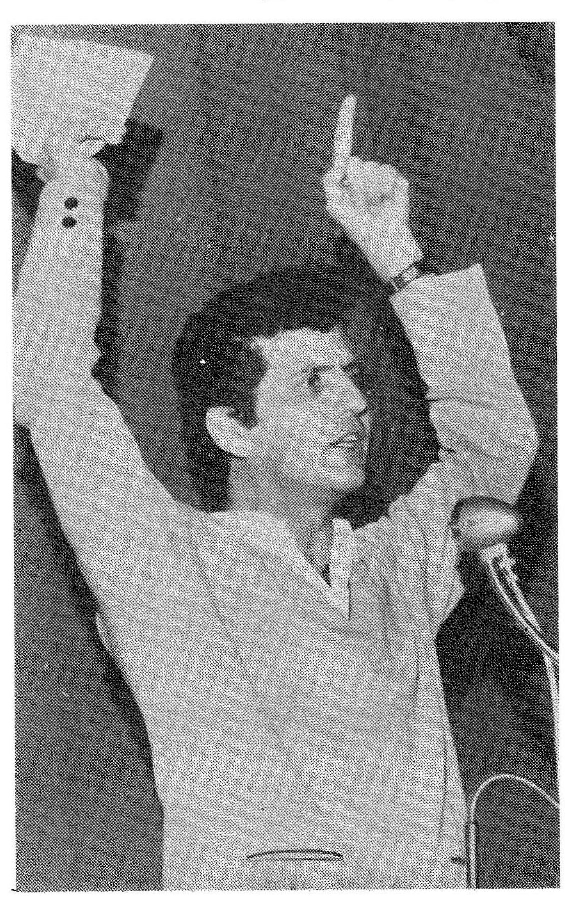
للشعر مبرر نفسي ، جدي يسمو به عن الانفعالات العامة والخواطر المبذولة والمواقف الصماء التي تسفح ذاتها بذاتها ، ولا تمكن للشاعر في النفاذ الى حقيقة مضمرة في الوجود . وقد كان يخيل الى النقاد، حينا ، ان صدق الانفعال يفي بفرضه ، دون نظر في مدى كشفه ودراسته لواقع المعاناة بما يوغل فيها ويطلع منها ضميرها والاسرار الهاجعة عبرها . والصدق في المعاناة لم يعد يفي قط بمطلب الشعر الجدي الصعب . ولم يعد يفيد الشاعر في هذا المجال ان يلجأ الى الالفاظ الخلابة في ايقاعها الخطابي او في رقتها الغنائية او الى المعاني الشديدة الدوي ، المثيرة للدهشة بالغلو الارعن . فالشعر الحديث لم يعد يسيغ ترهات الغلو الذي يصعق القارىء ولا يثقفه ، ويأنف من تلك المعاني والصور التي تفتقد الصلة فيها بين المعقول والمستحيل ، اذ انها تؤثر ولا تفسر ، تذهل العقل وتخادعه وتوهمه وتطفر عليه،مسفهة اياه ، دون ان تحل مكان الحقيقة العقلية التي ترذلها حقيقة نفسية هي وراءها واعمق منها ، لانها ادنى الى حقيقة ما تعانيه النفس. وقد كان يكفي في ذلك الشعر ان يعمد الشاعر الى الصور والمعاني التي تختل فيها النسبة بين الاسباب والنتائج بحيث يختلق نتيجة عظمى، مروعة ، لسبب يسير عارض ، لا قبل له بها ، وان كان الشاعر ينفعل به ايما انفعال ويحرص عليه غاية الحرص .

مثال ذلك ان يشاهد الشاعر امرأة او ان يعلقها وان يسفح لها اشواقه وهمومه ، مغرقا في الذاتية ، محقرا لشأن الموضوعية ، فيزعم، مثلا ، انه اذ ينظر في عينيها تطالعه سفن لا تزال مبحرة منذ الازل ، وانها تيمم شطر الابد . وقد لا ننكر على الشاعر صدقه في تلك المعاناة واخلاصه فيما يذهب اليه ، الا اننا نحرص على القول ، مع ذلك ، بأن انفعاله ، برغم صدقه ، لا شأن فنيا له ، أذ اغرق فيه بالذاتية وسفه الموضوعية ، ولم يحل من دونها حقيقة اعمق واكثر جدية منها .

واذا كان الشعر يصدر في منطلقه عن باعث ذاتي ، فان الذاتية لا تجدي فيه ، الا اذا كانت سبيلا الى الرؤيا ، يمكن للشاعر من الاتصال بالحقيقة كجزء من ذاته ، او تؤدي به الى الحلول فيها ، بدلا من فهمها ومشاهدتها في الخارج . فتكون الذاتية ، بذلك ، حافزا للكشف والخلق والاطلاع على غيب الاشياء والنفس بصورة عاقلة متزنة، وليس سبيلا الى النزق المهووس الذي يطفر به الانفعال وينزو ويجن جنونه ، فارضا ذاته على واقع الوجود والنفس بقوة هزلية فاشلة ، تخلف اثرها الخواء الساخر المزدي .

وبعد ، فان الحماس هو صنو للنزق ، اذا لم يكن حماسا موزونا، متئدا ، ينكفىء الى الداخل بصيرته النافذة، بدلا من ان يتحول الى نوع من الصياح العصبي الفزيولوجي العامي ، الطائش . واذا لم يكن ثمة شعر دون حماس وانفعال ، فانهما لا يفيان وحدهما بفرضه ، واذا اقتصر عليهما ، زال مبرره الفني وزالت عنه صفة الخلق واقام الناظم فيه على حدود الانفعال الذي تتداوله الدهماء وتطرب له العامة .

ولعل السوية في ذلك ان يتحرى الشاعر لانفعاله الذاتي عن جذور موضوعية في الحقائق والمبادىء العامة التي عاناها الانسان المطلق، فوق الزمان والمكان او عبر التاريخ والاسطورة ، ليغذي بها انفعاله ويمد ابعاده ويضفي على ذاتيته صفة الجدية والمعرفة من ارتباطها الحميم بحقيقة الانسان والوجود . وقد لا نغالي في القول بأن الذاتية مهما صفت وتعقلت لا تتصل باسباب الخلق والخلود ، الا اذا تمادت



واتسعت وادركت حد الكلية والشمول . فاذا عبر الشاعر عن واقع الظلم الذي يعانيه ، مثلا ، فقد ينزع من اعراض وجزئيات واقعية وخواطر وانفعالات شائعة ، الا ان وظيفة الخلق لا تقتصر به على ذلك، بل انه لا يزال يتداوله ويحدق فيه ويتأمله ، حتى يدعه في حالة يسمو بها على الواقع المبذول وتشرق له فيها الحقيقة بنوع من الاتحاد الصوفي بها . ولم يعد غريبا القول ان الشعر هو تعبير عن صوفية الاشياء والنفس والوجود . ولعل مبرر الذاتية انها توحد بين انفعال الشاعر والحقيقة ، كما يتحد بها الصوفي بالتأمل والمجاهدة ، حيث تسقط الاحداث ويكف السرد والوصف والتحليل والبرهان اذ تغني الحقيقة عنه بحضورها الفعلي الكامل . وما هي هذه الحقيقة التي نسعى اليها ؟ انها ولا شك ذلك اليقين الذي تحدث عنه الغزالي والذي يحدس في النفس ويكفيها عن طلب أي برهان ويمنعها من اي شك او جمجمة ، لانه اليقين الكامل الكافي بذاته عما دونه ، والذي يقنعنا دون ان ندرك سبب اقتناعنا به ، ودون ان نشعر بحاجة الى مثل ذلك . وحسبنا اننا وقعنا عليه وان انفسنا امتلأت به وان يخيل الينا، فعلا ، ان الشاعر نطق بجميع ما يمكن ان ينطق به في هذا الشأن .

وهو اذ يدرك ذلك كله يصل الى حالة الرمز الذي يقتبس فيه من عالم الحس ، دون أن يكون للمظهر الحسي مدلوله الواقعي ، بل مدلول اخر يستبطنه ولا يتفطن اليه الا الشاعر ، اذ يلامسه في تخوم الرؤيا

العجيبة ، حيث ترفع الحجب عن المكتوم والمستور في النفس والوجود. وعندئذ يسقط الحادث الآني العابر ويبدو الانسان في مصيره الواحد، عبر التاريخ ، وقد زالت عنه الفردية والتواقع الذاتي الخاص مع الاحداث ، ليتواقع من دون ذلك مع الوجود في مأساته الدائمة التي تطالعه وتطل عليه بألف وجه وشكل .

وعلى هذا فان اساليب الحماس المباشر ومعانيه ونزواته وانفعالاته تسقط في مضمار الشعر الصافي وتزول بزوال بواعثها الآنية الطارئة، الا اذا وفق الشاعر في تخطيها الى المبادىء الدائمة وايثاقها بجذور المصير الذي لا يزال يعانيه الانسان الساعي الى تحقيق غايته .

وقد بات من البداهة القول ان العاطفة الجياشة المهووسة لا تصلح كمادة نهائية للشعر ، اذ انها تشتط بصاحبها وتنزو به وتفقده بصيرته .

***

وانما قدمنا بذلك كله قبيل دراستنا لشعر سميح القاسم ، وهو احد شعراء الارض المحتلة ، لنيسر امر الدراسة ونضيء سبيلها بمفاهيم ومبادىء مقررة .

ولقد شاع في الادب الملتزم ان يقدم الموضوع ايا كان فيه مستوى الابداع على القيمة الفنية الخالصة ، بحيث جعلت القيم الوطنية تطغى على القيم الفنية ، وتعفي عليها في احيان كثيرة ، وبحيث بتنا نكسب وطنيا في الظاهر وان كنا نخسر فنيا . والواقع ان الشاعر اذا ما تصدى لموضوع وطني دون ان يبلغ منه غايته ويأتي على نهاية مطافه ، يكون قد فشل في ابعاده القومية والوطنية والفنية ، جميعا ، اذ انها متلازمة بعضا مع بعض .

***

ولقد اصدر القاسم دواوين متعددة نشرها صاحب ديوان الارض المحتلة الشاعر يوسف الخطيب منذ ديوان « مواكب الشمس » وهو الديوان الثاني الذي تضمن قصائد نظمت بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٦٤، كما نشر ديوانه الثالث « دمي على كفي » ، وقد تضمن القصائد التي نظمها بين عامي ١٩٦٤ و ١٩٦٦ ، والحقه بالديوان الرابع « دخان البراكين » ، ويتضمن القصائد التي نظمت فيما بعد تلك المرحلة ، اما ديوانه الاخير « سقوط الاقنعة » ، فقد صدر في شهر يناير الماضي عن دار الاداب (١) .

والناظر في تطور تجربة الشاعر عبر هذه الدواوين ، يبدو له انها تجربة واحدة ، تتطور وتمتد من تواقعه مع الاحداث بمنفاه في الارض المحتلة ، كما انها تنمو من الداخل بنمو وعيه لذاته وتكامل معاناته للمأساة التي ما زالت تمضغ حياته بفكيها الرتيبين الهائلين . ومعظم قصائده تنطلق من باعث واحد متشابه ، الا انها تشتق لذاتها افكارا وصورا متباينة متجددة من تباين مواقفه واحواله النفسية ، فهو يبدو رافضا لواقعه ، متمردا ، يعلن العصيان الروحي عليه، ويؤلب المعاني والصور التي تظهر صموده ، فضلا عن زرايته بما يعتز به الاعداء . وفي هذه القصائد تتقمص احواله النفسية بعضا ببعض، اذ تضيق عليه سبل الخلاص ، فيعتصم بالقول لعجزه عن الفعل ، نافذا الى معانقة الشهادة التي هي الانتصار النهائي الاكبر على تفاهات الوجود . بل انها المقاومة التي يهزم بها العدو هزيمة انسانية منكرة ، وان لم يستطع ان يهزمه بالمقاومة المادية المباشرة . ويخيل الينا انه خلص الى اعتناقها ومعانقتها ليعيد للاشياء معناها وان يجد لحياته جدوى وان يستمرىء الصمود ويستعيد كرامته المعفرة تحت نعال العدو الفاجرة العمياء . وهو اذ يصمد حتى الشهادة ، لا تتغلب عليه نزعة اليأس ، بل انه يرى من دونها فجرا عتيدا وحياة كريمة للانسان

(١) اعتمدت في هذه الدراسة « ديوان الارض المحتلة » الذي جمعه الشاعر يوسف الخطيب ، وفيه اثار لمعظم شعراء ذلك القطر المنكوب ، وحري بكل عربي ان يقتنيه ويطالعه لانه خير وثيقة للمرحلة السياسية والنفسية التي يجتازها شعبنا الواقع في قبضة المحتل .

العربي الجديد :

هنا في قرارتنا الجائعه ... هنا حفرت كهفها الفاجعه
هنا في معالمنا الدارسات ... هنا في محاجرنا الدامعه
نبوخذنصر والفاتحون ... واشلاء رايتنا الضائعه
فباسمك يا نسلنا المرتجى ... وباسمك يا زوجنا الضارعه
نرد الزمان الى رشده ... ونبصق في كأسه السابعه
ونرفع في الافق فجر الدماء ... ونلهمه شمسنا الطالعه

ومما لا شك فيه ان هذه الابيات تنطوي على الجلبة الخطابية والضوضاء التي كانت تحفل بها القصيدة القديمة ، فضلا عن انها صدرت عن الردة والرفض والحماس . الا ان الشاعر لم يفتقد بذلك كله بصيرته ، بل انه استهدى بانفعاله واستضاء به ، نافذا في غيهب الزمن ، متأملا بواقع الظلم في الوجود ، حتى طالعته ملامح نبوخذنصر في ملامح العدو الصهيوني ، مدركا عبر ذلك ان سبل البطش قد تمكن للباطل ، حينا ، ثم لا تعتم ان تزول اذ لا يصمد ولا يقيم الا الحق القوي بذاته ، والذي لا حاجة له بما دونه لينتصر ويبقى . فنبوخذنصر يرمز هنا الى القوة المتفردة بذاتها ، الفاقدة الصواب والضمير والتي تكتسح وتستبد ، حينا من الدهر ، ثم تتداعى من ذاتها لانها تخالف واقع العدل والحق في الوجود . ولقد استطلع الشاعر من انفعاله ، فضلا عن ذلك ، ايمانه بالنسل الجديد القادر الخالع عنه طينة الانسان القديم ، المؤمن بنفسه حتى التصدي الى القدر مراغما ، محتقرا ، غاسلا خطاياه القديمة بدمه ، لتطلع شمسه من جديد على الحياة . وربما تلامح لنا شيء من تبعية الفخر القديم الارعن في قوله : « نرد الزمان الى رشده » . الا اننا اذ نمعن في هذا القول ، نفطن الى انه لا يعني ، فيما يقول ، المعنى اللفظي بل يرمز به الى ما دونه ، الى العدو الغبي القاهر ، الفاقد الصواب والذي تحالفه اقدار الحياة ومداجاة العصر لينشب مخلبه الفاجر السادي في جسد الابرياء .

وعبر ذلك كله لا يفقد الشاعر ايمانه بأن شمسه ستطل من دون الغيوم السوداء الماكرة التي تمسخ اديم الحياة :

رغم الشك ورغم الاحزان
اسمع اسمع وقع خطى الفجر
رغم الشك ورغم الاحزان
لن اعدم ايماني
في ان الشمس ستشرق .. شمس الانسان .

***

وقد ينحني الشاعر في تعبيره عن صموده وتوقعه للخلاص كالشمس التي تنفجر اضواؤها من قلب الظلمة ، قد ينحني في ذلك الى بعض الجزئيات مما يتواقع به مع غاصبيه ومستعبديه ، فيشير الى ما يعانيه في السجن الذي زج به ؛ قهرا له عن صموده . الا ان الشاعر لا يرسف في حدود الجزئيات العارضة ولا يسقط في اغرائها ويسر الاخذ والتداول بها ، بل انه ينزع منها الى نوع من الرمز الخفر ، ليمثل واقعه النفسي من خلال ظاهر حسي . وكما ان ادغار الن بو (٢) توسل الغراب كرمز للوحشة او كنذير للشؤم والموت ، وكما توسل بودلير (٣) العنكبوت للتعبير عن اليأس والاسى ، فان سميحا يتوسل

— التتمة على الصفحة ١٤٣ —

(٢) تحدث ادغار الن بو عن ذلك في قصيدة الغراب ، حيث يقول ان غرابا ولج عليه من نافذة واقام على تمثال قديم في داره لا يريم ، بالرغم من التساؤلات الممضة الحائرة التي يتضرع اليه الشاعر ان يجيبه عنها . لقد كان ذلك الغراب رمزا للشعور بالموت الذي سيلازم نفسه الى الابد ، اثر موت حبيبته اليونور كما يلازم ذلك الغراب منزله ولا يبارحه بأي سبيل .

(٣) يقول بودلير : يدب ويعدو في نفسي قوم من العناكب اللعينة، فيخذل الامل وينتحب ، ويستبد بي الاسى القاهر ويغرس علمه الاسود على رأسي المنحني المخذول .

البحث عن مسرح للمقاومة

مسرحيات القتال أو الصراع على الأرض

بقلم سامي خشبة

من أين يمكن أن يبدأ مثل هذا البحث ؟

أيبدأ من المسرح ذاته ؟ أي من المسرحيات التي سنظنها قد تناولت موضوع المقاومة ؟ وما هو هذا الموضوع ؟ ما هي تلك المقاومة ، وما الموضوع الذي تمنحه المقاومة للمسرح ؟

واذا بدأنا عن المسرح ، فكيف لنا أن نختار المسرحيات التي سنتحدث عنها دون أن نحدد المفهوم الذي سيقوم عليه اختيارنا ثم كيف لنا أن نقيم ما نختاره وباي مقياس ؟

واذا بدأنا من المقاومة ، أليس من المفروض أن نحدد ما نقصده بهذه الكلمة اذا جاءت بعد كلمة « المسرح » أو بعد اسم أي نوع من الفنون عموما ، لان هذا التحديد سيساعدنا دون شك على اختيار المسرحيات التي سنعرض لها باعتبارها نماذج من مسرح المقاومة أو خطوات ـ سلبية أو ايجابية ـ نحو تحقيق هذا المسرح ؟

نظرة الى الخارج

ان نماذج المسارح العالمية التي ارتبطت بقضية سياسية مباشرة ، مثل قضية المقاومة العربية ، نماذج متعددة ، ولكننا لا نعرف ـ على وجه اليقين ـ مسرحا واحدا تتماثل ظروفه مع ظروف المسرح العربي في علاقته بقضية المقاومة العربية تماثلا يصل الى حد التطابق . ونحن لا نقرر هذه الحقيقة لكي لا نجد لانفسنا مبررا للهروب من واجب محاولة البحث عن طبيعة العلاقة التي يمكن أن تقوم بين الفن الدرامي وبين الشعب الذي ينتج هذا الفن ويستهلكه ، على العكس ، اننا نطرح تلك الحقيقة أمامنا لكي نعرف منذ البدء اننا ـ ككتاب مبدعين أو كنقاد ـ نضرب في ميدان يكاد يكون جديدا كل الجدة على الفن الدرامي ، لان قضيتنا المصيرية ـ قضية مقاومة الوجود القومي العربي لحرب الابادة التي تشنها الصهيونية ضد ذلك الوجود ـ تكاد أن تكون قضية فريدة من نوعها في التاريخ بكل جوانبها وظروفها . فلنلق أولا نظرة على تلك المسارح العالمية التي ارتبطت بمثل تلك القضية السياسية .

كانت مسرحيات جيرهارت هاوبتمان وجورج كايزر ومدرستهما التعبيرية تخوض قضية صراع الطبقة العاملة الالمانية خصوصا والطبقة العاملة العالمية بوجه عام ضد الاستغلال الرأسمالي وضد عملية تمزق الروابط الانسانية وتحطيم التوازن النفسي والاجتماعي للانسان تحت وطأة هذا الاستغلال . وكان مسرح أروين بيسكاتور السياسي يهدف الى خدمة قضية الطبقة العاملة الالمانية نفسها في صراعها « السياسي » من أجل السلطة الديمقراطية او السلطة الاشتراكية في ألمانيا بعد الحرب العالمية الاولى ، كذلك كان مسرح برتولد بريخت التعبيري أو التعليمي أو الملحمي مسرحا اجتماعيا مثلما كان مسرح أستاذيه هاوبتمان وكايزر ، أو مسرحا سياسيا مثلما كان مسرح أستاذه الاخير بيسكاتور ، وفي هاتين الحالتين كان مسرح بريخت يحاول ان يناقش القضايا الانسانية الكلية من زوايا مصلحة طبقية محددة . كان بريخت يتجه بالتدريج الى « اليسار » السياسي الطبقي في بلاده المانيا ، وكان يتجه الى أن يضع مسرحه في خدمة قضية « الطبقة » العاملة الالمانية والعالمية ، وفي النهاية خرج بريخت من نطاق المصالح الطبقية لكي يصل الى ميدان القضايا الانسانية الكلية من وجهة نظر الرؤية الفلسفية العلمية نفسها التي تعبر عن وجهة النظر « الطبقية » لمستقبل الانسان ككل ولماضيه أيضا . كذلك كان الامر في المسرح السياسي والاجتماعي الاميركي في الثلاثينات من القرن العشرين وما بعدها ، أيام كليفورد أوديتس أو روبرت اميت شيروود او تيرانيس راتيجان ، أو فيما بعد الحرب العالمية الثانية ايام ازدهار ارثر ميللر وليليان هيلمان ، فان هذا المسرح لم يتعد نفس الرؤية الطبقية اليسارية لمشاكل « طبقة » تعاني من الاستغلال ، وعلى أحسن الاحوال كانت الموهبة الشعرية العظيمة لبعض هؤلاء الكتاب ، مثل ميللر على وجه التحديد ، علاوة على اتساع أفقهم الفكري ، كانت دراماتهم تتحول من درامات اجتماعية تحدها رؤية طبقية وسياسية محدودة ، الى تراجيديات عصرية تعالج قضية أساسية من قضايا « الوجود الانساني » ، ولكن في المجال الاجتماعي أيضا . وفي أسبانيا كان لوركا العظيم نموذجا لهذا الطموح الشعري واتساع الافق الانساني الشامل ، فتخلصت مسرحياته من أسر نفس الرؤية السياسية لكي تصل الى نفس الافاق الاجتماعية ذات الميل الى معالجة المشاكل « الاخلاقية » لشعب متخلف حين تتطاحن الغرائز البشرية القوية النبيلة مع قيود مجتمع عتيق وعفن . وفي المسارح الوطنية او الفلسفية التي أنتجتها روسيا ـ سيمونوف مثلا ـ أو تشيكوسلوفاكيا ـ كارل تشابك مثلا ـ أو فرنسا ـ سارتر وكامو ثم ارمان جاتيبه على سبيل المثال ـ كانت هذه المسارح تتراوح بين الالتزام بقضية الوطن الذي يتعرض لغزو « عادي » ، وبين خدمة قضية الوطن الى جانب الالتزام برؤية فلسفية فردية أو جماعية في مواجهة غزو « عادي » أيضا ـ اي غزو يهدف الى احتلال الارض واستغلال المواطنين وليس الى ابادتهم وتحويل الارض الى موطن للغزاة ـ تقوم به دولة دكتاتورية شمولية متوسعة مثل الدولة النازية . وحتى المسرح الايرلندي ، الذي كان فرسانه شون أوكيزي والليدي غريغوري وييتس وبول فنسنت كارول والذين كانوا يمثلون طليعة شعبهم المثقفة في صراعه من أجل استخلاص حرية بلادهم وتأكيد شخصيتها القومية المستقلة ـ الامر الذي قد يدفع الى الظن بتشابه قضية هذا المسرح مع مسرح المقاومة العربي ـ نقول انه حتى هذا المسرح كانت مؤلفاته تكتب باللغة الانكليزية ـ لغة الشعب الغازي الذي يريد أن يفرض قوميته ليلغي بها القومية الايرلندية ـ وكانت هذه المسرحيات تعرض على الشعب الايرلندي باللغة الانكليزية نفسها ، وأصبحت تعد في النهاية جزءا من التراث الادبي للغة الانكليزية نفسها وللمتكلمين بهذه اللغة بوجه عام . أما المسارح السياسية الحديثة التي برزت الى الوجود بعد انتهاء فترة « ما بعد الحرب » او « الحرب الباردة » ، وربما كان المسرح التسجيلي وكاتبه الالماني بيتر فايس هو أهمها ، فهي مسارح تجاوزت الالتزام بالرؤية الطبقية او الرؤى الفلسفية المختلفة التي ألقت بظلها على المسارح السياسية ، وان ظلت تلك المسارح تحت راية مصطلحات هذه الرؤى نفسها بعد أن اتسعت همومها لكي تناقش مشاكل الوجود الانساني الكلية بوجه عام ومشاكل معاناة الضمير الانساني في مواجهة أزمات « العصر » الروحية والاخلاقية والسياسية والفلسفية : الاغتراب والفردية وروح الجماعة والنمطية والثورة والموت الجماعي بالمجان والخلاص الفردي .. الخ .. الخ .

أما المسرح العربي فيواجه قضية من نوع مختلف ، ويعيش ـ بل وينشأ أحيانا لانه لم يكن قد وجد أصلا قبل بضع سنين في كثير من

الاقطار العربية ـ في ظروف جد مختلفة ، والتزامه بقضيته وظروفه التزام من نوع مختلف أيضا ، وان كنا نعرف ان ثمة قدرا من التشابه بينه وبين هذه المسارح .

ليست قضية المسرح العربي الاساسية قضية طبقة واحدة ، وانما هي قضية الامة العربية كلها ، لانها قضية الوجود القومي للعرب ، أن يستمر هذا الوجود أو يندثر ، على الاقل في المنطقة الممتدة بين الفرات والنيل ، في العراق والشام كله ومصر . والقوى التي نواجهها قوى عنصرية ، تزعم أنها نالت من « الله » نفسه تكريما خاصا جعلها أفضل من غيرها من بني الانسان وأقربهم الى قلبه ، وهذه القوى تحاول أن تستمد جذورها من تاريخ منطقتنا ذاتها ومن كل الاساطير الموروثة من حضارات ومن عصور بائدة . ان موروثنا الثقافي نفسه مهدد بالاندثار ، ونحن نعرف ان الاسرائيليين يقولون انهم الورثة الحقيقيون لكل التراث الثقافي الذي « خلفتـــه » كل « شعوب » المنطقة ، لان المفروض أن تنقرض هذه « الشعوب » وأن تتم ابادتها بالسلاح أو بنفيها الى صحراء الجزيرة العربية والسودان والشمال الافريقي ، حتى يحصل الاسرائيليون على أرضنا « نظيفة » بالتعبير العنصري البغيض .

ومع هذا فان القضية الاجتماعية مطروحة بدرجة مـــن الحـــدة لا يمكن تجاهلها . لان الاقطار المهددة ـ وغيـــر المهددة بصورة مباشرة ، ما تزال تعاني من كثير من العلاقات الاجتماعية المتخلفة ومـــن الاوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية غير الانسانية ، سواء بتأثير الطبقات الحاكمة التي ما تزال تضغط على قمة الهرم الاجتماعي أو بتأثير بقايا نفوذ هذه الطبقات حتى بعد ازاحتها من مراكز السيطرة السياسيـــة ، أو بتأثير طبقات جديدة او ناشئة ، علاوة على ارتباط القوى الصهيونية ـ التي تهدد وجودنا القومي ـ بأكبر القوى العسكرية والاقتصادية الاستعمارية ، وهذه القوى الاخيرة لها مصالحها الهائلة في منطقتنا ، ولها أيضا حلفاؤها أو أصدقاؤها من بين الطبقات المالكة والحاكمة في عدد من أقطارنا ذاتها ، وأحيانا من بين الفئات المثقفة أو المتعلمة فـــي هذه الاقطار نفسها أو في غيرها ، ومن المؤكد أن الجهد السياسي أو العسكري أو الثقافي الذي تبذله شعوبنا في مقاومة العدو «القومي» تعرقله وتستهلكه هذه الظروف الاجتماعية المتخلفة ، وبذلك يكـــون الصراع ضد هذه الظروف وضد الفئات الاجتماعية التـــي تصنعهـــا وتحافظ عليها ـ ايا كان هذا الصراع ودرجة حدته ـ هو فـــي الوقت نفسه صراعا من اجل زيادة كفاءة الصراع ضد العدو « القومي » .

هذه هي القضية المطروحة أمام مسرح « المقاومة » العربي . انه يقاوم عدوا عنصريا يهدف الى ابادة الشعب الذي ينتج هذا المسرح ويتفرج عليه ، وليس الى مجرد احتلال أرضه أو استغلال شعبه ، رغم أن الاحتلال والاستغلال قد يكونان مرحلة من مراحل تحقيق الهـــدف الاساسي : الابادة . وهو يقاوم ضد ظروف وعلاقات اجتماعية واوضاع سياسية واقتصادية وثقافية متخلفة ، فرضتها ـ وتفرضها ـ فئـــات اجتماعية ربما كان التخلف هو مصدر ربحها وسند سلطتها ، ولكـــن التخلف أيضا هو الطريق الوحيد المفتوح أمام العدو لكي يبيدها هي الاخرى مع كل فئات شعبنا . وهو يقاوم ضد كل عذابات الانسان في عصرنا الحديث أيضا ، لان بلادنا ليست بلادا مغلقة ، ولم تسدل بين نفسها وبين كل تيارات العالم الحديث وصراعاته ومصادر عذابـــه وتمزقه أي ستار .

وفي الوقت نفسه فان مسرح « المقاومة » العربي ، يكتب مسرحياته ويعرضها لجمهور ـ في حالات معينة ـ لم يعرف الفن الدرامي نفسه على الاطلاق ولم يسمع عنه ابدا ، وفي حالات معينة اخرى يكون هذا الجمهور بعيدا عن التآلف مع هذا الفن رغم معرفته به تحت تأثيـــر فنونه المحلية غير الدرامية ، او يكون قد بدأ يألفه ولكنه نتيجة لظروف نشأة الفن الدرامي نفسه قد ألف نمطا معينا من هذا الفن قوامه المبالغة الميلودرامية أو التهريجية ، علاوة على أن ثمانين بالمائة من افراد هذا الجمهور أميون تتحكم في عقولهم وأرواحهم ثقافات غيبية موروثة من ماضيهم المزدهر الذي تدهور ازدهاره وتحلل مع الزمن ! .

فاذا كان هذا هو الاختلاف بين المسارح السياسية والاجتماعية التي نعرفها وبين مسرح « المقاومة » العربي ، فأين هو وجه الشبه بينه وبينها ؟

اننا نعتقد أن هناك تشابها في القضية « العامة » ـ أو بتعبيـــر أكثر دقة في « تسمية » القضية العامة التي تشغل هذه المسارح . ونعتقد أن هذه القضية هي قضية « الحرية » . كانت قضية تحـــرير الانسان من القهر الطبقي والسياسي ومـــن الفقـــر والاغتراب والتمزق النفسي أو الحرب أو الدولة الشمولية أو التسلط الاستعماري أو الاذلال أو التخلف الاخلاقي ، كانت قضية تحرير الانسان ، أو تحـــرير « روحه » من هذا كله هي القضية التي شغلت كل تلك المسارح التي نعرفها في الغرب أو في الشرق .

ولكن مسرح المقاومة العربي يواجه هذه القضايا مجتمعة أو يواجه بعضا منها ويواجه في الوقت نفسه قضية « ابادة » شعبه كله وقضية « سلب » وطنه منه . والابادة هنا معناها معروف وواضح ، معناهـــا « قتل » هذه الملايين العديدة ان لم يكن بالسلاح فباجبارها علـــى الاستسلام للاستغلال والجهل والاوبئة والفقر ، ثم بنفيها من «الاراضي» الخصيبة الى الصحراء حيث يقضي عليها المرض والجوع . أمـــا أن « يسلب الوطن » فنعتقد ان المعنى المباشر لذلك التعبير لا يكفـــي لتوضيح أبعاده . ليس الوطن المسلوب أرضا محتلة أو مجرد اقليـــم جغرافي كان العرب « يحتلونه » ثم يطردون منه . الوطن نتاج لعمـــل انساني طوال اجيال عديدة من الاسلاف ـ بكل ما يتصف نتاج عملهم من عظمة او حقارة . ولهذا فان الوطن ليس مجرد اقليم جغرافـــي يعيش فيه الانسان ثم ينفى منه ، بل هو تاريخ هذا الانسان او هـــو العمل الانساني الذي بذله له أسلافه والذي ورثه هو منهم والـــذي عليه هو أن ينميه وأن يطوره وأن يصنع على أساسه ووفقا لظروفـــه الجديدة عملا جديدا . ان سلب الوطن ، معناه سلب الارض والحياة والزمن كله ، التاريخ والحاضر والمستقبل وكل ما ضمته الارض والحياة وتضمنه الزمن من عمل انساني .

هذا هو المطلوب من العرب : أن يتحولوا الـــى جنس منقرض حينما يسلب « وطنهم » . ان قضية « الحرية » تكتسب هنا معنـــى لم تعرفه الشعوب الاخرى التي انتجت ـ أو كانت قادرة على انتـــاج المسرح . الحرية هنا عمل انساني هدفه هو تحرير الارض والحيـــاة والزمن وتراث العمل الانساني وفرصة استمراره . وهذا النوع مـــن العمل الانساني ـ من النضال او من المقاومة ـ لم تعرفه الشعـــوب الاخرى . انها لم تعرف هذا النوع من « الحرية » ؟ بينما هذه الحرية نفسها هي محور التزام مسرح المقاومة العربي والتي يتميز بها هـــذا المسرح عن المسارح الملتزمة الاخرى .

انها مشكلة حقيقية أمام الكاتب المبدع وأمام الناقد على السواء ، ونحن لا نقصد هنا مشكلة الشكل ، طالما كان الشكل مشكلة فنية تطرح من جديد مع كل عمل وتتطلب حلها الجديد في اتساق مع الموضـــوع والرؤية والمعالجة ، وليس مجرد قالب جاهـــز خاضع لقوانين مطلقة ثابتة وخاضع للنقل الحرفي . ان المشكلة لا تنبع الا من خلال التـــزام الكاتب المبدع لمسرح المقاومة العربي بالبحث عن مصادر ابداعه الخاصة في منبعها الممكن الوحيد : حياة شعبه ونضالاته وعذاباته وصراعاتـــه ومطامحه ، دون ان يأمل كثيرا في عون يتلقاه من أي نوع مـــن المسارح الملتزمة بقضية مشابهة الا في الحدود التي تتماس عندهـــا حواف القضايا .

واذا كانت هذه هي مشكلة الكاتب المبدع فانه اذ يحلها ـ بابداعه لعمله ـ فانما يطرح على الناقد مشكلته الخاصة . وحينما يشرع الناقد في معالجة مشكلته فانه ـ أيضا ـ لن يكون مزودا الا بالقليل مـــن تجارب انتجتها الشعوب الاخرى وتلامست حوافها مع حواف تجارب كتاب شعبنا .

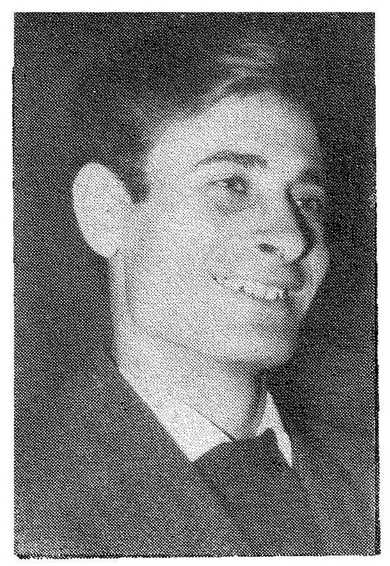
وعلينا الان أن نتجه الى ما ابدعه هؤلاء الكتاب .

ـ التتمة على الصفحة ١٥٤ ـ

محمود درويش

قفزتان في عشر سنوات

بقلم غسان كنفاني



ما يلفت النظر في محمود درويش ، بالاضافة الى موهبته الطاغية والتزامه الذي رد الاعتبار لقيمة الالتزام كقيمة تغني العمل الفني ولا تفسده ، سرعة تطوره التي تشبه ضربة عصا سحرية ، ندر ان حدث مثلها لدى اي شاعر معروف .

ففي فترة قصيرة ، تقع على وجه التحديد بين عامي ١٩٦١ و ١٩٦٣ ، كان محمود درويش اثناءها ينتقل من عامه العشرين الى الثاني والعشرين ، حدث شيء هام وغريب في مستوى العمل الفني للشاعر . فقد انتقل دفعة واحدة ، نحو الامام ونحو العمق ، شوطا كبيرا لا يصدق ، ويبدو للوهلة الاولى وكأنه نوع من « التقمص » ، استبدل شاعرا ركيكا لا تلفت نظره الا الخدوش على السطح ، ويتعامل معها بعصبية جاهلية ، بشاعر يتدفق بطوفان عميق الوعي ، يرى العالم من خلال وقفة ثابتة الاقدام ، واثقة من نفسها ، وقبل كل شيء : قادرة يوميا على اثبات صوابها وعمق غورها .

بالطبع استطاع محمود درويش ، بعد تلك القفزة الاساسية ، ان يواصل تطوره ، ولكن ذلك التطور لم يكن الا الشكل الطبيعي للنضج واستكمال الافق ، وهو لافت للنظر بدوره ، ولكنه قياسا على ذلك التطور الذي مارسه الشاعر بين ١٩٦١ و ١٩٦٣ ، يكاد لا يستوقف الباحث : فالتطور الاول كان نوعا من الاكتشاف الذي قذف بالشاعر الى مستوى مختلف كليا شكلا وموضوعا ، اما المراحل اللاحقة من التطور فقد كانت الرقي الطبيعي للموهبة ، وتكامل النضج للرؤيا .

سنجد نوعا من « المحطات » ترينا بوضوح تفاصيل هذه الرحلة الشيقة :

ففي اواخر ١٩٦٠ (ليس ثمة تحديد حاسم للموعد ، والمشكلة هي بالضبط مشكلة غياب المصادر الدقيقة) نقرأ لمحمود درويش هذا النوع من الشعر ، قصيدة عنوانها « عشقت غريبا » : « وعلى طريق القريه

تمشي صبايا القريه
بطهارة وبفتنه
ويسرن كالانسام ارواحا بريئه
الا « وهيبة »
مرتاعة النظرات واجمة كئيبه ..
تلك التي بالامس كانت جذلى طروبه
فتغامزت اترابها ، وعيونهن مسائله
عن سر وحشتها الرهيبه »

ثم يقول ، مفسرا ذلك المشهد : « وتنام أجفان الحياة

الا بكاء من كئيب موجع
ينسل من اعماق بيت
من بيوت القرية ،
هي بنت شيخ القرية
تبكي وتصرخ باكتئاب
والسوط محمر الاهاب
مغسولة جنباته بالدم ..
من دم الكئيبة .. »

ويمضي ، مستفيضا بالشرح والتفسير ، على لسان والد «وهيبة» الذي يكتشف ان ابنته تعشق غريبا :

« النذل ابن النذل ، يعشق ابنتي
يا ويله من غضبتي
سأذيقه مر العذاب
من أهله !
غرباء حلوا عندنا
نور اهانوا عرضنا »

وفي حوالي عام ١٩٦٣ ، يكتب محمود درويش :

« عسل شفاهك . واليدان
كأسا خمور
للآخرين
الدوح مروحة ، وحرش السنديان
مشط صغير
للآخرين
وحرير صدرك ، والندى ، والاقحوان ..
فرش وثير
للآخرين ..
وانا على اسوارك السوداء ، ساهد
عطش الرمال انا
واعصاب المواقد !
من يوصد الابواب دوني ؟
اي طاغ ؟
اي مارد ؟
سأحب شهدك ..
رغم ان الشهد يسكب في كؤوس الآخرين
يا نحلة !
ما قبلت الا شفاه الياسمين »

مما لا ريب فيه ان ثمة قفزة مذهلة في تلك الفترة الوجيزة ، ليس في الشكل ايضا ، ولكن في تلك الرؤيا التي باتت تجمع ، في مزيج غريب ومتعاكس ، صوفية الوجد ومنطق المعتقد المادي .

ما الذي حدث في تلك الفترة بالذات لمحمود درويش ؟ كان شابا في العشرين من عمره ، وكان قد اصدر قبل ذلك بعامين ديوانا ركيكا اسمه « عصافير بلا اجنحة » ، ولكن ماذا حدث في عام ١٩٦١ بالضبط، وهو الموعد الذي يكاد يكون حاسما وواضحا كنقطة قفز ، قلبت الشاعر جوهريا الى شاعر آخر ؟

يقول لنا محمود درويش (✶) :

(✶) في مقابلة اجراها الاستاذ محمد دكروب معه في موسكو مؤخرا ، ونشر نصها في « الطريق » (ت٢ ، ك١ ــ ١٩٦٨) ــ بيروت.

ـ « حاولت السلطات الاسرائيلية تقديمي الى المحاكمة في عـام ١٩٦١ على قصيدة عن غزة واستدعيت الى التحقيق ، وقدمت لي لائحة اتهام ، ونشرت الصحف ان العقوبـة ستبلغ خمس سنوات سجن ... واذكر (ايضا) انني في عام ١٩٦١ وجدت نفسي فـي غرفة التوقيف لمدة عشرة ايام بدون تهمة وبدون تحقيق » .

ويقـول :

ـ « في عام ١٩٦١ دخلت الى الحزب الشيوعي ، فتحددت معالم طريقي وازدادت رؤيتي وضوحا ، وصرت انظر الـى المستقبل بثقـة وايمان ، وترك هذا الانتماء اثارا حاسمة على سلوكي وعلى شعري » .

هاتان الحقيقتان ، معا ، في منتهى الاهمية لانهمـا يحددان شيئين متلازمين ، ضروريين للشاعر ، وهما ـ أن جـاز التعبير ـ « الـدرع والرمـح » .

ويبدو أن محمود درويش يعي ذلك تماما : « لقد احسسنا ان غزوا ثقافيا لنشر العبرية يزحف الينا ناعما ، فكان لا بـد لنـا من ان نمنح انفسنا الوقاية » و « لكي يفعل شعر المقاومة مفعوله عليه ان يكون عملية للتغيير فيتسلح بنظرية ثورية ذات محتوى اجتماعي » .

ذلك شيء مهم للغاية ، لانه حمل محمود درويش في رحلته دائمـا نحو الامام ، ونحو استكمال رؤيا واحدة للعالم . لم يكن صاحب «وجهة نظر » ولكنه طور ذلك الى رؤيا كاملة وواحدة للعالم ، فصارت الاشياء والقضايا في عينيه اكثر منطقية ، وبالتالي في شعره .

في تلك الفترة التي كان محمود درويش فيها يقوم بقفزته، نستطيع ان نرى شاعرا آخر ، يفعل الشيء ذاته ، وبينهما يكمن الفارق .

ففي الوقت الذي كان الدرويش يتجه نحو اليسار ، كان راشـد حسين يتجه نحو « الوسط » ، ان لم نقل اليمين .

لنتابع ذلك الحادث بدقة : في الفترة التي كتب بهـا الدرويش قصيدته عن « وهيبة » التي سجلنا بعض مقاطعها اعلاه ، كتب راشـد حسيـن : « امس التقيت بساعة سوداء من ماض مرير

فرأيت نفسي في زحام قوافل سمر اسير
وجميعنا لثم التراب وجوهنا
كي يلثم الترف الندي جبين سمسار حقير
فجزعت ، خفت بان تكوني بنت ملاك كبير
..... ونمر في اطيانكم يوما فيصدفنا أجير
قذر الثياب ، فتبصقين على التراب
فاحس في عيني اعصارا وفي بدني سعير
واقول : يا بنت الامير
انـا كل شعري للاجير »

ويتطور راشد حسين ، في الاعوام الثلاثة اللاحقة ، الـى درجة جديدة ، وفي الفترة التي يكتسب فيها الدرويش تلك الرؤيا الواحدة للاشياء ، التي اخذنا نموذجا لها فـي قصيدة « عسل شفاهك » ، يكتب راشد حسين : « وبعت التراب المقدس

يـا انذل العاشقين
لتدفع مهري ؟
وتبتاع لي ثوب عرس ثمين ؟
فماذا اقول لطفلك أن قال :
هل لي وطن ؟
وماذا اقول له ان تساءل :
انـت الثمن ؟
سحبت الحواكير من شعرها
وبعت جدائل زيتونها
وأرخصت في السوق عرض السهول
وبعت وفاء بساتينها
وقطعت اثداء رمانها
ومزقت حلمات ليمونها »

ـ التتمة على الصفحة ١٦٦ ـ

القدس في عينين

« في نيويورك .. وأخت فلسطينية فـي المستشفى لعلاج عينيها ..
« وسقوط القدس فـي الخامس مـــن حزيران .. وهذه القصيدة .. »

لون عينيك نخيل
لون عينيك دوالي
لون عينيك كحبي القدس ..
غال .. ألف غالِ
وصبور لون عينيك كأمي
وحزين كسهولي
وعنيد كجبالي

***

لون عينيك أبي يفرس تفاحا ..
وتينا
ويقول :
« ازرع !.. فما تزرعه يضحي بنينا
ويغني :
« يا ليالي !.. يا ليالي !..

***

لون عينيك صلاح الدين
من دون رجال
وعذاب لون عينيك لاشباه الرِّجالِ

***

لون عينيك حصاد
لون عينيك بيادر
لون عينيك سلام
وطني فيه مسافر
وقصير لون عينيك كعمري
وجريح مثل شعري
وطويل كاعتقالي
لون عينيك حمام .. ونسور ..
في خيالي

نيويورك

راشد حسين

أيديولوجية الفداء

اتجاهات ونماذج

بقلم
أمير اسكندر

« أن الفدائي مصلح اجتماعي ، أن الفدائي يحمل السلاح تعبيرا عن انتفاضة الشعب ضد مضطهديه . أن الفدائي يقاتل في سبيل تغيير النظام الاجتماعي القائم الذي يخضع اخوته غير المسلحين للذل والفقر ... » (شي جيفارا)

« .. لن نضحك
اذا لم نضحك معا
لن نغني
اذا لم تنته دموع العالم !.. » (منلاوس لاودمس)

« نحن بذور دفنت في باطن الارض يا بطرس .. ذلك هو جيلنا ، وهذا ما ندعوه أنفسنا . لن تنبت كلها ، ولن ترتفع كلها فوق الارض عندما يقبل الربيع . ولكن لا تظن اننا نخاف ذلك ، نحن نعرف هذا ونعيش بهذه المعرفة . ولسوف تفرش العناقيد الناضجة اعراشها فوق القبور التي تدوسها الاقدام ، ولسوف تنسى تلك القبور.. كل شيء سوف يصبح يوما نسيا منسيا : الجزع ، والحزن .. ولكن القطاف فقط سوف يقول لجيلك عنا ، الاحياء منا والاموات : خذ وكل لان هذا هو جسدي !.. » (جوليوس فوتشيك)

« الفداء » كلمة شاع استخدامها في عالم اليوم . ويندر ان نفتح صحيفة او مذياعا أو أية وسيلة أخرى من وسائل الاعلام ، دون ان نحس بهذه الكلمة تفرض نفسها فرضا على قاموسنا في الكتابة ، وتحتل مكانا بارزا في الوجدان المعاصر . وكيف يستطيع انسان هذا العصر ان يتجاهل المعارك الدامية التي تجري منذ سنوات في شعاب أمريكا اللاتينية ، وغابات افريقيا ، أو يغمض عينيه عن الملحمة البطولية التي يدور رحاها كل لحظة في فيتنام ؟

واذا كانت قوى الشر في العالم قد استطاعت لسنوات عدة ان تموه على الضمير الانساني ، وتلبس دولة عنصرية اقامها الامبرياليون قاعدة لهم ثوب الشرعية ، فأن ذلك الضمير الانساني قد بدأ يستفيق من جرعات الاكاذيب المكثفة ، والاضاليل الملفقة ، ويستشعر نوعا من الاحساس بالذنب ، او على الاقل لونا من ألوان الشعور بأن ثمة خطأ قاتلا يكمن في ذلك البناء الذي بناه ، او الذي بني يوما تحت سمعه وبصره ، دون أن يطرف له جفن او ترتفع له يد لتقول « لا » ، وكان من نتيجته مئات الشهداء ، وملايين من المشردين والضائعين ، وتكريس للاغتصاب والقهر والظلم !

وصحيح ان سقوط الاقنعة عن النيات التوسعية لدى حكام اسرائيل ، والنشاط الواسع للاجهزة الدبلوماسية العربية بعد وقوع النكسة ، والوقفة الثابتة للغالبية العظمى من الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي (اننا نستثني هنا بالطبع من هذه الدول رومانيا نظرا لموقفها المتردد المشوب بالعطف على اسرائيل) ، فضلا عن الموقف المتفهم الواسع الافق الذي اتخذته فرنسا اخيرا ، صحيح ان هذا كله قد ساعد على افاقة الضمير الانساني من خدره ، او ربما كان هو في حد ذاته تعبيرا عن هذه الافاقة ، ولكن ينبغي ان يقال في غير قليل من الحسم ان وقفة الشعب الفلسطيني نفسه ، وصموده رغم المأساة ، ثم انطلاقه في العمل الفدائي متصاعدا بالمقاومة على طريق حرب التحرير الشعبية ، هو العامل الاول ، الذي استطاع ان يشد انظار العالم ، ويكسب عطف الشعوب ، ويجند خلفه الشرفاء في كل مكان !

« الفداء » هو الذي قدم المعادل الموضوعي للحق ، وهو الذي عمد القضية بالدم ..

« الفداء » هو الذي اضاف للمأساة ــ فضلا عن بعدها الانساني ــ بعدها الواقعي ، والسياسي ، والحضاري ..

« الفداء » هو الذي أعاد لكل تضحية جوهرها ، لكل شهادة مغزاها ، هو الذي أعاد الروح لكل مناضل أسلم روحه على خشبة الصليب ــ أي صليب ــ منذ دقت المسامير في أجساد رفاق سبارتاكوس ، واقيمت صلبانهم على الطريق الابيوس ، في روما القديمة .. حتى الآن ..

فما هي تلك القوة النفسية او الاخلاقية او الفكرية التي تكمن خلف العمل الفدائي ؟ واية دوافع تثير ثائرته وتحفز انطلاقه ؟ وما الذي يجعل المرء يختار هذا الطريق المحفوف بالمكاره والمخاطر ، ويقدم على القفز فوق الهوة التي تفتح اشدافها في كل لحظة ؟ أسئلة كثيرة ، تلح على أي متأمل في تلك النماذج الانسانية الرائعة التي عاشت في كل عصر ، وحملت على عاتقها مهمة الانتقال بالعالم من عصر الى عصر !

***

ومع ذلك ، ليس من الخير ان نسلك طريقنا الى تأمل تلك النماذج واستبطان أعماقها ، دون ان نتعرض لمدلول كلمة « الايديولوجية » التي شاعت هي أيضا في استعمالاتنا اليومية ، دون ان نتفق دائما على معناها المحدد ، خصوصا وان عنوان هذا المقال قد اختارته « الآداب » مسبقا ، ومن ثم لا بد من تحديد ما يعنيه استخدامه في هذا المجال ، في تصوري على الاقل .

١ ــ ما من شك في ان الاصطلاح ما زال يثير كثيرا من اللبس ، وذلك لانه لم يستخدم منذ نشأته حتى الآن بمعنى واحد . فلقد كان الفلاسفة الفرنسيون يستخدمون هذا اللفظ في القرن الثامن عشر للتعبير عن المعرفة النفسية والفلسفية وتحقيق الافكار . ولقد اشار الفيلسوف « تراسي » « Tracy » الى هذا اللفظ عام ١٧٩٦ امام المجلس الوطني في فرنسا ، حين اقترح اطلاق كلمة ايديولوجية على الفلسفة العقلية .

٢ ــ ولقد اشار معجم اكسفورد الى ان الايديولوجية هي علم الآراء والافكار ، او هي ذلك الجزء من الفلسفة او علم النفس الذي يبحث في أصل وطبيعة الآراء والافكار والمعتقدات ، ولا يختلف هذا التعريف كثيرا عما ذهبت اليه موسوعة « كولبير » الامريكية من ان الايديولوجية هي العلم الذي يبحث الآراء والنظريات والمعتقدات التي تنشأ عن الافكار الاساسية التي تعتنقها جماعة معينة .

٣ ــ ولقد ذكر « هنري. د. أيكن » في كتابه « عصر الايديولوجية » ان ماركس وانجلز لا يقصران كلمة الايديولوجية على التعريف بالنظرية السياسية ، بل انها تتناول كذلك علم النظر الجدلي والاخلاق والدين واية صورة من صور الوعي التي يعبر من خلالها عن وجهات النظر الاساسية لمجتمع ما او لطبقة اجتماعية . (وهذا يختلف عن صورة الوعي عند الافراد ، لان هذه الصورة ــ فيما يرى ماركس وانجلز ــ انما

ــ التتمة على الصفحة ١٦٧ ــ

استراتيجية العمل الفدائي

بقلم سمير كرم

السؤال الاساسي والاول الذي يطرحه التفكير في موضوع استراتيجية العمل الفدائي ، والذي لا يمكن دون الاجابة عليه الانتقال من التجريد النظري في الموضوع الى مستوى التطبيق وحفر ارض الواقع ، هذا السؤال هو : هل هناك استراتيجية واحدة لكل عمل فدائي ؟ وبعبارة اخرى ! هل استراتيجية العمل الفدائي في دول امريكا اللاتينية .. مثلا هي استراتيجية العمل الفدائي في فيتنام ، هي استراتيجية العمل الفدائي في فلسطين المحتلة ، أو في المستعمرات البرتغالية في افريقيا ..؟

لقد رسخ مفهوم الاستراتيجية كواحد من المفاهيم العلمية التي لا غنى عنها في تحديد قضايا العمل الثوري بكل أبعاده السياسية والعسكرية بعد أن كان مفهوما قاصرا على الجهد الحربي البحت . بل ان استعادة مفهومي الاستراتيجية والتكتيك من قواميس الحرب لاستخدامها في قواميس الثورة والتحرر الوطني والنضال الشعبي لم يكن من ضروب الصدفة ، بل كانت له أسبابه الموضوعية ودلالاته . فانه لا يمكن قيادة حرب ثورية دون دراسة قوانين الحرب الثورية كما ان « قوانين الحرب .. هذه مسألة ينبغي على أي امرىء يدير حربا ثورية أن يدرسها وأن يحللها » (ماوتسي تونغ) .

لكن .. ليست هناك فحسب قوانين مطلقة للحرب الثورية ، بل هناك قوانين أيضا لكل حرب ثورية على حدة . فان قوانين الحرب — حتى القوانين العامة الاستراتيجية منها — تتطور ، وتطورها مرتبط بواقع البيئة التي تدور فيها وظروفها وكوادرها الثورية ومقاتليها . وهذا هو بالتحديد المعنى الذي قاله ماوتسي تونغ — في واحد من أشهر المؤلفات عن « استراتيجية الحرب الثورية » — « انه لا ينبغي علينا وحسب أن ندرس قوانين الحرب بشكل عام ، بل يجب علينا أن ندرس القوانين الخاصة بحرب ثورية بعينها » .

ولا يعني هذا بأي حال من الاحوال أن هناك جدارا أو حائطا صينيا عظيما ، يفصل بين تطور الحروب الثورية المختلفة ، ولا يعني ان فيتنام تجربة لا تستحق النظر طالما ان فيتنام بلد غابات، وفلسطين بلد سهول ! وانما هذا يعني في الاساس ان تدار الحرب الفدائية باستراتيجية متطورة تدرس قوانين الحرب العامة كما تدرس قوانين الحرب الخاصة لثورة معينة أو حركة مقاومة بعينها . والامر ليس مجرد أمر البيئة الجغرافية .. ان الاستراتيجية الفدائية تضع في حساباتها اعتبارات أخرى وأهم .. هي اعتبارات الواقع الاقتصادي والاجتماعي والتطور التاريخي للبلد المعين . فاستراتيجية الحرب الثورية في فيتنام تضع في الاعتبار كل هذه العوامل :

- طبيعة النظام الاقطاعي الخاضع للاستعمار السائد في الجنوب الفيتنامي .
- طبيعة التركيب الطبقي للمجتمع في فيتنام الجنوبية .
- وجود الشمال الفيتنامي المتحرر وواقعه الاقتصادي والعسكري .
- وجود المعسكر الاشتراكي والتقدمي وامكانياته الاقتصادية والدفاعية أيضا .

أما الطبيعة الجغرافية للبلد المعين فانها ليست سيفا قاطعا يامر بشن الحرب الثورية الفدائية في بلد وبالامتناع عن هذه الحرب في بلد آخر ، بل ان الدور الذي تلعبه الطبيعة الجغرافية للبلد المعين لا يكاد يغير الا من تكتيكات العمل الفدائي وأساليبه المؤقتة .

استراتيجيات مختلفة

هناك اذن استراتيجية تشكلها القوانين العامة للحرب الثورية .. ومع ذلك فهناك استراتيجيات للحروب الثورية أو الفدائية . وتدخل في تحديد هذه الاستراتيجيات أيضا العوامل المحددة لطبيعة الاختلافات بين حرب ثورية شعبية وحركة مقاومة مسلحة وحركة فدائية محدودة. وبين هذه الكيانات الثورية اختلافات نوعية واختلافات في الدرجة .

العمل الفدائي على أرض وطن محتل على النحو الذي تشكله المقاومة الفرنسية على أرض فرنسا في ظل الاحتلال النازي في الاربعينات يمثل مستوى نوعيا من العمل الفدائي الثوري .. وله استراتيجية خاصة . فالمقاومة المسلحة هنا تتم داخل الوطن الواحد ضد حكم عسكري أجنبي محاط بشعب معاد في مجموعه لهذا الاحتلال . ومهما قيل من ان الاسلحة كانت تأتي لمنظمات المقاومة من خارج فرنسا فان عمليات المقاومة الفرنسية كانت تتم داخل البلاد بأيد فرنسية ضد منشآت العدو ، حتى وان كانت في أصلها منشآت فرنسية . هنا لم تكن المقاومة الفرنسية تستهدف الاحتلال التدريجي لمناطق فرنسية ورفع السيطرة العسكرية النازية عنها . انما كانت تستهدف جعل وجود هذا الاحتلال على أرض فرنسا أمرا غير محتمل من نواحيه الاقتصادية والنفسية ، ربما قبل نواحيه العسكرية . فكانت المقاومة الفرنسية عملا مرحليا في انتظار عمل أساسي تقوم به جيوش الحلفاء ، ثم مساعدة لهذه الجيوش عندما شرعت ومضت في القيام بدورها .

العمل الفدائي لمنظمات التحرير في مستعمرات البرتغال في افريقيا ليس مجرد « مقاومة » وانما هو حرب تحرير لها استراتيجيتها الخاصة التي ترمي الى الوصول الى التوازن مع قوة العدو المستعمر. ثم شن الهجوم عليه والزحف لتحرير الارض المستعمرة شيئا فشيئا واقامة سيطرة متحررة عليها عسكريا واداريا واقتصاديا ، وان لم تشمل هذه السيطرة أرض الوطن كله في وقت واحد .

العمل الفدائي في دول أميركا اللاتينية — في بوليفيا وفنزويلا مثلا — نشاط داخلي ضد قوة داخلية في الاساس مهما كانت المساندة الاستعمارية الخارجية لاحد الطرفين هو هنا عمل يستهدف اسقاط النظام وليس اخراج قوة احتلال . ولهذا العمل الفدائي في هذا المستوى أيضا استراتيجيته الخاصة .

وبهذا المعنى فان العمل الفدائي يمكن أن يكون في أطار حرب وطنية بين شعب وطني معين وقوة خارجة عنه — أو في حرب طبقية ، بين طبقتين أو اكثر في وطن واحد حتى وان كانت جميعها تتم في مرحلة من التطور التاريخي العالمي واحدة .

ان كلمة الاستراتيجية في مصطلحات الحرب يفهم منها انها تعني تحليل الاهداف التي يراد انجازها ، واضعين في الاعتبار موقفا عسكريا كليا وكل الوسائل لبلوغ هذه الاهداف . ولكي نصل الى تقدير استراتيجي سليم من وجهة النظر الفدائية — من الضروري القيام بتحليل أساسي لمنهج العمل الذي سيلجأ العدو اليه . وقوته البشرية وقدرته على الحركة وما يلقاه من تأييد شعبي وما لديه من سلاح وقيادة . وعلينا بعد ذلك أن نضع الاستراتيجية التي تفضل غيرها

— التتمة على الصفحة ١٧٢ —



لم اكن اتوقع يوما ان اكتب في هذا الوضع . في مغارة (في المغارة منعطفات وزوايا صغيرة . شمعة واحدة تكفي . قلم حبر جاف يؤدي المهمة . ثم خفقان الاصابع ، والتعبيرات التي لا تتأخر في المجيء) . سلاحي في حضني وحول خاصرتي . الرفاق يأخذون ساعات الراحة في النوم . في الخارج كل شيء يوحي بالخطر والمفاجآت . حتى صوت الهواء وحفيف الاوراق ، او وقع اقدام الحيوانات الضالة.

كنت أيام الدراسة ، اتوقع ان اصبح موظفا مرموقا ، اجلس خلف مكتب عريض واكتب ، وعندما يخونني المزاج يسعفني فنجان قهوة يتبنى احضاره تلفون بجانبي . لكني اشعر باحترام نحو شخصي، في كوني اتخذ موقعي الطبيعي . في الساعات الاولى من الصباح سننفذ العملية . هجوم واقتحام لمسكر . سأقوم بدور الحماية وتأمين الحراسة ، وبث الالغام لقطع الطريق على النجدات . ليست العملية صعبة . لمن يقوم بها للمرة غير الاولى .

اليوم الخامس من ذلك الشهر ، من ذلك العام ، لم يترك لوعيي وعيا . تعلمنا انها لا تمكث اكثر من ٢٤ ساعة . ثم نذهب الى البحر والمروج والبرتقال . كل الشعوب تضع في حسابها الهزيمة ، الا نحن لم نكن . كأن (خير أمة ..) تكفي . قرأنا دروس الجغرافيا والتاريخ، وانشدنا قصائد وسردنا حكايا برسم الوطن المفقود . (عبد المعطي يشخر بصوت متقطع . هذه عادته . هذه مصيبته . صوته العالي يجعلني اتصور ان ثمة خطرا يطبخ في الخارج لكن صوت الشخير يغطيه . خطر له صوت خبيث وملتف بالغموض ، لكن شخير عبد المعطي الذي لا يكف .. ماذا اقول ؟!) . كأن الوطن جغرافية وتاريخ وقصائد وقصص . اما التراب (هذا التراب الذي اقرفص فوقه الان، واستشعر نبض الحياة والعلاقة فيه ..) علمونا انه عدة انواع ، اذكر منها الصلصالي والرملي والاسود ولا ادري ماذا ايضا . والشجر (قبل شهر تقريبا ، كنا نكاد نتساقط من الجوع . صادفنا شجرة تين عجوزا ، وجردناها من ثمارها . كنت اشعر شخصيا انها امي ، ولي الحق في ان استمد اسباب البقاء منها . الشجر . وفي اليوم التالي اصدرنا بيانا في اليوم التالي) .. درسونا انه شروش وجذوع واغصان ، واشعة شمس فوق بنفسجية ، وتركيب وعقل وسماد ، وما شابه . اتسمع وقع اقدام بشرية . هذا يعني الخطر . خطر التوقف عن المجابهة . تقولون اني اخاف الموت ؟ اجل اخافه . والا لماذا هربت من تلك العاصمة المزخرفة . كنت هناك اموت كل يوم تحت نعال الشفقة والسوحان . جئت الى هنا شغفا بالحياة (خطيبة فواز ، رفيقنا ، اسمها حياة . دائما اسمها على لسانه .. لكن انا متى سأخطب ؟) . كنت اموت بالمجان . كنت جبانا لاني انتحر . بقيت ساعة ونصفا . الكتابة ممتعة مع الشاي والسجائر الحادة ، مثل اطلاق رصاص في ساعة شجاعة . عندما تزوج شقيقي فهد ، اطلقنا رصاصا بما يكفي لابادة كتيبة . اكثر من كان يلزمهم ذلك اعمامي ، وهم كبار في السن ولاولادهم اولاد . كنت ارتعد من الصوت ، لكني كنت اجمع (الفشك) الفارغ وابيعه ، واشتري بثمنه راحة حلقوم ... ماذا يقول عدنان ؟ انه يهذي : ارجعوا لورا . نومة بلا قومة . لأ . بس . عدنان دائما يحلم بصوت عال . عواطفه لا تستقر ابدا ، وهي في حالة حركة وتجدد دائمة . ماذا أحكي عنه ؟ حكايته حكاية . هو اكبرنا سنا . وراءه امرأة ، وثلاثة اطفال . كان فقيرا لدرجة العدم . اشتغل في الحدادة منذ صغره (اية مأساة ان يتعامل الطفل مع الحديد !) . على كل حال نحن كلنا فقراء . مات ابوه عندما سقط عن بناية عالية كان يشتغل فيها ، فاصبح في رقبته مصير العائلة . حتى اصبح (معلما) وفتح محلا . تزوج وسافر الى الكويت . وكانت الايام الستة. الوطن ومسألة العيش يؤرقانه معا .

الان لم اعد اسمع وقع الاقدام البشرية ، لكني اسمع نبض اعصابي ، مثل مقطوعة موسيقية صاخبة الايقاع الداخلي . اشم رائحة غريبة . المغاور تمتاز برائحة فريدة ، مثقلة بالرطوبة والتوجس، غير انها رائحة الامان بالنسبة لنا . كم انفقت من ايام في مثل هذه الامكنة ، قبل أن اواجه رشاشاتهم وطائراتهم ومصابيحهم المضيئة . لا زالت وقائع العملية الاخيرة تتقافز في ذاكرتي . كمين يفاجئنا بالرصاص ، لكن احدا منا لم يصب ، بينما ابدناهم جميعا . ابادة خمسة انفار ، امر ليس سهلا. كنا نرفع رؤوسنا فنلحظ فوهات الرشاشات . يحاربوننا بالنار فقط . كادت زخة ان تجهز علي ، لكن تمترسي انقذني . الصوت والصدى ، والزمن الذي يفعل فعله.الزمن عند ذاك لا يكون ضائعا قط . اتذكر الان حكايات الشباب الصغار الذين ((يضيعون)) . في الطريق التي يعرفونها يضيعون .. اي منطق؟ والاهل الذين يسألون . منير ، رفيقنا ، واحد منهم ((ضاع)) قبل نصف سنة (شاب حنطي طويل القامة ، تميزه شامة في منحدر عنقه . يرتدي بنطلونا بنيا وقميصا أسود ، لون العيون كذا ولون الحذاء ..) . نائم وممعن في الاغفاء ، ومسحة البراءة تشعشع في وجهه .

ــ ماذا تفعل ؟

احمد تجيئه هواجس ، وتتراكم احيانا حتى تتحول الى كابوس. غرابة تطل من عينيه المحمرتين ، ويعتمد في جلسته النصفية على ساعديه ..

ــ اكتب ..

ــ وقت كتابة صحيح .. طيب كم بقي من الوقت ؟

ــ اكثر من ساعة .

ــ لو تسقيني ..

ــ الابريق وراء رأسك .

شرب بنهم الرضيع ، ومسح بطرف كمه ، الماء عن فمه ، ونظر الي لبرهة .

ــ اكتب . اكتب . الله يكتب لنا النصر .

اراهن انه بعد نصف دقيقة قد غاب . سلطان النعاس يخفف وطأة الخطر . عادة اتأخر قبل ان اغفو ولو في مثل هذا الموقف . لا اترك نهاري قبل ان احاسب نفسي واحاكمها . لا يعنيني كثيرا كلام الجرائد . الجرائد لا تفهمنا . نحن بشر ولم ننزل من السماء . السماء في منتهى العتمة . والدنيا عباءة سوداء مثل عباءة امي . لكن امي لا تخاف الحرب ، ولا تخاف على ابنها الوحيد . ماذا تراها تفعل الان ؟ كثيرا ما انساها وانا هنا ، غير اني احيانا اذكرها دون ارادة. اتذكر باستمرار سلاحي وطعامي وسجائري. وعندما يتاح لي النوم ادرك صلتي بالخارج . العالم يختصر نفسه بالمواجهة والتحدي بالنسبة لي ... ما

هذه الخبطة ؟ . اشعر بارتباك في أعصابي . اشعر بدبيب الخطر (اللحظات تمر بطيئة ومتثاقلة ، وحافلة بالتوقعات ، ويعود الصمت يفترش المكان) . أدمنت هنا على الخطر ، لكنه لم يفقد حدته بعد . تعودنا على السعي الى العيش . الخطر يؤدي الى العري . اصيب رفيق لنا مرة بهستيريا الخوف وهرب . حملناه الى اقرب ملجأ ، وفي الصباح أنكر انه فعل . ليس يقدر رجل على مثل ذلك الاعتراف فكيف اذا كان واحدا منا ، وهو اليوم اكثرنا مبادرة . هذه المرة لن يرتج الرشاش تحت ابطي ولن تخونني أصابعي . سأبث الالغام في اقصر وقت ممكن . لا احد يعرف ماذا نفعل وكيف يمضي الوقت بنا. نخرج من الموت كل يوم . البيان الواحد يكلفنا اعصابا كثيرة ، ولم تزل اعصابنا لدينا (كانوا يقولون لي ابو عصب ، الاطفال ، من فرط هزالي . ينادونني الان أبو حديد .. أي مسافة قطعتها بين اللقبين؟). الهدف يبعد عن هذا المكان ، ساعتين مشيا . لكن كيف نمشي . لن افصح . اي انه بقيت ثلاث ساعات ويكون الالتحام . اتطلع الى جسدي . صلب حقا ، ومع ذلك رصاصة واحدة كافية لسحب الحياة منه . اية مأساة ان املك بدني مرة واحدة في العمر ؟ . بين لحظة واخرى التفت الى الساعة الملتصقة بمعصمي . اسمع دقاتها بكل الوضوح . انها تفودني . عقربان وارقام وتكتكات . وعندما يدور العقرب الصغير ثلاث دورات أخرى ، اكون في منتصفها .. المعركة . يا اهلا بالمعارك . (احرصوا على الانضباط والسرعة . لا تنسوا شيئا . ليكن عقلكم دائما في رؤوسكم . حاولوا ان تحملوا الجريح واذا كان في ذلك خطر عليكم اتركوه . لكن لا تفرطوا به بسهولة . هيئوا السلاح وتفحصوه قبل البدء . انتم تستعيضون عن صمم العالم كله بسلاحكم . فلا تدعوه يخونكم بالاهمال او الخطأ) . نبرته واثقة ومفعمة بالرجولة ، قائدنا . اتذكره بشاربه الكث وعيونه الدقيقة ، وجبهته العريضة . لا يغفر لاحدنا أي تقصير ، وعندما يبدر منه ما يمكن ان يكون كذلك ، فانه لا ينسى أن يحاسب نفسه. مرة نسي طبقه دون ان ينظفه ، فنسيه الطعام على مدى يوم كامل .

بقيت ثلاثة ارباع الساعة . مع اقتراب الوقت يبدأ التهيؤ يشمل كياننا . تركيز الذهن ضروري جدا ، ولحظات المرح لا بد منها ،وشخير عبد المعطي يبدو كأن لا بد منه . هذه ظاهرة ينبغي ان يتخلص منها ولو تخلص من انفه !.. ماذا اسمع . انه ازيز صرصار الزيتون . لحنه مميز وواضح ، لكنه رتيب ومضجر . يذكرني بايام قطف الزيتون، وكيف كنت انقل الاكياس الثقيلة على البغل طيلة النهار ، وفي الليل احيانا الى المعصرة . نحن نسميها (بد) . واللصوص وزيت الخراج وحليمة .. آه منك حليمة ! . اتذكرها . تزوجت الان . نحن نذكر من نحب في اوقات الراحة، وفي اوقات المصير . بعد دقائق ساوقظهم . لا احد يتأخر في النهوض ، كما لو ان صوتي يفتل مفتاح منبه في داخلهم . كم تتضاءل المسافات ما بيننا . المصير الواحد يفتح حقائب أسرارنا وخصوصياتنا . هذه المذكرة ، ساضعها في جيب القميص التحتاني . اعشق كتابة يومياتي وخواطري . قبل ان التحق بهم كنت اكتب عن حمى الجنس ومآزق البحث عن اليقين .. لم يكن من مأزق ، ما اضيق افقي ايامها . لم اعد اكتب اليوم شيئا سوى المذكرات واحيانا رسائل . غير ان الكتابة التي تخصني اكثر من سواها، هي الكتابة بغير القلم ، وعلى غير الورق . اسمع انفاسهم ، وبعد لحظات اسمع اصواتهم المحببة ، ومن بعد دوي الرصاص وشهقات النيران المرتفعة .

سأوقظهم الان ، كي نرفض معا هذا المسمى بالعالم .

***

بعد ساعتين وبضع ساعة ، وفي مكان ما من ارض الفلسطينيين، زغردت اصوات ثاقبة ، انطلقت من فم النيران ، فوهات البنادق . انزلق الرشاش من تحت الابط ، او ، بيد ان كلمات مشلوحة بحبر جاف ، اختلطت بالاحمر . كان الرجل يكتب مذكراته بغير القلم ، وعلى غير الورق ، تلك المرة . كان جسد الارض يخفق من السخونة ، وشقائق النعمان تنوي أن تتبثق بين يدي الفجر .

مضى عبد المعطي واحمد وعدنان ومنير والرفاق الاخرون عائدين الى القاعدة .

وازدانت الجرائد ببيان جديد في اليوم التالي . لكن الرجل كتب قبل آن يغادر جسده (الجرائد لا تفهمنا) .. هل تلاحظون ؟ .

بيروت

محمود الريماوي

الوحدة العربية آتية !

للمؤرخ البريطاني الشهير
ارنولد توينبي

عرف المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وان مواقفه من اسرائيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الاذهان .

وفي هذا الكتاب يتنبأ توينبي بان الوحدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق ما استغرقته الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية ، ولن تنحرف مثلهما ، بل ان سنة ١٩٧٤ هي الحد الاقصى (كما يقول توينبي) لاشراق نور هذه الوحدة العربية .

ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات التي تعترض الوحدة العربية والوحدة الافريقية ، ولكنه يؤكد ان هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الافراد والاسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجيا ، وان الوحدة العربية قادمة قريبا وويل لمن تعميه مصلحته الموقتة من ابنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها معاداة للخير ، من غير ابنائها ...

وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ، وعرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، وائتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيق لمنطقة « سد الجبل » في أعالي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشادة بالخدمات التي قدمتها مصر لتلك المنطقة . كل ذلك في اسلوب شيق ونفس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي

المرآة

لم يمت بعد ،
بل انساح على ضوء المرايا
وبها تشرق عيناه اتهاما وبشائر
واجه المرآة ان شئت التحدي
او فمت خلف الستائر
أنت ان لم يهدك الضوء بعينيه ،
فلن تهديك آلاف المنائر
واجه المرآة قبل العتب والشكوى
وقبل النوح في صمت المقابر
أنت مهما خبأ الرمل خطاياك ،
ومهما غبت عنا واحتميت
أنت ميت واهم انك تحيا
واهم أنك ميت .

***

حين كنت الخوف في السرب المهاجر
كان حزنا داميا بين الحنايا
وتنامى غضبا في زند ثائر
ماسحا جرحا على جبهتنا
خلفه سيف الزمن
جامعا من كل فج بعض اشلاء الوطن
أنت دمع كاذب في المقلتين
وهو حزن محرق دون بكاء
أنت عذر دائم بين اليدين
عذر من فضـّل اجساد النساء
عذر من خلـّف ابناء ومن خلـّف دين
عذر من شبّ ولم يشبع حياة وهناء
وهو وحده
يسمع الصوت الذي يحمل تاريخ اباء
جاء مجبولا رمالا ودما من كربلاء :
« كل عذر مات في موت الحسين »

***

حينما اشعلت قنديلك بحثا عنه
في ليل الخطايا
كان زيتا في قناديل البيوت
واحتجاجا كان في وجه المنايا
حينما كنت السكوت
وعلى جبهتك السوداء صرخات السبايا
جبت في كل مكان
وهو في صدرك يذوي
ثم يأبى ان يموت .

***

قبل ان ندفن في ضجتنا البلهاء صوته
قبل ان نغرقه بين المحابر
كان في عينيه شيء ..
لم تقله ، بعد ، صرخات المنابر .
حينما اهتزت على الموج المراكب
وانحدرنا .. قبل ان ينحدر السيل علينا
وعرفنا خطوة الموت التي تدنو الينا
حين غابت من ليالينا الكواكب
شدنا سرا اليه .. فأتينا
وأهلنا قهرنا الدامي عليه .. واشتكينا
وعلى جبهته الراجفة السمحاء القينا المتاعب
مد كفيه الى أعيننا
كفكف الدمع وما كنا بكينا
ضمنا بين يديه
دون ان ينظر ، اشفاقا ، الينا
لم نكن نعرف ان كنا اهتدينا
لم نكن نعرف هل حن علينا
ام تراه كان عاتب
لم نكن نعرفه حين اتانا صامتا عبر الحياة
كان نهرا مر في اعماقنا سرا
ففطته العناكب
وحسبنا انه جف .. ومات .
وأردنا كلمة تبكيه ..
همهمنا قليلا ..
فاذا الصوت صلاة .

دمشق

ممدوح عدوان

قضية فلسطين

من مستوى الدعاية الى مستوى التضامن الاممي

بقلم جورج طرابيشي

غداة حرب الخامس من حزيران مباشرة قال المفكر الماركسي الثوري ، اليهودي الاصل ، اسحق دويتشر في حديث له لـ « مجلة اليسار الجديد » البريطانية :

« انني مقتنع بأن انتصار اسرائيل العسكري سيتكشف في مستقبل قريب عن أنه كان في الواقع كارثة ، وبالنسبة الى دولة اسرائيل بالذات في المقام الاول ... لقد استخلص الالمان الدرس من تجربتهم الخاصة ، في صيغة مليئة بالمرارة : « ان النصر يمكن ان يحفر قبرك بالذات » . وهذا ما حدث للاسرائيليين ... اجل ، انه بالنسبة الى اسرائيل نصر اسوأ من الهزيمة . نصر اضعف امن اسرائيل بدلا من ان يعززه » (١) .

ان كلمة دويتشر هذه كانت بمثابة نبوءة ، لا لانها اخر كلمة صدرت عن صاحبها قبل وفاته فحسب ، بل ايضا لان الحركة الفدائية العربية التي كانت السبب الرئيسي في الحرب التي شنتها اسرائيل على الدول العربية الثلاث لم تمت ولم تضمحل ولم تستأصل من « قواعدها » بنتيجة انتصار اسرائيل العسكري ، بل على العكس نمت وتطورت واوشكت ان تتحول الى حرب تحرير وطني شاملة . والدليل ليس بيانات الفدائيين وحدها ، ولا بلاغات العسكريين الاسرائيليين عن تزايد اعمال « الارهاب والتخريب » ، وانما الدليل ايضا موقف الرأي العام العالمي .

لنفتح دونما تعيين اي صحيفة او مجلة اجنبية نجد ان القضية الفلسطينية ، وفي المقام الاول انباء المقاومة العربية ، تحتل في غالب الاحيان مكان الصدارة . ان امامي الان الصحف الفرنسية الصادرة في الاسبوع الاخير من العام الماضي . « النوفيل اوبسرفاتور » الاسبوعية تكرس مقالها الافتتاحي للتطورات السياسية للقضية الفلسطينية ، و « الاكسبرس » الاسبوعية تكرس اربع صفحات لـ « يقظة الفلسطينيين » ، و « اللوموند » اليومية تخصص للقضية نفسها نصف صفحة يوميا .

ما الذي حدث اذن ؟ ان العرب الذين طالما اشتكوا من ان الراي العام العالمي يهمل القضية الفلسطينية ولا يوليها الاهتمام العادل والكافي يجدون اليوم انفسهم امام دوامة هائلة وسيل جارف من المقالات والتعليقات والكتب التي تعبر عن ان الاهتمام الاجنبي والاممي بالقضية الفلسطينية قد ولد . لماذا ؟ هل لان تفاصيل حرب حزيران ما تزال مثيرة للاهتمام ؟ هذا سبب . وهل لان انتصار اسرائيل العسكري لم يحل المشكلة ؟ هذا سبب اخر . ولكن السبب الرئيسي ، الجوهري ، يكمن في ان العرب وجدوا اخيرا ولاول مرة منذ وقوع المأساة (١٩٤٨) الطريق الصحيح لطرح القضية الفلسطينية على الرأي العام العالمي . ونحن لا نقصد بـ « الطريق الصحيح » اسلوب اجهزة الاعلام العربية في مخاطبة الرأي العام العالمي . وكم يبدو لنا بالاساس خاطئا الراي الذي يقول ان جهل الراي العام العالمي بالقضية الفلسطينية يعود قبل كل شيء الى عجز اجهزة الاعلام العربية والى سقم اساليبها . ذلك ان الاعلام هو بالتعريف وفي جوهره اعلام عن شيء . وهذا « الشيء » الذي كان يفترض في اجهزة الاعلام العربية ان تعلم عنه لم يكن موجودا. صحيح ان اجهزة الاعلام العربية كانت تستطيع ان تتحدث عن اسباب الكارثة وجذورها ونتائجها ، وعن الصهيونية واخطارها ، وعن اللاجئين وبؤسهم ، ولكن هذا كله كان ، بمعنى ما ، ابن الماضي . والحال انه ليستحيل ، على مستوى قضايا الشعوب ، ادانة الحاضر باسم الماضي . لقد كان السلاح الاعلامي الصهيوني ، على سبيل المثال ، ضعيفا طالما كان الصهاينة يتحدثون عن الحق التاريخي لليهود في ارض فلسطين ، اذ لم يكن من المعقول ان يتقبل الرأي العام العالمي تشريد شعب راهن او ابادته باسم الحق التاريخي لشعب اخر . ولقد انتبه الصهاينة الاوائل لهذه الحقيقة ولهذا بنوا اعلامهم ودعايتهم على فكرة هرزل القائلة : « ارض بلا شعب لشعب بلا ارض » . وكان المقصود من هذه الفكرة كما هو واضح ايهام الرأي العام العالمي بأن فلسطين ارض جرداء لا شعب فيها يمكن لشعب (اليهود) بلا ارض ان يستوطن فيها (١) . والمبكي ـ المضحك بعد فاجعة ١٩٤٨ ان اجهزة الاعلام العربية ورثت ، بمعنى ما ، نقطة الضعف في الاعلام الصهيوني . فقد بات عليها ان تقنع الراي العام العالمي بوجوب طرد « شعب » راهن من فلسطين باسم « الحق التاريخي » لشعب اخر . وصحيح ان هذا « الشعب الاخر » كان موجودا ، متمثلا في لاجئي المخيمات ، ولكن هؤلاء اللاجئين ما كانوا يمثلون اكثر من « حق تاريخي » ما داموا وما دام الاعلام العربي يصورهم على انهم مجرد كمية بشرية سالبة محرومة لا من حق الثورة وحدها ، بل ايضا من « حق » الانين والشكوى (٢) .

تلكم هي نقطة العجز الخطيرة في موقف الاعلام العربي سابقا : اقناع الرأي العالمي بحق شعب في ارضه ، علما بأن هذا الحق ما كان قادرا على الارتفاع الى اكثر من مرتبة « الحق التاريخي » في نظر شعوب العالم ما دام شعب فلسطين المشرد مجرد كمية بشرية سالبة في احصائيات هيئة الامم ووكالة الغوث .

ومما سهل هذا الانحطاط الى مرتبة الحق التاريخي اختيار الفلسطينيين واضطرارهم في آن واحد للنزوح عن اراضيهم . ولقد كانت الفاجعة قابلة لان تتكرر من جديد بعد حرب حزيران لو انالنزوح من الضفة الغربية بوجه خاص استمر على نفس الوتيرة التي كان عليها في الايام الاولى من الحرب (٣) . ولكن بقاء غالبية عرب الضفة

---

(١) ـ « حول الحرب الاسرائيلية ـ العربية » ـ الازمنة الحديثة ـ تشرين الثاني ١٩٦٧ ـ ص ٧٩٧ ـ ٨١٩ .

(١) ـ لهذا كان من ضمن الجهود المشكورة التي بذلها بعض المؤرخين الاجانب «محاولة» اثبات وجود شعب في فلسطين قبل غزوها.

(٢) ـ ان الادب العربي المعاصر مسؤول الى حد كبير عن هذه الصورة لشعب فلسطين .

(٣) ـ يلاحظ الدكتور صادق جلال العظم في كتابه « النقد الذاتي بعد الهزيمة » ان العفوية العشائرية والعائلية لعبت دورا مؤسفا في هجرة النازحين الجدد . فلقد صرح العديد من النازحين انهم نزحوا حفاظا على « اعراض » بناتهم ولان اقاربهم نزحوا . وهذا معناه ان الارتباط بالاهل والعشيرة ما يزال لدى البعض اقوى من الارتباط بالارض والوطن ، وان مفهوم « الشرف الجنسي » اقوى من مفهوم « الشرف الوطني » .

الغربية في اراضيهم هو الذي جعل كتاب العالم وصحفييه يتساءلون لاول مرة منذ عشرين عاما : ماذا نفعل بالفلسطينيين ؟

والحقيقة ان التغير الجوهري الذي طرأ على الوضع الاعلامي للقضية الفلسطينية بعد حرب الخامس من حزيران يكمن في ان العالم وجد نفسه امام شعب حي لا امام حق او شعب تاريخي : انالفلسطينيين لم يمتنعوا عن النزوح من الاراضي المحتلة فحسب ، بل قرروا ايضا ان يقاوموا .

لقد صدرت في الغرب عشرات الكتب ونشرت مئات المقالات بعد الخامس من حزيران وكلها تتحدث (بشماتة في غالب الاحيان) عن كيفية تغلب مليوني اسرائيلي على مئة مليون عربي . وكان معنى ذلك واضحا : ان الاسرائيليين شعب مصمم على الحياة وجدير بها بالتالي. ولو قيض لهذا المنطق ان يستمر ، لكان هذا معناه انحطاط الحق العربي في الاراضي المحتلة حديثا الى حق تاريخي هو الاخر . ولكن كل شيء تغير فجأة عندما سمع العالم لاول مرة بأن هناك منظمات فدائية تقاوم .

لنعد الى الصحف الفرنسية الصادرة في الاسبوع الاخير من عام ١٩٦٨ ولنتوقف قليلا عند مقال جان فرانسوا كاهن في مجلة « الاكسبريس » . ان اول ما يلفت النظر فيه عنوانه : « يقظة الفلسطينيين » ، والصور المنشورة معه : مجموعة من الفدائيين وهم يتلقون دروسا في التدريب ، فدائي يخترق سورا من نار ، مشهد من مشاهد التدمير بقنابل الفدائيين في قلب القدس ، ومشهد اخر من مشاهد التدمير في الاردن بفعل القصف الجوي الاسرائيلي . ثم يقظة الفلسطينيين وخروجهم من اطار التاريخ والسلبية ... لقد ارادها العدو حرب ايام ستة ، ولكن المقاومين العرب انهوا اسطورة الايام الستة :

« ان حرب الايام الستة لا وجود لها . فالحرب التي بدأت في ٥ حزيران ١٩٦٧ ما زالت مستمرة الى اليوم منذ عام ونصف عام » .

والمخيمات ايضا تغير وجهها . انها لم تعد مخيمات للاجئين . لم تعد تجمعا لكتل بشرية سائمة سالبة . انها اليوم بؤر ثورية ، مخيمات اطفال ونساء وشيوخ لا مخيمات رجال :

« لكن اين اذن الرجال ؟ واجابني بصوت خافت الشيخ الذي طرحت عليه هذا السؤال : « اذا كان وطنك محتلا ، فهل تنتظر بهدوء في معسكر للاجئين ؟ » . والحق أن المخيمات التي كانت بالامس مستنقعات لليأس قد اضحت اليوم حصونا للثار . لا متسولين ، ولا وجوه موتى ... انه هو السبب الاساسي للصدمة التي حولت قطيعا من المستأصلة جذورهم الى شعب نشوان ثمل بالامل ، انه «الفدائي» ذاك الذي يقدم حياته فداء . وقد سالت ثلاثة غلمان في العاشرة او الثالثة عشرة من العمر : « ماذا تريدون ان تفعلوا في المستقبل ؟ » فأجابني الثلاثة : « فدائيين ! » . ان الحرب قد بدأت لا اكثر بالنسبة الى كل هؤلاء الذين قطعوا عن جذورهم ... لقد كف الفلسطينيون عن أن يكونوا مجرد ذريعة أو دليل . لقد استيقظوا . ولن يعاودوا النوم بسهولة ... لقد كان الجميع ، الدول الكبرى واسرائيل وبعض الحكومات العربية ، يعللون انفسهم بوهم واحد : النسيان ، فالفلسطينيون المهاجرون سيشيخون وسيكف اولادهم عن ترديد احقادهم وضغائنهم اللامعقولة . وهنا كانت « المفاجأة » . ان الابناء لم ينسوا ... ولسان حالهم يقول اليوم : « ان فلسطين بلادنا ومستقبلها يخصنا نحن . لقد اخطانا اذ تركنا هذا الارث وديعة لدى الحكام العرب ، ولقد رأينا النتيجة . لقد قرر شعبنا اليوم ان ياخذ مصيره بين يديه . ولن يقبل بعد اليوم ان يقرر غيره بالنيابة عنه لا بصدد السلم ولا بصدد الحرب » (١) .

ولناخذ ايضا افتتاحية جان دانييل في « النوفيل اوبسرفاتور »

(١) ـ « الاكسبريس » ـ العدد ٩١١ ، ٢٣ ـ ٢٩ كانون الاول ـ ص ١١ ـ ١٤ .

ـ وجان دانييل صهيوني متخف في اهاب التقدمية ـ ولنر الى غضبته وهو يلاحظ ان مجلة « التايم » الاميركية خصصت غلافها وست صفحات للمقاومة الفلسطينية ، و « هذه اول مرة تدافع فيها صحيفة اميركية كبيرة بهذا الاسلوب عن القضية العربية دون ان تبالي بردود فعل الجالية اليهودية الاميركية الكبيرة » . وواضح ان جان دانييل يريد ان « يدس » ، ولكنه لم يستطع ان ينفي ان الاهمية التي اخذتها المقاومة العربية هي التي فرضت على « التايم » كمجلةاخبارية ان تخصص من صفحاتها ما خصصته للمقاومة العربية . والحقيقة ان الشعب عندما يقرر ان يستيقظ ، ان يوجد ، لا يعود في وسع احد ان يتجاهله . وشعب فلسطين قرر ان يستيقظ وان يصبح شعبا تاريخيا فاعلا بمعنى انه لن يكون بعد اليوم موضوعا للتاريخ وانما ذات التاريخ . والعبارة التي يقتبسها جان دانييل عن فرانز فانون في « معذبي الارض » والتي يعترف بانها اصبحت الغذاء الفكري الاول للمقاومين الفلسطينيين ، تؤكد بما لا يدع مجالا للريب بأن شعب فلسطين قد بعث : « ان العنف قوة مطهرة . انها تحرر الانسان المضطهد من عقدة نقصه ، وتخلصه من يأسه ، وتنتشله من خموله . انها تعلمه الشجاعة وتعيد اليه الكرامة » (٢) .

هذا البعث بواسطة العنف ، بواسطة المقاومة المسلحة وحرب الانصار ، هو ما تؤكده الصحفية الفرنسية التقدمية ، اليهودية الاصل، آنيا فرانكوس في ريبورتاجها الطويل عن الفلسطينيين (٣) . فهي في كل فصل من فصول كتابها ، بل في كل فقرة منفقراته تؤكد ان ساكني الخيام ما عادوا كما مهملا قد يبعث على الاسى والعطف ولكنه عاجز عن أن يغير شيئا في واقعه ومصيره . لقد زارت مخيمات اللاجئين في الاردن قبل الحرب ، وكانت الصورة التي رأتها في كل مكان واحدة : « البرد شديد . انها ستثلج على الارجح . في كل شتاء يموت الكثير من الاطفال والشيوخ في المخيمات : فالسقوف التوتيائية تحملها الريح ، والمطر يدلف الى الخيام ، ولا شيء يتدفأ به ... ويقول لي شيخ طاعن في السن وهو يبكي : « لقد تخلى عنا الجميع ، واسرائيل تذبحنا ذبح النعاج بعد أن قضت علينا بالموت البطيء » .

تخلى عنا الجميع ... الموت البطيء ... ولكن لهذا على وجه التحديد ولدت « العاصفة » ، وقامت باول عمل لها في الاول من كانون الثاني ١٩٦٥ عندما فجرت الغاما في سد الباطوف . وازهر لاول مرة في المخيمات الامل وقال سكانها كما تروي آنيا فرانكوس « اخيرا ، انتهت الخطب ! جاء دور العمل ! » .

لقد سالت الصحفية الفرنسية الشابة احد اعضاء « جبهة التحرير الوطني الفلسطيني » قبل الحرب : « ما الفائدة التيتجنونها من وراء نسف قطار بين القدس وتل ابيب ؟ » فاجابها وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ساخرة : « ما الفائدة التي نجنيها ؟ ان هذا العمل يلقي البلسم في قلوبنا نحن الفلسطينيين ، ويرفع من معنوياتنا. هل تعرفين ما معنى مجتمع مهدم ، شعب مشتت مذرر منذ عشرين عاما ، شعب يثير « الشفقة » ، شعب من اللاجئين ، شعب يعيش من التسول ، شعب اختفى حتى اسمه من الخريطة ؟ لقد كان الجزائريون مستعمرين ، ولكنهم كانوا في بلادهم ، وكان أسم الجزائر علىالخريطة. وبدلا من « فلسطين » وضع اسم « اسرائيل » . اننا نحن الفلسطينيون لم نرفع قط اذرعنا ... ونحن نريد الان ان نضرم نار حرب انصار حقيقية ... وسنعمل على تحويل المنطقة كلها الى منطقة عواصف ما دام وطننا غير محرر » .

والحق ان تصاعد المقاومة العربية المسلحة في الاراضي المحتلة هو في سبيله الى تغيير الخريطة الاستراتيجية لمنطقة الشرق

(٢) ـ « الفلسطينيون » ـ جليار ـ ٣١٨ صفحة .

(٣) ـ « لو نوفيل اوبسرفاتور » ـ العدد ٢١٤ ، ٢٤ كانون الاول ١٩٦٨ .

الاوسط . ويمكن تلخيص هذا التغير في جملة واحدة ، هي تلك التي تنقلها آنيا فرانكوس على لسان احد الفدائيين : « ان الفلسطينيين ما عادوا مشكلة ، فهم الان شعب يقاتل . ان كلمة اللاجيء قد الغيت عندنا » .

وانطلاقا من هذا التغير في الخريطة الاستراتيجية لمنطقة الشرق الاوسط يمكن ان نفهم الابعاد الجديدة التي اخذتها القضية الفلسطينية على الصعيد الاعلامي العالمي . فلقد كانت القضية الفلسطينية طوال عشرين عاما ، وبحكم غياب شعب فلسطين العربي عن مسرح الاحداث ، مجرد قضية « أعلامية » ، مجرد موضوع للاعلام والدعاية لا يكاد يتميز لولا طابعه المأساوي عن اي موضوع أخر من مواضيع الاعلام والدعاية ، كالسياحة مثلا . ولطالما اشتكى العرب في الماضي من ان الغرب (والشرق ايضا) لا يفهم القضية الفلسطينية على وجهها الصحيح والعادل . وكانت الحلول المقترحة دوما زيادة عدد مكاتب الاعلام في الخارج وطبع الكتب والنشرات باللغات الاجنبية . وبذلك يكون الاعلام العربي قد ساهم هو نفسه في الماضي في تصوير القضية الفلسطينية على انها مجرد قضية « تاريخية » يمكن فيها بمجرد الاعتماد على الوثائق وحدها تغيير قناعات هذا او ذاك من مواطني العالم او حكامه . وبالنظر الى سيطرة العناصر الصهيونية على اجهزة الاعلام والنشر في كثير من الدول ، فقد كانت تلك الوثائق تظل عديمة التأثير والفاعلية ، وتقابل باضعاف اضعافها من الوثائق الصهيونية الى درجة ان العرب باتوا يعتبرون ان مجرد نشر وثائقهم هو نصر للقضية الفلسطينية بغض النظر عن تجميد مفعولها .

وبالطبع لا يمكن لاحد ان ينكر ان للوثائق التاريخية دورها واهميتها ، ولكن الشيء الجديد الذي اعلن عن نفسه بعد حرب حزيران وبعد تصاعد المقاومة العربية المسلحة هو ان القضية الفلسطينية بدأت تأخذ ابعادها « الاعلامية » العالمية العادلة بدون وثائق ولا مكاتب اعلام . ذلك أن تجسد المقاومة المسلحة في الاراضي المحتلة قد ناب (ولا اقول اغنى) عن كل نشاط أعلامي ووثائقي . ذلك أن حركة المقاومة العربية تمتاز على كل وثيقة تاريخية بأنها حية . والحي يسمي نفسه بمجرد انه حي . ومهما تكن نظرة اجهزة الاعلام الاجنبية الى المقاومة العربية فانها لن تستطيع بعد اليوم ان تتجاهلها على الاقل . أن المقاومة العربية المسلحة تستكمل ابعاد حياتها ونموها وتصاعدها من خلال كل خبر ينشر عنها او يذاع مهما يكن صغيرا بل متحيزا بل معاديا . انها في سبيلها الى ان تصبح قضية يومية في الاعلام العالمي . وليس من حي كاليومي .

والحقيقة ان بعث القضية الفلسطينية بفضل تصاعد المقاومة المسلحة في الاراضي المحتلة قد شرع باحداث تغير جذري (انقلاب) في التصور الاعلامي عن هذه القضية . ذلك ان تصاعد المقاومة المسلحة يضع بالضرورة حدا لكل الاساليب والانماط السابقة في الاعلام . فلم يعد المطلوب اليوم كسب عطف او تبديل قناعة هذا او ذاك من مواطني العالم . وبالرغم من أن كسب العطف او تبديل القناعة يظل دوما هدفا رئيسيا لكل اعلام ، فان من واجب الاعلام العربي ان يدرك ويأخذ بعين الاعتبار التبدل الحاسم الذي طرأ على منظور القضية الفلسطينية بعد بعثها بفضل المقاومة المسلحة . فهذه القضية لم تعد ، بكل بساطة ، بحاجة الى الدعاية التي من النمط التقليدي . بل لعل الاستمرار على هذا النمط التقليدي قابل لان يلحق أذى فادحا بالقضية .

ان حركة المقاومة العربية هي حركة ثورية ، وهي ككل حركة ثورية تطرح نفسها من منظور التضامن الاممي لا من منظور الدعاية العالمية . وبون شاسع بين مطلب التضامن وبين الدعاية . فالدعاية تتوجه اساسا الى عالم مستريح ، سكوني ، مرتاح الضمير ، وكل هدفها ان تحدث بعض التحول في تياراته من غير أن تخرجه عن سكونيته او تحرج ضميره المرتاح . انها لا تطرح عليه من مشكلة ولا تسبب له ازمة . وعبثا حاولت اجهزة الاعلام العربية ان تحدث في الرأي العام العالمي ازمة ضميرية عن طريق الصور المؤسية التي قدمتها له عن حياة اللاجئين في الخيام . ولعل اقصى ما استطاعته هو انها اقنعت بعض الحكومات بتقديم المساعدات عن طريق وكالة الغوث لتسكين آلام اللاجئين ومنعها من الانفجار . ذلك ان الانفجار هو الطريق الوحيدة لاحداث ازمة . والازمة هي اخشى ما يخشاه عالم مستقر ، مرتاح .

ان الدعاية التي من النمط التقليدي يمكن ان توحي من قريب او بعيد بأن القضية التي تدعو لها هي قضية قابلة للربح او الخسارة . والحال ان حركة المقاومة العربية كحركة ثورية وكقضية تحرر وطني لا تحتمل وضعها في كفتي ميزان يمكن ان تتعادل فيه الارباح والخسائر. وفي قضايا الشعوب والتحرر الوطني لا تحسم الامور عن طريق الدعاية . ونداء التضامن الصادر تلقائيا عن كل حركة تحرر وطني لا يمكن ان يكون مجرد وسيلة دعائية . ففي عصرنا هذا الذي هو بحق عصر التحرر الوطني والانتقال الى الاشتراكية ، تكتسب كل حركة قومية للتحرر الوطني ابعادا اممية مباشرة . وفي مثل هذا الوضع لا يعود ثمة من مجال للدعاية التي من النمط التقليدي والتي تقوم في غالب الاحيان على معايير مزدوجة . ولقد كانت الدعاية العربية بصدد القضية الفلسطينية تشكو من هذا الازدواج في الماضي ، فقد كنا نخاطب العالم بغير اللغة التي نتخاطب بها فيما بيننا . وكان اعداؤنا يجدون في هذا الازدواج على وجه التحديد مرتعا خصبا للتشكيك في « صدق » قضيتنا وعدالتها . وصحيح اننا كنا دوما نؤكد للعالم اننا لسنا من دعاة اللاسامية واننا نميز بين الصهيونية كحركة استعمارية وبين اليهودية كديانة عالمية ، لكنهم نادرون اولئك الذين كانوا يصدقوننا . والسبب في ذلك غير معقد كثيرا كما كنا نصور لانفسنا : فنحن حتى عدوان ١٩٦٧ لم نستطع اقناع العالم بأن قضية شعب فلسطين انما هي قضية تحرر وطني . والحقيقة انه لم تكن هناك سوى وسيلة وحيدة لاقناع العالم بذلك وهي ان يكون مسلكنا نحن بالذات من القضية الفلسطينية مسلكا تحرريا وطنيا . ومثل هذا المسلك ليس له في العالم المعاصر سوى ترجمة واحدة : الكفاح الشعبي المسلح في سبيل التحرير . وطالما كان العرب مرجئين لهذا الكفاح ، كان من الصعب ان يقتنع أحد من غير العرب بأن القضية هي فعلا قضية تحرر وطني . ومن هذه الزاوية المحددة نقول ان حركة المقاومة المسلحة الراهنة في الاراضي المحتلة هي اول ترجمة عملية منذ كارثة ١٩٤٨ لفكرة ان قضية فلسطين هي قضية تحرر وطني . وغني عن القول ان حركة المقاومة المسلحة ما تزال في بدايتها ، وانها لن تكتسب حقا مشروعية الكفاح التحرري الوطني في انظار العالم الا بمقدار ما تتحول الى ثورة شعبية شاملة .

ويوم تكتسب حركة المقاومة المسلحة في الاراضي المحتلة مشروعيتها الكاملة كحركة تحرير وطني – وهي مشروعية قوامها اساسا التضحية والدم الكثير المهراق لا الوثائق التاريخية – يومئذ تفقد الدعاية الاهمية الكبيرة التي كنا نعلقها عليها في الماضي ، وتنعكس المعايير : فبدلا من ان نتوجه نحن الى العالم يومذاك لـ « يتفهم » قضيتنا ولـ « يعطف » عليها ، يصبح من واجبه هو ان يتفهم حركتنا التحررية الوطنية بل ان يتضامن معها ايضا . واذا كنا بالامس وما زلنا الى اليوم مطالبين بتبرير انفسنا ومشروعية قضيتنا امام العالم ، فان العالم يصبح هو الملزم بتبرير نفسه ومشروعية مواقفه يوم تكتسب حركة المقاومة المسلحة ابعادها الكاملة كحركة تحرر وطني . فما دام هذا العصر هو عصر التحرر الوطني والانتقال الى الاشتراكية ، لذا فان موقف التقدميين واليساريين في العالم من كل قضية تحرر وطني هو المعيار الاول لتقدميتهم ويساريتهم . ولنا في الثورة الجزائرية برهان ساطع . فلكم اسقطت من اقنعة تقدمية ويسارية زائفة عن وجوه امكن لها ان تتلبس تلك الاقنعة طالما ان حركة التحرر الوطني الجزائري لم تكن قد ولدت بعد ! ولكم اضطر اصحاب تلك الاقنعة الى المداورة والمناورة حتى لا تظهر وجوههم على حقيقتها !

ولهذا على وجه التحديد تبذل اجهزة الاعلام الصهيونية اقصى ما في استطاعتها لتنكر على حركة المقاومة المسلحة في الاراضي المحتلة صفة حركة التحرر الوطني . وما اكثر ما حاول الصهاينة ان ينفوا عن انفسهم صفة المحتلين . ولقد نبه اكثر من زعيم فيهم الى الخطر الذي ستعرض اسرائيل نفسها له اذا ما تصرف جيشها على انه جيش احتلال او اذا نجحت حركة المقاومة العربية في الباسه لبوس جيش الاحتلال. ولكن ما غاب عن اذهان هذا النفر من الصهاينة هو ان المسألة على هذا الصعيد ايضا ليست مسألة دعاية او مسألة ارادة ذاتية وان الجيش الاسرائيلي مضطر موضوعيا الى ان يتصرف كجيش احتلال ما دامت المقاومة العربية في تصاعد . ولنا على ذلك مثال في تناقضات السلطات الاسرائيلية التي تحاول ان تصم الفدائيين العرب بأنهم مجرد « مخربين » مستأجرين من قبل الدول العربية . فالسلطات الاسرائيلية في محاولتها قمع المقاومة العربية هي اول من يضطر الى دحض زعمها ذاك . وقد اشارت « اللوموند » الفرنسية الى جانب من هذه التناقضات عندما نقلت بعض التفاصيل عن محاكمة « المخربين » المتهمين بالقاء القنابل في تل أبيب . فقد حكمت عليهما المحكمة الاسرائيلية بالسجن المؤبد ، وكان ردهما على هذا الحكم ابتسامة ساخرة وانكارا لحق المحكمة في محاكمتهما اصلا . وقد حاول المحاميان اللذان عينتهما المحكمة ان « يقنعا » المحكمة بضرورة معاملتهما كأسرى حرب باعتبار انهما يعملان في سبيل تحرير بلادهما . ولكن المحكمة ردت هذا الطلب لان المتهمين لا يرتديان بزة رسمية ولا يحملان شارة عسكرية وليسا من القوات النظامية لاي دولة معادية ولا يعملان لحساب اي دولة معادية (١) . وبعد ذلك يريد الصهاينة من العالم ان يصدق زعمهم عن ان الفدائيين هم مخربون مستاجرون من قبل الدول العربية!

والواقع ان الابعاد التي اخذت حركة المقاومة العربية باكتسابها كحركة تحرير وطني تنعكس اول ما تنعكس في تطور موقف الصحافة العالمية من حركة الفدائيين . ففي البدء لم تتحدث هذه الصحافة ، متبنية المصطلحات الاسرائيلية ، الا عن « المخربين » و « الارهابيين ». ولكن شيئا فشيئا اخذت تحل محلها مصطلحات « الوطنيين » و « المقاومين » و « الفدائيين » . وما يزال قسم من هذه الصحافة حريصا على تسمية المقاومين باسم « الفدائيين » دونما ترجمة . وواضح ان القصد من ذلك تمويه الصفة التحررية الوطنية لحركة المقاومين العرب باعتبار ان كلمة « فدائيين » لا معنى لها في اللغات الاجنبية ولا تستخدم الا بعد وضعها بين قوسين (٢) .

واذا كان تأكد الصفة التحررية الوطنية للمقاومة العربية قد بدأ يحدث فرزا (اوليا) في اوساط اليسار العالمي بين من هم تقدميون فعلا ومن هم متقنعون بأقنعة يسارية ، فان هذا الفرز قد امتد ايضا ، وبالضرورة ، الى التقدميين والديموقراطيين من يهود العالم . فحركة المقاومة العربية بوصفها حركة تحرر وطني لا بد ان تتوجه في المقام الاول ، على صعيد الاعلام ، الى التقدميين والثوريين والديموقراطيين في العالم اجمع . ولا يستطيع احد ان ينكر ان بين هؤلاء عناصر يهودية . وهذه العناصر المتأثرة الى حد كبير او صغير بالدعاية الصهيونية كان لها دورها في الماضي في تأليب اليسار العالمي على الموقف العربي من القضية الفلسطينية . وانه لمما لا ينكر ان اليسار العالمي لم يكن في جانبنا في الماضي هذا ان لم يكن في الصف المعادي لنا . وكان ما يفزع هذا اليسار منا شبح اللاسامية ، في حين كانت الدعاية الصهيونية قد ادخلت في خلده ان اسرائيل هي قاعدة للتقدم والديموقراطية في منطقة الشرق الاوسط الاقطاعية . وصحيح ان رياح الثورة العربية التي اخذت تهب في اوائل الخمسينيات من هذا القرن قد اظهرت بطلان الزعم الصهيوني عن تقدمية كيان اسرائيل وديموقراطيته وبرهنت على العكس ، أي برهنت على أن اسرائيل هي قاعدة للامبريالية وللرأسمال العالمي في منطقة الشرق الاوسط ، ولكن الرأي العام العالمي ، بما فيه شطره التقدمي والديموقراطي ، لم يتقبل البتة على وجه الاجمال فكرة زوال كيان اسرائيل وان الح بقدر متفاوت من الجدية على ضرورة تحول الدولة الاسرائيلية باتجاه ديموقراطي وتقدمي . وخير من مثل هذا الاتجاه سارتر الذي اعلن تأييده للثورة العربية وادان مجرمي الحرب من امثال دايان ، ولكنه (وما اكثر ما يلجأ اليسار العالمي الى استخدام « لكن » هذه) اكد بأعلى صوته الحق القومي لليهود في الحفاظ على كيان دولتهم . ومهما انحينا باللائمة على اليسار العالمي وعلى تناقضاته وتذبذب مواقفه ، فاننا لا نستطيع – اليوم بوجه خاص – ان نتجاهل ان الثورة العربية كانت تحمل في ذاتها بذور التناقض في موقفها من القضية الفلسطينية . ففي الوقت الذي كانت تؤكد فيه ان القضية الفلسطينية هي قضية قومية وكولونيالية ، لم تعمل اطلاقا على تجسيد هذه النظرة من خلال ممارسة عملية اي لم تشن نضالا مسلحا وحربا شعبية تؤكد بهما بما لا يدع مجالا للشك صحة طرحها للقضية الفلسطينية باعتبارها قضية تحرر وطني . وطالما كان النضال الشعبي المسلح في سبيل تحرير الارض الفلسطينية مرجأ الى اجل غير مسمى ، كان من الطبيعي – هذا في حال افتراضنا حسن النية – ان نجد مفكرين تقدميين او ديموقراطيين من امثال مكسيم رودنسون وسائر اعضاء « جماعة البحث والعمل من اجل تسوية القضية الفلسطينية » يؤكدون الاصول الاستعمارية لدولة اسرائيل (دراسة رودنسون « اسرائيل واقع استعماري ») ويدعون في الوقت نفسه الى حل سلمي وديموقراطي يقوم على اساس احترام الحقوق القومية لكل من الشعبين العربي واليهودي (كتاب رودنسون « اسرائيل والرفض العربي ») .

ومن حقنا وواجبنا ان نرفض مثل هذه التأويلات ، ولكن ليس من حقنا دوما ادانة القائلين بها ما دمنا نحن انفسنا لسنا منطقيين بما فيه الكفاية في مواقفنا وما دمنا لم نحول شعار حرب التحرير الشعبية وحق الامم في تقرير مصيرها الى ممارسة عملية . ولنا ههنا ايضا في الثورة الجزائرية مثال طيب . فلقد كان في وسع الحزب الشيوعي الفرنسي ان يفسر حق الامم في تقرير مصيرها باتجاه الاندماج بين فرنسا والجزائر ما دام شعب الجزائر لم يحول بعد حقه في الانفصال الى ممارسة عملية من خلال حرب التحرير الوطني . ولكن مع اندلاع شرارة الثورة الجزائرية اصبح موقف الحزب الشيوعي الفرنسي مستحيلا ما دام ذلك الحزب حريصا على الوقوف في صف المناهضين للاستعمار وللشوفينية الامبريالية . ولقد تراجع الحزب الشيوعي الفرنسي عن مواقفه بالتوازي مع تطور الثورة الجزائرية . والمطلوب منا اليوم ان « نرغم » كل اوساط اليسار العالمي على مثل هذا التراجع من خلال تطوير الثورة الفلسطينية العربية . وصحيح ان هناك من سيظل يشهر في وجوهنا « لكن » الخبيثة تلك ، غير ان مصير هذا النفر لن يكون في هذه الحال بافضل من مصير الكاوتسكيين الذين خانوا الاممية ووقفوا في صف المتآمرين الامبرياليين على ثورة اوكتوبر بحجة « لكن » تلك .

ونحن نؤمن عميق الايمان بان العناصر اليهودية التقدمية الصادقة في اوساط اليسار العالمي سيكون لها دور حاسم الاهمية في صيرورة التراجع تلك وفي انتقال تلك الاوساط من مواقف « التجرد » و « التعالي » و « العطف » – هذا ان لم نقل من مواقف العداء السافر او المبطن – الى مواقف التضامن الاممي مع الثورة الفلسطينية العربية . وبايمان عميق ايضا نقول ان الازمة الضميرية التي ستحدثها الثورة الفلسطينية العربية في اوساط اليسار العالمي ستتجلى اول ما تتجلى لدى العناصر اليهودية الصادقة في تقدميتها من ذلك اليسار . ذلك ان هذه العناصر تجد نفسها بالضرورة معنية بالامر اكثر من غيرها . وليس من قبيل الصدفة ان تكون غالبية اعضاء « جماعة البحث والعمل

---

(١) – اللوموند – ٢٦ كانون الاول ١٩٦٨

(٢) – ربما كان من واجب الصحافة العربية هي أيضا ان تعتمد مصطلح « المقاومين » او « الانصار » شرحا لكلمة « الفدائيين » وذلك منعا لكل التباس وتوكيدا لصفة التحرر الوطني لحركات المقاومة .

من اجل تسوية القضية الفلسطينية » من اليهود . ومهما تكن تحفظاتنا على مواقف هذه الجماعة ، فاننا سنشعر بلا شك بارتياح ـ ارتياح مبعثه تأكد البعد الاممي لنضال شعب فلسطين العربي في سبيل التحرر القومي ـ عندما نسمع أ. ليفين ايسي لي مولينو يقول :

« لا يمكن في الجوهر ان اظل يهوديا حقا ما لم أقف بجانب أبأس الناس واكثرهم تعرضا للاذلال والمهانة ، ما لم اجسد كل شدائد الانسانية او اشارك فيها واحسها . لقد كان اندريه فيليب محقا عندما كتب : « كان هذا وضع الشعب اليهودي ، وهو الآن وضع الشعب الفيتنامي » ، وانا اضيف « وهو بالاخص وضع شعب فلسطين » . وهكذا يتأكد ويتكامل كياني اليهودي بشكل يبدو مناقضا للظاهر ، بل ان كياني يزدهر ويتضح بتعاطفي وتضامني مع عرب فلسطين وبمعارضتي الكاملة والمطلقة لدولة اسرائيل والصهيونية التي تحمل في مبادئها المظالم والجرائم التي نعيشها كشهود عاجزين . وما كانت دولة اسرائيل تستطيع ان تقوم دون ارتكاب هذه الجرائم . وكان الاعتراف بحقها في الوجود بمثابة منحها حق اقتراف الجرائم والامعان والتمادي في ارتكابها . ولا تستطيع اسرائيل ان تحافظ على وجودها الا بسياسة حكامها الحاليين ، وبالاخص منهم موشي ديان ومناحم بيغين . ولو كانت اسرائيل دولة شرعية في نظري لوافقت تماما ، كما توافق اغلبية اليهود بل شبه اجماعهم ، على ضم القدس والضفة الغربية وغيرهما من المناطق المحتلة ، لان تبرير وجود اسرائيل في حيفا والناصرية ويافا وبير شيفا الخ ... يستدعي بالمنطق تبرير وجودها في القدس وحبرون وبيت لحم وغزة الخ ... ولا ادري لماذا يكون احتلال الناصرية اكثر شرعية من احتلال الحبرون » (١) .

اننا نعلم ان امثال مولينو ما يزالون اقلية ، واقلية ضعيفة جدا ، ولكننا واثقون ان تطور حركة التحرر الوطني في فلسطين سيوسع صفوف تلك الاقلية . ولسوف يكون لتلك الاقلية صوت مسموع حتى ولو ظلت اقلية . وآنيا فرانكوس هي مناضلة جديدة تنضم الى صفوف تلك الاقلية وتقول بوصفها يهودية الاصل : « كما كنت اشعر بانني جزائرية يوم كانت الاجراس تمشط ، فانني اشعر اليوم بانني فلسطينية » . (٢)

والحقيقة انه اذا كانت الاوساط اليسارية والديموقراطية في العالم اجمع مضطرة الى الاعتراف بحق العرب في مقاومة الاحتلال الذي تم بعد حرب ١٩٦٧ ، فان هذه الاوساط ما تزال تبدي تحفظات كثيرة أو قليلة بصدد العرب في مقاومة الاحتلال الذي تم في عام ١٩٤٨ . وباستثناء الشعوب التي خاضت كفاحا وطنيا مسلحا مثل الصين او فيتنام ، فان أوساط اليسار العالمي ما تزال تميز بين احتلال ١٩٤٨ واحتلال ١٩٦٧ . ومن هذه الزاوية نقول ان صوت العناصر اليهودية الاصل الصادقة في تقدميتها وامميتها هو من بين اوائل الاصوات التي ارتفعت في العالم لتؤكد شرعية نضال الشعب العربي ضد احتلال ١٩٤٨ مثله مثل احتلال ١٩٦٧ . وهذه آنيا فرانكوس تصرح بدورها بعد مولينو : « اذا بررنا انشاء اسرائيل في حيفا ويافا وبئر السبع ، فلماذا لا نبرره ايضا في الخليل وغزة والقدس ، وغدا من الفرات الى النيل ؟ » . (٣)

بالطبع ليس من حقنا ان نستسلم الى الاوهام على هذا الصعيد . فمهما تكن ابعاد التضامن الاممي التي ستأخذها حركة التحرر الوطني في الاراضي الفلسطينية المحتلة ، فان عبء هذا التحرير يظل في المقام الاول عبئا قوميا . والتضامن الاممي لن يكون فعالا حقا الا بمقدار ما يكون نضال التحرر القومي فعالا . وهذا معناه ان التضامن الاممي سيتوكد ويتعمق ويتطور بالتوازي مع توكد وتعمق وتطور حركة التحرير الوطني الفلسطيني . اذن فمن واجبنا الاممي ، كما من واجبنا القومي، ان نهيىء الظروف المثلى لتطور الثورة الفلسطينية . ونحن لا نجهل ان هذه الثورة لم تستكمل بعد شموليتها لا على الصعيد القومي ولا على الصعيد الاممي . وادنى المطلوب منا من وجهة نظر التضامن الاممي الا نستسلم لردود الفعل العصبية الهوجاء (والشوفينية) عندما نلحظ بعض التقصير او الجهل او حتى سوء النية في مواقف اوساط اليسار العالمي من القضية الفلسطينية وعلى وجه التحديد من حركة المقاومة المسلحة أذ هل يمكننا ان ننسى في هذه الحال أن الثورة الفلسطينية لم تحظ بتأييد بعض الحكومات العربية الا في وقت متأخر ، بل هي نستطيع ان ننسى ان هذه الثورة ما تزال تتعرض الى التآمر والقمع من بعض الحكومات الاخرى ؟

جورج طرابيشي

(١) ـ « الطليعة » ـ سبتمبر ١٩٦٨ ـ ص ١٧٧ . وبالمناسبة ، من المؤسف ان يكون مترجم « الطليعة » جاهلا بالاسماء العربية للمدن المذكورة فيقول « الحبرون » بدلا من « الخليل » و « بير شيفا » بدلا من « بئر السبع » و « الناصرية » بدلا من « الناصرة » .

(٢) ـ « الفلسطينيون » ـ ص ١١ .

(٣) ـ المصدر نفسه ـ ص ٢١٧ .

المسافر والقضية

« استبطان رامز لشخصية الفدائي العربي »

صوت العزيمة :

شامخ ، حازم اليدين
فارع ، هادر الشرر
باذخ مزبد الدماء
جاء ، يا صيف ، قيظه .. شق للوافد الطريق
وآشربي يا رؤى الزمان كأس أشواقه الحريق
يحمل النار والعذاب ، شارة تفضح الزمن
للمي يا عرى الضياع ، أوجه التيه والمحن
وآرشقيه بها فما هز اشفاقه الوهن
عبر عينيه اذرع جمعت خصلة السفر
مزمعا ، طائر الفتون ، خارقا زاهي الصور
هو طفل اذا بكى ، هو ريح اذا زأر
هو صلد اذا آحتمي هو خط على حجر
سيط بالنار عزمه أخذت نفسه الشرر

اصوات ساخرة :

قالوا يغوص السهم في الاحجار !
قالوا فتى مغوار
قالوا لـه حدود
ويعبر الآتي بلا حدود !
ـ اصنع لنا بذره !
اخلق لنا هره !
امحق ركام الليل في نظره !
ـ التائه المردوف في هودج
وراء عفرائه
يحمل في منفاه صرة أشيائه
الضائع المنسي في طينة أشيائه
قالوا يشد الله في نحره !
قالوا يموج الرعب في صدره !
قالوا يرى ما لا يرى .. قالوا على صخره
شد رقاب الليل
الحوت اذ تبتلع الاقمار ،
والشمس مع الاسحار ،
والنور الذي يشهق في الاشعار !
ـ اصنع لنا شيئا ، ولو شمعه
اخلق لنا بعضا ولو دمعه
يا شهقة المعبود للعابد
يا موجة تندك في شاطئها الصامد ...

. . . .

قالوا تدلى مثلما فانوس
في كهف الحقيقة المره !
قالوا لـه نظره

تزرع في أحجار هذا العالم السفلي من
آفاقه بذره ..!

***

شهقة الموجة ١ :

الندى وشيّح السهول
هدأة الشوق ، والامل
وغفت مقلة الزمان ، فوق اضمامة الاجل
بدؤه بدء لحظة كوّرت شهقة القرون
يقظ نائم سعى عبر أجفانه الصباح
وتخطى على وجل
طائر أزغب الهوى ، أبدا دونما جناح

شهقة الموجة ٢ :

يا ريح ... يا أشجار
لو تحمليني لفظة ، تذكار
صبوت أعواما الى صريرك الابيد
حبوت فوق رقصة الاغصان في فحيح الريح
توزعت نفسي على نثيث السعف في آذار
شممت نكهة الامطار في مذاود الابقار ،
ونغمة النعناع ، والهيل ، ونبحة الكلاب
في قرية يلبسها النهار !
يعطس في اعتابها الفجر ويمضي خاويا منهار
ومثل طير ، أفلت الجناح من كفي في
ظهيرة الافراح
مضيت يا طفولتي ، اغنية ، حبيبة
حلمت في مقطعها الاول ، والتقيت بالاخير
خامد الصداح
فلتتقد شمعة صوتي يا ربوع النار
على ذرى الاعصار

الساحل الآخر :

تركتني ، هناك ، مسبيا على قارعة الطريق
حشوت ، من لآليء الكذب ، جيوبي ،
مزده جموح
وعدت ، يا سفينة الفجر اليك ،
عدت محموما بوقدة النزوح
لا شمعة تلوح
لا دمعة تبوح ،
في بهرج العالم ، في خطيئة الضياع
الوب مسبيا ، كئيبا ، خاويا ، مباح ،
في ساحل الخيبة طاويا يد الندم
في وجنة الالم
يا غربة الساحل ، يا ولولة الغريب ...
ضيعت في نزوة احلامي غدي ، أبدلت
باللهيب غفوة الرماد
يا غربة الحداد
. . . . .
من فرحي ، طرت اليك ، حين لاحت القباب
ورفرفت حمامة ، وشاب في آفاقك
السحاب
في وجهك الشرقي تمطر القرون ،
أشواقها ، وسميّة الدماء والحناء
من شغفي ، طرت اليك في بساط ريح الموت ،
يا بلادي ، غام دمعي في شغاف القلب
يا وطني نفضت في دربي اليك كل زيفي ،
جئت صافيا كالدم .. عدت غيمة تستبطن
الهطول

***

ما زلت ، يا حبيبتي ، المنسي في سواحل
الاموات
أبكي ، فتهرع الوديان ، والاشجار ، والهضاب
ـ داود ، يا داود ، ما دهاك ؟!
ناعورة الحنين مزقت ستائر الليال
كأنّ دهرا ناح في دموعك الثقال
أو مهمها ضجت على دروبه الذئاب
ـ خطيئتي ..! جهدت كي أرى خطيئتي ،
فكنت النطع والمقتول
بهرجة لعالم مخذول
وفي يدي قرأت ما قدمت للجاني ، قرأت
أحرف النيران ،
مطفأة بخيبتي ، وكسلي ، فزهرة الخمول
تشد ناظري في صومعة الاحزان
غرقت بالاشياء
غرقت بالخواء !
زلزلت الارض ، وأمطرت غمائم الهموم
نفسي ... وها أنكر حتى لوعة الخسران
الساحل الآخر مكتوب على أصابعي بأحرف
النيران
فلتمطر الدنيا دما ، أو لتمت عناكب التوبة ،
ولينفجر البركان .
يا سحب الدماء ، يا طوفان عالم الضياع
اذا انحسرت ، مرة أخرى ، وعادت سفن
الصباح
احمل للعالم عشبة الثورة في دمي ،
ولا أنام مزهوا على مخدة الجراح ...

بغداد

تركي الحميري

في الشعر الفدائي المعاصر

التشكيل الثوري في «اغنيات للمعركة»

بقلم محمد الجزائري

(١) الشعر والفدائي الثوري :

تقف القضية الفلسطينية على رأس المهام الآنية المطروحة عسكريا وسياسيا وفكريا واقتصاديا ، بسبب الارتباط الجذري بين واقع المعركة الفلسطينية خاصة وواقع المعركة العربية عموما ، وواقع النضال ضد الامبريالية بشكل اعم . ولاجل ذلك ، دفعت القضية الفلسطينية بالعمل الفدائي - كاسلوب كفاحي ، في مواجهة الوجود الاستعماري الصهيوني على الارض المحتلة - في مقدمة اساليب الكفاح الآنية .

والشعر ، كأداة تعبير ، قد ارتبط عبر شعراء الارض المحتلة والشعراء العرب الثوريين في كل مكان بالقضية الفلسطينية ، آنيا ، ليوسع ابعاد التحرك من خلل ابعاد التناول وآنيته ، اذ ان الشعر ، اكثر الاشكال الادبية ، واسرعها تعبيرا عن الحدث .

ولقد تحدثنا عن « المقاومة بالكلمة » عبر ادب المقاومة وشعر المقاومة في الارض المحتلة بالذات ، وبوجه خاص شعر توفيق زياد ، كنموذج للشعر الفدائي الثوري (١) .. ولكن سعة المفهوم الفدائي باتت من الاهمية بحيث شملت الشعراء الثوريين الذين تناولوا جوانب المعركة وابعادها في بلدانهم بارتباطها الوثيق مع معركة الارض المحتلة وضمن خيط انساني عام يشدها بنضال الامم وجبهة الشعوب المعادية للاستعمار والمتطلعة للتحرر الوطني .

فالشعر الثوري ، اذن ، تشرب من خلال تعبيره عن أبعاد معركتنا الكبرى ، بفدائية معاصرة ، هذه الفدائية ، هي روح الرفض الايجابي والنضال الدائب لتغيير بنيات الانظمة التي يحول وجودها وذهنيتها او يعيق ، أو يعرقل ، عملية التحرر الناجز في الارض المحتلة .

وهكذا بات الشاعر الثوري في العراق ، الذي يغني المعركة ، من على ارضه الثورية يلتقي باكثر من آصرة مع شاعر المقاومة في الارض المحتلة وشاعر المقاومة في كل مكان ، عبر تاريخ النضال الوطني لشعوب العالم ايضا ..

لذا لم تعد أشعار « آراغون » غريبة عنا مع ما فيها من ملامح فرنسية ، كذلك لم تعد اشعار غويلن او اي شاعر من فيتنام كالشاعر « كوانك نوان » او غيره ببعيدة عنا ..

لذا فحين بعث الشاعر العراقي الفريد سمعان بقصائده الى « الاداب » (٢) بعد صمت طويل ، وبعد احتجاب وراء الجدران وخلل رحلة التطواف النبيل في عالم الالم والمعاناة ، احسسنا انه يلتحم بقضية الفدائي الثوري والمعركة عبر شعر احلى واقوى من قصائده السابقة التي احتوتها دواوينه الخمسة (٣) . لذا فحين غنى الشاعر (الى القنيطرة) و (الى فدوى طوقان) و (الى ابي سلمى) والاخرين احسسنا ايضا روح الفدائي الثوري تكمن في اشعاره ، اذ جسد لنا الفدائي الثوري كمناضل يستوعب ابعاد المعركة ، وابعاد الثورة العربية المعاصرة ، ويحقق فعلها المنجز على الارض العربية .

ففي هذا الظرف الخطير الذي تحارب فيه آلام الشعب وتطلعاته الثورية بعناد وصلابة ضد تخلف معركة الاسلحة والرجال العسكريين ، يقف العمل الفدائي الثوري في قلب المعركة ويقف الشعر في الطليعة كلغة ملهمة ودافعة ومحركة ..

في هذا الظرف بالذات يصرخ في اعماقنا صوت الضرورة التاريخية من ان الشعر ينبغي ان يخدم قضية الفدائي الثوري عبر الخلق الذاتي للشاعر كفنان ، وكمعركة آنية تتزاحم كل التحشيدات وعلى جميع المستويات لكسبها ، نجد ان النقيض يظهر ايضا بدلالاته المعادية ، فكرا او اقتصادا ، او سياسة ، او عسكرة .. الخ .. لذا فان البعض لما يزل يتحدث عبر شعره بلغة (اليوت) المجردة ، والفكر الضبابي المشبع بروح الانا والذات فيخدم بذلك نفس المخطط الامبريالي الذي اوجد المجلات والمنظمات والمؤسسات الثقافية التي تمولها المخابرات المركزية الاميركية .. وهنا لا نريد ان نرفض اي شعر لا يقف مع الفدائي الثوري بشكل خالص .. كلا ، فللشعر جوانبه الانسانية الثرة ، وله اكثر من بعد للتعبير الانساني الذي يخدم في خطه العام قضية الفدائي الثوري .. بل اننا نرفض الشعر الذي يقف في الجبهة الاخرى ، المعادية لقيمنا الثورية ، ولمعركتنا الواسعة على ارضنا العربية بطولها وعرضها .

والفدائي الثوري الذي تتسع آفاقه لتحتضن كل التطلعات الثورية المشروعة على ارضنا العربية يشكل في ذات الوقت الخلفية المتماسكة التي تدفع وتغذي معركتنا في الارض المحتلة - خاصة - اذ ان المعركة لم تفصل يوما ما بين ما يواجه العراقي او الجزائري او السوري او المصري ، وما يعانيه اللبناني أو الاردني والسعودي والمغربي والتونسي .. الخ .. وما يجب ان يكون عليه العربي الثوري في كل مكان لكسب رأي عام عالمي لقضيتنا الملتهبة .

ان الفدائي ، ليس المناضل على الارض المحتلة وحده ، لان النضال في البلدان العربية الاخرى لخلق الانظمة والملاكات والطاقات والمناخات الثورية التي يجب توفيرها لثورة الفدائي على الارض المحتلة ، باتت ضرورة تاريخية ، وواقع الضرورة هذا يفرض التحام نضال الفدائي على ارض فلسطين وسيناء - مثلا - مع الفدائي في كل مكان الذي يحارب ليس بالبندقية وحدها ، بل وبقلمه وجهده وطاقاته .. ومن هنا يكتسب الشعر العربي بعدا جديدا ، هو بعد الفدائي الثوري المعاصر ..

اذن .. فحين نضع « اغنيات للمعركة » في صف القصائد الاوفى لقضية الفدائي الثوري فذاك لان اسهام الشاعر العراقي هو جزء من عملية الاسهام الكبرى التي تضم كل العناصر الثورية والتقدمية في بلداننا العربية والعالم ، لخدمة قضية المصير العربي الراهن . فالشاعر ينطلق من ادراك الفدائي الثوري لما يهدد مستقبلنا من اخطار ، حين يقول :

« قبل ان تصهل نار الرعب
ادركنا معا
ان يوما غائم الاحداق آت » (٤)

لذا فان وعي الفدائي الثوري « ادرك » ان عنوان الخامس من

---

(١) الاداب : العدد العاشر ، السنة الخامسة عشرة ، تشرين الاول ٦٧ : المقاومة بالكلمة في شعر توفيق زياد .

(٢) الاداب : العدد التاسع ، ايلول ، ص ٢٨ - ٢٩ ، والاداب : العدد الرابع ، نيسان ٦٨ . نشرها في ديوانه « اغنيات للمعركة » الذي صدر في بغداد عن دار الرصافي للنشر والذي نتعرض له هنا بالنقد ..

(٣) اصدر الشاعر خمسة دواوين هي « في طريق الحياة » و « قسم » و « رماد الوهج » و « كلمات مضيئة » و « طوفان » .

(٤) ظل على وجه الجراح : الاداب ، نيسان ١٩٦٨ .

حزيران سيقع كاجراء مقابل للنهوض الثوري في المنطقة العربية ، فالشعر هنا حقق تلاحما مع تطلعات الفدائي الثوري الذي يناضل منذ اعوام لاسترداد ارضه السليبة .. ولكن ما هو البديل الذي يضعه العمل الفدائي عبر رؤاه الشعرية ؟

« وذئابا في حقول الريح .. ظمأى تترصد
تذبح الشمس على ابوابنا
ان شرفات من النور ستنثال
وافراحا ستوأد
ودما يرقص مذبوحا على الشوك
وصبحا سوف يولد .. »

ولكن متى ؟ .. يجيب الشاعر :

« بعد اعوام .. اسابيع .. هنيهات .. سيولد »

وهذا المولود الجديد هو النظام الثوري الذي يصنعه الفدائي في فلسطين الحرة المتحررة بعد ان يزيل المسخ الصهيوني الامبريالي (اسرائيل) من الوجود ..

فالطموح الفدائي ، اذن ، يتركز ليس في كسب المعارك الآنية ، حسب ـ مع التوقعات التامة لحدوث اكثر من عدوان جديد ـ بل باعادة خلق وبناء فلسطين الحرة التقدمية ، وعودة الشعب الفلسطيني صاحب الحق الطبيعي المشروع لارضه ..

ومع هذا الجو المشحون بالالم والترقب : « ستظل مقمرة عيون الجرح .. » لتنير الدرب للمناضلين لتحقيق الهدف المنشود :

« ويطوف من دار لدار
وهجا مـن الاصداء
قنطرة
تقود الهائمين الى النار » (٥)

و « النار » ـ هنا ـ تأكيد جديد ، يمنح مفهوم الانجاز الذي تحققه افعال الفدائي الثوري ، عبر هذا النضال الخصب ، والتضحيات الاكثر خصبا ..

لذا فأشعار الفريد سمعان تمنحنا بعدا أوسع لاعمال الفدائي الثوري وتطلعاته المقبلة لتحقيق النصر المحتوم ..

(٢) الاغنيات ولغة الآخرين :

ماذا يمنحنا الشاعر من خلال الاغنيات ؟ وهل أرضية الشاعر تمنحنا تشكيلا ثوريا لافكار المعركة ؟ وهل بلغت الصيغة الشعرية شكلها المطلوب ، وهل ان التجربة الشعرية لدى الشاعر هي تضمخ وجدانات تلقائية وانسكابها في أطار القصيدة أم اعادة تشكيل وبناء عالم شعري خاص يعتمد الحياة المعركة والعمل الفدائي الثوري كمحور في التناول؟

هذه الاسئلة ثارت في ذهني عندما وقفت ازاء ما كتب عن الاغنيات من قبل الشاعر ومن قبل الاصدقاء ردا او تعريفا او احتجاجا ..

وباعتقادي ان مناقشة اية مسألة شعرية هذه الايام لا تتم بمعزل عن الارضية الفكرية التي يعتمدها الشاعر وينتمي اليها ، ثم عن القيم التي يطرحها المجموع الشعري ، لان ثمة اكثر من دعوة تبرز اليوم لقطع صلة الشعر عن الماضي باسم التجديد ، لم تعتمد الفهم الصحيح لمرتكزات واسس البناء العضوي للقصيدة ، وللمرحلة النضالية التي يعيشها انساننا العربي ، اليوم ، والفدائي الثوري ، بخاصة .. ومن هذا الاعتبار بالذات نعرج في مناقشتنا على هذا الموضوع ، لانه يشكل لغة الآخرين البعيدة عن لغة الفدائي الثوري والانسان العربي عموما .

ان الذين يحاولون قطع الشعر من صلته بالماضي بدعوى « التجديد في الشكل الفني » يقعون في خطأ « فوضوي » كبير ، فأن « مسألة امتداد صلة النسب في الطبيعة والحياة الاجتماعية ترفض المفهوم الميتافيزيقي الذي ينكر الترابط الداخلي بين الظاهرات .. » ..

(٥) الى القنيطرة : اغنيات للمعركة ـ الآداب العدد التاسع ايلول ١٩٦٨ .

يقول لينين بعد تأكيده على بلاهة الفكرة الفوضوية القائلة بالقطيعة مع الماضي ، او التدمير التام للماضي كله ، ثم عبر تبيانه للنمو الذي ينبغي ان نفهم عليه قوانين الجدلية : « ان النفي الخالص والبسيط ، النفي المجاني ، النفي الارتيابي والتردد والشك ليست بالخاصة الاساسية المميزة للجدلية ، صحيح بلا ريب ان الجدلية تتضمن عنصر النفي الذي يعطي لحظة اتصال ، لحظة نمو ، مع الاحتفاظ بما هو ايجابي ، اي انه النفي الخالص من ادنى التردد ، من اية شائبة من شوائب الانتقائية » (٦) .

لذا فالذين يهاجمون الشعر الحديث ويدعون لشعر « ضد الشعر » ـ ان صح التعبير ـ لان الشعر الثوري الحديث لا يسقط في التجريد اللاواعي للاشكال الفنية ، يسقطون عامل التاريخ والآيديولوجية من الحساب ، من ثم لا يعالجون المعرفة عبر عملية اعادة نظر نقدية .. وبهذا يلتقون ـ من صيحات مجلة « شعر » و « حوار » وغيرها ـ بما كان عليه البروليتكولت قبل عام ١٩٠٨ في روسيا ، في نكران الامتداد والتواصل في الفكر الانساني ...

ان هذه الدعوة تقف في الجبهة الاخرى من الشعر الذي يخدم قضية الفدائي الثوري عندنا .. والانكى من ذلك ان بعض هذه الاصوات لا تنكر الاشتراكية كهدف وفكر وطريق في حين « ان الثقافة الاشتراكية لا يمكن ان تفبرك على نحو اصطناعي ، كذلك ليس بوسعها ان تولد بمجرد عملية « استنساخ » او « نقل » للتراث القديم ، او عن طريق الجمع الميكانيكي لعناصر مستعارة .. بل الامر يقتضي عملية انماء لما هو أفضل في الثقافة الموجودة واعادة التفكير به بروح النقد من وجهة النظر الماركسية » (٧) ..

يقول لينين في مكان آخر : « ليست المسألة أن نخترع ثقافة جديدة بروليتارية ، بل هي ان ننمي ونطور أبهى النماذج والتقاليد وحصيلات الثقافة الموجودة ، من وجهة النظر الماركسية عن العالم .»(٨)

وازاء كل ذلك تقف « اغنيات للمعركة » موقف الحاكم الذي يميز، بعين ثورية ، بين لغة الفدائي الثوري (في الشعر) وبين لغة (الشعر اللاشعر !) ، ويضع اكثر من لمسة ادانة للذين يحاولون « رفض » الشعر الثوري ويطالبون بلغة تنبع من الداخل ، لتعبر عن الذات والوجود والعدم ... الخ ..

صحيح ان لغة الشعر الآن لم تعد كما كانت قبل عشر سنوات ، ولكن الحديث عن (الشكل والمضمون) ووحدتهما بات من المسلمات المطروحة للنقاش انذاك ، اما الآن فلغة الشاعر ، هي لغة العصر ، لغة الارض التي يقف عليها ، ومن هنا « فالكلمة والبندقية هما رفيقا المعركة .. » كما اكد على ذلك الدكتور سهيل ادريس مؤخرا ..

ولم تعد لغة « يوسف الخال » و « ابي شقرا » ورهطهما ، تتناسب ، مع الصعود الثوري الذي حققه شعر المقاومة والفداء ..

وصحيح أيضا اننا كنا نتوقع من الفريد سمعان الشاعر والانسان، ان يمنحنا شعرا اكثر غنى وفنية كحصيلة طبيعية لتجربته الحياتية والشعرية الطويلة ، ولكن الاغنيات منحتنا في مقاطعها العديدة ، لوحة نقية عن المعركة ، فهو حين يغني الى فدوى طوقان يجسد لنا تشكيلا ثوريا يفيض بحس اللحظة التاريخية ، وزمان ومكان المعركة :

« عيناك في حيفا
وقلبك في ثراها
كالنجم يخفق في سناها
يصطاف عبر كرومها الوفاء
يصفر من رؤاها
حزما .. ترانيما

(٦) لينين : المؤلفات جـ٢٩ نقلا عن مهمات الثورة الثقافية تأليف فلاديمير غوربونوف .

(٧) المصدر السابق .

(٨) لينين : جـ ٣١ ص ٣٢٨ الطبعة الروسية .

يرش بهـا الصحارى .. »

في هذا المد الرومانسي الثوري تسبح قصائـد الفريد وتتشكل ثوريا ، اما فعل الفدائي الثوري فيتضح عبر فعل الكلمة ـ البندقية ، شعريـا ..

(٣) الافعال الثورية في الاغنيات :

حين قال بلند الحيدري مرة عن الشاعر انـه : « شاعـر عاش الصحراء عطشا وشمسا وسجنا رهيبا في وحشتها عرف السراب واقعا ورمزا ، ومن خلال ذلك كله كانت تنمـو قصائده دائما معاناة حسيـة لا تتكثف فيها الرموز ولا تستعير الكلمات قناعا » فقد حقق بلند فهـم التوازن السليم في الاغنيات كافعال ثورية ، من خلال فهـم العلاقـة الواعية بين فعل الكلمة « المعرفة » وفعل الكلمة « الشعرية » الثائرة.. وباعتقادي ان بين الفعلين ديناميكية ينبغي ان تتكامل عنـد الشاعر بتقنية اكثر لكي تكتسب اشعاره شموليتها اليقينية المؤثرة ، علـى ان لغة الشاعر اليوم ، هي لغة المعركة الحسية ، لا المعركـة المفخمـة بالكلمات وحدها ..

ان افعال الاغنيات تكتسب اهمية خاصة آنية ، وتاريخية ، ليست لانها تعبير الانسان المضطهد فقط ، بل وبالاساس لانها تمخضات الحاضر المتازم الممتد عن ماض متأزم ، والمتطلع الى مستقبل رغم كل ما يحيط الافق من دخان وضباب ، يحمل لغـة الايجاب والانجاز الانساني عبـر التفاؤل المشرق المؤطر بالتضحيات .. هذا الشاعر المتطلع عبر قصائده لمستقبل يخاطبه بتشكك وبحذر ، ولكن بأيمان الـذي يضع افعالـه الثورية لتحقيق البديل الاروع .. وبلغة بسيطة غير مقنعة هي امتداد لرومانسية الصحراء ، وواقعيتها المضنية .. فالاغنيات تحمل رومانسية الشاعر الثوري ، وهي عبر صوتها الخالص ، نمو طبيعي وطيب لالفريد سمعان ، ولكنه ليس النمو المطلوب فنيا ، كما يجب .. امـا معركيا فتمتد القصائد الى جذر أعمق من الفهم المسطح للمعركة .. فالفريـد حين يخاطب السجن : « يا منزلا رقدت على شرفاته .. هدب الارامل » يضع مأساة الناس وتفاعلهم الثوري أيضا في توازن تام :

« يا واحة عصفت بها العقبان
واختنقت دموع الغيث
فاحتضرت خمائـل
مليون سنبلة تجوب الارض
تفرق باللظى والطين
تبحث عـن مشاتل .. »

وفي هذا التضاد اللوني ، يطرح الفريد فكـره الثوري عبـر الاغنيات ، وان كانت لا تخلو من مباشرة وخطابية ، احيانا .. ولكـن الافعال الثورية تنمو من داخل القصائد مع الحدث لتعبر بوضوح المعاني والمتألم ، ولكن الثائر أيضا :

« يا حاصدين شجونكم بالدمع
يا ليلا يلوح بـلا مشاعل
افراحنـا نعش
سواد عيوننا فحم
اذا احتدم اللهيب
ولـم نقاتل »

وهذه الروح الفدائية في شعر الفريد تجسد الافعال الثورية التي تتشكل منها الاغنيات بوجدان طـاغ وعنيـد : « اذا » الشرطية .. « احتدم اللهيب » .. « ولم نقاتل » .. « فالقتال » هنا هو الفعـل الثوري الاغنى والاكثر تعبيرا عن الضرورة التاريخية ، والفريـد يربط افعاله ربطا طيبا .. فالاغنيات تحمل مرارة الجباه الشم التـي كانت تتطلع عبر الجدران ، وعبر الاسوار العالية ، وعبر المسافات البعيدة ، الى جنود الجبهة ، والى الفدائيين البواسل ، ولا تستطيع الاسهام في المعركة الملتهبة ، الا عبر نضال ـ من الداخل ـ وليس علـى خطوط النار الاولى ، حسب ..

لذا فحين تلد الاغنيات في ظلمة السجون مفهومهـا التحليلـي للاوضاع ، ولمعركة الفداء ، تعتمد « الثورة » محورا ، وتنطلق من هذه الارضية لتعبر بالصورة وبالكلمة ذات الدلالة الموحية غير المقنعة عـن واقع المعركة ، عبر ايمان مطلق بان الثورة لا تحتاج الـى لغة مزوقة او معقدة او مقنعة !.. لذا فقد « انسابت » افكار الشاعر « في دمه فلم يعد مضطرا على افتعال المواقف وادعاء ما ليس له ، وعلى ان يكـون شعره تكرارا لشعارات باتت في متناول كل تاجر ، انمـا هـو تجارب ومعاناة وتتبع » ـ كما يقول الدكتور علي جواد الطاهر ـ ..

(٤) رباعية التناغم في الاغنيات :

ان تقسيم الديوان الى ثماني قصائد تتداخل شكلا ومضمونا فـي بعضها لتشكل قصيدة واحدة ذات ثماني حركات ايقاعية ، ينمو داخلها الحدث ، وتنمو عبر الحدث الرؤية الفدائية الثورية ، لتحقق وجودهـا كسيمفونية فدائية ذات لغة ثورية ، تحمل عطاءها هكذا :

(١) الى القنيطرة
(٢) الى الطيار ابي سلمى
(٣) الى فدوى طوقان
(٤) الى تائه في سيناء

هذا الرباعي المتناغم يحقق زمنيا تتابعا وتدرجا في حركة الفعـل الثوري الذي ينمو من القنيطرة ـ المكان والبطولة ـ الى : ابي سلمى : الطيار رمز القوة الضاربة ـ الى : فدوى طوقان : (الصيحة الشعريـة التراثية ذات الصوت الممتد من تاريخنا الثوري والفدائي وتقاليدنا الى حاضرنا المعركي ، اذ ان فدوى هي المحفز والمثير والداعية ، فهي كوجود شعري ، لا كقصيدة فقط ، تشكل خلفية حضارية وتاريخية للحـدث اليومي ، ومع ان فدوى موجودة في صميم المعركة ، لكنها الرمز ، أيضا لكل النساء العربيات المجاهدات من الخنساء الى السجينات الآن فـي سجون اسرائيل .. والى كل النساء اللواتي يقفن في المعارك الى جانب المقاتلين ، فيغزلن اغنيات واشعار النخوة ، ويصورون الالـم ويشـرن العزيمة .. فهي اذن الرمز الحي الذي ينمو مع الحدث ليحقق فعلـه الثوري محليا وعالميا ـ .. الى الحركة الرابعة : تائه في سيناء . حيث الانكسار العسكري هو الواقع الآخر ، البعد السلبي الى جانب ايجابية التفاصيل في المعركة :

« تعب الحنيـن
ولـن تعود
عيونك الوسنى لتنعم بالرقاد
النار تمخر في الضلوع
والرمل يلتحم الرماد
والرعب يفرغ حقده المكبوت
امطارا .. يلون بالحداد
دفء المضاجع .. فرحة الواحات
يفتـرس الهـود
الليل يفرس حزمة الاشواك
في حلم النهود
الـدود ..
يلتهم الحدود .. »

ومع ذلك فان لغة الشاعر لا تخلق السلبيات كصور او مضاميـن تطرحها الارضية الحالية ، او ارضية الخامس من حزيران ، بـل يمتد

هذا التناغم والتضاد اللوني عبر السنين السابقة :

« كانت تتوق الى الغد المأمول
كانت في الشفاه
شجنا تؤرجحه الوعود
عشرين صيفا
احرفا تشقى على ضفة الحدود »

وهذا التشخيص لتاريخية اسباب النكسة ، يطرح فعل الانجاز ليس في تخطي خطوط النار ، حسب ، بل وفي تخطي وتجاوز الانكسار والنكسة وواقع التيه .. وهي الحركة الرابعة من رباعية التناغم في الاغنيات .. والتي هي لا تقبع في حدود سيناء ، بل تمتد الى رقعة اكبر من الناس والارض والانظمة ..

اما الرباعي الآخر فيتشكل عبر حركات اخرى هي :

(١) شيء من الحزن
(٢) تحية الى النجوم
(٣) الصرخة الاخيرة
(٤) ظل على وجه الجراح

وهي التجسيد الملتحم بفعل الكلمة الشعرية ـ عبر تداخلها في الفعل الفدائي الثوري ، اذ ان الاغنيات هنا تظل تحمل عبر لغتها الشعرية ثنائية في التضاد بالصورة والموقف ، الى جانب ما اشرنا اليه ، لتعمق التناغم في ايقاع الصور الشعرية والافكار فتتشكل كقصيدة شمولية طويلة ذات اقسام متعددة .. والتشكيل الثوري الذي يتحقق عبر الثنائيات المتضادة يظهر على امتداد صور القصائد الثماني:

أ ـ جذلى شفاه الرافدين .. على ثراك بلا كفن
ب ـ مدي قنيطرة البسالة مشعلا .. يطفي تباريح الشجن
أ ـ تقوى رياح الموت والزفرات .. في ليل السجون
ب ـ وانت اقوى .
أ ـ ويغازل الطاووس عصفورا
ب ـ يلوذ بدفئه ذعرا .. ويرسل الف شكوى

فهذا الترابط بين « شفاه الرافدين » كواقع ـ نتيجة ، مع «مدي قنيطرة البسالة مشعلا » كواقع ـ ضرورة هذا التداخل الحركي بين الواقع الموجود والتطلع المشروع الذي يتحقق عبر العمل الثوري ، هو رؤية الفدائي السليمة للاشياء ..

ففي « اقوى » ـ مثلا ـ يتجسد التصميم النبيل لرحلة المناضلين في متاهات الحياة والسجون من اجل ان تظل في عيون الناس ومضة حب للاروع ..

وان في هذا التضاد الذي يطرحه الشاعر عبر صوره وافكار قصائده ، يمنحنا اليقظة المستمرة والتماس الاكثر بالثورة ..

ان لغة الفريد سمعان هي لغة الفدائي الثوري الذي يناضل على اكثر من جبهة ويدرك ان حس الثورة الاصدق هو الحس النابع من ادراك مبررات الواقع الموضوعي وقوانين الحياة والطبيعة ، بما يخدم قضية الجماهير الكادحة ، لا ان تنطلق من مبررات الوصول الخاطيء للهدف عبر تسلق انتهازي لكتف الجماهير الكادحةبالوسيلة اللامشروعة والمرتجلة ، اذ ان تطلع الشاعر يحقق المستقبل الافضل الحتمي عبر الثورة وان :

« صبحا سوف يولد
بعد اعوام
اسابيع
هنيهات .. سيولد »

وهذا الزحام الزمني غير وارد ، فالفدائي الثوري يدرك ، حين يمتلك رؤاه السليمة ، اي وقت بالذات تتفجر الثورة ، اذ ان شروط الثورة المادية والذاتية ، حين تتكامل ، لا يمكن للثوري ان يخطيء التقدير ولا يكون عمله في مستوى التوقيت السليم للتحرك ، والا فسوف يخسر الثورة ويخسر الظرف الناضج موضوعيا وذاتيا ، واذ ذاك ، تكون هذه الامكانات بخدمة جهات اخرى قد تكون قوى الثورة المضادة بالذات ... لذا فالفرق بين « الاعوام » و « الهنيهات » فرق كبير جدا .. لكن تفاؤل الشاعر قرب المسافات وحاول تجميع الزمن في بؤرة الحدث الثوري او في بؤرة التطلع الثوري ، وحاول ان يحقق عبر لغته الشعرية قفزة كبيرة .

ان « الصبح » الذي يحمل دلالته الثورية يتبلور هنا في القلب من الطموح حين يقرب لنا الشاعر زمن الانتصار تحفيزا منه لنا لتحويل الممكنات من الامور الى ضرورات تتحقق عبر العمل الثوري المثابر لكي يولد الصبح « بعد هنيهات » او « اسابيع » او « اعوام » ..

ان هذا الخصب التفاؤلي في الاغنيات المضمخ بحزن الواقع المرير ، ينبع من تصميم انسان الثورة لتحقيق كامل اهدافه ، وخلق الابعاد الاحلى والاروع لمجتمعه الافضل وصنع التاريخ البشري على ارضنا العربية ، كي لا نظل نلهث وراء الاحداث ونفتقد امكانية استغلال الظرف الموضوعي الناضج لتحقيق الهدف الثوري المطلوب ..

ان احلام الشاعر غزيرة في هذه الاغنيات ، ومع انها تقترن بالايمان الازلي بالثورة الوجه ، والثورة الصفاء ، والثورة التنقية ، فان البعد الاكثر اهمية وعمقا الذي تحمله الاغنيات كتشكيل ثوري ، هو البعد الفدائي الثوري المعاصر المتدفق حيوية والتصاقا بالارض ..

ان ثورة الفدائي تظل تتطلب نقاوة في صوت المغني واصالة في تشكيله الثوري . وقد كانت « اغنيات للمعركة » تحمل لمسات هذا الصوت وبعض نبراته .

بغداد **محمد الجزائري**

اعترافات للثوّار الملثّمين

« اغنية من مواطن يتشهى شرف القتل »

— ١ —

أبحث عن عبارة صمّاء
تنقلني في رحلة الغبار :
موتا بلا مرثيَّه .
يا لغة هيكلها شرار
والنفس انسانيَّه ،
تماوجي هنيهة احتضار ،
توغلي في دمنا
تغيري ، ولوّني القرار .
يا لغة محفورة بأحرف البقاء ،
بالقتل ، لا بالطين والبكاء
سوحي مع الاطفال في بلادي
وعلّميهم نزهة الاشياء ..

— ٢ —

يابس وجهي على المرآة ، لم يعرف
سقوط الضوء بعد الكارثه
أسأل الرعيان عن لون المواويل الكبيره
لاضوّي نخوة القتلى وأروي هجرة
الجرح الاخيره .
فأنا عود على الدرب مكسَّر
كم منحت الحقل أتعابي ، وكم خلّيت
قلبي حارثه ؟!
أيها السارون في الجمر أعيدوا
وجه أرضي .
قبلكم مرت خيول الريح وارتدّت
كسيره .
جبهة الصوان ميراثي ، وميراث
الملايين الفقيره .
كل طفل في بلادي حمل الثأر قضيَّه
يتملى موجة الغازين ، لن ينهدّ تحت
الجوع مخذول السريره .
عزة النسر على التحليق أكبر :
وثبة الفادي أميره .

ان أمت قولوا لامي :
مات ، في عينيه دفق الحلم أخضر ..

— ٣ —

نحن جئنا من نحيب النخل رمحا
فارس الطعن مدمىً .
نتصبى زمن القتل صمودا وجريمه ،
يا حداة القافله
اسرعوا قبل احتجاج المطر
وارفعوا للرمل وهج الشرر
لنغني ثورة « الفتح » ونغني في
جحيم «العاصفه»
كل كرم في بلادي نذر الموسم للنصر ،
وضحى بالاكف القاطفه ..
ان أمت قولوا لامي :
لا تنامي خائفه ،
انه مات وفي عينيه رؤيا راعفه !

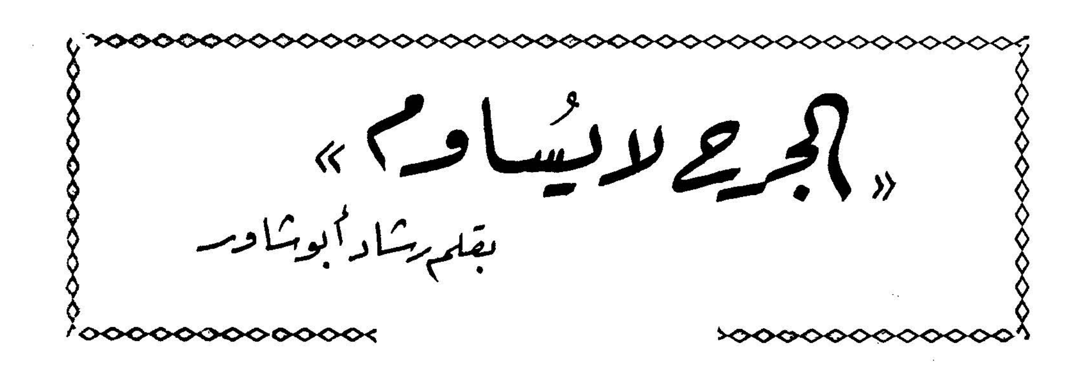
— ٤ —

أحس الليل يرميني
على مجروح بيرقهم :
حريقا يجلد الاعماق ، يفضحني ،
يعريني .
لاني عندما ولدوا نسيت اسمي ،
وما عادت جرار الدمع تمنحني فما ،
ايماءة تنحر ، تكشف
خزي تكويني .
فدائيون ما رحلت خطاكم في قطار
الموت لولا الموت .
«فدائيون» أصرخ في نزيف الشمس ،
أتبعكم ، فيكبو في
ضميري الصوت .
حوافر خيلكم داست على كبدي
وأفرح كلما صهلت ،
قطعت يدي
لاني ، مر بي زمن ، ولم أحمل لكم
قلما ، ولا بارودة ، رايه ..
لاني في غبار الموت لم أعرف
— فواخجلاه — كيف تكرس الغايه ؟
أحبائي
لنا وطن ، خنقنا نبضه الرّهاز
بالكلمات
وسوّرناه بالدمعه
لأنا قبل هذا الجرح — لم نشعل له
شمعه .
ولكن عندما انفجرت أكف الصمت ،
عاصفة جحيميه
عرفنا ان من قتلوا ، دماء في تراب
الارض محميه

— ٥ —

أورق الحور بدمئي :
فارسا يأتزر الصبح بسيناء ، وينأى .
كلما رتَّق بالجولان عصفور مهاجر
ترغلت في سهل بيسان حبيبه
تتمرأى
بجناحي قبَّره
نسيت « تحويشة العمر » ، فراخا
في هشيم المقبره !!
علّها ان مر تاريخ مسافر
منحته ريشة رعافة النسغ رطيبه
ترسم الوعد رصاصا وخناجر ،
تتشهى صبوة الثأر السكيبه :
خيمة تزحم خيمه .
أيها الجيل المقاتل
مر بالصفصاف غيمه !!

دمشق — **فايز خضور**



«الجرح لا يساوم»

بقلم رشاد ابو شاور

الجيران يغطون في نومهم يا أمي ، ونحن وحدنا نحدق في عين الوحش الخرافي ، بجراحنا ، وكلما نزفت أكثر ازددنا تحديقا ، فلا تخافي حين يتناهى الىمسامعك انني وقعت بين أيديهم ، أنا أكثر من غيري معرفة بهم ، شممت روائحهم الكريهة وسمعت لكنتهم ، اختبرتهم كثيرا ... كان بودي أن أمنحك سعادة مشاهدتيعريسا ، لكن .. ولم يكن بخلا مني أن لا أطلق لسانك في زغرودة رنانة حين يزف لك الصحب نبأ نجاحي في الجامعة .. لكن .. أنت تعرفين أكثر منغيرك – انالجيران ينامون.. وان التسول مهنة لمن خرج من التاريخ ..

آه يا أمي ، الحب والكراهية ، اندغما معا فما عدت قادرا على التفريق بينهما ..

اتبكين ؟!.. لا .. لا اقدر أن ارى وجهك يبتل بالعذاب .. لا ترجفي البندقية بين يدي .. أرجوك .. افهمتني اذن .. آه ، الآن اعدك بأنني سأحمل هذا العالم على كفيَّ الملتهبتين ، سأحرقه ان لم يفهم ارادتي .. لا غفلة بعد الآن .. حتى للذين ينطقون نفس لغتي ، ان هم لم يكونوا معي .. أترين ؟.. كبر الابن ، وصار رجلا كما تمنى قلبك العذب .. هل سمعت يا أمي بـ (محمود درويش) ؟ أنا عاشق مثله ، القمر والنجوم لي وحدي .. وآخر الليل .. بلى يا أمي .. فمع الغسق تبدأ رحلتنا ، ومن فوهات فولاذنا تزهر الشمس والحجارة .. وتغتسل الارض بندى احمر تثيله جراحنا .. ومع كل خطوة من خطواتنا يتفجر عرس لا ينتهي .. وتعرفين (محمود حجازي) ايضا ، كم انت عظيمة يا أمي . تذكرين كل شيء .. يوم رأيت صورته يقف مثل القدر تعلمت أن لا أبتسم ولو كنت فرحا .. وان مكاني غير مقعد الخشب الذي سيقذفني مرتزقا وبائع كلام ..

تسألين عن (سكران سكران) .. هذا الفتى ثمل من تراب الارض .. ففرد اعذب الالحان . لم يبك غير مرة واحدة يوم علم (انهم) قتلوا (جلال كعوش) .. نعم .. نعم يا أمي ..

– من لم يمت برصاص اليهود ، مات برصاص غيرهم ..

يا للعار .. عار التنابلة المحشوين بالغش والعفن.. حزيران ، لا .. لا اريد ان احدثك عنه .. ربما تعرفينه من الجرائد .. اما أنا فلا .. لا اريد أن أحدثك عن حرب فزاعات الطيور .. نحن اشعلناها كما يجب أن تكون .. طبعا .. طبعا .. ضميرهم النذل ، رفض أن يرىالاطفال يكبرون رغم جحيم النار .. لو اننا نموت لسرهم ذلك .. لكن يؤسفنا أن لا تتحقق رغبتهم .. لاننا نأتي باستمرار.. وكل يوم يتضاعف عددنا .. أحيانا يموت بعضنا ، وهذا أمر طبيعي وغير مفاجيء لنا على الاطلاق . وقبل أيام مات صائب ، ومحمد رشاد ، وكودوريه ، والثعلب، والجمل.. كثيرون فرشوا أجسادهم فوق تراب عشقوه .. أما أنا فما زلت حيا . مرة كدت اقع بين أيديهم لكن الرفاق انقذوني .. كيف حدث ذلك ؟

بعد أن تهدمت الكرامة ، وهجرتها الطمأنينة والحياة ، اقمنا في خرائبها .. ووهبها وجودنا معنى خاصا .. ومنها انطلقت مع الرجال .. كانت الارض تلهث وراء اقدامهم النارية .. عبرنا النهر ، وبعد ان ابتعدنا عن ضفته الغربية قليلا ، رأينا احدى سياراتهم المتربصة آتية من جهة « افصايل » . انتظرنا حتى اضحت على مقربة من مرمى نيراننا ، وعندها جعلناها تشتعل مثل حشية القش اذ تضطرم فيها النيران .. وحين عاودنا المسير ، وكان الليل مظلما ، فوجئنا بزخات رصاص رعناء .. وكان الظلام كثيفا ، اتحدت اجسامنا مع الارض .. بعدها لم أعد أعرف ما الذي يحدث .. وجدتني اقفز من مكاني ، ورشاشي يحصد بعنف كل شيء امامي ، اعتقد ان فمي كان يضج باسمك .. وعندما فتحت عيني الفيتهم حولي .. همس أحدهم بحب كبير :

الحروف من رصاص

الى محمود درويش

ستصرخ :
ــ تلك الحروف البليدة !
وتصرخ :
ــ تلك المعاني العتيدة !
ستبصق فيها حنين الهوى
وأنات شاك طواه الجوى
وهذا القوام الذي ينثني
وتلك الجباه التي تنحني
. . . . . . الى آخره !

***

وتهتف في صيحة من عذاب :
ــ فأين المعاني تشع البريق ؟
ستسمع صوتا
هناك اذا ما طرقت المدينة
بكلتا يديك
سيظهر في كل بيت
صديق .
ولن تستريح اذا ما دخلت
ولن تحتسي قهوة بالحليب
ولن يحتويك حديث معاد
ولن يتحداك صمت مريب

***

ستلمع في ومضات العيون
معان خفية
وتحت الفراش يشير اليك
« هنا بندقية » !

***

تناجيه في لحظة زوجته
يداها على مرفقيه
فيهمس :
ــ منال .. وداعا
تقول بحزم له :
« لن يكون »
فيبسم في وجهها ــ صاحبك :
« اذن فاللقاء هنا في الصباح »

***

ولن يتأسى يقول « العيال »
ولن يستكين لحكم القدر
ولن يتحدى ظلام الظلام
ببرق الكلام ..
ولن يحتمي في دروب المسير
بكوخ يقيه سيول المطر
ولن يتغنى بحب البقاء
ولن يتغنى بحب الخطر
ولن يستبيح دموع الهزيمة
ولن يدعي انه منتصر
ولكن يدق بصوت الرصاص
أناشيدنا ..
في طريق النضال

الاسكندرية

مهدي بندق

ــ لا تخف ، أنت بخير .. اصابـــة بسيطة ، في الفخــذ ..

وحمدت الله على ذلك ، لا خوفا ، ولكن لاني مصر على اتمام الشوط .. سأفعل يا أمي .. لكن ليس الآن .. لا أريد أن يبصر أطفالي النور في خيمـــة .. أقسم لك لست فظا .. لقد أحببت ابنة الجيران ، وعندما علـم والدي ، فرح ، وحاول استغــلال الفرصة ليزوجني ، اذ ربما أسكت .

وحين يئس أرضى شعوره الابوي بأن قال : طيش شباب . غدا تعلمه الحياة كيف يقبل بحياة الآخرين ... ولقد ضحكت فتاتي حين أخبرتها بموقف أبي . قالت :
ــ أنا معك حتى النهاية .. نحن نعرف ما نريد .. لـــن تعيقنا تخاريف العجائز ..

عذبة مثل المطر يا أمي . ناصعة مثل حجارة أرضنا المغسولة بالطل الحلو .. قبلت ورد فمها وأقسمت لهـا انني سأبقى على العهــد .. وسأكمل الشوط .. ماذا تعمل .. معلمة .. تحدث الاطفال عن الزيتون والـدور المنتظرة .. وتحكي لهم عن رجال آخر الليل ..

حياك الله يا أمي .. أنت تباركيـن ميثاقنا .. آه يا رائعة .. ما زال جرحي حيــــا .. لكنه سيبرأ ذات يوم .. وسنروي للاطفال كم كانت أمنا طيبة وحنونة .. لا .. أبدا .. أشعر انني أعيش الحيــاة أكثر من أي انسان آخر .. جرحي لا يساوم يا أمي .. لا يخـاف .. لا يقتلني .. انه يذكرني .. فقط .. يدفعني .. يمنحني ميزة عن البهائم . الجيران .. سيصيحون ذات يوم .. وسيقذفون بحشيات القش الى النسيــان .. أنا لا أقيم في المخيم .. فحيثترحل أقدامي (معهم) يكونمكاننا .. نحن لا نلبث في مطرح واحد .. رحيل دائم .. انه الشوق المعتق .. لقد بدأنا .. أظنك تعرفين ذلك .. طبعا .. لن ننكفىء .. عيوننا أبدا شاخصة الى الغرب .. الـــى الغرب يا ملاكي .

رشاد أبو شاور

الفدائي وأنا

« الصورة الاولى »

أحبك ايها الثائر
احبك ايها القنديل عبر الليل
تفتت ظلمة الاحزان .. تسحقها بألف قدم
ولكني وكل حصادي الكلمات
أخجل حين تلقاني
لاني لست في الميدان
وتحت الياقة البيضاء جلد ماشوته الشمس
ولا حفرت عليه الريح وشم العرس
لاني امضغ الساعات في مقهى بلا عنوان
واشرب قهوتي واضيع في الاسلفت
لاني لست في الميدان أخجل حين تلقاني

« الصورة الثانية »

أقرأ اخبارك في صحف اليوم ومنشورات الجبهه
فوق الجدران وفي فرح الاطفال
اتصور ان الشمس تعانق وجهك
ترخي ثدييها في عينيك
اتفاءل افرك كفين سميكين —
اطفيء سيجاري ارقص فرحا اذكر نفسي اتماسك
فأنا لا زلت وراءك
اتصور وجهك أقرأ اخبارك

مشوهو النابالـم

سنراهم في كل مكان
في المستشفى ، في الشارع ، في السيارة خلف المقعد
.. أو في المصعد
سنراهم حين نحدق في المرآه
وتمر اصابعنا في وهن الوجه
سنراهم في الاحلام
قنطرة حملت آلاف الاقدام
واهترأت يوم النصر
.. ويمرون بنا لا يكترثون
المحروقـون
يقفون على ابواب الصيف
اعمدة ، اطفالا ، زمنا
ويمرون .. يمرون بنا

***

قد يسأل واحدهم واحدنا اين جراحك ؟
. . . .
لا يملك من لم يتألم أن يتكلم .

حلب

خلدون الصبيحي

زهرة من دم

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٢ ـ

نزيه (بلهجة حاسمة) : هشام ، أطلب اليك ان تلتزم الصمت . هذا أمر ! (فترة) انك تثبت مرة أخرى انك انفعالي . ونحن متفقون منذ البدء ألا نفسح للانفعال مجالا يملي علينا سلوكنا !

هشام (بصوت منخفض) : أعتذر أيها الرفيق !

(جو من الوجوم)

نزيه : لا بد من الاعتراف باني ارتكبت خطأ . كان ينبغي أن يبقى بعضنا في الخارج للرصد والترقب . (صمت) لا مفر لنا من أن ندفع ثمن أخطائنا . هذه المرة ، كان الثمن حرية أخي .

الياس : من يدري . لعل هذا خير . لو بقي بعضنا في الخارج لنشبت مع العدو معركة لا نملك الآن وسائلها . كنا سندفع ثمنا أفدح.

نزيه : هذا تبرير يأتي بعد الحدث . كان ينبغي أن نفكر بـه ونقدره قبل ذلك . ان خطأ التقدير اجتهاد يمكن تبريره .

ليلى : نزيه ، لا تحملوا ضمائركم أكثر مما تحتمل . اننا جميعا معرضون للاخطاء . لكن بعضها قد يجنبنا الكوارث .

(الام واضعة رأسها بين يديها تهتز بالنحيب)

نزيه : طريقنا مليئة بالعقبات والاشواك . وفي كل منعطف شرك . وليس من وسيلة لتجاوزها جميعا الا بالتضحية . (صمت) ولئن كان أحدنا مستعدا أن يضحي بنفسه من أجـل التحرير ، فينبغي له أن يقبل مبدأ التضحية بأخيه أو بأخته أو بأعز الناس عليه . (لحظة) كنا في الماضي نتحدث طويلا عن وجوب التضحية ، فاذا استحـق اداؤها تراجعنا . أما اليوم ، فلا بد من أداء الدين والانقطاع عن الكلام . لفتحي والياس وسعيد) أخرجوا فاستكشفوا لنا الطريق . يجب أن نرحل . (لامه) أم نزيه ، أتسمحيـن لي بدقائق ؟ أريد أن اتحدث اليك (يقترب منها فيتناول ذراعها ويدخلان الغرفة اليمنى)

(يفتح الياس باب الخروج بحذر ، ثم يومىء الى فتحي وسعيد . يخرجـون) .

المشهد الخامس

ليلى ، هشام

(يبقيان صامتين فترة)

ليلى : أنت أيضا تصر على التزام الصمت ؟ أيكون الصمت صفـة لازمة من صفات الفدائيين ؟

هشام : تريدين الحقيقة يا ليلى ؟ أنا المسؤول عما حدث !

ليلى : ولماذا ؟ ما الذي يجعلك تعتقد ذلك ؟

هشام : أنا الذي اقترحت عليهـم أن نأتي فنقضي هنا فتـرة استراحة ، ونهدىء الجوع الذي كنا نعانيه .

ليلى : وماذا في ذلك ؟ ألم يوافقوا جميعا على اقتراحك ؟

هشام : عارضه فتحي . رأى من الحكمة أن نبتعد عن البيت في هذه الفترة بالذات . (فترة) كان على حق .

ليلى : وما كان موقف نزيه ؟

هشام : لم يعلق بشيء ، كان يريد مجاملتي .

ليلى : كما فعل الآن ...

هشام (منمما) : ليتيح لنا ولو لقاء قصيرا .

ليلى : تماما . بالرغم مما حدث . لا اعرف من هو ارهف منـه احساسـا ..

هشام : أعاني ، منذ أخذوا زياد ، عبئا على ضميري ..

ليلى : من أجل ذلك تصر على خوض معركة لانقاذه ؟

هشام : نعم .

ليلى : ولكن نزيه على حق . كنتم ستعرضون زياد للقتل .

هشام : ليس بالضرورة . لكن الذي لا شك فيه اننا نعرضه الآن للتعذيب .

(تصمت ليلى في أسى . فترة)

ليلى : أثبت في الايام الاخيرة انه صلب الارادة .. ثم انه لـن يفيدهم شيئا .

هشام (يدنو منها فيأخذ يدها بين يديه) : ليلى ... استمعـي الي . لعل هذه فرصة أفضل لتحقيق مشروعنا ..

ليلى : كنت أتوقع يا هشام أن تحدثني في هذا (فترة) بل كنت مصممة على أن أفاتحك في الموضوع اذا امتنعت أنت .. (صمت) لكن هذا كان قبل أن يأخذوا زياد ..

هشام : ذلك لا يغير في الامر شيئا !

ليلى : أشك كثيرا . بل أميل الى أن أعتبر الزواج الآن أمـرا سابقا لاوانه .

هشام : وجهة نظري هي أن أكون أقرب اليكم من السابق في هذه الفترة بالذات . لعل وجودي بينكم ...

ليلى : فهمت قصدك ، هشام ... ولكن كيف نواجه أمي هـذا الامر ؟

هشام : أقيم معكم ، بدلا من أن نستقل ببيت خاص ، كما كنـا عازمين . لكني لن أنقطع طبعا عن العمل مع الرفاق ، ولو بشكل آخر.

ليلى : أن تنظر امي ، فترى انك قد حللت محل زياد ...

هشام : لا يمكن أن تفكر على هذا النحو .

ليلى (ساهمة) هل تلاحظ ، هشام ، ان جو الفرح والبهجة لـم يخيم منذ أشهر طويلة على هذا البيت ؟ أتساءل أحيانا : هل الحياة ، والحالة هذه ، جديرة بأن تعاش ؟

هشام : لا ، ليلى . لا أريدك أن تستسلمـي لمثل هذه الروح . (صمت) أتذكرين ما الذي كنت تقولينه لي اذ كنت ترينني حزينـا بعد أحداث العام الماضي ؟ أما كنت تتساءلين : ما عسى أن يكـون موقفك لو كنت في الاربعين أو في الخامسة والاربعين ؟ ألست أنت التي شجعتني على الانقطاع عن الدراسة والانضمام الى نزيه ورفاقه ؟

ليلى : بلى ، هشام ، ولست نادمة على ذلك ، ولكنني أعبر لك عن مخاوفي الحالية . بدأت منذ الآن أتصور الجو الذي سنعيش فيه أنا وأمي ، في هذا البيت الذي غادره رجـاله (لحظة) حين يهبط الليل هذا المساء ، ستقول لي أمي ، من غير أن تنظر في عيني : هل خطر لك يا ليلى اننا سنقضي الليلة وحدنا ، أنا وأنت ، بلا رجل في هذا البيت ؟ وستضيف قائلة : ان هذا يحدث لاول مرة ، منذ أعـوام طويلة ، منذ وفاة المرحوم أبيك ... وستصمت أمي بعد ذلك لتقضي الليل كله مفتوحة العينين تحدق في الظلام . (صمت) لست يائسة يا هشام ، ولكني أحدثك عن الايام التي تأتي ..

هشام : من أجل ذلك أحسب انك ستكونين بحاجـة الي يا ليلى أكثر من الماضي .. وهذا ما يدفعني لتجديد اقتراحي (صمت) . لدي أنا كذلك شعور عميق متأصل في نفسي ، هو احساسي بالحاجة اليك أكثر فأكثر حين أواجه المصاعب . أجدني أشد تذكرا لك وأعمق حنينا في المخاطر والازمات . أتعرفين ؟ كانت صـورتك أول ما طاف بذهني حين سمعنا انفجار القنبلة التي وضعناها على باب المولد الكهربائي . قلت في نفسي ان ليلى ستسر بالنبأ ...

ليلى : لكن هل فكرت ، هشام ، انني أعيش الخوف الكبير كلمـا سمعت بلاغا من المنظمة يتحدث عن استشهاد بعض الفدائيين ؟

هشام : أفهم ذلك يا عزيزتي . من يدري ؟ أليس طبيعيا اذن أن أطمح في هذه الساعة الى امتزاج حياتينا امتزاجا كاملا ؟ الزواج لايعني لي يا ليلى متعة وسعادة فحسب . انـه شركة كاملة ومعاناة للحيـاة متبادلة .

ليلى : انتظرنا طوال هذه الاشهـر ، هشام ، وأرى الآن أن ننتظر

فترة أخرى .

هشام : تقصدين حتى يتم التحرير ؟

ليلى : ليس التحرير على بعد خطوة أو خطوتين . لا بد لنا ، على الاقل ، من أن ننتظر عودة زياد ..

هشام : سيعود زياد يا ليلى .. (يتناول يدها) وسنلتقي عما قريب (يقلب كفها وينحني فيقبل راحتها) ان القلق سيملأ ساعاتي منذ الآن ، فأنا لن أكف لحظة عن التفكير بك من أجل زياد ، وعن التفكير بزياد من أجلك .

ليلى : أخشى الايام المقبلة يا هشام . أخاف أن نكون على عتبة تجربة قاسية ستملأنا أسى وعذابا .

هشام : يجب أن نتعاهد مرة أخرى على الصبر والصمود . أقسم ان كل شيء يهون حفاظا على هذا الحب : حبي لارضنا وحبي لك . انهما حب واحد . كثيرا ما أتلوى شوقا وحنينا اليك في الليالي المظلمة . ولكن حسبي أن أشعر بدفء التراب فوق الارض التي أضطجع عليها لتهدأ نفسي (صمت) أنت أرضي الخيّرة ، ارضي الصغيرة . والارض هي أنت يا حبيبتي (تشد على يده في حنان ، يحاول أن يعانقها ، فتبتعد عنه برفق) .

ليلى (هامسة) تنسى انهم هنا ! (تشير الى باب الغرفة فيتراجع عن محاولته ولكنه يحتفظ بيدها) ولكن قل لي ، هشام : ألا تعتقد ان أمامنا أياما طويلة من الدموع والآلام والفداء ؟

هشام (بعد لحظة صمت) : أتدرين يا ليلى ؟ راودتني هذه الفكرة منذ أيام ، حين كنت والرفاق نعبر واديا موحشا لجأنا اليه ، اذ كانت احدى طائرات الهليكوبتر تطاردنا . وذات لحظة احسست بالتعب ، بل ببعض الاسى يتسرب الى نفسي من غير أن افهم مبعثه . وقلت لسعيد انني بدأت أخشى المستقبل ، وان أياما من الآلام تنتظرنا . وبينما كنا نتداول في هذا ، لمحت على جانب ساقية اعترضت سبيلنا زهرة غريبة لم أشهد مثلها من قبل . كانت زهرة حمراء قانية اللون ذات أوراق دقيقة ، تنبثق بين كثير من الزهور المختلفة الالوان التي نشاهدها في كل مكان . وكانت تبدو متوحدة ، غريبة .. وقد نبهت سعيد اليها ، فوقف يتأملها ثم قال : عجبا . انها تكاد تكون زهرة من دم . ولا أدري لماذا ذكرتك على الفور . وتساءلت في رعشة : أي وجه للشبه بين زهرة الدم هذه وبين ليلى ؟ ولم أحدث سعيد بهذه الفكرة . أردت أن أحتفظ بها لنفسي ، سرا صغيرا ، دافئا .

ليلى (ساهمة) : زهرة من دم ؟ عجبا ...

هشام : أؤكد لك يا ليلى انها كانت زهرة حقيقية ، ولو لم يرها سعيد لظنني واهما . (لحظة) ها أنت تذكرينني بها الآن حين تقولين ان أمامنا أياما طويلة من الدموع والآلام والفداء . (صمت) تصوري الايام القاسية التي لا بد أن نعيشها يا ليلى . تصوري أشعة الشمس التي تنصب علينا محرقة حين نعود الى السهول والجبال ، وتصوري برد الليالي السوداء التي ترعش أطرافنا (يميل عليها) ليلى ...

(ليلى تعانقه عناقا حارا من غير أن تنبس بكلمة . طرق خفيف على الباب . يتناول هشام رشاشه ويقف في حالة تأهب . يفتح سعيد الباب ، ثم يدخل ووراءه فتحي والياس . يبرز نزيه على باب الغرفة اليمنى ، وأمه خلفه .

المشهد السادس

الام ، ليلى ، نزيه ، هشام ، فتحي ، سعيد ، الياس

فتحي : ألم تسمعوا تبادل اطلاق النار ؟

نزيه : لا . هل تبادلتم النار مع العدو ؟

سعيد : بل مع شخص كان متربصا غير بعيد ، ثم لاذ بالفرار !

الياس : لا بد اننا ابتعدنا كثيرا عن البيت ونحن نطارده ، والا لسمعتم صوت الرصاص .

هشام : من عساه يكون ؟

فتحي : لا شك في انه احد المتعاونين مع العدو .

نزيه : جاسوس ؟

الياس : جاسوس ، متعاون ، خائن .. كلها أسماء لمعنى واحد !

فتحي : لمحناه أولا حين اجتزنا المنعطف يهرول في اتجاه الوادي ، فأخذنا نعدو للحاق به . ثم أضعنا اثره في غابة الزيتون . وفيما نحن سائرون بحذر ، فاجأنا باطلاق النار ، ثم تسلل عبر الاشجار .

ليلى : ألم تميزوا بعض ملامحه ؟

سعيد : كان ملثما .

ليلى : منذ يومين كنت متجهة الى منزل عمتي ، فلمحت شخصا واقفا عند المنعطف . وحين رآني تظاهر انه يقرأ صحيفة .. وقد ظننته أحد الفدائيين .

نزيه : انهم أحيانا يتنكرون بأزيائنا لتضليل المواطنين (لحظة صمت) لا بد أن نترصده ذات يوم . أما الآن فيجب أن نسرع في الخروج . لا شك في انه سيشي بنا لدى قيادة العدو . وليس امامنا الا أن نتغلغل بين الاشجار قبل أن تكتشفنا طائرات الهليكوبتر .

هشام : لا أفهم أن يكون منا جواسيس !

فتحي : ولماذا لا تفهم ذلك ؟ أليسوا موجودين في كل أمة ، وفي كل مكان ؟

هشام : لكن الجواسيس أخطر علينا وعلى نضالنا من العدو نفسه .

الياس : لذلك لا بد لنا من أن نوجه اليهم أقسى ضرباتنا .

نزيه : عملنا في مكافحة الجاسوسية والعمالة لا ينفصل عن عملنا في مكافحة العدو .

هشام : أليس علينا أن نبلغ جهاز الرصد عندنا بأمر هذا الجاسوس ؟

الياس : لن أنتظر حتى يتحرك جهاز الرصد . سوف ألوي عنقه بيدي حين ألتقي به . (لحظة) وقبل أن أدق رأسه ، سأمرغ وجهه بالتراب وأقول له : شم رائحة الارض أيها القذر ! شمها جيدا حتى تكف عن خيانة التراب الذي أنبت جذور آبائك وأجدادك !

فتحي : سعيد ، لم تخبر الرفاق اننا فوتنا فرصة ذهبية !

سعيد : حقا ... حين كنا عائدين رأينا في الطريق المحاذي سيارة للعدو كان يهبط منها الجنود . لعلهم كانوا يداهمون أحد البيوت . وتربصنا خلف شجرة ، وقلت لفتحي انني سألقي عليهم قنبلة . أخرجت بالفعل قنبلة من وسطي ، وهممت أن انزع فتيلها لالقيها على السيارة . وفجأة أمسك فتحي بيدي ..

نزيه : لماذا ؟

هشام : ماذا حدث ؟

سعيد : أومأ فتحي الى حديقة البيت هامسا : ألا ترى ثلاثة أطفال هناك يلعبون ؟ صحيح انهم بعيدون عن مكان السيارة وانشظايا القنبلة لن تدركهم ، ولكنهم سيصابون دون ريب بالذعر من جراء الانفجار . وكان أن اعدت القنبلة الى وسطي .

الياس : لا أدري ان كانت هذه الوساوس في محلها ...

هشام : لنتذكر تلك الصور التي نشرتها جميع الصحف ، والتي يرى فيها الاطفال وقد أحرقتهم قنابل النابالم ...

نزيه : سنكون قساة في القتال ، لكننا لن نرتكب ما ارتكبوه ابدا ، مهما بلغت المعركة من العنف .

الياس : لكننا لن نستطيع أحيانا أن نتجنب عنفهم الا بمثله ..

نزيه : ليس لنا الخيار ، الياس . ان لنا من تاريخنا ما يعصمنا من ذلك . كأنه قدر مكتوب علينا . لن نستطيع أن نخون هذا التاريخ.

الياس : الامر عندي ليس على هذا القدر من الوضوح . لقد كانوا دائما البادئين بالاعتداء . كان الارهاب طريقتهم المفضلة ، وسيلتهم الاولى لسلبنا الارض ، وطردنا من البيوت . مذعورين أبدا خرج أهلنا من المدن والقرى . كانت قبية ودير ياسين وكفر قاسم في

عيون جميع أولئك الذين نزحوا ، صورة لابشع ألوان القتل والتعذيب . هذا أيضا جزء من الماضي ، جزء من التاريخ ، جزء مما تسميه القدر . قدر كذلك ألا تستطيع الامتناع عن قتل من قتل أباك ، لانه هو ، لن يمتنع عن قتل ابنك حين تتاح له الفرصة !

نزيه : ما أعتقده ، على أي حال ، ان سلوكنا ، في معركتنا الطويلة ، لن يكون مبنيا على ردود الفعل ، ولا على الرغبة في الثأر والانتقام . اننا نطلب العدل وحده . ومعركتنا معركة حق وعدالة . والآن (ملتفتا الى أمه والى ليلى) لست أدري متى يتاح لي أن أعود . لكن ثقي ، أم نزيه ، انني لن أتأخر طويلا (يعانق أمه ، ثم أخته) .

(يصافح هشام ليلى وهو ينظر في عينيها متباطئا . الجميع ينتظرون) .

فتحي (مربتا على كتف هشام) : كفى ، كفى ، هشام .. داع أوضاع رفاقك ! أشفق على قلوبهم ! (يضحكون)

(يتراجع هشام وهو لا يزال يرنو الى ليلى . يتجه الرجال الخمسة الى باب الخروج)

الام (بصوت مرتعش) : اذهبوا في حراسة الله يا أولادي . لكن لا تنسوا زياد .

(يخرجون)

ليلى : أمي ، ألا تشعرين بسعادة ان الرجال قد أكلوا اليوم ، وشبعوا ، وارتاحوا ؟

الام : أخشى أن يكون أمامهم يا ابنتي كثير من الايام التي سيجوعون فيها ويتعبون .

ليلى : ولكنهم لن يستسلموا .. أليس كذلك يا أمي ؟

الام : بلى ، ليلى . لن يستسلموا . لن يستسلموا . هذا يملأني رضى ، ويملأني أيضا خوفا وارتعاشا .

(تنظر الام الى الصورة المعلقة ، وتفعل ليلى مثلها . فترة . يأخذ جسم الام يهتز كأنما هي تبكي . تنحني ليلى فتحيط كتفيها بذراعها ، فتصبحان جسما واحدا يهتز برعشة النحيب . من غير صوت .)

— ستار —

الفصل الثاني

في مقر قيادة العدو ، في ضاحيه نابلس ، على بعد قليل من بيت فوريك .

مكتب ذو أثاث حديث . له باب واحد الى اليسار . آلة تلفون على الطاولة . أريكة وبضع كراسي .

المشهد الاول

الضابط الاسرائيلي ، جندي

(الضابط جالس وراء مكتبه يقلب في أوراق . الجندي واقف غير بعيد يقرأ)

الضابط : وماذا يقول التقرير الثاني ؟

الجندي : يقول ان مجموعة من المخربين نسفوا ليلة أمس مركزا للمراقبة عند الحدود ، فقتل اثنان من جنودنا ، وفر المخربون الذين تعقبتهم دورياتنا حتى اختفوا .

الضابط : هذا كل شيء ؟

الجندي : كل شيء في التقرير الثاني .

الضابط : وهل هناك تقرير ثالث ؟

الجندي : بل تقريران آخران .

الضابط (بتأفف) : اقرأ أولهما .

الجندي (يقرأ) : « ظهرت اليوم في البلدة والقرى المحيطة بوادر تمرد شعبي كان من مظاهره أضراب عدد من المحلات ورغبة في المقاطعة وعدم التعاون مع اداراتنا . ويخشى أن تمتد هذه الروح بحيث تشمل المنطقة كلها ، فنتوقع سلطاتنا في ارتباك لا يساعدها على تسيير دفة الامور على النحو الذي ترضاه . وقد عثر بعض رجال شرطتنا على مناشير تدعو الى اضراب عام . ويقال ان مظاهرة نسائية ستخرج صباح غد ، وان ...

الضابط (مقاطعا بعصبية) : يكفي .. يكفي ! (يدق جرس التلفون ، فيتناوله الضابط) آلو .. نعم .. ماذا تقول ؟ أي مستودع ذخيرة ؟ منا جندي ومدنيان ؟ ومنهم ؟ واحد فقط ؟ يقينا ، اذا استمروا على هذه الوتيرة ... حسنا ، شكرا . (يضع السماعة ، محدثا نفسه) انني لا أفهم ماذا أجدانا ذلك الانتصار الخاطف ! هل انتهت حقا حرب الايام الستة ؟ أراها تتمدد الى ما لا نهاية ... لقد أصبح هذا شيئا لا يطاق ! كل يوم خمس عمليات أو ست ! من أين ينبع أولئك الشياطين ؟

الجندي : من أرضهم ، سيدي الضابط !

الضابط (غاضبا) : اخرس ! هل سألتك أنت ؟

الجندي (متراجعا) : عفوا ، سيدي الضابط : حسبتك تسألني .

الضابط (يعود يحدث نفسه) أف .. وأين كتائبنا وفرقنا ؟ (يضرب بيده المكتب) أين جيش الدفاع ؟

الجندي : متوزع في جميع المناطق ، سيدي الضابط !

الضابط (منتفضا على مكتبه) : اخرس ! هل سألتك انت ؟

الجندي : عفوا ، سيدي الضابط ! حسبتك تسألني ...

الضابط (يعود يحدث نفسه) : وكيف لنا أن نواجه هذه الاوضاع كلها ؟ أنعيش عشرين سنة أخرى ، لا نفعل الا أن نتسلح ونبتهل الى أصدقائنا أن يزودونا بالمال والعتاد ؟ لماذا لا يدعنا هؤلاء الكلاب نعيش في أمان ؟

الجندي : سيدي الضابط ...

الضابط (ينهض باندفاع مكورا قبضته في وجه الجندي) : ألا تخرس أنت ؟ (يتقهقر الجندي مذعورا) .

الجندي : عفوا ، سيدي الضابط .. حسبتك ..

الضابط (مقلدا صوت الجندي) : حسبتك تسألني .. اخرس ! ومزق هذه التقارير كلها ! (يهم الجندي بتمزيق التقارير) ولكن ماذا تفعل أيها الشقي ؟

الجندي : أمزق التقارير ، كما طلبت مني ، سيدي الضابط !

الضابط : أنا طلبت منك ذلك ؟

الجندي : نعم ، سيدي الضابط .

الضابط (ماسحا رأسه بيده) : أف .. لا شك انني محموم (يتراخى في مقعده) ولكن ينبغي ألا أضعف ! (يستقيم في جلسته) اسمع أنت . أجبني الآن فقط : ذلك الصغير الذي أسرناه أمس ، ألم يعترف بشيء بعد ؟

الجندي : لا . كأنهم خاطوا فمه !

الضابط : وماذا أثبتت التحقيقات ؟

الجندي : انه ابن أسرة مشهورة بالمقاومة ، أبا عن جد .

الضابط : هل استعملتم معه بعض ... الاساليب ؟

الجندي : هو صغير السن . ونحن نأمل أن يعترف ، بشكل طبيعي .

الضابط : حسنا . ايتوني به . لعلني أستطيع أن أحل عقدة لسانه .. (يؤدي الجندي التحية ويهم بالخروج) أسمع ، اسمع . استدعوا أيضا راشيل (يؤدي الجندي التحية ثانية ويهم بالخروج) اسمع ، اسمع . قولوا أيضا لمساعدي ... لا ، لا .. لا حاجة لذلك . (بصوت مرتفع) لماذا لا تخرج ؟ ماذا تنتظر ؟..

الجندي والضابط (مقلدا لهجته) : سيدي الضابط ، حسبتك تسألني ...

الضابط (هاجما على الجندي الذي يفر) : أخرج من وجهي يا صاحب التقارير اللعينة ! (يخرج الجندي مغلقا خلفه الباب) يقول انه صغير السن ! صغير السن ! هل بقي لديهم من لا يزالون صغار السن ؟ بدأوا جميعا يعملون .. لا صغير ولا كبير ! انهم

يرضعون مواليدهم حليب المقاومة .. (مستدركا) أقصد لبن التخريب. لعنهم الله .. ونحن ، الى متى سنصبر عليهم ؟ الى متى ؟ (يلتفت حوله ، يمنة ويسرة) ولكن أين هو ؟ لماذا لا يجيب ؟ الآن وقد احتجت اليه ، يغيب .. يلتزم الصمت .. لماذا أنت أبكم ؟ من يجيبني عن أسئلتي ؟ (يمسح رأسه بيده) انني يقينا محموم .. أنا بحاجة الى راحة .. الى هدوء .. الى بعض الاسترخاء .. الى شيء من النوم . (يضع رأسه بين يديه كأنما لينام . فترة . يطرق الباب . يتململ دون أن يجيب . يطرق الباب ثانية ، يرفع رأسه مذعورا) ماذا ؟ تقرير جديد ؟ (يهدأ لحظة) أف (يدق الباب مجددا) أدخل .

(يدخل زياد يحيط به جنديان ، وهو مقيد اليدين . يومىء لهما الضابط بالخروج)

المشهد الثاني

الضابط الاسرائيلي ، زياد

الضابط (بلهجة ساخرة) : أهلا بالفتى الشجاع ! أهلا بالبطل المقدام ! كيف حالك ؟ (زياد يحدق فيه دون أن يجيب) هل تشكو من شيء ؟ تكلم ، أجب ، قل شيئا ! هل هذا من التهذيب ؟

زياد (بلهجة ساخرة) : أنتم ... تتحدثون عن التهذيب ؟

الضابط (بهدوء) : ولماذا ؟ هل أساء أحد معاملتك ؟

زياد (رافعا يديه بالقيد) : لا ، على الاطلاق . أنظر ، انهم يكرمونني كل التكريم !

الضابط (بجد) : مهلا ، مهلا .. ان هذه اللهجة لا تنفعك !

زياد : سألتني فأجبت !

الضابط : وهل تجيب عادة على كل سؤال يطرح عليك ؟

زياد : اذا راق لي السؤال !

الضابط : هل يروق لك أن أسألك عن عدد رفاقك ؟

زياد (بهدوء) : ليس لي رفاق .

الضابط (بلهجة تصطنع الهدوء) : مصيبتكم ، انتم العرب ، انكم لا تكذبون على الناس فقط ، بل تكذبون على انفسكم ! (ينفجر زياد ضاحكا) ما الذي يضحكك ؟

زياد (يعود الى الضحك) : تتحدثون عن الكذب ، كما لو ان هناك من يستطيع أن ينافسكم فيه !

الضابط (يقترب منه ، وبلهجة تهديد) : خير لك ألا تكون وقحا ...

زياد : بكل بساطة أقرر واقعا ...

الضابط : وما هو هذا الواقع ؟

زياد : هو ان تاريخ دولتكم كله قائم على الكذب والتزييف والخداع!

الضابط : كذاب ! (يصفعه)

زياد : ليس بطولة أن تصفع شخصا قيدت يديه بالسلاسل !

الضابط : وهل من البطولة أن يستسلم شخص كما استسلمت أيها الجبان ؟

زياد (يخفض رأسه) : ليس الاستسلام علامة الجبن بالضرورة .

الضابط : ماذا تعني ؟ (زياد لا يجيب) تكلم ! أيمكن أن نصف هذا بغير الجبن ؟

زياد : ليس عندي ما اجيب به .

الضابط : اسمع أيها الصغير ! لقد صبرنا عليك يومين ونحن نعاملك معاملة الصغار ... فاذا بقيت مصرا على الصمت ، فليس أمامنا الا أن نعاملك معاملة الكبار .

زياد : أرفض أن تعتبروني صغيرا !

الضابط : لسنا وحدنا الذين نعتبرك صغيرا .. ان هناك .. أمك أيضا ...

زياد (منتفضا) : أمي ؟..

الضابط : نعم ، أمك .. لقد طلبت مقابلتي أمس ، وتحدثت بشأنك!

زياد : غير صحيح .. انت تكذب .

الضابط : مهلا ، مهلا .. هدىء أعصابك أيها الصغير ! (يتناول مغلفا على مكتبه ويسحب منه صورة) صورة من هذه ؟ أليست هي أمك .. تصافحني ؟

زياد (منفجرا) : أيها الشرير اللئيم ! حتى أمي تريدون أن تلوثوها .. تريدون أن تلطخوا سمعتها ؟

الضابط (يربت على كتفه) : لا تبالغ .. لا تبالغ أيها الصغير ! ليس هناك ما يسيء الى سمعة أم تقابل قائدا لتطلب منه أن يطلق سراح ابنها !

زياد : أنت لا تعرف أمي (صمت) ولا بد ان أعصابها قد انهارت حتى ترضى بأن تسعى .. اليك .. (يخفض رأسه ، وبلهجة معذبة) لماذا فعلت ذلك .. لماذا فعلت ذلك .. يا أمي ؟

الضابط : أوه .. لا تكن ساذجا الى هذا الحد ، ولا تجعل من هذا الامر البسيط مأساة ! (صمت) اسمع ... اسمع يا .. زياد .

زياد (بلهجة سريعة) : لا أسمح لك أن تنطق باسمي !

الضابط (مبتسما) : لا بأس .. اسمع أيها الصغير .. اشفقت حقا على أمك .. انها امرأة جليلة .. وهي ...

زياد (مقاطعا) : هي لا تحتاج الى شهادة منكم !

الضابط : يبدو انك غير حريص على أن تعود اليها ... المسكينة ! (زياد لا يجيب) أما اذا كنت راغبا في مؤانسة وحشتها ، فليس عليك الا أن تجيبنا عن عدد رفاقك .. وعن أمكنتهم ..

زياد (بجفاء) : أجبتك أن ليس لي رفاق .

الضابط : أنصحك مرة أخيرة (يدق جرس التلفون) آلو .. ماذا ؟ (بصوت غاضب) لا .. لا اريد ان أسمع شيئا آخر .. لا .. كفاني اليوم ! قلت كفاني ! (يغلق السماعة بصخب) يا للشياطين ! افعلوا ما تشاءون ، ان ذلك لن يعود عليكم الا بمزيد من الخراب ! (يلتفت الى زياد ، ثم يقترب منه ويصرخ بوجهه) هل تسمع ؟ مزيد من الخراب ، مزيد من الخراب !

زياد (مبتسما) : لا بأس ! نريد أن نبني لنا عالما جديدا ، دنيا جديدة ، على أنقاض عالمنا القديم !

الضابط : هل تظن أيها الاحمق اننا سنسمح لكم ببناء هذا العالم الذي تتحدث عنه ؟

زياد : وهل تظن أنت اننا سنستأذنكم لكي نبنيه ؟

الضابط (مكورا قبضته) : لم أعرف من هو في مثل وقاحتك ! كلمة أخرى وسأسحق وجهك سحقا ! انكم لا تستحقون العطف .. ولا الشفقة .. ولا المساعدة ..

زياد (مقهقها) : آه .. اننا نعرفها شفقتكم .. شفقة دير ياسين وكفرقاسم .. ونعرفها مساعدتكم .. مساعدة وكالة الغوث والامم المتحدة ...

الضابط (ناهضا اليه) : حسنا . وآن لك أن تخرس ! (يهم بان يوجه اليه قبضة يده ، ولكن الباب يطرق ، فيمتنع عن ضربه) أدخل (تدخل راشيل فتبتسم للضابط وهي تحييه . يشرق وجهه ويبادلها ابتسامتها) أوه .. تأتين في أوانك يا عزيزتي راشيل . تعالي . هذا فتى لطيف (يشير الى زياد) ولكن لديه غرور الشباب ، أو بالاحرى حماقة المراهقة .. على أي حال ، سيحدثك عن رفاقه ، فكوني معه ... لطيفة ! (يغمزها بعينه) انني مضطر الى الذهاب الآن لاحقق في نسف مولد الكهرباء . لا بد أن نقبض على المخربين . وهكذا أخلي لكما المكتب .. فتدبري الامر معه ! يغمزها ثانية فيما هو يغلق الباب خلفه) .

المشهد الثالث

زياد ، راشيل

راشيل (مستندة بجذعها الى المكتب ، واقفة وقفة اغراء) : هل لي أن أعرف اسم صديقنا العربي الجميل ؟

زياد (بلهجة جافة) : لست صديقكم أولا ، ولا يهمني أن تعرفي اسمي ثانيا !

راشيل : ألا ترى انني استحق منك لهجة أكثر ودا من هذه اللهجة ؟

زياد : لا أطلب منكم شيئا ، وليس عندي ما أقدمه لكم !

راشيل : لا أفهم لماذا تواجهوننا بهذه الروح العدائية ! هل ترون اننا نريد بكم شرا ؟

زياد (ينفجر ضاحكا) : اطلاقا ! انكم لا تريدون لنا الا الخير .. والدليل ... (يعود الى الضحك)

راشيل (تقترب منه) : اضحك ثانية ، ارجوك ! ان ضحكتك جميلة بل لذيذة جدا ، وهي توحي بالاطمئنان (فترة) ولكن... الجو هنا حار ، أليس كذلك ؟ (تخلع سترتها فيبدو قميصها الشفاف وذراعاها العاريتان . يدير زياد رأسه عنها . تزداد اقترابا منه ، وتضع يدها على كتفه) اسمع يا ... زياد ! (يجفل عند سماع اسمه ويبتعد عنها) أعرف اسمك ، فلا حاجة بك الى القلق . ويكفيني بعد ذلك أن أرى انك فتى في نضارة الورد . ولذلك أتساءل ما الذي جاء بك الى هنا ؟ لماذا تحاول أن تفسد حياتك باللجوء الى أعمال العنف ؟ لماذا لا تتمتع بشبابك ؟ هل يعيش الانسان حياته مرتين ؟ (تعود فتقترب منه) أريد أن أساعدك ، لكنني بحاجة الى ثقتك أولا . (تتوقف لحظة ثم تضحك ..) أوه .. انني حقا حمقاء ! كيف أريد أن أكسب ثقتك وأن أساعدك ، ويداك مقيدتان ؟ تعال : هات يديك لافك عنهما القيد !

زياد (يتراجع في نفور) : لا ، دعيني .. دعيني !

راشيل : عجبا ! هذا أول أسير يرفض أن يفك عنه القيد ! هل رايت سجينا يفتح له باب السجن فلا يقتحمه للفرار ؟ هل رأيت طيرا يمتنع عن الخروج حين يشرع له باب قفصه ؟ ولكن لماذا ؟ (تعود اليه) أريد أن أمنحك الحرية ، لكي تطمئن الي ! (تتناول يديه) تعال ، تعال . (يتركها تفك القيد من غير أن يقاوم) اترى ؟ ها هما يداك طليقتان . تستطيع الآن أن تفكر بحرية . وأن تتحرك كذلك بحرية . والآن ، تفضل ، اجلس على هذه الاريكة ..

زياد : افضل أن أبقى واقفا .

راشيل : حين يجلس المرء ، يستطيع أن يفكر بمزيد من الروية . تعال ، تعال . (تجذبه من يده وتجلسه على الاريكة) ولكي تكون أكثر اطمئنانا ، سأجلس أنا هناك (تجلس على كرسي ، شابكة ساقيها ، كاشفة عن جزء كبير منهما) والان ، اسمع يا زياد ...

زياد : أرجوك .. لا تذكري اسمي بعد .. (ينظر الى يديه)

راشيل : ولماذا يا زياد ؟ ألا زلت أوحي لك .. بالخوف ؟

زياد (بصوت خافت وهو لا يزال ينظر الى يديه) لا .. ولكن..

راشيل : وانت لم تسالني عن اسمي ؟

زياد (مترددا) : سمعت الضابط يناديك « راشيل » .

راشيل : حسنا (تنهض ، ثم تاخذ في السير عبر المكتب بخطى هادئة ، ولكنها مثيرة ، وهو ينظر اليها ، ثم تقترب فتجلس على الاريكة بجانبه) الا تريد أن تعود الى البيت ؟ (ينظر اليها بخوف ولهفة في آن واحد) انك أصغر من أن تحتمل الاستجواب ، أقصد عذاب الاستجواب . وأنا أعدك بتسهيل أمر عودتك بعد وقتقصير.. ولن ادعهم يقتربون منك . بل سأتردد عليك (لحظة) ما رايك ؟ سأجيئك في الليل (تلتصق به ، فيبتعد عنها) انني معجبة بشبابك.. ويبدو ان لك جسما قويا (تزداد التصاقا به بحيث يعجز عن الحراك وقد بلغ ذراع الاريكة) أقسم لك انك ستعود الى البيت (تحوط عنقه بذراعها وتدني فمها من وجهه) أقسم لك .. (يحاول أن يبعدها عنه فتقع يده على نهدها)

زياد (مرتعشا) : ارجوك .. (يصرف وجهه عنها) دعيني .. دعيني يا ... آنسة !

راشيل (تعود اليه باندفاع) : قل راشيل ! هل ترى ؟ لقد بدات تثق بي (تحاول أن تعانقه ، فلا يقاوم ، ولكنه لا يستجيب) أية شفتين حارتين شفتاك ! لكأنهما لم تتذوقا بعد أية قبلة .. (تقبّله) هل تريد أن أزورك هذه الليلة ؟ (لا يجيب) تكلم يا زياد .. ساكشف لك عن دنيا لم يحلم بمثل جمالها انسان ...

زياد (يرفع رأسه فجأة كانه صمم على أمر) : اسمعي يا .. راشيل !

راشيل : قل ما تريد .

زياد : تسالينني عن عدد رفاقي ..

راشيل : ليس هذا بالشيء الهام ..

زياد : سأعترف .. انهما اثنان .

راشيل (بهدوء) : حسنا . وماذا بعد ؟

زياد : لكنك .. وعدتني ..

راشيل : بم وعدتك ؟

زياد : أن تطلقوا سراحي ...

راشيل (ضاحكة بطلاقة) : لكنك تنسى يا زياد ... وعدتك أولا بزيارة في الليل (ينظر اليها صامتا ، وهي تحدق فيه باغراء) على اني عاتبة عليك ...

زياد : لماذا ؟

راشيل (في دلال) : لم تقل لي الحقيقة (ينظر اليها دون أن يجيب) ان مجموعتكم ليست ثلاثة أشخاص ، بل خمسة !

زياد (منتفضا) : هذا غير صحيح !

راشيل (بهدوء) : بلى . ونحن نعرف الآن اثنين من هذه المجموعة ..

زياد (بلهجة غضب واستنكار) : ومن هما ؟

راشيل (باللهجة الهادئة نفسها) : أنت ... وشخص آخر عرفنا اسمه من مراجعة الملفات .. بعد القبض عليك .. اتريد أن تعرف من هو ؟ (يحدق فيها والغضب يمنعه من الكلام) انه .. أخوك نزيه !

زياد (ينتصب واقفا) هذا غير صحيح !

راشيل (بصوت فقد اتزانه) : بل أنت تكذب ، أيها الصغير !

زياد (هاجما عليها) : أنتم الكذابون ! ليس أخي من رفاقنا ! (يحاول أن يمسكها من خناقها ، فتدفعه عنها بقوة ، ثم تتجه سريعا الى المكتب فتتناول مسدسا كان مختفيا تحت بعض الصحف وتشهره عليه ، بينما يحاول اللحاق بها)

راشيل : قف مكانك ولا تتقدم خطوة ، والا اطلقت النار (زياد يتراجع . تقترب منه مصوبة اليه المسدس ، ثم تتناول القيد وتغل به يديه من جديد) أنت طفل قذر ، بل حيوان ساذج ! (تضحك) لعلك بدات منذ الآن تحلم بالزيارة الليلية الموعودة ! (تصفعه)

زياد (يبصق عليها) : أيتها القحبة ! كلكن قحاب ! ظننت انني استسلمت لك أيتها الكلبة النتنة ! نعرفكم .. الجميع يعرفونكم ، حتى

في الامم المتحدة ، ومع مندوبي الدول المحترمين ! وتعتقدون انكم تستطيعون أن تسلبونا شرفنا ببذل أعراضكم ، كما سلبتمونا أرضنا .. يا حثالة البشرية أنتم !

راشيل (تقترب منه محاولة أن تضع المسدس على صدغه) : كلمة واحدة أخرى ، ويطير نخاعك ! (يفتح الباب فجاة ، ويدخل الضابط الاسرائيلي ومعه جندي . تتراجع راشيل) اخفقت مهمتي معه .. استعملوا الطريقة الاخرى (تومىء للجندي أن يقتاده ، تغلق الباب خلفهما)

المشهد الرابع

الضابط الاسرائيلي ، راشيل

(ترتمي راشيل على عنق الضابط الاسرائيلي ، فيغرقان في قبلة)

راشيل (بعد أن تعانق الضابط ثانية) : كنت ذات لحظة ، وأنا مع الصغير ، باشد الحاجة اليك ! اصبت بالرعب حين هجم علي كالوحش محاولا خنقي !

الضابط : ولكنه كان مقيدا !

راشيل : فككت قيده لاكتسب ثقته ...

الضابط : أوه .. ان هؤلاء ، حين يمنحون الحرية ، يستطيعون اجتراح العجائب !

راشيل : عجيب أمره ، ذلك الصغير ! لقد أثار أعصابي حقا !

الضابط (يعود الى تقبيلها) : تعالي .. انسيه .. دعينا منه ، دعينا منهم جميعا !

راشيل : انني أشعر بحقد شديد عليه ! لم أكن اتصور ان اخفق معه هذا الاخفاق !

الضابط (يعانقها مجددا) : قلت لك ان علينا ان ننساهم .. يجب ان ننساهم ! انني أكاد أنفجر غيظا من اخبارهم هذا اليوم !

راشيل : كيف لنا أن نتجاهل هذه الاخبار ؟ ان قنابلهم تنفجر بيننا ، خلف بيوتنا ، تحت سياراتنا ، في معسكراتنا .. وانأشباحهم تملأ احلامنا كوابيس ! الست ترى مواطنينا ياوون الى بيوتهم باكرا في المساء ، فتخلو الشوارع والمقاهي وعلب الليل ، حتى لتبدو المدن والقرى كأنها مهجورة ؟ (صمت) لقد روت لي جارتي « لولو » انها كثيرا ما تستيقظ في الليل مذعورة ، وهي تحس بيدين تطبقان على عنقها تريدان خنقها ..

الضابط : ان هذه أحلام ليس الا ...

راشيل : لكنها تتكون في رؤوس من ينامون خائفين (فترة) ألا ترى ان هذا الخوف يتفاقم كل ليلة بين أهلنا ومواطنينا حتى لا يكاد أحدنا يهنأ بجلسة سعيدة ، أو يتمتعبساعة هادئة ؟ وتلكالفرحة التي كانت تتفجر بها عيوننا بعد حرب الايام الستة ، ألا تراها قد امّحت الآن من هذه العيون ؟

الضابط : كفى يا راشيل ، كفى ... انني بحاجة الى اجازة ، فترة راحة ولو لساعة .. يا الهي ... أليس من وسيلة ناجعة للنسيان ؟

راشيل : أنت على حق يا عزيزي . وأنا بحاجة الى لحظة راحة ، فترة غيبوبة .. (بلهجة رقيقة) تعال يا ضابطي . تعال الى صدري ، وانس همومك هنا (تشد رأسه على نهديها)

الضابط (متمتما) : هل أراك هذه الليلة ؟

راشيل : لا بد من ذلك ، ما دمت لن أرى الصغير !

الضابط : لا تهتميكثيرا بامره . انهم هناك ، فيالغرفة السوداء ، يهتمون به الاهتمام الكافي !

راشيل : أخشى ألا يحصلوا منه على فائدة كبيرة (بلهجة متعبة) أتساءل أحيانا : أما كان خيرا لنا أن نبقى حيث كنا ؟

الضابط : أي كلام هذا ؟ انها ارضنا يا راشيل ، هذا قدرنا التاريخي !

راشيل : أصارحك يا عزيزي انني كنت في « بون » أشد اطمئنانا وراحة مما أنا هنا ...

الضابط : لا ، راشيل ! لا بد أن تعتادي الحياة هنا بعد فترة من الزمن . قليلا من الصبر ، راشيل ..

راشيل : انني صابرة يا عزيزي . ولكنني أحس أحيانا بانني غير مجدية ..

الضابط : لماذا ؟ وكيف ذلك ؟

راشيل : مثلا : مع ذلك الصغير !

الضابط : أوه ... ذلك الصغير ! انه يستولي على اهتمامك أكثر مما ينبغي !

راشيل : انه نقي .. وهذا ما يعجبني فيه !

الضابط : يغريك فيه ما يغري الرجل بالمرأة العذراء !

راشيل (ضاحكة) : ليست هذه فكرة رديئة !

الضابط (مقبّلا اياها من أذنها) : أعدك بأن أعوض عليك هذه الليلة ! (ينظر الى ساعته) انها الآن السادسة الا ربعا .. وانا أستعجل الساعة الثامنة .. انتظريني (يطرقالباب) أدخل . (جندي يدخل مؤديا التحية)

المشهد الخامس

الضابط الاسرائيلي ، راشيل ، جندي اسرائيلي ، الجاسوس أحمد

الجندي : سيدي الضابط . صديقنا العربي يود مقابلتك .

الضابط : أوه .. صديقنا العربي . منذ مدة لم نره . ليدخل . (يخرج الجندي)

الجاسوس (يدخل) : شالوم ، سيدي الضابط !

الضابط : شالوم . أين أنت يا أخا العرب ؟

الجاسوس : في خدمتكم ، سيدي الضابط .

الضابط (ملتفتا الى راشيل) : هل تعرف الآنسة راشيل ؟

الجاسوس : حصل لنا الشرف (يمد يده مصافحا اياها)

الضابط : راشيل . صديقنا أحمد من أخلص أعواننا . وهو نموذج للعاقل الحكيم الذي يرى ألا جدوى من تحدينا وقد بلغنا هذا المبلغ من القوة .

الجاسوس : بالطبع . انني أنشد السلام لوطننا والاستقرار لمواطنينا .

الضابط : لكننا نرى جماعتك يضاعفون نشاطهم التخريبي في هذه الايام ... كأنهم مصممون نهائيا على تفجير الارض التي فقدوها !

الجاسوس : وعليكم أنتم أن تضاعفوا نشاطكم المضاد ، وان تزيدوا عدد دورياتكم . (صمت) انكم تملكون من وسائل القوة وأساليب الارهاب ما يجعل كل نشاط لهم في حكم العبث !

الضابط : على ان خطرهم يتفاقم حولنا ، حتى في المناطق القريبة !

الجاسوس : لا تقلق يا سيدي الضابط . أن هذه المناطق من اختصاصي ، وأنا اراقبها مراقبة دقيقة . ولاي سبب تعتقد انني أطلب اليوم مقابلتك ؟

الضابط : ما وراءك من اخبار ؟

الجاسوس : أنا قادم توا من المنطقة التي داهمت دوريتكم فيها هذا الصباح منزل تلك الاسرة ، فقبضت على أحد أبنائها . (صمت) ولكن دوريتكم قد خدعت مع الاسف ، فأسرت شخصا لا فائدة منه ، وتركت الباقين الخطرين ..

الضابط : وأين كان الباقون ؟

الجاسوس : داخل المنزل بالذات . كانوا خمسة ... وهم الذين

قاموا في الاسبوع الماضي بكثير من عمليات التخريب التي جرت في منطقتنا .

الضابط : عجبا ! أين هم الآن ؟

الجاسوس : هذا هو السؤال الذي كنت أنتظره منك ، سيدي الضابط . أبلغت مساعديك منذ حين عما حدث معي : طاردني ثلاثة من المخربين وتبادلنا اطلاق النار ولكني تمكنت من الفرار . ولا شك انهم يغادرون المنطقة الآن . وقبل أن أدخل عليكم ، علمت ان دورية قد أرسلت على جناح السرعة لتعقبهم ...

الضابط : حسنا ، حسنا (يفتح درجا في مكتبه ويخرج منه مغلفا يقدمه للجاسوس) استعن بهذا على أمورك . هذا على الحساب . وأنا شاكر لك هذه الخدمة الثمينة ، ومعتز بتعاونك وصداقتك .. لو كان لنا أصدقاء كثيرون مثلك ... اذن ...

الجاسوس (يدس المغلف في جيبه) : أؤكد لك ، سيدي الضابط ، انهم سيتكاثرون مع الايام اذا عرفتم كيف تصمدون لروح التخريب التي تحركهم ، واذا سجلتم عليهم عددا من الانتصارات الحاسمة .

الضابط : هذا متوقف الى حد كبير على مقدار تعاونكم واخلاصكم ...

الجاسوس : وهل شككتم ساعة باخلاصنا ، سيدي الضابط ؟

الضابط : حين يراودنا أدنى شك ... فانتم تعرفون النتيجة (يمر يده ضاحكا على عنقه كأنما يحزها بسكين)

الجاسوس : طبعا .. طبعا . ستثبت لكم الايام ، أكثر مما أثبتت ، مقدار اخلاصنا ..

الضابط : سترون مقدار سخائنا وكرمنا .. (يضحك) سنجرب أن نقلدكم أنتم العرب ، هذه المرة ، في الكرم .. وسنحاول أن ننسى اننا يهود (يضحك مجددا)

الجاسوس : ولكن يبدو انكم لم تنجحوا بعد في هذه المحاولة ! (يضحك بدوره)

الضابط (ضاحكا) : ان الايام بيننا يا أخا العرب (لحظة) واذا قصرّنا في هذا الميدان ، فلا بد أن نعوض عليكم ... في ميدان آخر ! (يلتفت الى راشيل التي تضحك) تستطيع على أي حال ، أيها الصديق ، أن تنتظرني هنا الآن ، لان علي أن أخرج لاتابع عملية المطاردة بالهليكوبتر . وأعتقد انك لن تصاب بالملل ما دامت راشيل معك ! (يضحكون جميعا)

(يخرج الضابط)

المشهد السادس

راشيل ، الجاسوس أحمد

راشيل : هل تعرف الفتى الذي قبضوا عليه اليوم ، في ذلك المنزل ؟

الجاسوس : تقصدين زياد ؟ شخصيا لا . لكنني أعرف انكم لم تحصلوا على غنيمة حين قبضتم عليه ..

راشيل : هذا لا ينفي انه صلب المراس ، متين الاعصاب .

الجاسوس : هل قابلته ؟

راشيل : مقابلة طويلة .

الجاسوس : وظل صلب المراس ، متين الاعصاب ؟

راشيل (باسمة) : نعم ، مع الاسف !

الجاسوس : عجبا ! لكن هذا ان دل على شيء ، فعلى ان صاحبنا لم يبلغ بعد مبلغ الرجال !

راشيل (متظاهرة بأنها لم تفهم) : ماذا تقصد ؟

الجاسوس : من يجتمع بك لحظة من الرجال ، لا يستطيع أن ينسى لحظة انه رجل ! الا أن يكون صغيرا ... أو عاجزا ! (يضحك ثم يقترب منها بهدوء) وأنا ، والحمد لله ، لست واحدا منهما (يضع يده على كتفها)

راشيل : من الممكن ألا يكون بالضرورة صغيرا أو عاجزا !

الجاسوس : وماذا يمكن أن يكون غير ذلك ؟

راشيل : من الصامدين !

الجاسوس : أما أنا ، فلن أكون منهم ، أمام مخلوقة مثلك على الاقل ! (يضحك وينحني ليقبلها في عنقها)

راشيل (تحاول الابتعاد عنه برفق) : انني على أي حال أفضل ذلك النوع من الرجال !

الجاسوس : هذه طبيعة المرأة اجمالا : تحرص على اخضاع الذين يقاومونها .

راشيل : لكنني أعترف انني أخفقت مع ذلك الفتى .

الجاسوس : اذا كنت حريصة حقا على أن تنجحي معه ، فان بامكاني أن أساعدك ...

راشيل : وكيف ذلك ؟

الجاسوس : ان لي أسلوبي الخاص (فترة) ولكن ما هو المقابل ؟

راشيل : ما تشاء .

الجاسوس : بلا تحفظ ؟

راشيل (باسمة) : بلا تحفظ !

الجاسوس (ينحني فيقبل عنقها) : حسنا .. اسمعي يا .. راشيل ...

(يفتح الباب فجأة ، فيبدو الضابط على عتبته)

المشهد السابع

الضابط الاسرائيلي ، راشيل ، الجاسوس أحمد ، فدائي

الضابط : لعلكما تستغربان عودتي السريعة !

راشيل : ما الذي حدث ؟

الضابط : انتهت المعركة .

الجاسوس : بهذه السرعة ؟

الضابط : يبدو ان ارشاداتك أيها الصديق كانت ذات اثر فعال في مجرى الامور ! (صمت) صحيح ان المخربين استطاعوا الفرار ، لكن أحدهم سقط بين أيدينا بعد معركة لم تكن هينة . وهو مصاب بجراح خطيرة .

الجاسوس : من تراه يكون ؟

الضابط : انه يلتزم الصمت ، ويمتنع حتى عن ذكر اسمه ! (لحظة) والواقع انه ، كما روي لي ، قاوم مقاومة عجيبة ، وتمكن من اصابة جنديين من جنودنا اصابة مباشرة قبل أن نأسره . طوقه خمسة عشر من رجالنا ، عند طرف الغابة القائمة عند أسفل الرابية . وبالرغم من انه أصيب برصاص أحد جنودنا ، ظل يطلق على جماعتنا نار رشاشه حتى خارت قواه ، فتهاوى فوق رشاشه . وحين تقدم منه الجنود ، فوجئوا بأنه انتفض بسرعة وتناول رشاشه ثانية وأطلق ما بقي فيه من رصاص ، فأصاب الجنديين .

راشيل : كأنه كان مصمما على الموت بأي ثمن !

الضابط : أوشك أحد الجنود على قتله ، لكن القائد منعه ، قائلا ان من الاجدى لنا أن نأسره ، وأن نستجوبه .

الجاسوس : لعلني اعرفه اذا رأيته !

الضابط : هذا ما فكرنا فيه . ولذلك فهم يحملونه الينا الآن .

الجاسوس : الواقع انني أعرف من هذه المجموعة وجه رئيسها فقط ، ويسمى نزيه ، وهو أخو الصغير زياد .

(يطرق الباب)

الضابط : أدخل . وصلوا .

(يدخل جنديان حاملين جسما . يقترب الجاسوس فينظر في وجهه)

الجاسوس (ملتفتا للضابط) : ليس هو نزيه . لا أعرفه .

راشيل (تقترب بدورها وتنظر) : ليس في وجهه ملامح من وجه الصفير .

الضابط : حسنا . هذا ما سيسهل علينا معرفة هويته (لاحد الجنديين) اننا محتاجون الى الاسير الصفير . فليأت الى هنا . ليأخذ رفاقنا الذين يداعبونه فترة راحة (يضحك . يخرج الجندي مؤديا التحية العسكرية)

الجاسوس : انه ينزف دما ... وسيلطخ أرض المكتب !

راشيل : ليس أسهل من ازالة آثار الدم !

الضابط (ساخرا) : هي على أي حال أسهل من ازالة ما يسمونه « آثار العدوان » ! (يضحك . يفتح الجريح عينيه وينظر الى الجاسوس) هل تعرفه أنت ؟ (مشيرا الى الجاسوس) هو لا يعرفك . هل رأيته قبل الآن ؟ (الجريح لا يجيب) لماذا لا تكونون مسالمين مثله ؟ ما يجديكم هذا العناد ؟ أجب : ألا تعرفه ؟

الجريح (بصوت واهن) : أشعر بالخجل ، نيابة عنه !

الجاسوس (منتفضا) : ماذا تقول ؟

الجريح : أقول يؤسفني انك لا تشعر بالعار !

راشيل (متدخلة) : وأنتم ، ألا ترون انكم ترتكبون الحماقات ؟

الجريح (بصوت ضعيف) : لا يضير من فقد أرضه أن يفقد عقله (لحظة) سيسترده حين يستردها ! (يتأوه متألما)

الضابط : فقدتم الاثنين معا !

الجريح (يتأوه من جديد) : لا أستطيع أن أتكلم . ولو كنت أستطيع لما تكلمت . تكلمنا كثيرا . وآن لنا أن نصمت !

الضابط : ولكني اطمئنك ان لدينا ... وسائل كثيرة تنطق حتى الصخور !

(يطرق الباب ، ثم يدخل زياد مقيد اليدين ، وآثار الضرب والتعذيب بادية على وجهه وذراعيه وعنقه . جندي يدخل خلفه مصوبا فوهة بندقيته الى ظهره)

المشهد الثامن

الضابط الاسرائيلي ، راشيل ، الجاسوس ،
الجريح ، زياد ، جنديان

زياد (يقع نظره أولا على الجريح الممدد أرضا . يقترب منه ، وفجأة يصيح) : هشام ! هشام ! ما الذي جاء بك الى هنا ؟ (ينحني عليه)

الضابط (مقتربا من زياد ، رافعا اياه من كتفه) : انهض ، ولا تأت بحركة ! (ينهض زياد في تلكؤ وعلى وجهه ذعر وألم) من هو هشام هذا ؟

زياد (غير مجيب عليه) : لماذا فعلت ذلك يا هشام ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

الضابط (يغمز الجاسوس وراشيل) : الابله ! يظن انه قد سلم نفسه طوعا ! (لزياد) من هو هشام هذا ؟ تكلم !

زياد (بجفاء) : ابن عمي ! (لهشام) : ماذا حدث ، هشام ؟

هشام (بصوت ضعيف) : قلقت عليك ، زياد ، فانفصلت دقائق عن المجموعة . ولكنهم كانوا يطاردوننا .. هناك من وشى بنا ..

زياد (مصوبا بصره الى الجاسوس ، ثم مشيرا اليه باصبعه ، رافعا يديه بالقيد) : انت ؟ (يغض الجاسوس بصره) انت ؟ أجب أيها النذل الجبان أ

الضابط (مقتربا من زياد ، صافعا اياه) اخرس !

زياد : كلب !

الضابط (يصفعه عدة صفعات على وجنتيه) : لا بد من قطع لسانك هذا القذر !

زياد (متنبها الى الدم الذي ينزف من هشام) : ولكن دمه ينزف ! الا ترون ان دمه ينزف ؟ لماذا لا تضمدونه ، ايها القتلة المجرمون ؟ (الجندي يلصق فوهة بندقيته بظهره ، فيهدأ) دعوني فقط أضمد جراحه ! فكوا القيد عن يدي دقائق فقط) !

هشام (بلهجة واهنة) انا بحاجة الى نقطة ماء ، زياد !

زياد (منتفضا من جديد) أسقوه . اعطوه ماء (لا يجيب احد . يلتفت الى الجاسوس) انت ! ألا تسمع نداءه ؟ الا ترى دمه ؟ (يبدو الاضطراب على الجاسوس ، ويلتفت يمنة ويسرة ثم يتجه الى نافذة فيتناول عنها ابريق ماء ويعود يقدمه الى هشام ، ولكن هشاما ينظر اليه لحظة ثم يشيح بوجهه عنه ، رافضا ان يشرب . يظل الجاسوس لحظات واقفا ثم تأخذ جسمه رعشة مفاجئة ، فيسقط الابريق من يده ويتحطم شظايا ، ويسيل ماؤه ممتزجا بدم هشام) بالله عليكم ، ايتوه بكوب ماء . انه يرفض ان يسقيه الخائن ! (يلاحظ ان هشام أغمض عينيه وفقد حركته) لقد فقد وعيه ايها السفاحون المتوحشون ! خذوه الى المستشفى قبل ان يفوت الاوان ! (تهدأ لهجته فجأة) أرجوكم .. اجلبوا له طبيبا .. سيموت من النزيف .. أبتهل اليكم ! عذبوني ما شئتم ، ولكن خذوه الى طبيب (ينفجر باكيا) .

الضابط (بحركة نفاد صبر) : اوه ! لا أطيق بكاء الاطفال ! لا أطيق ابدا بكاء الاطفال ! (للجنديين وراشيل) خذوهما .. وتدبروا أمرهما .. أعيدوا الصفير الى حيث كان . وحين يسترد هذا (يشير الى هشام) حواسه ، أعيدوه الى هنا ليحدثنا عن امجاده وامجاد رفاقه ! (يتجهون الى الباب) .

راشيل (للجاسوس) : الا تأتي معي ، لنتابع ما كنا فيه ؟ (تغمزه ، فيتبعهم كأنه منوم مغنطيسيا ، ويخرجون جميعا) .

الضابط (يغلق الباب خلفهم ويعود فيجلس على الاريكة ، ويتنفس نفسا طويلا) اوف ! ما اطول هذا اليوم ! (يلفت نظره الدم على ارض المكتب) وما أدماه ! (يغمض عينيه . تمر لحظات توحي بأنه قد مر وقت طويل . يطرق الباب ، فلا يجيب ، كأنما هو نائم . يطرق ثانية فيتحرك ببطء ، بهدوء) دعوني لحظة . اتركوا لي اليوم دقيقة راحة . انا لست من حجر ! (صمت ، يطرق الباب ثالثة . بتذمر) : اف . أدخل .

جندي (يفتح الباب) : سيدي الضابط . ان هناك فتاة تطلب مقابلتك .

الضابط (ينهض من الاريكة) : فتاة ؟ ومن هي ؟

الجندي : ترفض ان تدلي باسمها . ولكنها تقول انك تعرفها !

الضابط : فتاة أعرفها ؟ حسنا ! فلتتغير الوجوه قليلا في هذا اليوم الفظيع . (للجندي) دعها تدخل !

(تدخل ليلى بوجه شاحب ، يخرج الجندي)

المشهد التاسع

الضابط الاسرائيلي ، ليلى

الضابط (واقفا في مكانه ، قرب الاريكة) ... آنسة ليلى ! أهلا وسهلا . (لا تجيب) انني ارحب بك . (تبقى على صمتها فيما هي تنظر اليه نظرة صارمة) كنت أتوقع ان تأتي . ولم يخب ظني .. في ذكائك ! (يتقدم خطوة) عفوا ! تفضلي فاجلسي (يشير الى كرسي) .

ليلى (بلهجة شبه غائبة ولكنها واثقة) : ان امه .. أمي ... في حالة عياء شديد .. انها ملازمة الفراش منذ أخذتموه . وقد جئت أطلب منكم ان .. ترحموها (تضعف لهجتها) أن تردوه لها. أرجوكم.. (تغض نظرها)

الضابط (يجلس) تفضلي واستريحي أولا يا آنسة (تتقدم ببطء ، كأنما عن غير وعي ، فتجلس على الكرسي الذي اشار اليه) انك متعبة . ولكن هذا الشحوب يزيدك .. جمالا . (لحظة) تقولين

ان أمك في حالة .. (لا يتم) هذا صحيح .. لاحظت ذلك حين زارتني منذ يومين ..

ليلى : ارجوك .. لا تردد أنها زارتك .. اننا لم نتنبه لذلك . اغتنمت فرصة غيابي عن البيت ..

الضابط : لا بأس ، لا بأس . لن نتحدث عن زيارتها .. فلنتحدث عن زيارتك انت يا آنسة .. ليلى !

ليلى (بلهجة جافة) : هذه الزيارة ، لا غاية لها الا ان تطلقوا سراح زياد . (صمت) لقد تحققتم بلا شك انه لا علاقة له .. بما تسمونه أعمال تخريب !

الضابط (ببطء) : لم نتحقق بعد من شيء .. وأمامنا متسع من الوقت .. ولسنا على عجلة من أمرنا !

ليلى (بانتفاضة) : لكن أمه لا تستطيع ان تصبر بعد ! أرجوك (تضعف لهجتها وتضع وجهها بين يديها) بل أبتهل اليك .. اكراما لتلك العجوز المريضة .. انها تتعذب ...

الضابط : وهو أيضا !

ليلى (منتفضة من جديد) ماذا ؟ هل .. تعذبونه ؟

الضابط : لا .. عفوا .. أقصد انهم ، هناك ، يحاورونه مجرد محاورة ...

ليلى (متنبهة فجأة الى الدم على الارض) : ما هذا ؟ يا الهي.. انه دم .. (لحظة) أيكون هذا من .. دمه ؟

الضابط : لا .. اطمئني .. لم يبلغ الامر هذا المبلغ بعد ... غير ان هذا دم ... رفيق له ...

ليلى (مقاطعة بذعر) : رفيق لزياد ؟

الضابط : نعم . رفيق له .. قبضنا عليه منذ حين .

ليلى (مرتجفة) : من قال انه رفيق له ؟ .. ومن يكون ؟

الضابط : كنا نتمنى ان يكون .. أخاه الاكبر . ولكن اطمئني ايضا .. فليس هو .. أخاه ! (لحظة . ليلى تظل متلهفة ، ولكنها لا تسأل) انه يدعى .. ماذا يدعى ؟ اظن انه يدعى .. هاشم .

ليلى (بصرخة) : تقصد .. هشام ؟

الضابط : نعم ، نعم .. هشام .

ليلى (تنهار على مقعدها) : جاء هو ايضا ؟ سبقني لمحاولة انقاذ زياد ؟ وقد أهرق دمه .. من أجله ؟ هذا اذن دمه ؟ (تنظر ثانية الىالارض ، ثم تجهش بالبكاء ، وما تلبث ان تسقط فاقدة وعيها)

الضابط (مرتبكا) : ماذا ؟ فقدت وعيها هي ايضا ؟ يا الهي .. ما هذا النهار ؟ (يهم بان يدق الجرس ليستدعي جنديا ، ولكنه يعدل سريعا . ينظر اليها وقد انكشف ثوبها عن ساقها) هذا أفضل ! هذا أفضل ! خاتمة حلوة لنهار متعب ! (ينحني فوقها فيحملها بين ذراعيه ويقبلها من عنقها ، ثم يضعها على الاريكة وهو يحدق في ساقيها بعينين جشعتين)

ـ ستار ـ

الفصل الثالث

قاعدة للفدائيين : مغارة واسعة في سفح جبل . فراش ممدود الى اليمين . بعض صناديق في الزوايا . طاولة صغيرة . بعض البنادق معلقة ، وبعض الرشاشات. المغارة مظلمة بعض الشيء . آلة تسجيل على البطاريات مدارة على اسطوانة « سنرجع يوما الى حينا » لفيروز . حين يتحدث الاشخاص يضعف صوت الاسطوانة ، ويرتفع حين يصمتون .

المشهد الاول

فتحي ، الياس ، سعيد

(فتحي وسعيد جالسين داخل المغارة . يبدو الياس على الباب فجأة)

فتحي (واقفا) : عدت أخيرا ؟

سعيد (واقفا بدوره) : اين كنت ؟ نمنا ثلاثة ، فأصبحنا اثنين !

الياس (يجلس) : أرقت كثيرا . لم استطع النوم .

فتحي : فخرجت تغازل النجوم !

سعيد : هل هناك امكانية لاي غزل وانت تشخر في نومك كوابور الكاز ؟

فتحي (ضاحكا) : انا اشخر ؟ لا احس بهذا !

سعيد : المزعجات لا يحس بها اصحابها . هي مخلوقة للاخرين ! (لالياس) حقا ... اين كنت ؟

الياس : سرت قليلا في الظلام ، من غير هدف . ثم تنبهت الى أصوات صراصير الليل ، فأخذت اصغي اليها . واختلطت هذه الاصوات ، بعد قليل ، بنقيق الضفادع . وأحسست بأن قدمي تقودانني . وحين لاحظت انني مشيت طويلا ، نظرت حولي ، فشعرت بان هذا مكان تعرفه قدماي . وحدقت في الظلام : أليس حقلنا خلف هذه التلة ؟ وانبطحت على بطني ، وبدأت أزحف فوق التلة . كنت أحس الرعشة في جسمي وانا الامس التراب وأشم رائحة الصعتر والوزال . ودخلت شوكة في راحتي وانا أزحف ، فتوقفت ريثما انزعها . ونفرت قطرة دم صغيرة مكانها . فتمصصتها . قلت لنفسي : لن استطيع ان امضي بعيدا في زحفي . لم يكن معي سلاح . وقلت لنفسي : ساصل حتى الساقية فقط . ونهضت حين بلغت الساقية ، ونظرت الى البيت ، فرأيت نوافذه كلها مغلقة . وقلت لنفسي انني سأعود يوما ، فيالنهار ، لافتحها على مصاريعها وأشرعها للنور والهواء. ثم انحنيت فمددت يدي الى الساقية . كان فيها بعض الماء. وغسلت يدي ووجهي ، ثم عدت الى التلة زاحفا . (صمت) لم اكن اتوقع ان تستغرق الرحلة ساعات الليل كلها .

(صمت . سعيد يروح ويجيء داخل المغارة ، بينما فيروز تغني)

سعيد (لالياس) الا تريد ان تنام قليلا ؟ هل نوقف الاغنية ؟

الياس : لا لا أحس بالنعاس ، بل سأخرج لجمع بعض الحطب ! انني جائع (يخرج)

(يعود سعيد الى ذرع المغارة جيئة وذهابا)

فتحي : متى تراك ستهدأ ؟ أوشك انأصاب من حركتك بالدوار ! (يتوقف سعيد لحظات وهو يحدق في فتحي ، ثم يستأنف حركته من غير ان يجيب) بم تفكر يا عزيزي ؟ (بلهجة ساخرة) اية مشكلة فلسفية عويصة تستغرقك ؟

سعيد : الا ترى ان نزيه تاخر اكثر مما ينبغي ؟

فتحي : هذه هي المشكلة العميقة التي تشغل ذهنك ؟ حسبتك تفكر في فتاة تحبها ، في امرأة جميلة .. ناضجة .. كانت لك معها مغامرات !

سعيد (ضاحكا) : هذا هو « الاسقاط » بعينه ، كما يحدده علماء النفس . تحس انت بشيء ، فتنسبه الى سواك !

فتحي (بتأمل) : انت على حق يا سعيد ! اشتقت الى المرأة . (صمت) انقضت اربعون يوما لم ...

سعيد (مقاطعا) : فهمت .. فهمت .. لا حاجة بك الى استعمال الكلمة اللطيفة !

فتحي : قل لي بالله عليك .. حين تحس انت حاجة اليها.. فماذا تعمل ؟

سعيد : تقصد في الماضي ، ام الان ؟

فتحي : في الماضي والآن معا .

سعيد : اما في الماضي ، أي في بيروت ، فقد كنت أخرج ليلا الى أي ملهى او مرقص .. وما أكثرهن هناك ! على شرط واحد : ان تكون أجنبية !

فتحي : أجنبية ؟ ولماذا أجنبية فقط ؟ ابدافع قومي ؟ حتى هنا تدخل « الكرامة » القومية ؟

سعيد : لا أدري . قد يكون ذلك ، وقد يكون هناك سبب اخر !

فتحي : الا اذا كنت تقصد ان الاجنبيات اكثر ... خبرة !

سعيد (يضحك) وأما هنا ، فيكفي ان أستعيد صور اطفال الروضة ، عند ذلك ، تعود الامور الى طبيعتها !

فتحي : وأما انا فلا يعيد الامور الى طبيعتها عندي الا الامر الطبيعي ! (يضحك) ولذلك ، لا بد لنا ، بعد ان نقوم بالعملية التي قررناها الليلة ، من ان اطلب اذنا ليوم واحد ! (لحظة) ولا أشك في انها مشتاقة الي !

سعيد : من هي .. هذه التعيسة ؟

فتحي (ضاحكا) : كانت تعيسة قبل ان تتعرف بي .. انها امرأة مطلقة عرفتها منذ اكثر من عام . ولكنها تطمع في ان اتزوجها .

سعيد : وهل تنوي الزواج بها ؟

فتحي : لا انوي الزواج أصلا في هذه الفترة . ان هذا شيء مستدرك . وما دمنا الان هنا ، فان ثمة ما يشغلنا عن التفكيربالزواج. (فترة) وانت يا سعيد ، الا تفكر بالزواج ؟

سعيد : بلى ، حين اعود الى لبنان . وسأبحث عن رفيقة حياة تحب الاولاد .

فتحي : وتنجب لك منهم عددا يكفي لملء صف منصفوف روضتك!

سعيد (باسما) : ثق يا فتحي اننا سنكون بحاجة الى الاكثار من الاولاد اذا كنا مصممين حقا على تحرير أرضنا (صمت) ألا ترى ان وفرة العنصر البشري هي التي تجعل من المستحيل على اعدائنا ان يهزمونا هزيمة نهائية ؟

فتحي : ولكن هذه الوفرة ، من جهة اخرى ، تسبب لنا مشكلة اقتصادية نعانيها في معظم أقطارنا .

سعيد : هذه ليست بالمشكلة المستعصية على الحل يكفي ان نحسن استغلال مواردنا من جهة ، وان نحسن توزيعها من جهة اخرى.

فتحي : هذا يقتضينا ان نؤمن ايمانا صادقا بوحدة المصير ...

سعيد : هذا الايمان كامن في ضمير كل انسان عربي ، ولن تستطيع أية حواجز مصطنعة ان تقضي عليه او تضعفه . من هنا كان العمل الذي نقوم به من أجل أمتنا كلها ، لا من اجل هذا الجزء من الشعب وحده . (ينظر في ساعته) الا يقلقك حقا تأخر نزيه الى هذا الحد ؟

فتحي : ليس منزله ، اولا ، على رمية حجر . وهو قد اخبرنا ، ثانيا ، انه قد يتأخر ، بسبب شوقه الى أمه . ومن يدري ، فلعلها متشبثة به ، تريد ان تستبقيه وقتا أطول ، تعويضا عن غياب زياد .

سعيد : مسكينة حقا هذه الام ! لا بد انها تحتمل اكثر مما يطيق الانسان . (صمت) لقد كانت أمي تتجنب لقائي يوم مغادرتي القرية ، وقالت انها تفضل الا تودعني . (فترة) وانت يا فتحي ؟ انني لم اسألك عن أمك ؟..

فتحي : حدثتها غير مرة عن رغبتي في الالتحاق بالفدائيين . وكانت في كل مرة تهز رأسها ، وكأنها تقول لي : اذهب ، فذلك افضل مطهر لك . وحين ماتت ، قبل ايام من انضمامي اليكم ، اعتبرت موتها اذنا لي بالمجيء .

سعيد : وهل تفكر ، انت ، بالموت كثيرا ؟

فتحي : افكر فيه أحيانا ، ولكنني لا أحبه . انني لا أريد ان اموت . انني احب الحياة ، واريد ان اتمتع بها حتى اخر رمق .

سعيد : ولكنك قد تواجه الموت ، ذات لحظة ، وانت في معركة قاسية مع العدو ..

فتحي : في هذه الحالة ، سأدافع عن حياتي بكل ما أملك من قوة الحياة . انني في الاصل اريد ان ابقى ، ان استمر . ان الحياة جديرة بأن تعاش . ان تتنفس الهواء بملء رئتيك ، او ان تستقبل أشعة الشمس بصدرك ، او ان تجالس امرأة جميلة ... هذا وحده يكفي . وانا أتمنى لو كان في قدرة الانسان أن يبدأ كل يوم حياة جديدة . ان هذا وحده يكفل له ان يصلح اخطاءه ، ويبدأ من جديد . اما اذا كان لا بد لي ، بعد ذلك ، من ان اموت ، فانني سأنفجر غيظا !

سعيد (ينفجر ضاحكا) : طريفة هذه الفكرة يا فتحي : ان ينفجر الانسان غيظا اذا مات ! (بلهجة جادة) ولكن الموت حين يدرك واحدا منا ، وهو في هذا الوضع ، يفقد معناه العادي . انه ليس بالفناء ولا بالزوال . بل هو توكيد لمعنى الحياة وارادة الوجود . انه يموت ليتيح لغيره الحياة .

فتحي : لكنه غير واثق دائما من انه سيمنح غيره الحياة حين يموت .

سعيد : انت على حق . لان الموت ايضا مجازفة ، كالحياة سواء بسواء . وانا شخصيا اريد ان ارجيء هذه المجازفة الى اخر موعد ممكن (صمت) أريد ان اعود الى روضة الاطفال . ان لي فيها ابن اخت لا يتجاوز السادسة . كان يسعدني ان اجلسه طويلا على ركبتي ، وأن أسمعه يزقزق كالعصفور ، وأن أحدق في عينيه . ان له نظرة شفافة صافية أحس كأنها تمطر ثلجا ناصعا على قلبي . نظرة لا كدر فيها .

فتحي : هل تفكر فيه هنا ، احيانا ؟

سعيد : كثيرا ما أفكر فيه (صمت) ولعل خوفي من ان يفقد ابن اختي صفاء نظرته ذات يوم ، خوفي من أن يكدر المستقبل شفافية عينيه ، خوفي من ان ينضم هو ايضا الى قافلة جديدة من النازحين ، تنطلق هذه المرة من لبنان ، الى حيث لا ادري .. هو الذي حملني على ان انخرط في عمل أسرع فاعلية من التربية والتعليم ..

فتحي (مرهفا اذنه) : الا تسمع وقع أقدام يا سعيد ؟ (يتناولان رشاشيهما وينهضان ناظرين في اتجاه الصوت . لحظة) انه نزيه .. وخلفه الياس .

سعيد : ولكن اية سحنة هي سحنته ؟

(يدخل نزيه وعليه علائم القنوط ، يتبعه الياس)

المشهد الثاني

نزيه ، الياس ، فتحي ، سعيد

فتحي : ماذا يا نزيه ؟ اية غمامة أسى على جبينك ؟ هل أصيب أحد بسوء ؟ ألديك أنباء عن زياد ، أو عن هشام ؟

نزيه : لا . (لحظة صمت) ولكن منزلنا ..

سعيد : منزلكم .. ما شأنه ؟

نزيه (بهدوء) : نسفوه صباح اليوم !

فتحي وسعيد (معا) : نسفوه ؟ متى ، كيف ، لماذا ؟

(نزيه لا يجيب)

الياس : يا الهي ! أي اجرام هذا ، وأية بربرية !

سعيد (بلهفة) : وأمك يا نزيه ؟ واختك ؟

نزيه : لم تكن ليلى في المنزل . اما أم نزيه .. (يخفض رأسه فيما يبدأ جسمه بالارتعاش من جراء النحيب)

سعيد : قل بالله عليك .. هل أصيبت أمك بأذى ؟

نزيه (يهدىء نفسه) : ظلت ساعة بكاملها ترفض ان تخلي المنزل ، وتصر على ان تبقى فيه ، حتى ولو نسفوها معه ..

فتحي : وبعد ذلك ؟

نزيه : روى لي الجيران ان المجرمين حملوها قسرا والقوها بعيدا عنه فيما هي تصب عليهم شتائمها .. (لحظة) وقد رأت بأم عينها كيف ينهار المنزل على كل ما فيه .. على كل أثاثها وأشيائها وذكرياتها ..

الياس : وماذا فعلت بعد ذلك ؟

نزيه : اصطحبها بعض الجيران ، شبه محمولة ، الى بيت عمتي (صمت) وهناك قابلتها .. ولكنني قابلت امرأة أخرى .. لم أقابل ام نزيه .. لم اقابل أمي (يجهش ثانية) كانت جالسة تحدق في الاثر الوحيد الذي أخرجته من المنزل : صورة ابي . ولم تكن تنبس بكلمة (يجهش بصوت أعلى) فقدت أمي النطق . أصيبت بالبكم . ولكأن صمودها كله ، صمود خمسين عاما ، قد انهار مع انهيار منزلها، منزلنا . كانت تنظر الي بذهول ، كأنها لا تعرفني . كأنني لست ابنها. وناديتها مرات : يا أم نزيه ، يا ام نزيه .. (يختنق صوته ..)

سعيد : مهلا يا نزيه .. انت رجل يا نزيه .. ورجولتك مضرب المثـــل !

نزيه (يكفكف دمعه ، وبلهجة يجهد في ان تكون هادئة) : ظللت اناديها ، حتى أغمضت عينيها ذات لحظة ، كأنما لتستعيد من البعيد صورتي ، انا القريب أمامها ، ثم بسطت الي ذراعيها ، وتلقت على صدرها شابا يبكي لاول مرة ، منذ أعوام طويلة ..

(فتحي يغطي وجهه بيديه)

سعيد (مغالبا نفسه) : كفى يا فتحي .. كفى يا نزيه .. لن نبقى هكذا جالسين نبكي كالاطفال ، سوف تستعيد امك سكونها ، وسوف تسترد صمودها . هكذا عرفناها . وحين يعود زياد ، سنتعاون جميعا على اعادة بناء المنزل . فاذا نسفوه مرة ثانية ، بنيناه مرة ثانية . يهدمون ونبني . وسينتصر البناء ، مهما خربوا . ولا بد لنا الان من ان نقوم بعمل ، عمل سريع على الاخص .

فتحي (يأخذ نفسا طويلا) : نعم ، لا بد لنا من أن نعمل شيئا .

الياس : وليس امامنا وقت نضيعه .

نزيه (بهدوء) : كنت اتوقع ايها الرفاق ان اسمع منكم هذا . انني لم أكن اريد ان اقتسر الامر اقتسارا .

الياس : انت قائدنا يا نزيه . فامرنا بما ترى .

سعيد : ليس لان منزلكم بالذات قد نسف ، ولا لان امك اهينت. ان منزلك منزلنا ، وأمك أمنا . ان نسف المنازل بربرية لم تعرف مثلها أظلم عهود التاريخ . انها محاولة اجرامية لهدم كل الركائز الروحية للانسان ، لاقتلاعه من جذوره . وهؤلاء الذين يزعمون في طول الدنيا وعرضها انهم انسانيون ، وانهم ينشدون السلام ، وانهم يريدون التعايش مع جيرانهم .. (يصمت)

فتحي : ما الذي تقترحه يا نزيه ؟

نزيه : اعتقد أن علينا ان نعد خطة محكمة لانقاذ زياد وهشام قبل ان نواجه العدو بأي عمل حاسم (لحظة) لا بد من انقاذهما ، وبخاصة زياد . ان عودته الى أمه هي وحدها التي ستنقذها من الظلام الذي سقطت فيه . لقد انهار المنزل قبل ان ينسفوه . انهار حين غادره زياد ، فتقطعت أواصر الاسرة فيه (صمت) ولست ادري ان لم اكن أنا أتحمل القسط الاوفر من تبعة هذا الذي حدث . انني أشعر احيانا بالندم وتبكيت الضمير ، واتساءل : ألم يكن افضل لامي ولبيتي أن ابقى في مكتب الهندسة وان اتابع مهنتي ...

سعيد : لم يكن لك خيار يا عزيزي . كان بوسعي انا ايضا ان أبقى في روضة الاطفال ، وكان بامكان هشام ان يظل في المتجر..

فتحي (مقاطعا) : وكان بوسعي انا ايضا ان اصبح نشالا دوليا..

سعيد (يبتسم) : سبقتني الى قولها يا فتحي .. ولكن وجب علينا بعد ٥ حزيران ان نغير رؤيتنا للعالم ، ان نتساءل على نحو واع وملح عن مستقبل اجيالنا المقبلة .. (لحظة) انسيت يا نزيه ما قلته لنا منذ أيام من أن احدنا مدعو الى مواجهة التضحية بكل شيء .. بنفسه واخيه اذا اقتضى الامر ..

نزيه : كانت تلك نظرية تحتاج الى التطبيق لنحس قسوتها الحقيقية ... (يسمع كلاما في الخارج) انظر يا الياس ، هناك أصوات ..

الياس (متقدما خطوات ، ثم واقفا فجاة وهو ينظر خارجا) : عجبا ! من ؟ هذا هشام .. أقسم انه هشام (يندفع وخلفه نزيه وفتحي) ولكن من يرافقه ؟ انه رجل ملثم لا نعرفه ...

سعيد (محدقا) بل يخيل الي اننا نعرفه ..

(يدخل هشام يجرجر قدميه معتمدا على كتف الرجل الملثم . يرتمي على الفراش من شدة الاعياء) .

المشهد الثالث

هشام ، الرجل الملثم ، نزيه ، فتحي ، الياس ، سعيد

نزيه (منحنيا ليجلس قرب هشام ويشد على كتفه) : حمدا لله على عودتك ، هشام !

هشام (يلتقط أنفاسه) : تحية أيها الرفاق !

الياس : من هذا الرجل الذي معك ؟

هشام (للرجل الملثم) : انزع لثامه يا أحمد (يميط الرجل لثامه)

فتحي (بلهجة استنكار) : أليس هو الجاسوس الذي ...

الياس (يهجم عليه آخذا بخناقه) : يا ابن القواد !

هشام (صائحا) : الياس ! ماذا تفعل أيها الشقي ؟ دعه ، الياس !

(نزيه ينهض ليرد الياس الذي يبدأ بلكم أحمد)

نزيه : الياس ، اتركه لنسمع قصته !

هشام (في عصبية) : أية حماقة هذه ! ألا تنتظرون حتى تعرفوا الحقيقة ؟ (صمت . يتراجع الياس ، بينما يغض احمد نظره) انكم لن تدعوه بعد الآن بالجاسوس . انه أحمد .

الياس : ولكنه هو الذي وشى بك وبنا ، هشام !

هشام (بهدوء) : صحيح . هو الذي وشى بي أمس ، ولكنه هو الذي انقذني اليوم (يتبادلون النظرات في صمت وحذر) هو الذي قتل الحارس الاسرائيلي الذي كان مكلفا بحراستي !

الياس : انني لا أصدق ذلك !

نزيه : مهلا ، الياس !

هشام (متمما) : وهو الذي حملني على ظهره ، نصف الطريق على الاقل ، من مركز القيادة الى هنا ...

نزيه : ولكن كيف عرفتما مكان قاعدتنا هذه ؟

هشام : هو الذي عرفه أيضا ! هذه المرة (يبتسم) استعمل

جهاز الرصد عنده لصالحنا (يبقون جميعا صامتين) ولكن لماذا انتم صامتون هكذا ؟ قلت لكم انه هو الذي أنقذني ...

أحمد (بصوت منخفض) : انني آسف . أخطأت من قبل ، وقد أردت اليوم التكفير عن خطيئتي . كنت آمل أن أنضم اليكم وأناضل معكم . لكن يبدو انكم غير موافقين .. ولذلك ...

هشام (مقاطعا) : اسمع أحمد . لا تستبق الامور (صمت) حسنا . (لنزيه) اذا لم تصدقوني ، اذا لم تقتنعوا بعد ، فاسمحوا لي أن أذهب .

نزيه (بحدة) : لا ، هشام . تريث قليلا . أنك لا تترك لنا فرصة لمواجهة المفاجأة . (صمت)

سعيد : أنا شخصيا أثق بكلام هشام .

هشام : ماذا تطلبون منه أكثر من ذلك ؟ (بصوت غاضب) : ومن وكلكم أنتم بأبواب الجنة تغلقونها ، اذا شئتم ، دون التائبين ؟ أيكم بلا خطيئة ؟

نزيه : هدىء أعصابك ، هشام . أنت على حق في آن تثور . لسنا نحن المعصومين الذين ندين الناس . ولكن لا بد لنا من أن نراجع القيادة ، على الاقل .

أحمد : انني تحت تصرف القيادة . (لحظة) ثقوا اني أريد أن أضع نفسي منذ هذه اللحظة في خدمة القضية التي تدافعون عنها . وأرجو أن أكون في مستوى العمل الذي أرصد له نفسي .

سعيد : كنت أعتقد دائما بأن الدم العربي لا يمكن الا أن يسترد نقاءه . انه يعتكر ، ولكنه لا يفسد .

أحمد : تقول الدم العربي أيها الرفيق . أنت على حق . فمنذ رأيت دم هشام يسيل في مركز القيادة ، ارتعد ضميري . ثم رأيت آثار العذاب على أطراف زياد . وقلت لنفسي : لا بد أن يعذبوا ابني يوما كما عذبوه ... (صمت) لكن الذي هز أعماقي هزا ان هشام رفض أن يتناول من يدي الماء وهو يكاد يموت عطشا . (فترة) لم أحس يوما باحتقار لنفسي كما أحسست تلك اللحظة (صمت) وحين رأيته يفقد وعيه ، ربما لانه رفض آن يشرب من يدي ، قررت أن أنقذه. وقلت انني بذلك سأنقذ ابني أولا ، وسأتجنب احتقاره واحتقار كل الجيل الذي ينتمي اليه . أما المال الذي دفعوه لي (يخرج من جيبه رزمة من الاوراق المالية) فاني أضعه تحت تصرفكم . (يضعه على الطاولة الصغيرة)

نزيه (بهدوء) : أحمد ... أنا واثق اننا سنرحب بك في صفوفنا .

أحمد (يمد يده مصافحا) شكرا لكم . لقد أعدتم الي ثقتي بنفسي (صمت) وأرجو أن تسمحوا أن يكون لي شرف انقاذ زياد بمساعدتكم . انني أريد أن أرده الى أمه ، وأن أعيده الى بيته .

نزيه (بأسى) : أمه ... أفضل الآن ألا يرى أمه . وبيته (صمت) لم يبق له من بيت .

هشام (مذعورا) : ماذا ؟ ماذا حدث ؟ (لا يجيب نزيه) تكلم ، نزيه ! هل أصيبت أم نزيه بشر ؟ هل الحقوا أذى بالمنزل ؟ وليلى ؟

نزيه : مهلا ، هشام . أنت ما تزال مريضا . انك بحاجة الى الراحة والهدوء . سآتيك بليلى لتكون الى جانبك ريثما تشفى وتعود الى الساحة التي تحتاجك . ولكن قليلا من الصبر والحكمة (لحظة) بعد ساعات قليلة ، تكون ليلى هنا . (يلتفت الى رفاقه) والآن تعالوا ندرس خطتنا المقبلة (لهشام) لا بد انك متعب يا هشام ، فخذ قسطا من الراحة ، وحاول أن تنام ...

هشام : أما الراحة ، فأنا حقا بحاجة اليها . وأما النوم ، فلست الآن لاطيقه . أفضل عليه أن أستمع الى أصواتكم . سأصغي اليكم تتكلمون . عشت هناك في وحشة قاتلة ، حسبي الآن أن أستمع الى حديثكم وأستعيد حياتي معكم .

(يربت نزيه على كتفه في حنان ، ثم يساعده على التمدد فوق البساط ، ملقيا عليه رداء . يظهر زياد فجأة على باب المغارة)

المشهد الرابع

زياد ، هشام ، أحمد ، نزيه ، الياس ، فتحي ، سعيد

نزيه (هاتفا) : زياد ! أخي زياد ! (يغرقان في عناق)

هشام (ناهضا في مشقة) : زياد ! حمدا لله (يعانقه)

زياد (يعانقه في لهفة) : وأنت أيضا يا هشام . نشكر الله على عودتك . لقد عرفت القصة كلها التي جرت هذا الصباح ...

نزيه : ولكن كيف خرجت يا زياد ؟ هل أطلقوا سراحك طوعا أم قد تمكنت من الفرار ؟

زياد : مهلا أيها الاعزاء .. هذه قصة طويلة ، ولكن لنسلم على الاخوان الباقين (يصافح فتحي وسعيد والياس ، ثم يتوقف لحظة وهو يحدق في أحمد) هذا أنت ؟ لم أكن أشك ان ضميرك سيرتد اليك ذات لحظة ... أتذكر لقاءنا ذلك ، وهشام تسيل منه الدماء ، وهو يطلب شربة ماء ؟

أحمد : أذكره يا زياد .. وأذكر ان لك عينين ناريتين رادعتين (يضحكون جميعا)

زياد : لكن الذي لا تعرفه أيها الاخ أحمد ان توقيتك لعملية انقاذ هشام كان على غاية الاحكام ! فلو قدمت هذا التوقيت ربع ساعة فقط لابقوني في الاعتقال .. ولاحتجزوا كذلك ليلى !

نزيه وهشام (معا) : ليلى !

زياد (مستدركا) : آه .. عفوا ! (لحظة صمت) ولكن دعوني أولا أجلس وألتقط أنفاسي ! ان ساقي ترتجفان تعبا وانفعالا !

نزيه : هل قابلت أمك ؟

زياد : لا ، لم أقابلها بعد . أردت أولا أن ألقاكم ، وأن أتحدث اليكم ، بهدوء وموضوعية !

هشام (بلهجة حادة) : ولكن أين ليلى يا زياد ؟

زياد : مهلا يا عزيزي .. سأروي لكم كل شيء !

فتحي : انني أغبطك على برودة أعصابك ، زياد ! من كان يقول انك ستتحدث لحظة بهذه اللهجة ؟

زياد : أنت على حق ، فتحي . لكني أشعر اني كبرت في هذه الايام الخمسة ، عشر سنوات على الاقل !

نزيه : وهل ذهبت ليلى الى البيت ؟

زياد : أي بيت ، نزيه ؟! لماذا تريد أن تخفي عني الحقيقة ؟ لقد عرفنا ونحن في الطريق انهم نسفوه ، فلم نشأ ان نذهب الى حيث نرى ركاما وحطاما بدلا من المأوى الذي رأينا فيه النور . نريد أن نحتفظ في أذهاننا بصورة مشرقة لمنزلنا (لحظة) ثم ان ليلى كانت قد صممت منذ البدء على عدم العودة الى البيت ...

هشام : ولكن لماذا يا زياد ؟ ماذا حدث لليلى ؟

زياد : قالت انها لا تجرؤ على النظر الى أمها بعد ، ولن تحتمل نظراتها ...

هشام : لماذا ؟ انني لا أفهم شيئا (لنزيه) هل فهمت أنت شيئا ؟

نزيه (بهدوء) : أخشى أن أكون قد فهمت ...

هشام (بعصبية) : ماذا فهمت ؟ وأين هي ليلى الآن ؟

زياد : لقد ذهبت تريد ان تلتحق ممرضة بأحد المستشفيات .

(صمت . يتبادلون النظرات)

نزيه : والآن ، هل لك أن تروي لنا ما حدث ، زياد ؟

زياد : حسنا ... حين خرجنا هذا الصباح من مركز القيادة ، قبل دقائق معدودة من العملية التي قام بها أحمد لانقاذ هشام ، روت لي ليلى القصة ..

(يجلس الجميع حول زياد . ينطفىء النور في المغارة فيختفون جميعا في الظلام ويلتزمون صمتا مطبقا)

المشهد الخامس

صوت ليلى

صوت ليلى : زياد .. يا أخي المسكين . يا حبيبي الصغير . هات يدك ولا تترك يدي . أريد أن أتيقن من انني لن أضيعك بعد . لن أدعهم يأخذونك ثانية يا زياد . رحمة بأمك ، التي تدعو الموت اليها كل لحظة . حين أخذوك يا زياد ، بدأ العذاب في البيت . بدأ عندنا، قبل أن يبدأ في الغرفة السوداء التي وضعوك فيها . في الليلة الاولى، لم تكف عن مناداتك والهتاف باسمك . كانت تدخل غرفتك بين الحين والحين ، فتتلمس كتبك ودفاترك وأقلامك ، وملابسك وأشياءك كلها . قلبت مجموعة صورك عشر مرات على الاقل . كانت تحدق فيك وتناجيك كما كانت تناجيك وأنت طفل . تسألك وتجيب عنك ، تسألك لماذا ذهبت يا زياد ، ولمن تركتنا أنا وأختك ، ألا تعلم أنك أصبحت رجل البيت ، بعد أن غادره نزيه للقيام بمهماته ، وانك أنت وحدك العزاء من غيابه . ثم كانت تتلمس فراشك ، وتضع خدها على وسادتك ، وتسائلك أين أنت الآن نائم ، على أية وسادة من حجر ، وفوق أي سرير من شوك ؟ وترتد الي تسائلني : كيف تركناك تذهب ، وهل تراهم يعذبونك أم انهم يرحمون غضارة صباك ؟ ولم تنم أمك تلك الليلة يا زياد ، ولم تدعني أنام . عند الفجر فحسب ، غفوت حين انصرفت الى الصلاة . وحين رأتني نائمة على الاريكة ، أشفقت علي من أرق الليلة السابقة ، فأيقظتني لتطلب مني أن أدخل فأنام في سريري . ولكني رأيت عينيها المتورمتين ، فادركت انها قد بكت وهي تصلي مبتهلة الى الله أن يردك لها . وظللت طوال النهار الى جانبها أحاول أن أهدئها حتى حل المساء ، فتفاقم قلقها ، ولزمت سريرها وقد أدركها الوهن . ومع ذلك لم يغمض لها جفن ، ولاحظت انها قد بدأت تفقد أعصابها ، بل هي قد صاحت بي ذات لحظة ، اذ رأتني أغفي ، فاستنكرت علي أن أستطيع النوم وهي لا تستطيعه ، وقالت انها تشعر بأنها ستموت اذا لم ترك يا زياد على الفور . وحين وعدتها أن أخرج عند الصباح لاتسقط اخبارك في الجوار ، قرأت في عينيها الحث والتشجيع ، ولمحت أخيرا طيف لهفة وأمل يرف على وجهها المعذب . وبالرغم من انني بذلت ذلك الوعد على سبيل التهدئة ، فقد أحسستني عند الصباح ملزمة بالوفاء به ، بل لم يكن لي مناص من تحقيقه وأنا أراها قد بدأت تحيا عليه . وبدأت أتساءل : من ذا الذي يوافيني بأخبارك ، وما جدوى أن أعرف أخبارك ؟ ما عساني أفعل حين أعرف انك مسجون في زنزانة ، أو انهم يعذبونك ؟ وهل تسترد الطمانينة اذا أبلغتها انك في خير ، حتى ولو كان ذلك من قبيل الاكذوبة ؟ ان نفسها لن تهدأ الا اذا رأتك عيناها ، وتلمست جسمك أصابعها ، وعانقتك بذراعيها الاثنتين . واذن ، فلا بد من أن تعود اليها يا زياد ، جسما حقيقيا ، بعد أن ظل طيفك يرف فوق المنزل ليلتين فلا يزيد ربته الا عذابا ولهفة ... ولكن كيف تعود اليها يا أخي ؟ كيف يطلقون سراحك وهم يحسبونك رهينة ثمينة اذا لم يعتبرونك غنيمة ؟ وعند ذلك بدأ في نفسي القلق والحيرة ، ثم تحولا الى تمزق وعذاب . وأخذت الاصوات تتساقط في مسمعي من كل صوب ، أصوات غريبة لا أعرفها ، وأصوات حبيبة أعرفها ، وقد كانت كلها تسائلني : « ماذا تنتظرين لتنقذيه ؟ » كان هناك صوت أمي ، وكان هناك صوت نزيه ، وكان هناك صوت خطيبي هشام ... بل لعل صوت هشام كان أكثر الاصوات حرارة وأشدها الحاحا : « ماذا تنتظرين يا ليلى ؟ ماذا تنتظرين يا حبيبتي ؟ » ورحت أسائل هذه الاصوات جميعا : ولكن كيف لي أنا أن أنقذه الا بأن أقصده في سجنه ؟ وهل أستطيع أن أقابله من غير أن أقابل سجانيه ؟ وكيف يلقاني جلادوه ؟ كيف يستقبلني ذلك الضابط الذي أسره ؟ أجيبي يا أمي التي تطالبني وتحثني على الذهاب ، أجب يا نزيه ، بل أجب أنت يا هشام ، يا من عاهدته على النقاء ؟ ولقد اجابوني يا زياد .. أجابوني جميعا ، بل لقد أحسست أيديهم تدفعني من كتفي ، وسمعت أصواتهم تشجعني على المضي ، على الاقتراب من النار ، فراشة ترف بجناحيها فوق اللهب ، لا تهرب منه ولا تبتعد ، واثقة من انه مصيرها لا فرار منه ... وهكذا توجهت الى مقر الضابط الذي جاء ينتزعك من بيننا يا زياد ، لابتهل اليه أن يطلق سراحك ، رحمة بأمك على الاقل . وعرفت هناك ما كنت أخشاه وأتوقعه ، عرفت انهم يعذبونك ، وعرفت ان هشام كان قد سبقني لمحاولة انقاذك فأصيب بجراح بالغة ، ورأيت آثار دمه في مقر القيادة . وحين استعدت وعيي ، كانت الفراشة قد سقطت في اللهب ... (صمت) لا أدري يا زياد : أهم الذين اغتصبوني أم أنا التي استسلمت ؟ أليست هذه قصة أرضنا كلها يا زياد ؟

(يصمت صوت ليلى . يشتد الظلام في المغارة ، فلا يرى فيها شيء قط)

المشهد السادس

هشام

(تبقى المغارة مظلمة فترة ، ثم يضاء نور تدريجي يوحي بأن النهار قد أشرق . يرى داخل المغارة هشام وحده متمددا على الفراش ، ثم يتقلب ويستقيم جالسا ، ويدير نظره حوله في دهشة تنقلب الى ذعر)

هشام : أين أنتم ؟ نزيه ، زياد ، فتحي ، سعيد ، الياس ، أحمد. أين أنتم ؟ أين ذهبوا يا الهي ؟ لماذا تركتموني وحدي ؟ كيف تخونونني هكذا ؟ ألم نتعاهد على أن نبقى معا ، على أن نحيا معا أو نموت معا ؟ (لحظة ، يلتفت حوله) ولكن ماذا حدث ؟ نمت طوال الليل ، أم اغمي علي ؟ (يحاول أن ينهض متحاملا على نفسه ، ناظرا خارج المغارة) أليس هنا أحد ؟ أين أنتم أيها الرفاق ؟ يا الهي ! ماذا أصنع هنا وحدي ؟ ليتني أستطيع أن أمشي ، اذن لركضت الحق بهم وأواجه المصير الذي يواجهونه ... ولكن جرحي ما يزال يؤلمني (يتأوه) وساقاي واهنتان ... فلماذا لم يتركوا لي أحدا ؟ لماذا لم يبق على الاقل زياد وهو بأمس الحاجة للراحة ؟ (يدير رأسه ثانية فيما حوله ؟

ولكن أي صمت هذا ؟ انني لا أسمع حتى زقزقة عصفور أو حفيف ورقة . ما الذي حدث ؟ (يقع نظره في زاوية المغارة على جهاز ترانزستور ، فيتجه أليه ويتناوله) جهاز راديو ؟ أية أخبار هناك ؟ أريد أن أسمع شيئا ، أي شيء ، كلمة تهمس بها شفتان ، حتى ولو عبر الاثير ، خبرا حتى ولو كان سيئا ، نغمة حتى ولو كانت حزينة .. (يجلس ويدير زر الجهاز ، فتنبعث أصوات صاخبة غير مميزة أولا ، ثم تنبعث موسيقى عسكرية ، ثم تتميز الاصوات ، هاتفة ، بلهجات مختلفة)

الاصوات : هنا القاهرة ، هنا عمان ، هنا دمشق ، هنا بيروت ، هنا بغداد ، هنا الجزائر ... صوت فلسطين ، اذاعة فلسطين ، أيها المواطنون العرب ، يا جماهير أمتنا الخالدة ، اليكم هذا النبأ العظيم : فجر هذا اليوم المشرق ، أعلنت ثورة التحرير الفلسطينية ، في كل مكان من الارض المحتلة ، وانطلقت فرق الفدائيين وكتائب التحرير تهاجم قواعد العدو في كل مكان ، بمساعدة جميع المواطنين العرب في كل ارجاء الوطن السليب . انها ثورة الشعب العربي كله لتحرير الارض المغتصبة . أيها المواطنون العرب ، ها هو فجر الثورة التحررية الكبرى ، لا ثورة تحرير فلسطين وحدها ، ثورة العروبة كلها ، ثورة الانسان العربي لتحرير أرضه ووطنه . فلنعش مع أولئك الفدائيين الابطال الذين يواجهون الآن أعظم الاخطار ، ويقدمون أروع التضحيات.

(يهتز جسم هشام بالبكاء ، وترتجف يده بالجهاز ، ثم يخفت صوت الراديو)

هشام : هكذا اذن تخليتم عني أيها الرفاق ! هكذا اذن تركتموني في الظلام لتطلعوا وحدكم نور الفجر ؟ هل أراكم مرة أخرى ؟

(يصمت لحظة ، ثم يرتفع صوت الراديو من جديد ، فتسمع اغنية فيروز « سنرجع يوما .. » وحين تنتهي يرتفع صوت المذيع)

الصوت : « هنا صوت الثورة الفلسطينية . أيها الاخوة المواطنون . اليكم هذا البلاغ الذي وردنا الآن . بلاغ رقم ٩٩٩ . عند منتصف ليلة أمس قامت المجموعة ١٨٩ بهجوم صاعق على مقر قيادة العدو قريبا من بيت فوريك ، على بعد دقائق من نابلس . ونشبت معركة ضارية مع حرس القيادة وجنودها أسفرت عن مقتل خمسة جنود بينهم ضابط القيادة الذي قتله بالخنجر الفدائي الشاب زياد ، كما أسرت مجندة اسرائيلية ، وتم تدمير المركز بكامله . وقد أبلت هذه المجموعة أحسن البلاء في هذه المعركة التي كانت واحدة من عشرات المعارك التي مهدت ليلة أمس لقيام ثورة التحرير الفلسطينية الشاملة. واستشهد من أبطال هذه المجموعة كل من المناضلين نزيه وفتحي وأحمد. عاشت فلسطين حرة عربية ، المجد والخلود لشهدائنا الابرار » .

(يخفت هشام صوت الترانزستور ، ثم ينحني ، فيلصق جبينه بالارض ، كأنما هو يقبلها . ويبقى كذلك فترة)

المشهد السابع

هشام ، ليلى

(هشام ما يزال ساجدا على الارض . ثم يرفع رأسه ، فيبدو جبينه معفرا بالتراب . فجأة تظهر ليلى في المغارة ، كأنها طيف سماوي ، مرتدية ثوبا أبيض طويلا أشبه بثوب العرس ، يتطاير شعرها في الهواء . يصطبغ الثوب تدريجيا بلون أحمر ، حتى يغدو مكونا من زهور حمراء قانية بلون الدم . يحدق هشام فيها لحظات ثم ينهض . تقترب ليلى داخل المغارة باسمة . وحين تبسط ذراعيها باتجاه هشام ، يسترد ثوبها لون البياض الناصع . يتلقاها هشام ألى صدره) .

هشام : كنت دائما واثقا انك ستعودين الي ، محررة ، نقية ، رائعة .

(يتعانقان ، بينما تنطلق أغنية فيروز «راجعون»)

— ستار —

عودة الصياد

يافا

— ١ —

تترقب في الليل الجاثم اطيافا
تتسلل ...
تفتح مروحة الفجر البيضاء
تفرش منديل الامواج
تمسح مخمله المزبد بالتبر الوهاج
وتضيء قناديل البيارات الخضراء
اقمارا صفراء
ونجوما بيضاء !
وزهور الزعتر في صفد
تتنفس بالشوق الفرد
لوجوه سمراء
يزرعها الليل الملهوف اللهثات
بصفار الماسات !

— ٢ —

قلبت طاسات السحر على
اثواب الساحر
واطلّ الصياد المرتقب
يطلق من افواه قماقمنا الخرساء
مرَدا تثب
فتهز شرايين الاجواء !
عاد المدفون مسيحا ...
يخرج من ظلمات القبر
ويزيح الصخر
ليخوض النهر
ويعمد كل مساء
في ماء الاردن الثائر ...

●

يا ابن الانسان
يا من يأتي باسم الشعب !
ليجرر في درب الآلام صليبه
يستمريء تعذيبه
ويخلص شعبه
من ذل الغربه
انت المولود المنتظر
والنجم المستعر
في هذي الظلمه !

— ٣ —

يا ابناء الفردوس المطرودين
من ارض فلسطين
يا من بالامس توهمتم
ان الاجهزة المهترئه
وبنادقها العمياء الصدئه
ستحرركم ...
وتعيد اليكم ارض المهد
واليوم .. وبعد سراب الوعد
ادركتم ان دماء فدائييكم
هي نهر العودة للاوطان
لارقص دمى جوفاء تحركها الخيطان!

— ٤ —

أأبا عمار
يا موجا من نار
يهدر بالغضب !
يا جبل التضحية الكبرى
يا عرفات ...
يا قلبا منخطفا بالسؤدد يكره غيث الدمع
ضعفا من اجفان الشمع !
يا من تتطلع ابصار الاحرار اليك
قد بت أخاف عليك
وعلى اخوانك يا زهرة آمال العرب
وخيوط الصبح
لتكونوا السلعة في سوق النخاس
ويهلل يوضاس
لرنين الفضة واستمراء الربح
اذ يستيقظ في الليل الغادر
خفاش مسعور
مسرحه الديجور ...

— ٥ —

يا من انعشتم وطني المنكوب
بانانيات
تمتص الطاقات
وتساوم بالرب المصلوب !
يا من اخرجتم من برج الآلهة الموصد
نار الاولمب
وتحملتم الم الصلب
تمزيق جلود تتجدد
في كل صباح
تحت شموس تنضجها
وتفسخها
لنسور النقمه
يا من دحرجتم صخر الاقدار
من ظل السفح لضوء القمه
انتم في ارضي بركان الغضب
والشوكة في قلب المغتصب !

— ٦ —

يا زراعا يهبون دماء القلب
لتراب عاش خريف الجدب
خصبا يتفجر
بالورد الفوّار الاحمر
وشقائق تنثر
لتنقل عشتار ...
يا نجوة معتصم
تنجد من تصرخ في ظل الحرم
وجدار البيت المنهدم
خشب العرزال
وشموع الوزال
اعشاب العتبه
في الدار المغتصبه
شوق لهاف
لجراح المزمار !
والرمانـه
اقداح ظمآنه
لشفاه الاطفال !

— ٧ —

خيبر في حصنه
والملح الاسود في جفنه !
يسمع وسوسة الاعشاب
ويرى في الظلمه
آلاف الفيلان
اشباحا تزحف عبر الغاب
بعيون لاهبة حمراء
واظافر تقطر بالنيران !

— ٨ —

يـا خيبر
وعد الجنة والاوراد
وقصور الحلم
تلويح سراب
فلسوف تموت شهيد الوهم
وتعلق في ارض الميعاد !

— ٩ —

ادخل للفلك المتحفز يا نوح
قبل استشراء الطوفان
وجنون السيل
وترقب في الافق الشرقي حمامه
تحمل من ثل الزيتون علامه !
فغدا يا نوح
سيموت الليل
وتطل الشمس المحمومه !
ترمي بسهام الضوء الخفاش المبهور
بالوهج المسفوح
تشنق في باب مغارتها البومه
بحبال النور
وتعود الآفاق الجرداء
جنات زهور !

فؤاد الخشن

كُنّا خمسة ...

قصة بقلم الدكتور فاروق بيضون

وقف عصام حائراً أمام « كيوسك » الصحف الاجنبية وقد ملأت نوافذه الزجاجية صور الفتيات العاريات في أوضاع مثيرة ، وأسماء الصحف والمجلات في مختلف اللغات ..

فجأة انصبت نظراته على عنوان كتب بالبنط العريض الاسود باللغة الالمانية :

« الاسرائيليون يقتلون عربية في غزة »

« المتظاهرات لا يأبهن لقرار منع التجول ولا للرصاص » .

والتهم الاسطر القليلة بكل حواسه :

« قام اليوم عدد كبير من النساء العربيات في غزة بتظاهرة ... ولقد حاولت المتظاهرات الاقتراب من الاسلاك الشائكة المحيطة بالمعتقلين ، ولم يأبهن لتحذير الجنود الاسرائيليين ... »

وأعاد القراءة : مرة وثانية وثالثة :

« ... الذين أطلقوا النار على النساء ، فقتلت امرأة في الحال وجرح عشر غيرها ...

« ولقد صرح ناطق عسكري اسرائيلي ... » .

وطوى الجريدة .

كانت كوبنهاغن تضحك تحت أشعة الشمس الفضية .. كل شيء فيها يضحك : الاعلام الملونة التي ترفرف أمام قصر البلدية . القصر وقد كلل هامته الثلج فزاده جمالا ووقاراً . تماثيل الفيكنغ الثلاثة وقد نفخوا بقوة في الابواق وفي كل اتجاه ، في حين نبضت الحياة في تقاسيم وجوههم البرونزية تحت القطن الابيض المندوف .

القاطرات الكهربائية الصفراء وهي حبلى بما تحمله من أفواج الناس ، وقد قدموا من أطراف المدينة ليلتقوا في قلبها .. المقاهي والمطاعم تضج بالحضور .. الشوارع مزدحمة بالشبان والشابات وقد وضعوا على رؤوسهم القبعات الورقية الملونة ، وعلى وجوههم الانوف الكرتونية الضخمة ، كالمهرجين في السيركات ، وتسلحوا بأبواق زاهية الالوان ، يضعونها من حين الى حين على أفواههم مطلقين أصواتا رفيعة تارة وكثيفة تارة أخرى ، وقد صاحبها الهرج والمرج ، الضحك والصراخ ، احتفالا برحيل عام سيمر بعد ساعات معدودات وبمقدم عام جديد . ومن بعيد ترددت أصداء المفرقعات النارية وقد ارتفعت أصواتها في الجو ، باعثة رجفة في القلوب ...

« ... كنا خمسة . خمسة من الخليل : أبو غسان و ... »

وأنصت .

« ... وحدث الاشتباك بيننا وبين دورية للعدو . في ... »

لك الله يا رجل ! هل نسيته ؟ أو نسيته وسط ضحك كوبنهاغن وعبثها ؟ ألم تلتق به قبل حين ، وكأنك على موعد معه ... على موعد مع نفسك القاتمة السوداء ؟ أولم يخبرك عن معركة .. عن ..

وأنصت .

« ... كنا خمسة ، خمسة من الخليل !..

« .. ثم شعرت بألم حاد في ساقي . فنظرت . ورأيت شلالا من الدم ينزف منها .. ثم .. ثم غبت عن الوعي .. »

« أبو غسان وسعد و ... »

وجهه الصارم وسط الوجوه الضاحكة حولك ! أونسيته ؟

الوجوه الباكية . القلوب الدامية . الرؤوس المداسة تحت الاقدام في الوحل . في الدم !

أنسيتها ؟!

ـ يله بنا يا شباب ! دعونا نعود الى الفندق !

قال حمد بلهجة حازمة وكأنه ضاق ذرعا بالوقوف أمام ذلك المكان بعد تلك السفرة الطويلة .

ودخلوا السيارة : حمد الاردني ، واسمه الحقيقي سامي ، زياد السوري وشقيقه حسان ، وهو .

ـ دعونا نتمتع بهذه الايام القليلة في كوبنهاغن يا شباب ! كفانا هموما !

ودار محرك السيارة .

« ... كنا خمسة من الخليل » . وأمسكت الغصة بحلقه . فصمت . سالت دمعة على خده .. كنقطة الماء تلك وقد تدحرجت على زجاج السيارة .

« أبو غسان لم يصدق يوما الاكاذيب ! لا السجون أقنعته ، ولا الوعود » .

ودخل عصام مع حمد الى غرفة رقم (٢٧) في الطابق الثاني من فندق « البوتانيك » المشرف على النهر .

ألقى بنظرة اليه من الدفء : من وراء الزجاج وقد التصق جبينه عليه ..

« ... واستيقظت على خرير المياه .

« كان اثنان من الرفاق لا أعرفهما يحملاني من الجانبين ، وقد ربطا ساقي بوشاح عقداه حول خشبة : عقدة قوية ، أوقفت النزيف . ثم خضنا في مياه نهر الاردن ، ليلا » .

ـ ماذا قرأت أيضا في الصحيفة ؟

سأل حمد وهو منهمك في ترتيب ثيابه في الخزانة . ثم تابع وكأنه لا ينتظر جوابا :

ـ أولاد الكلب ! حتى النساء ! انهم لا يوفرون أحداً ! حتى على النساء يطلقون النار !

ثم بصوت عال غاضب :

ـ كيف يريدون أن نعيش معهم .. مع هؤلاء المجرمين ؟ أبدا ! أبـدا !

ـ اذا كنتم بحاجة الى أي شيء فما عليكم الا أن تقرعوا الجرس.

وأشار « الجرسون » بيده الى الزر ، ثم تابع باشا :

ـ أهلا وسهلا بكم في عاصمة الدانمرك ، باريس الشمال ! الفطور في المطعم في الطابق الارضي حتى الساعة العاشرة والنصف صباحا . وأغلق الباب .

يا حمد ! يا حمد ! لقد جعلت من غرفتك في هامبورغ متحفا لفلسطين ! علقت على الجدار صورا لفلسطين . للضفة الغربية في فلسطين . لما تبقى من فلسطين . وما تبقى منها قد ذهب !

« ـ هذه رام الله ! لله ما أحلاك يا رام الله !

وهذه هي بيت لحم ! وهذه هي نابلس .. نابلس . أنظر الى بيارات البرتقال .. وهناك الى حقل الزيتون . أنظر .. وهذه هي

القدس ! انك تعرف القدس حتما ! أليس كذلك ؟ كلا ، انك لا تعرفها ؟ مستحيل !! عربي لا يعرف القدس ! عجيب ! انك قد زرت برلين ولندن وباريس ولم تزر القدس !! وعلقت خارطة فلسطين فوق سريرك، وكتبت : فلسطين عربية و ... » .

ـ المجرمون ! قال حمد غاضبا :

المجرمون . والله يا عصام ، كلما أسمع بمثل هذه الاخبار أشعر بالنار تأكلني أكلا ، وبالدم يغلي في عروقي . وما يزيد في قهري هو ما تكتبه صحف هذه البلاد . أولاد الكلب الالمان : لو ان العكس كان صحيحا ..

ورمى بجريدة « دي فلت » الهامبورغية في زاوية الغرفة ، وتابع:

ـ لو ان جنديا عربيا أطلق النار على امرأة يهودية ، لكنت وجدت مقالات طويلة عن الارهاب العربي ، عن الوحشية العربية ، عن الدموية العربية .. الخ .. الخ .. وأما الآن فلقد بحثت في كل زاوية منها...

وأشار الى الصحيفة الملقاة أرضا :

ـ عن تعليق ، عن كلمة حق ، عن شجب ، عن احتجاج ، عن اعتذار أو لوم .. ولكن عبثا !!

ـ كن سعيدا عندما يذكرون الخبر فقط !

أجاب عصام وقد ألقى بنفسه على السرير تعبا من عناء الرحلة .

ـ بل كن سعيدا ان لم يحوروا الخبر ولم يدعوا ان ارهابيين عربا قد أطلقوا النار على نساء عربيات متظاهرات ..

قال زياد وقد دخل الغرفة دون أن يشعر به أحد . ثم وبعد لحظة :

ـ شو يا شباب ؟ ألم ننته ؟

ـ كلا ! لم ننته ولن ننتهي !

أجابه حمد غاضبا . ثم تابع :

ـ أولاد الكلب !..

وخرج الاربعة من الفندق . لفح وجوههم هواء قارس . والنهر كان قد تجمد من شدة البرد وظهر كالمرآة .

« لقد تجمدت أطرافنا في الليل . لله ما أطول تلك الساعات التي قضيناها في الحفرة ! التصقنا بالارض وقد تعالت ضربات قلبينا بشكل مخيف . وشعرنا بأنفسنا وكأننا عراة .. بدون سلاح !

« كنا خمسة ، خمسة من الخليل ، ومعنا رشاشان فقط . وسقط منا ثلاثة خلال المعركة ومعهما الرشاشان . وأنا وخالد كنا في الحفرة. وكلانا جريح .. وكلانا ينزف دما » .

ـ هل أخذتم عنوان المرقص من ادارة الفندق ؟

سأل حسان وهو يثبت قبعته الروسية الشكل فوق رأسه ، والبخار يتصاعد من فمه .

ـ طبعا ! طبعا !

أجابه حمد ، ثم التفت الى عصام موجها اليه كلماته في هدوء :

ـ انني أعلم بم تفكر . ولك الحق في ذلك . انا مثلك . ولكن.. دعنا الآن من هذه الافكار .. انها لا تجدي شيئا .. صدقني !

ثم وضع يده على كتف عصام وربت بلطف :

ـ انني من الاشخاص الذين يعيشون حسب قول الشاعر :

« اليوم خمر وغدا أمر ! »

فدعنا نتمتع اليوم لكي نعمل غدا !

ثم أشار بيده ، وقد اختبأت وراء كف جلدي كثيف ، الى امام :

ـ أنظر الى كوبنهاغن ! ما أجملها !

كانت المدينة ترفل في أجمل حللها : فالثلج يغطي كل شيء ، الاشجار والبيوت والاعمدة والشوارع . ويضفي عليها مسحة من السحر هو أقرب الى الخيال منه الى الواقع . فالبياض في كل مكان والثلج كالقطن المندوف الابيض تحت الاقدام ، كالوسائد الوثيرة . كان الناس يسيرون زرافات ووحدانا في الشوارع ، وهم يتحدثون بمختلف اللغات ، وكأن كوبنهاغن قد تحولت الى عاصمة العالم .

ألم يخبرهم صاحب الفندق بأن المدينة تعج بالسياح ، أتوا من كل مكان للاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة ؟

ـ ... انها ستكون ليلة عامرة ! أتمنى لكم أن تتمتعوا بها كل المتعة ! عام سعيد !..

ـ وعندما نصل الى البحر أمامنا ..

قال حمد وقد أشار بيده :

ـ نعكف الى اليسار ونصل الى المكان الرئيسي ، حيث ...

« ... ووصلنا الى البحر ، واتجهنا الى اليسار ، في اتجاه المستعمرة . كانت أضواؤها تظهر لنا من بعيد ، وتقترب منا كلما أمعنا في الزحف .. وابو غسان يقودنا . ثم وصلنا اليها . وزرعنا الالغام ، تماما حسب الخطة .. وعدنا باتجاه البحر . العملية نجحت ! ولكن في طريق العودة اصطدمنا فجأة بدورية كبيرة للعدو .. » .

كان المرقص مزدحما بالضيوف ، وقد وقف قسم كبير منهم بين الطاولات وفي الزوايا نظرا لانعدام المقاعد الشاغرة . كانت الزينة تعشش في كل مكان واللمبات الكهربائية الملونة ترسل ضوءها الخافت وسط هذا الجو الحافل بأنغام الموسيقى والغناء ..

« ... وأرهفت سمعي ..

بعد طلقات الرصاص المتواصل وقف قلبي عن النبض . لم أعد أسمع الا أنفاسي المتلاحقة .. لقد نسيت الالم الذي يهصرني هصرا . تشبثت عيناي بالامتار القليلة امامي حيث استحكم الرفاق الثلاثة .

ماذا قالوا لنا ؟ ماذا قال لنا بعد أن حملنا سعد الى تلك الحفرة الآمنة ؟

« ـ ابقيا هنا .. لا تتحركا حتى ننهي على دورية العدو . ولسوف نعود .. » .

ـ اتبعوني ..

قال لهم الجرسون .

ان طاولتكم ما زالت محجوزة لكم .. هناك في الطرف الثاني من المرقص .

لم يكن سهلا اللحاق به وسط الجموع الهادرة ، وسحب الدخان ، والاوراق الملونة المتطايرة في كل مكان ، وقرقعات الطلقات في الزوايا..

« بعد طلقات الرصاص خيم على المكان سكون رهيب . ومن بعيد تعالى نقيق الضفادع . فقلت في نفسي : لا بد ان هناك ساقية ما أو مستنقعا بالقرب منا .. ولكن أين هم ؟ لماذا لا يتحركون ؟ لماذا ؟..

ثم سمعت انفجارا . فطمرت رأسي في الارض . أصبحت قطعة منها . ثم انفجارا ثانيا . ثم .. ثم سمعت خالدا بجانبي يقول وقد أطل الهول والغضب من عينيه :

ـ انهم يرمونهم بالقنابل اليدوية .. لمجرد التأكد ...

« ثم ... »

واجفل عصام على لكز في خاصرته ، وصوت زياد في أذنيه :

ـ أين أنت يا رجل ؟ هل أنت تعب من السفر الى هذا الحد ؟ الم تر الفتاة التي أمامنا .. وراء الطاولة في الزاوية اليمنى .. أنظر !

ورمى زياد نظرة خلسة جيبية الى المكان الذي أشار اليه ثم تفحص عصام وسأله :

ـ هل رأيتها ؟

ـ ...

ـ يا رجل ! انها تحدق بنا منذ دخولنا المرقص . ولست أدري أتحدق بك أم بي أنا أم بكلينا ؟

وضحك بسرور وقد جال بعينيه في جوانب المكان الضاج بجموع الراقصين والراقصات وقد التصقوا بعضهم ببعض وتحركوا لضيق المكان ببطء وكأنهم كتلة واحدة تتمايل بصعوبة مع الالحان الراقصة .

ثم اختلس نظرة سريعة الى الفتاة فوضع يده على فمه وكأنه يريد أن يفضي الى صاحبه بسر خطير وقال :

ـ انها ما تزال تحدق بك يا رجل ! لماذا لا تتحرك ؟

ـ رجاء . دعني وشأني !

أجابه عصام وقد أخذ ينفض غليونه على طرف المنفضة وهو تائه في تفكيره .

ماذا قال له الشاب الدانمركي ذو اللحيـــة الشقراء والغليون المشعل دوما ؟

« ـ Itis Almost Unbelievable ! Unbeliev able

« انه أمر يكاد الا يصدق ! ألا يصدق ! »

ووضع غليونه في فمه وسحب منه نفسا طويلا ثم قذف بالدخـان من انفه وتابع :

ـ والله يا عصام انني لم أعد أفهمك ! هل تقطع مئات الكيلومترات وتسافر تحت الامطار والثلج وتترك ألمانيا لتأتي الى كوبنهاغن لكي تجلس هنا وتحلم ؟ أنظر الى حسان : انه يصول ويجول ! وحمد ! أين حمد ؟ لقد اختفى حمد !! يا رجل استيقظ ! انها ليلة رأس السنة وهـي ليلة واحدة في العام !

ثم نهض واقفا وقـــال ، وقد زرر سترته وتأكد من وضـــع ربطة عنقه :

ـ انني سأتركك الآن ولسوف أجرب حظي ..

وابتعد عنه متواريا وراء الجموع الصاخبة .

« .. نحن معشر الاوروبيين نعاني مشكلة نفسية كبيرة ، تمنعنا من ادراك ما يجري حقيقة في فلسطين . فالى عشرين سنة خلت ، كان اليهود في أوروبا مضطهدين على أيدي النازيين اضطهادا شنيعا . أنتم تعلمون حتما التفاصيل الآن بحكم وجودكم في ألمانيا . ولكن هل بامكانكم أن تدركوا ان اليهود كانوا وما يزالون ضحايا .. ضحاياهم ! ومـن الصعب جدا أن يروا في ضحايا الامس جلادي اليوم ! ثم لا تنسـوا تأثير دعايتكم السيىء .. » .

ـ سكول !

ودوى الصوت في اذنيه . ونظر واذا بزياد امامه وقد تأبط ذراع الفتاة وفي يده الاخـرى أمسك بكأس الجعة وهو يدعوه الى شرب نخبـه :

ـ سكول !

ألقى زياد بنظرة سريعة على الفتاة ، ثم الى عصام بفخر واعجاب وقال له :

ـ ما رأيك بها ؟ ناعمة أليس كذلك ؟

وضمها الى صدره وكأنه يعرفها منذ زمن بعيد ، ثم تابع :

ـ لها رفيقة لطيفة جدا . أنظر اليها ! انها في الركن المقابل .. ما رأيك لو ...

وقطع حديثه فجأة وكأنه شعر بضيق الفتاة نظرا لتحدثه بلغـة لا تفهمها ، فاسرع الى ضمها مرة أخرى قائلا :

ـ سكول ! سكول !

كانت الاوركسترا تعـــزف شتى الالحان بتواصل ، أو شبـه تواصل . تقطع العزف دقائق معدودات ، تستريح فيها ، تجفف عرقها ، تجرع من اقداح الجعة الموضـوعة أمامها ما تجرع ، تعود للعزف .. والهرج والمرج على أشدهما في المكان . ومن حين الى حين كان الباب الرئيسي يفتح لتدخل منه جماعة سكرى تبحث عبثا عن مكان للجلوس لمتابعة السهرة . واذا ما أبصر أحدهم بمكان شاغر زحف اليـه مع صحبه ليتحوموا وراء طاولة صغيرة منصرفين الى لهوهم وعبثهـم وسكرهم .

فالليلة هي ليلة راس السنة ! وكل شيء فيها مباح ..

كان ينفث دخان سيجارته بعصبية ظاهرة وهو يتحدث عن بلدتـه الخليل . وكأنه قد نسي أنه الآن في كوبنهاغن ، في وسطها ، بعيـدا بعيدا مئات الاميال ، آلاف الاميال عن الخليل .. عن بلدته .. عـن فلسطين !

وأنصت : ذاك الصوت يلاحقه في كل مكان : أقوى من الضجيج . اقوى من الموسيقى الصاخبة . اقوى من العبث والمجون . وأنصت :

للمرة المئة تطن هذه الكلمات في أذنيه . ملحاحة لجوجة .. وكـل مرة تتردد بين صدغيه يشعر برجفة تسري في أوصاله .

« .. كنا خمسة ، أبو غســان ، وقيس أبو الاولاد ، وسعـد ، وخالد وأنا ...

« أبو غســـان لم يؤمن يوما بالاذاعات ، ولا بالاكاذيـب ، ولا بالوعود ! قال لنا : حرمونا العمل عشرين عاما ! والآن علينا بالسلاح .

« وزحفنا ، ليـــلا . وأبو غسان يقودنا .. كما في المـرات السابقات .. ثم وصلنا البحر .. » .

من كان يدري انهم سيلتقون به في قلب كوبنهاغن وسط المرح والمسرات ، وكأنه قطعة من بلادهم ، تذكرهم بأعمق أعماق مأساتهم ؟!

وأنصتوا اليه في مطعم الاكسبريس . ونسوا طعامهم بعـد أن صدت أنفسهم عنه . وصديقه الدانمركي بجانبه صامت ، يصغي ويدخن غليونـه .

ـ وهل ستعود ؟ سألوه .

ـ بالطبع !

وودعهم . واستأذن منهـم صاحبه الدانمركي ، وهو مضيفـه والمشرف على علاجه ، بعد أن هز لهم أيديهم مرحبا . وضاعـا بين الجمـوع .

ونظر عصام حواليه وقد شعر بضيق متزايد . وبجفاف فـي حلقه .

نظر الى الحفل القائم حوله ، الى جموع الراقصين والراقصات وقد أخذت بهم نشوة الرقص فتمايلوا على الجنبين بايقاع . وقـد تحومت الاذرع حول القامات الطرية والتصقت الشفاه بالشفاه ..

وخيل اليه انه لم يعد يرى بوضوح ، وان معالم المكان بـدأت تضمحل أمامه رويدا رويدا .. بل ها هو يرى بوضوح العيون.. عيون الراقصين والراقصات .. لا .. عيونهن : عيون بنات ونساء غزة وهـن يتحدين جنود العدو ، أسلاك العدو الشائكة ، رصاص العدو وقـد تعالى في الفضاء .

والعويل والصراخ قد ملأ الجو .. كلا ! الضحك والمـرح .. فالساعة قد بلغت الثانية عشرة ليلا .. كلا ! ظهرا ونساء غزة ثائرات في الطريق يهتفن ، يصرخن ، يقعن أرضا مضرجات بدمائهن .. كـلا ! يقعن أرضا من الرقص العنيف والعبث المجنون .. فالساعة قد بلغت الثانية عشرة ليلا.. والعام قد انتهى « عام سعيد ! » « عام سعيد ! » سكول ! سكول ! عام سعيد !

ولكن ها هي الاصوات تزداد حدة ، والصراخ شدة .. وها هـي الاعين .. الاعين الجريئة ، الاعين الباكية ، الاعين الضاحكة : تنظـر اليـه !

كلا ! انه لم يعد يحتمل .. لا بد له من ...

وشق له طريقا بين الجموع ، بعد جهد . وقف في الهواء الطلق منهكا وقد استند على حائط بجانبه خشية التهاوي . وأحـاط به جموع المحتفلين وقد شخصت أبصارهم الى السماء حيث الالعـاب النارية تنفجر ، تضيء ، تنطفيء .. تنفجر ، تضيء ، تنطفيء ..

« .. كنا خمسة من الخليل . خمسة من فلسطين . خمسـون مــن ... »

وازدادت الانفجارات حدة مرددة أصداءها في الجو .. وتعالت الصرخات ولمعت السماء بالانوار : كالقصف ، كالرعد ..

وانطلق عصام وكأنه يريد أن يهرب من ظل يلاحقه ، من سـؤال ينفجر في أذنيه بعنف ، بقوة :

ـ « اتمنى لكم أطيب الاوقات في كوبنهاغن . ولكن .. »

« ولكن . ولكن ... »

وترددت هذه الكلمة في رأسه كالانفجارات : مدوية ، هازئة :

ـ « ولكن ماذا تريدون في كوبنهاغن ؟؟ » .

برلين

فاروق بيضون

عن العام ١٩٦٩

ثلاث اغنيات حزينة

(١)

لو خطوة أولى
كتبتها على تراب ، سقط الضباب
به ، كما تساقطت مدينتي
ندى على أهداب من أحبهم .
لو قلت (حيث كان فوق خطوتي الشباب)
: الناس ان توردوا ثانية
ان حملت شهوتهم عصاتي
وهشت الغبار عن سريرة الاحياء .
لو قلت (حيث ضجت الاجراس
لعامنا الجديد)
لا تمسحوا غرته من تعب الاسفار .
فالطفل في وجنته
وحام من تشهت النعاس
ولم تنم ..

(٢)

لو خطوة أولى
على تراب الجسد المبتل بالخرافه
من نبعة الفرات
من جزيرة الفرات .
او آخر يأتي بظل امرأة
تغسل هذا الشعب من خطيئة الخلافه .
وتخرج الابناء من ظهور اوليائهم .
لو خطوة
تزفها مفازة الصلاة
للقمر المبتل في جبين من تحمله المسافه
لآخر النهار (من تحمله المسافه
للثمر الظليل في حدائق الاموات) .
لو خطوة أولى من الفرات .

(٣) (الى فدائيي الارض المحتلة)

« ــ نهنئكم ، فذلك قادم يأتي
وعام مر ،
ونرجو الله أن يمحو من الوجنات
صيف حروفنا المغبر .
وأن نبني اذن ... »
مدن
تسائل عشبها المصفر
ــ أيحمل مسحة الجلاد
يبكي لو رأى وطني
خصاص نوافذ تغفو
على أقفالها الاجراس .
ويضحك لو رأى كفني
شراعا يرسم الحراس
به ، من اعظم الموتى
نذير مسيرة في الليل ..؟؟
ان الليل في مدني
يبادلكم من الكلمات ، من كلماته الخرساء
« ــ نهنئكم ... »
بلا ثمن .

بغداد

فوزي كريم

شعر المأساة في الأرض المحتلة

بقلم صبري حافظ

لا شك ان المأساة الدامية التي عاشتها الامة العربية بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧ كان لها دور كبير في اضاءة الكثير من جوانب الحياة في مختلف البلدان العربية . لانها كانت قبضة كبيرة تضرب بعنف على الابواب الكسولة الغافية لتفتح القيعان المغلقة على نفسها، بعد طول ألفة العتمة والظلام ، عيونها على الحقيقة ، باهرة بشعة .. يؤذي وهجها العين والقلب معا . فقد تكشفت الهزيمة المريرة التي لحقت بالعرب جميعا ، عن مدى التخلف الحضاري الذي تعيشه بلادنا . وعن بشاعة الاختناقات الشديدة التي تعثرت فيها الخطوات قبل ان تكبو منكسرة في لحظة المواجهة . وعن ان الانسان الذي طلب اليه فجأة ان يدافع عن شرف امته وعن ارضها لم يعد لهذه المواجهة من قبل فكريا وسياسيابالصورة الكافية ، ولم يجمع بين قبضتيهابعاد القضية التي دفع به فجأة الى خط القتال من اجل الذود عنها. فقد ذهب الى ساحات القتال على الجبهات المتعددة وهو مثقل بمشاكل وأزمات لا تحصى ... ذهب وهو عارف ان موته قد يعرض وجود اسرته للموت دونما طلقة نار وللضياع . ومن ثم كان همه ان يلوذ بالنجاة عندما تلوح امامه ادنى احتمالات الخطر .. ذهب رازحا تحت وطأة علاقات غريبة على جوهر الانسان فكبلته هذه العلاقات والهموم بقيود لا مرئية عوقت انطلاقه في لحظات المواجهة المصيرية . ذهب وهو لا يعرف ان تخاذله للحظة ، وان ادنى هفوة منه ، قد تعرض الالاف من بني شعبه للجوء والتشرد والنزوح عن الارض وعن الوطن . ولا يستطيع حتى ان عرف ان يجد في نفسه الحافز ليضحي ويفتدي ويذود .

تكشفت الهزيمة المريرة عن كل هذا ، وتكشفت ايضا عن الخواء الرهيب الذي يعبق في سراديب الحياة العربية ، في كل سراديبها.. وعن الضياع الكامل للبقية الباقية من الوطن الفلسطيني السليب . ومعها اجزاء عزيزة وكبيرة من الارض المصرية الفسيحة ومن المرتفعات السورية الحصينة . وعن مدى حاجتنا الماسة الى مراجعة شاملة وعلمية ودقيقة لشتى امور حياتنا ... مراجعة قاسية مبهظة لانها تتم في نفس الوقت الذي نلملم فيه النفس ونستجمع القوى ، لمواجهة جديدة . فمن الوهلة الاولى رفض العرب الهزيمة وكأنها شيء لا يصدق . فمن تراه يصدق ان كل هذه الامكانيات العربية الكبيرة تندحر امام دولة صغيرة من المهاجرين وشذاذ الافاق .. فالحقيقة ان العرب انهزموا لانهم لم يحاربوا ... وفي المواقع القليلة التي حارب فيها العرب اثبتت المعركة ان باستطاعتهم ان ينتصروا لو توفرت لهم الظروف العادلة .

(١) مقدمات .. ودلالات

وتكشفت قبل كل هذا وبعده عن ضحالة فهم الادب لطبيعة المشكلات والقضايا التي تبهظ كاهل الامة العربية . وعن فقدان الكلمة لدورها الكبير في الريادة والاستشراف والنبوة والمواجهة . وعن الظروف القاسية المريرة التي دفعت الفن الى الهرب من مسئوليته الكبرى ، ودفعت الفنان الى ان يندس وسط جوقة المصفقين او يظل وحده بعيدا عن الضوء يجتر همومه واحزانه دون ان يستطيع حتى الكشف عنها . فلم تكن الهزيمة نتيجة لاخطاء الايام السابقة على المواجهة العسكرية ، او نتيجة لبعض ثغراتها . ولكنها كانت نتيجة اوضاع وظروف خاطئة امتدت على الصعيدين القومي والعالمي الى سنوات عديدة . فهل استطاع الادب والفكر قبل المواجهة ان يميط اللثام عن هذه الاوضاع وعن تلك الظروف ؟! .. وهل كانت الكلمة في مستوى مسئوليتها ام ان فقدان القارىء ثقته فيها ، لظروف تمتد لسنوات عديدة غاب خلالها فرسان الكلمة واستلم المقود المتسلقون والانتهازيون ولوطيو الكلمات ، اعجزها عن بلوغ الهدف ؟.. واذا قصرنا الرؤية على الكلمة في الفن وحدها ، فهل استطاع الفن ان يكشف وان يثير وان ينبه ؟! .. هذه بعض التساؤلات عن دور الكلمة قبل النكسة ، اذا ما تناولناها بالتفصيل هنا فسوف ننصرف عن غرض الدراسة الرئيسي ، لا الى شيء مفيد ، ولكن الى جثث ميتة . فقد مضت هذه الفترةبما لها وما عليها .. ليس لنا ان نلقي النظر في اوراقها الا لنستخلص منها الدروس ونأخذ العبر .. واهم هذه العبر - كما قال الرئيس جمال عبد الناصر - هي ان ظروف ما قبل النكسة دفعت الكثيرين الى ان يصمتوا حين كان يجب ان يتكلموا .

من هذه النقطة ابدأ دراستي تلك عن صوت المأساة بعد ايام حزيران الدامية ، احاول فيها ان استخلص ملامح الادب الذي كتب بعد النكسة واتجاهاته . فأول نظرة الى ظروف ما قبل النكسة تهيب بنا ان نهتم بدور الكلمة وانفسح المجال للفن ليرى ويستشرف ويتنبأ ويرود .. وقبل ان نرى ماذا قدم الادب خلال الشهور العشرين التي انقضت منذ النكسة حتى اليوم .. احب ان اشير الى هذا الهدوء الظاهري الذي يعيشه العرب والهزيمة تبهظ كاهلهم .. الى معنى الحياة باسلوب هادىء وكأن لم يحدث شيء . تمتلىء الشوارع بالمتسكعين وتكتظ الحوانيت بالبضائع المحلية والمستوردة . وتتنهد دور السينما ، كرئات كبيرة ضخمة ، تبتلع الاف المشاهدين ثم تزفرهم من جديد بعد ان يشاهدوا العري والعنف والتفاهة والتسطح. وتئز المقاهي بدوي الثرثرات التافهة واصوات النرد ورشفات المشروبات الساخنة .. لكن ترى .. هل يخفي هذا الهدوء الجنائزي الرهيب الذي نعيشه في لحظة انتظار طويلة ممطوطة سمجة خلف قناعه الرمزي البارد شيئا ؟ هل تعني تلك الاضواء الوهاجة والشوارع المزدحمة والمقاهي الصاخبة وواجهات الخيالات المضيئة ان شيئا مغايرا قد حدث ؟ .. ان حياة باكملها قدتكشفت عن اكذوبة ضخمة ؟ .. عن شعب قدري متواكل لم يأخذ باسباب الحضارة الحديثة برغم بهرجة الشكل الخادعة ؟ ... الحقيقة ان العرب برغم هذا الهدوء الظاهري الجنائزي يتجرعون حتى الثمالة في كل ثانية من الثواني التي مرت منذ حزيران حتى اليوم معنى هذه الجملة الصغيرة المبتذلة « البشر جميعهم فانون » . لانهم يعيشون في حضور الموت الدائم . الموت الحقيقي والموت المعنوي . وعلى الفنان ان يستغل هذه اللحظة المريرة الحاسمة . وان يبذر في وجدان قارئه انه « خير من الموت ان ... » هذه المسافة المنقوطةالبيضاء هي التي تتطلب ان يملأها الفنان بقدراته ورؤاه ، بريادته واستبصاره العميق .

فللفن دور ريادي يتطلب من الفنان ان يقود الجماهير وان يكشف لهم الواقع وان يساعدهم على ان يكونوا اكثر فهما له واعمق ادراكا لقضاياه . لان الفن ، مثله مثل العلم ، وسيلة من وسائل المعرفة البشرية ، وان اختلفت ادواتها عن ادوات العلم . فالفن يعتمد على المعرفة الحسية بينما يعتمد العلم على المعرفة العقلية . وليس معنى

هذا ان الفن لا يقدم مدركات عقلية تصل في صلابتها الى مستوى الحقيقة العلمية . ولكنه يعني ان اسلوب الفن في الوصول الى هذه المعرفة العقلية هو الجزئيات الحسية والمعرفة الحدسية .. لكل هذا يجب على الفن أن يكون اكثر جسارة في مواجهة القضايا واعمق نفاذا الى جوهرها . فالفنان يستحق تلك المكانة الرفيعة في قلوب القراء وفي نفوسهم لانه يساعدهم على الرؤية ، ويضع ايديهم على جوهر الامور . ولانه اكثر منهم كشفا وشجاعة ونبوة .. فالفن ريادة، اكتشاف للبقاع المجهولة ، اجتياز للحاضر واستشراف المستقبل . اصطحاب للقارىء في محاولة لاماطة اللثام عن مناطق مجهولة من المعرفة البشرية ... لكن الملاحظة الاولى التي نحسها في الادب الذي كتب بعد ايام حزيران الدامية ، هي ان جسارة الفن في الكشف وفي المواجهةمتخلفة عن جسارة الانسان العادي .. وان اكثر الاعمال الفنية شجاعة وتطرفا، تقف على مبعدة خطوات عديدة للوراء من المكاشفات اليومية التي تدور على المقاهي وفي المكاتب وفي الشوارع وفي كل انحاء الحياة اليومية المألوفة ...

وقد ادت هذه الحقيقة الى ظهور اتجاه نقدي يحاول ان يسقط رؤى الناقد على اعمال فنية لم تخطر تلك الرؤى في بال كاتبها بأي حال من الاحوال . وقد شهدت بنفسي امثلة عديدة لهذه الظاهرة النقدية في الندوات الادبية والاذاعية بالبرنامج الثاني لاذاعة القاهرة. والتي تؤكد غياب التعبير الفني العميق عن هموم اللحظة الحضارية التي تعيشها بلادنا . وتؤكد في الوقت نفسه ان هذا التعبير قد يأخذ مسارب ومسالك جانبية وملتوية اعتاد عليها النقد بصورة دفعته الى هذه الاسقاطات . وساذكر هنا مثالا واحدا من هذه الامثلة العديدة التي شهدتها لهذه الظاهرة النقدية .. ففي مطلع العام الماضي كنا ـ الدكتورة لطيفة الزيات وعبد الله خيرت وانا ـ نناقش مجموعة عبد الله خيرت القصصية في برنامج (مع النقاد) بالبرنامج الثاني . واخذت الدكتورة لطيفة الزيات تحلل احدى قصص المجموعة عن انها مكتوبة عن النكسة ، وعن أن الفنان ضمنها رؤيته لابعاد القضية . وكنت قد قرأت هذه القصة نفسها قبل النكسة بعامين فادهشني التحليل الذي قدمته الدكتورة لطيفة بصورة كبيرة وان لم استطع في الوقت نفسه ان انكر ان القصة توحي به او ادعي انه مقحم عليها . من هذا المثال وغيره كثير ، تتاكد لنا عدة حقائق نقدية . اولها ان احساس النقد بضرورة ان يعبر الفن عن همومنا الحاضرة يدفعه في بعض الاحيان الى اسقاط رؤى الناقد على الاعمال الفنية .. والى اسقاط ملامح اللحظة الحاضرة على هذه الاعمال بدرجات تتفاوتاحكاما واقحاما حسب نوعية العمل الفني وحسب جزئيات تجربته . وثانيها ان طبيعة الظروف الحضارية والسياسية تدفع الفنان الى اللجوء الى الطرق الملتوية والتخفي في متاهات التاريخ او سراديب المعادلات الخادعة . والى التسربل باوشحة عديدة تحول بين تجربته وبين النفاذ الى وجدان المتفرج والى عقله . وثالثها ان ادراك النقد لتخلف التعبير الفني عن مستوى الحقيقة الموضوعية يدفعه الى محاولة رأب الصدع بين الفن والحقيقة باسقاطات عديدة تمزق العمل الفني وهي تحاول أن توقفه على قدميه . ورابعها ان تخلف التعبير الفني عن مستوى الحقيقة الموضوعية بهذه الدرجة الشاسعة التي يدرك الناقد مداها يدفع الناقد الى الاضطلاع بدور كبير في تسجيل الحقيقة الموضوعية تلك وفي الايماء بابعادها حتى تكون الدراسة النقدية مصدرا من مصادر الحقيقة التي عجز الفن عن ان يكونها . خاصة وان الناقد يلمس تعطش الجماهير الى التعرف على الابعاد المتنوعة لحقيقة هذه اللحظة ولكنهها . وخامسها ان احساس الناقد بمسئولية الكلمة وبان وسيلته التعبيرية تتضمن قدرا من المباشرة اكثر اسعافا للقارىء،يدفعه الى اعادة خلق الاعمال الفنية من جديد ـ وهي وظيفة النقد الكبرى كما يراها كروتشه ـ وان اضطر في بعض الاحيان الى تقديم اسهاماته الذاتية خلال عملية اعادة الخلقتلك دون ان يعتمد فقط على المعطيات المحدودة التي يقدمها الفنان .

وبعد ان رصدنا هذه الظواهر العامة .. تخلف رؤى الفنان عن رؤى الناس العاديين وعن بساطتهم الآسرة في تناول الاحداث، وبالتالي تخلفه عنهم في الجسارة والاستبصار والتنبؤ . وغياب التعبير الفني العميق الواضح والباهر عن جوهر اللحظة الحضارية التي تعيشها الامة العربية بكل امتداداتها المأساوية . والانعطافة الكبيرة التي احدثتها حروب الايام الستة الدامية في وضع تلك القضية الكيانية. وضرورة الا تتكرر مأساة الصمت حين يجب الكلام والتي كانت من الاسباب الصانعة للنكسة . وحالة الهدوء الجنائزي التي تعيشها الامة العربية في لحظة انتظار طويلة سمجة . وتلك الاسقاطات النقدية بدلالاتها المتنوعة التي اشرنا اليها في السطور السابقة . وطبيعة التعبير الفني الذي تضطره الظروف والملابسات الى التخفي واللجوء الى الرموز والتنكر في اردية التاريخ او المعادلات الموضوعية البعيدة. وانتشار الخوف بصورة اصمتت الكثيرين وزرعت في أعماقهم رقباء مزعجين ينقضون على العمل الفني وهو ما زال أفكارا جنينية لم تولد بعد . وفقدان الكلمة لدورها وانفضاض القارىء من حولها بعدما تنامى الزحف الجرادي لجحافل العجز والزيف والخديعة . ومرارة الآلام التي نعيشها بعد قعقعة الانهيار والتكاشف. واستمرار الامتدادات الاخطبوطية لخواء ما قبل النكسة الى حاضر ما بعدها في بعضالبلدان العربية ... وكل تلك الملامح والظواهر التي تشكل خلفية اللوحة في هذه اللحظة الحضارية .. اقول بعد ان رصدنا هذه الظواهر العامة على عجل سنحاول ان نتعرف على الرسوم التي ابدعت فوق قماش هذه اللوحة العريضة الكابية .

(٢) عن الفن .. الدور والنتيجة :

من البداية سنلاحظ ان الاعمال الفنية التي كتبت بعد ايامحزيران الستة الدامية تنهض فوق هذه الخلفية الحضارية المليئة بالتوتر والتشويش . وقد انعكس هذا التوتر بصورة واضحة على تلك الاعمال الفنية لان الزمن لم يخلق خلال الشهور العشرين التي انقضت منذ النكسة حتى اليوم ، مسافة زمنية كافية لانضاج الرؤى واتضاح الابعاد . فنحن نعيش مرحلة الدهشة او الذهول . لم نفق بعد من دوار الصدمة حتى نستطيعانتمكن من استيعاب ابعادها . ولم تتوفر لنا الخبرة الكافية لتقديم اي ادب جيد . فالمعارك التي بدأت فجأة انتهت فجأة . ولم يكد الناس يبدأون في طلاء زجاج النوافذ باللون الازرق . وتشييد الحوائط الواقية امام واجهات الابنية ، وتكديس اكياس الرمل عند ابواب المتاجر . وتقنيع مصابيح السيارات باللون الازرق . وتجديد السوائل الكيماوية داخل اوعية الاطفاء الاسطوانية الحمراء . واصطحاب اجهزة « الترانزستور » الصغيرة معهم في المكاتب لمتابعة البيانات العسكرية والتعرف على تطورات المعارك ، حتى انتهت الحرب . ومن ثم لم تتوفر للفنان الخبرة الكافية القادرة على اثراء الوجدان القومي بتفاصيل المعركة ، ولم يتوفر لهم سوى تجربة واحدة الجوهر متنوعة التفاصيل ، وهي تجربة الهروب الكبير او الانسحاب المتخبط السريع .

ومع كل هذا الفقر المدقع في الخبرات والتجارب الانسانية فان الفنان قد وجد نفسه ازاء واقع مرعب بعد نهاية الايام الستة الدامية .. ازاء حقيقة لا تصدق .. ازاء حاضر يتمخض كل يوم عن تفاصيل تزيد المأساة عمقا وغورا .. تفاصيل ما تلبث ان تنعثر بشاعتها في طيات الخوف المتراكمة داخله ، فتفشل في التمخض عن عمل فني كبير .. وفوق كل هذا ازاء احتلال صهيوني جاثم على قلب الامة العربية ، ملتهم للبقية الباقية من الارض الفلسطينية ، مبتلع معها لاجزاء عزيزة وشاسعة من الارض المصرية الخصيبة بالمعادن والآبار ومن الارض السورية الحصينة .. ازاء هذا الواقع وجد الفنان نفسهمواجها بضرورة ان يقدم للقارىء الفهم والتحليل . وان يمنحه رؤيته الخاصة للمأساة مجسمة خلال الجزئيات الحسية للعمل الفني . ومن هنا وجد

الفنان نفسه ازاء مسئولياته في فترة من احرج فترات الامة العربية. فاذا كانت الكتابة عملا والتزاما – كما يقول ريجي دوبريه – « فان الكاتب مسئول عن تبرير وتمجيد حرب العصابات ، وعليه ان يقبل هذه المسئولية كامتياز » . وقد وجد الفنان العربي نفسه ازاء هذه المسئولية التي تحدث عنها دوبريه . مسئولية تبرير وتمجيد المقاومة التي اندلعت بعد الحرب لترتق اثواب الكرامة العربية التي تهلهلت على جبهة القتال مباشرة . ووجد نفسه ايضا أزاء مسئولية اخرى ، وهي ان يضيء للقارىء أحداث النكسة وان يبررها له ، وأن يكشف الاسباب الثاوية في اعماقها والتي ساهمت في صياغتها بهذه الصورة التي ظهرت عليها . وان يستقطب الغضب الاجوف ليعقلنه ويقوده في تلك الشعاب الزلقة المتعرجة . وبصورة مجملة ان يكون ضميرا صادقا لهذه اللحظة الحضارية المليئة بالغضب والتمزق . وازاء هذه المسئولية الكبيرة اخذ الفنان في كل بلد عربي على حدة ، يلقي مسئولية النكسة على عاتق بلاده وحدها .. وبدأ يفرز احساسا يقترب من الماسوشية في اعماله بصورة لم تتح للكثيرين ان يتعمقوا ابعاد القضية وان يقدموا فهما ناضجا لها . وقد ادت هذه الحالة الحادة من الاحساس بالاثم والرغبةفي تحقير الذات الى ارتفاع النغمة الذاتية عند تناول القضية العامة بصورة جنت على ملامح القضية ولم تسفر عن اعماقها . كما ادت الى تشتيت قوى الفنان في عدة مسارب جانبية ساهمت في تمييع رؤيته ، في الوقت الذي رغب فيه انتساهم في شموليتها . وان عكست هذه الحالة جملة نوعية التناقضاتالحادة التي يعيشها الفنان في هذه المرحلة الحرجة .

وتهدف هذه الدراسة الى ان تجيب على هذا السؤال الصعب.. هل استطاع الفنان بحق ان يكون ضميرا صادقا لهذه اللحظةالحضارية المليئة بالتوتر والتمزق والغضب ؟ .. وهل استطاعت اعماله انتتجاوز حدود التعبير عما يجيش في النفس القومية الى افاق الريادة الرحيبة فتعطي للفن دوره ومشروعيته ؟ .. وحتى نجيب على هذا السؤال الكبير علينا ان نطرح بداءةمجموعة من الاسئلة الجزئية الصغيرة .. هل استطاع الفنان العربي بعدما تغلغلت المأساة في وجدان الوطن العربي بصورة كبيرة بعد النكسة ، وبعدما انكشف القناع عن الوجه القبيح لكثير من الحقائق والقضايا ، وبعدما استفحل خطر الكابوس الصهيوني وانغرست في الاعماق انيابه القاسية ... هل استطاع الفنان العربي بعد كل هذا التغيير الجذري والكياني في شكل القضية العربية وفي جوهرها ان ينتج أدب مقاومة بحق ؟ .. ان يخلق النماذج والتجارب والشخصيات والاعمال الفنية القادرة على اثراء الوجدان العربي وعلى ايقاظ روح المقاومة الثانوية فيه ؟. وهل استطاع الفنان ان يمنح الانسان العربي شيئا يعادل البندقية بالنسبة للفدائي ويرافقها في الوقت نفسه ؟ .. هل استطاع الفن العربي بعد النكسة – والدراسة قاصرة هنا على الفنون التعبيرية التي تلجأ الى الكلمات – ان يصنع تيارا دفاقا من الاعمال الفنية يجتاح في طريقه السدود .. يجرف عشرات الاشياء الكئيبة والمعوقة والتي يزخر بها واقعنا العربي – تيارا دفاقا يجتاح ويطهر ويغير ؟! .

(٣) أبدا .. لم ينهزم الانسان

وهل استطاع الفن ان يؤكد تلك الحقيقة الاساسية الكبيرة،وهي ان الانسان العربي لم ينهزم ، لان الانسان العربي اذا ما انهزم فلا وسيلة لانتصاره ابدا . فالانسان لا يمكن ان ينهزم في اي مكان في العالم ، مهما كانت حدة الضغوط التي تقهره .. من الممكن – كما يقول همنجواي العظيم – سحق الانسان ، ولكن هزيمته غير ممكنة .. هل فطن احد الى هذه الحقيقة الكبيرة .. الى ان الانسان لم ينهزم ولكن ربما الذي انهزم حقيقة هو تلك العلاقات والمواضعات القديمة المبنية على املاء الارادة واصدار الاوامر وحل المشاكل بالكلام المعسول . وربما كان الذي انهزم ايضا هو العقلية التي كنا ننظر بها الى مشاكل الانسان العربي ، عقلية علاج العلل بالتعاويذ والصيغ المأخوذة من الكتب والشارات الديماغوجية والصياح والخطب والاناشيد وهز القبضات في الهواء واطلاق « الفشك » الفارغ على حد تعبير اخواننا السوريين (١) . وربما كان الذي انهزم حقا هو اغراق طاقات الناس في مسارب جانبية وامتصاص فعاليتهم خلال الاهتمام الجنوبي بمباريات الكرة وحفلات ام كلثوم الغنائية التي تدوم حتى ساعات الصباح الاولى، فيروج معها الخدر وتنتشر المخدرات . وربما كان الذي انهزم ايضا هو تخاذل المثقف العربي وعدم قدرته على الارتفاع الىمستوىالمسئولية الملقاة على عاتقه ، وصمته على ما يحدث للكلمات امام عينيه من مسخ ومتاجرة وتشويه ، ومن استيلاء العهر عليها وتوجيهه لمصيرها، وايثاره للسلامة ازاء كل هذه الاشياء المشرعة في وجهه . وربما كان الذي انهزم ايضا هو شهوة التسلط واسلوب الانقلابات المتتالية للوصول الى الحكم ، والمكابرة الكاذبة ، وتربية النماذج الانتهازية وتشجيعها . ربما كانت هذه في الواقع هي الاشياء التي انهزمت اما الانسانالعربي فانه لم ينهزم . لقد رفض الهزيمة عشية علمه بها .. بل لحظة مواجهته بها ذاتها .وخرج في ٩ يونيو وسط الظلام والغارات الجوية ليعلن رفضه للهزيمة وتمسكه بقيادة جمال عبد الناصر واصراره على تحقيق النصر ... فهل حاولت الاعمال الفنية ان تومىء بهذه الحقيقة العميقة لتحصد اليأس من النفوس وتضيء للقارىء الطريق وتكشف له اسباب الهزيمة ، وتضع اقدامه على الطريق الى تلافيها باذرة الامل في اعماقه . وهل استطاعت أن تعثر على جذور حالة اللامبالاة التي تمور في وجدان قطاع كبير من اناس الشارع العاديين – بعيد النكسة – وكأن الهزيمة ليست هزيمتهم ، وليست الحرب حربهم ؟! .

أو بمعنى آخر .. هل استطاع الفن أن يساهم في خلق شخصية عربية جديدة وان يجهز – باقتدار وجسارة – على تلك المواضعات الرهيبة التي ولدت في مباءتها اجنة النكسة منذ اعوام طويلة ، ثم نمت في سراديبها المعتمة بدأب حتى نخرت العظام ، ودب في نخاعها السوس ؟! . وهل استطاعالفن ان يمنح الانسان العربي عيونا جديدة يرى بها واقعه ... عيون لا تستسلم ولا تبكي ولا تتخاذل ، لا تندم ولا تتأسى ولا تقتات بسراب الحلم ... ولكن عيونا مشرعة الىالمستقبل راغبة في اجتياز عثرات واقعها المرير قادرة على تغييره ؟ . وبصورة اخرى .. هل استطاع هذاالادب ان يجتاز مفازة المقاومة السلبيةالتي ظلت الطابع الغالب على ادب المقاومة منذ عشرين عاما الى رحابة المقاومة الايجابية التي تفهم الواقع بوعي لترفضه ثم تتجاوزه وتغيره؟. وهل ادرك سقم التأسي على بيارات البرتقال الضائعة ، وتعلم من اسلوب (العلمنة) في التعامل مع المأساة الطريق . هل استطاع الفنان ان يرتفع الى مستوى مقاتلي (فتح) البواسل ، وان يقدم للقضية ما قدمه لها ذلك الطفل العظيم المدهشالذي أنجبته (الجبهة الشعبية) والذي اهتزت له قلوب العالم عندما وقع في الاسر (جواد انور البشيتي) .. ذلك الطفل الذي فجر النيران مع زميله الشهيد (رياض جابر) في ردهات فندق وندسور بالقدس حيث مقر الحاكم الاسرائيلي ، وفي مبنى جريدة (معاريف) الاسرائيلية ، وفي مستودعات الوقود بمحطة البقعة وفيمحطة البنزين قرب بوابة (ماندلبوم) وفي غير ذلك من العمليات الشجاعة الرائعة ... هل يستطيع ادباء مصر الذين يمضغون كسلهم وتحللهم في المقاهي الفاخرة ، ويتشدقونبالفاظ طنانة عن الكرامة والحرب ، ويسخرون من الكلمة بالكلمة .. هل يستطيع هؤلاء – وانا اعرف ادباء القاهرة جيدا ، ولا ادري هل حالهم تلك هي حال ادباءبقية بلدان امتنا المكلومة – ان يقدموا شيئا يرتفع الى مستوى بطولة هذا الطفلالمعجز الذي لما يتجاوز بعد عامه الثالث عشر ؟ .. هل يستطيع هؤلاء ان يقدموا شيئا عن المقاومة ؟! .

ان ادب المقاومة لا يتوهج الا في قلب المقاومة . عندما يكتب

---

(١) راجع دراسة غائب طعمة فرمان ، مفهوم ادب المعركة ، الاداب نوفمبر ١٩٦٨ .

الكاتب بحد السونكي بدلا من سن القلم . وحينما ينصت لدمدمات الرصاص ، بدلا من حوريات الفن الغارقات في اللذة القابعات وسط دنان الخمر وكؤوس الشراب . ان ادب المقاومة العظيم الذي انجبته حركة المقاومة الفرنسية و (منشورات منتصف الليل) الباهرة، والذي تفجر به شعر اراجون وايلوار وقصص جونكور وسارتر ابان الاحتلال النازي لفرنسا ، لم يتوهج الى هذا الحد ، ولم تتحول فيه الكلمات الى شظايا ، الا لان المحارب عانق الفنان في وجدان الكاتب . والا لان الفنان خاض الى جانب المقاتل بالبندقية قبل القلم معارك النضال . وكتب مسودات قصائده جوالات في المتاريس ، وخطط لقصصه داخل الخنادق وخلال لحظات الترقب في عمليات الليل الخاطفة . فأين هذا من شعر ماضغي الكسل والتحلل على مناضد المقاهي . ومن ثرثرات المدعين في الندوات الخالية من الجمهور . فهناك فارق كبير بين الذي يكتب عن المقاومة وبين الذي يعيشها ... بين الذي يتصورها وبين من تنضج كلماته على نيرانها .. وانا هنا لا اطالب بأن يظهر ادب يستوعب النكسة ويعبر عن شتى ابعادها . لانني اعرف ان الشهور العشرين التي انقضت منذ وقوعها ليست بالفترة الزمنية الكافية لانضاجها وخلق تعبير فني جيد عنها . هذا فضلا عن اكتظاظ هذه الشهور العشرين بالانفعالات الجامحة والتوترات المتوفزة ... ولكن الذي اطلبه وابحث عنه ، هو ان يظهر اثر هذه الهزيمة الدامية على الادب واضحا في شكل انعطافة حقيقية في مسيرة ادب النكبة. تقترب بهذا الادب من ان يصبح نفسه فعل مقاومة . وان يجتاز مرحلة التعبير عن المأساة ثم مرحلة رفض واقعها الراهن معا . وان يصبح هذا الادب فعل ثورة ومقاومة وتحفز ، يعني في الوقت نفسه ان يساهم في المقاومة المسلحة وان يخلق حولها وبها ، اثارا تستدعي الى كتائب المقاومة المزيد من العزم والقتال والتصميم .

وحتى نتلمس الاجابة على هذه الاسئلة العديدة علينا ان نتناول الادب الذي انجبته البلدان العربية بعد النكسة ، لنرى هل استطاع ان ينهض بالمسؤولية الفادحة الملقاة على عاتقه ام لا ؟ .. وحتى نستطيع تناول كل هذا الادب الوفير برغم القصر النسبي للفترة الزمنية التي ابدع فيها دونما تسرع او عمومية ، فاننا سنجزىء هذا الادب الى عدة اقسام رئيسية . اولها الشعر الذي كتب في الارض المحتلة . وثانيها الشعر الذي كتب في بقية البلدان العربية الاخرى . وثالثها عن القصة القصيرة في الارض المحتلة وفي البلدان العربية الاخرى . ومن الممكن ان يأتي قسم رابع عن المسرحية اذا ما توفرت النصوص القادرة على فرض مثل هذا القسم على مخطط هذه الدراسة .

(٤) الشعر في الارض المحتلة .. لماذا ؟

ولنبدأ بادب المقاومة داخل فلسطين المحتلة ، وبادب المقاومة داخل فلسطين المحتلة بالذات . لان هذا الادب وحده هو الذي يستطيع ان يجيب على كل هذه الاسئلة التي طرحناها بنعم .. وبنعم كبيرة معتزة بذاتها مستريحة لاضطلاعها بدورها . ولان الفنان في الارض المحتلة يعيش اكثر من مأساة واحدة . يعيش المأساة العامة التي يعيشها الفنان العربي خارج الارض المحتلة بصورة مضاعفة . ففلسطين التي ضاعت بالنسبة لهذا الاخير مرة ، تضيع تحت سمع فنان الارض المحتلة وبصره في اليوم الف مرة. تضيع في كل خطوة يخطوها وفي كل نسمة هواء يستنشقها .. وهو يعيش فوق ذلك تلك المأساة الضارية التي اعقبت المواجهة المريرة في ايام حزيران الستة الدامية . مأساة الانهيار الرهيب لقصور الاماني وانسحاق اشعة الامل ، وتناءي الخلاص الذي ترقبه بتوق وشغف منذ عشرين عاما . وهو يعيش مأساة الاضطهاد اليومي للعرب الباقين في الارض المحتلة . ويسمع كل يوم ويعيش احداث الابادة المنظمة للشخصية العربية للكيان العربي وللكرامة العربية وللمقاومة العربية . انه يعيش المأساة بصورة مضاعفة . لانه يعيش في قلبها المتوهج بالحقد والحزن والاسى .. بالغيظ والثأر والمقاومة . بالجراح الدامية وبالاحداث المهلكة ومجازر الابادة الوحشية في دير ياسين وفي كفرقاسم . ومن ثم فان القضايا الرئيسية التي يطرحها شعر فنان الارض المحتلة تختلف عن كل القضايا التي تناولها الشعراء الفلسطينيون في المنفى او الشعراء العرب في البلدان المحيطة. وكذلك تختلف الاساليب التعبيرية التي يغني بها شاعر الارض المحتلة هذه القضايا .

وحينما نبدأ بهذا الادب فانه ينبغي علينا بداءة ان نعرف ان كتابة هذا الادب الفلسطيني داخل فلسطين المحتلة ، تمنحه مذاقا خاصا وطعما فريدا . تصبح فيه للكلمات العادية التي يستطيع اي شاعر في اي بلد عربي ان ينحيها جانبا لانها شيء بديهي ، يمسح القارىء ان يسمعه .. يصبح لمثل هذه الكلمات العادية والمألوفة رنين خاص . ان كلمة (انا عربي) التي يستطيع اي انسان ان يعثر عليها ملقاة على قارعة الطريق في أي بلد عربي تكتسب في الارض المحتلة سحرا خاصا .. يصبح لها شرف الشجاعة ولمعة المخاطرة ، ومن ثم يتغنى بها الشاعر ، والشاعر في الارض المحتلة فارس يتيه بعروبته خيلاء .

سجل !.. انا عربي
وكفي صلبه كالصخر
تخمس من يلامسها
وأطيب ما أحب من الطعام
الزيت والزعتر
سجل : أنا عربي
فهل تغضب (٢)

ان هذه الكلمة العادية : أنا عربي ، تتوهج هنا في قصيدة محمود درويش بوهج الشعر ونيران المقاومة ، لانها تقال وسط مناخ تتعاظم فيه كراهية العرب . وتصبح فيه كلمة (انا عربي) هذه الكلمة البسيطة التي تقال دونما معاناة في بقية البلدان العربية ، شيئا كالفدائية وجريمة تعادل في بشاعتها القاء قنبلة وسط دار خاصة بالاسرائيليين. ومن هنا تكتسب الاشياء العادية طعم البطولة ، فما بالك بالاشياء الشجاعة والخارقة ، وقد قدم شعراء الارض المحتلة منها الكثير ؟

وشعراء الارض المحتلة كثيرون بصورة واضحة ومتفردو المواهب والاصوات . ينتمون الى اجيال عديدة تبدأ بجيل راشد حسين الذي تجاوز الخمسين وتمتد الى ما بعد جيل محمود درويش الذي لم يبلغ الثلاثين بعد ، مارة بعصام العباسي وحنا ابو حنا وتوفيق زياد وسميح القاسم وحبيب قهوجي وسالم جبران وفوزي عبد الله ومحمود دسوقي وفوزي الاسمر وتوفيق فياض وفهد ابو خضرة واحمد حسين وعطا الله

(٢) محمود درويش ، من قصيدته (بطاقة هوية) من ديوان (عاشق من فلسطين) .



منصور وابراهيم مؤيد وزكي سليم درويش وجمال قعوار وابـــو اياس وطارق عون الله واحمد يونس وهايل عاقلة ويعقوب حجازي وفتحـي قاسم ونايف سليم ومعمر حمودة الزغبي .. وغيرهم كثير من الشعراء الذين لم تخترق اصواتهم الاسوار بعد ، لتصل الينا والـــى العالم خارج الحدود الاسرائيلية .. والى خضم تيار هؤلاء الشعراء الدافق ، انضمت الشاعرة العربية الكبيرة فدوى طوقان ، بعد ان رفضت النزوح عن نابلس عقب النكسة ، وانصهرت فـي بوتقة المأساة ، وتألقت كماسة حرة وكبيرة واصيلة . فهجرت الصوت الرومانسي الحالم الذي وشح اغنياتها القديمة برداء من الغناء الانفعالي الاسيان ، وبتشوف رفـاف الى الانغماس في الحب والتدله في الهوى والهجر والعذاب . خـلال دواوينها الثلاثة القديمة (وحدي مع الايام) و (وجدتها) و (اعطنـا حبـا) .. وانطلق لها من عمق الجراح صوت جديـد قـوي نشوان يستطيع ان يغني من خلال المأساة للارض والحب والانسان والبطولة .

والحقيقة ان شعراء الارض المحتلة هؤلاء وهم يغنون وسط دوامـة الجراح الدامية الحارقة لاشراقة الامل الوليدة . ويفجرون أجنة الفـرح في قلب الحزن والاسى . يوقظون الانسان العربي والفنان العربي معا . وينبهون الى الوسيلة التي يستطيع فيها الشعر ان يكون سلاحا يحارب وسكينا تمزق ..

نتعلم منكم منذ سنين
نحن الشعراء المهزومين
نحن الغرباء عن التاريخ وعن احزان المحزونين
نتعلم كيف الحرف يكون له
شكل السكين (٣)

فالشعر الحقيقي لا يتألق الا عندما تعانق حروفـه معاناة الانسان وبطولة الانسان .. وفي شعر الارض المحتلة الذي تتألق فيـه الجراح والبطولات معا . استطاع الشعر ان يجتاز مرحلة التعبير عـن القضايا الى مرحلة المشاركة فيها .. استطاع أن يكون زهرة من دم تتألق وسط الجمر لتوقد الهمم وتوقظ القبور القديمة ، فتنهض ثائرة وسائرة علـى قدميها .. او بمعنى ادق استطاع ان يكون شعرا بحق ..

شعراء الارض المحتلة
يا أجمل طير يأتينا من ليل الاسر
يا حزنا شفاف العينين ، نقيا مثل صلاة الفجر
يا شجر الورد النابت من احشاء الجمر
يا مطرا يسقط .. رغم الظلم ورغم القهر
نتعلم منكم كيف نغني من اعماق البئر
نتعلم كيف يسير على قدميه القبر
نتعلم كيف يكون الشعر (٤)

وقبل ان نتناول القضايا الاساسية والمشتركة التي يلـح عليهـا شعراء الارض المحتلة ، علينا ان نتعرف على رؤية هؤلاء الشعراء . وعلى التحولات التي طرأت على شعرهم فهما واسلوبا عقب الايــام الستة الدامية من شهر حزيران .

(٥) حزيران .. أو عندما سقطت الاقنعة

لا شك ان الهزيمة الدامية التي مني بها العرب في حزيران كانت مفاجأة للجميع ، صفعة قاسية في اللحظة التي كنـــا ننتظر فيهـا القبلات . لكن وقع هذه الهزيمة القاسي لم يكن مدمرا علــى نفوس شعراء الارض المحتلة كما توقع الكثيرون . ولم يوقعهم في براثن اليأس او يغرقهم في متاهات العدمية وسراديبها . صحيح ان شاعـر الارض المحتلة شاهد من جديد تكرار المأساة التي لم تع طفولة تفاصيلها الكاملة ، ورأى كارثة جديدة تحيق بشعبه .. بشعب المأساة .. كارثة جديـدة بما يعقبها من مشردين جدد ولاجئين جدد ومن احتلال وقمـع ومظالم . لكنه لم يندب حظه بعد هذه الكارثة الجديدة ولـم يستسلم لليأس عقبها . فقد أدرك أن هذه النكبة الجديدة ليست فـي الواقع سوى تكاثف الحلكة في (اخر الليل) (٥) بصورة تنبىء عـن اقتراب الفجر . وانها (دخان البراكين) (٦) الاسود الكثيف يندلع قبل تفجر الحمـم الذي يقتحم ويكتسح ويغير . وانه برغم كل هذه الظلمة المتكاثفة علـى (موعد مع المطر) (٧) ومع الفجر ومع العطاء. فالشاعر الحق يستفيد من المأساة ولا ينتكس معها . ولذلك فهو موقن من ان عنف الهزيمة لم يكن شرا كله . لانه فتح له ابواب المراجعة على مصاريعها . مراجعة الافكـار القديمة والاحلام القديمة والابطال القديمة والثقات القديمة .. مراجعة كل شيء بعدما سقطت جميع الاقنعة وانزاحت معها عن عيني الفلسطيني الغشـاوة .

سقطت جميع الاقنعه
سقطت فاما رايتي تبقى وكأسي المترعة
او جثتي والزوبعة
سقطت قشور الماس عن عينيك
يا رجلا يصول بلا رجولة
يا سائقا للموت أحلام القبيلة
سقطت تماثيل الرخام
سقطت دموعك يا تماسيح التواريخ الطويلة (٨)

لقد سقطت الغشاوة عن عينيه . وادرك ان هؤلاء الذين منحهـم طوال عشرين عاما ثقته ، وعلق عليهم أحلامـــه ، ليسوا سوى تماثيل رخامية جوفاء . وان هؤلاء الذين كانوا يتباكون على القضية ويذرفون على ضحاياها دموعهم ليسوا سوى تماسيح كاذبـة تتعمد المتاجـرة بالقضية ولا تخلص لها . وان القضية اخذت بعد هذا السقوط المروع وضعا جديدا اصبحت معه قضية حياة او موت . ومن ثـم لـم تعد للاغنيات الحزينة ولا للاساطير الذليلة قيمة فقد سقطت هـي الاخرى خلال تلك القعقعة المدمرة الكبيرة ..

سقطت اغانيك الحزينة والاساطير الذليلة
يا حالما بالارض خادمة مطيعة
تعطيك من اختامها ما شئت
تكريسا لشهوتك الوضيعة
سقطت ممزقة على درب الرياح الاربعة
سقطت ... جميع ... الاقنعة (٩)

جميعها دون استثناء .. حتى الاقنعة المحكمة البناء التي تخفـي العدو وراء صلابتها لاعوام طويلة ، فأقنع العالم بأنه مجرد حمل وديـع قوامه مليونا صهيوني عاشوا الشقـاء والشتات والاضطهـاد النازي المرعب . ويبحثون لانفسهم عن مكان يعيشون فيه بسلام . لكن العرب يضنون عليهم بهذا الحق « الانساني » البسيط .. حتى هذه الاسطورة الزائفة التي اقنعت بها اسرائيل الرأي العام العالمي . سقطت هـي الاخرى وسط قعقعة الانهيار الكبير .

وتظل تصرخ :

« يا ضمير الناس من يحمي من العرب الرعاع
بيت الحزانى العائدين من الضياع ..
وتشد نابك في ذراعي
وأنا أشيد سدي العالي .. وأحلم
بالمدارس .. والمصانع .. والمراعي

---

(٣) ، (٤) من قصيدة نزار قباني (الـــى شعراء الارض المحتلة) الآداب ، ابريل ١٩٦٨ .

(٥) عنوان ديوان محمود درويش الاخير .
(٦) عنوان ديوان سميح القاسم قبل الاخير .
(٧) عنوان ديوان فوزي عبد الله الاخير .
(٨) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة) منشـورات دار الآداب .
(٩) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة) .

يا من تخاف من المدارس والمصانع والمراعي
من حفنة القمح المبلل بالدموع وبالدماء
للكادحين من الصباح الى المساء
للثائرين من الجياع (١٠)

هكذا مزقت النكسة الاقنعة عن كـل شيء ، فانكشفت الحقيقة ، وتعرت التماثيل الرخامية الجوفاء . وتهتكت الدعايات المضللة لاسطورة الحمل الوديع العائد من صحراوات الضياع ليريح بجوار حائط المبكى همومه . تهتكت هذه الاكذوبـة وانكشف وجـه اسرائيل الاستعماري البغيض . وماتت جميع الاكاذيب الواهية التي تعلق الفلسطيني بهـا ، وركن اليها صامتا ، تاركا قضيته في أيدي الحكام العـرب . واسفرت الوعود الدولية والضمير الدولي عن طابعها السرابي الخادع . وتيقن الفلسطيني من ان المحافل الدولية لا تملك لقضيته حـلا . وان زمامها الوحيد بيده هو . لانه يصارع عدوا ضاريا لا يأبه بالضمير العالمي ولا بالقرارات الدولية .. ومن ثم فانه يصرخ في وجه مجلس الامن هازئـا بعدما انزاحت عن عينيه الغشاوة ..

ناديت من عشرين عام
يا مجلس الامن الموقر ــ آه ــ !!
من عشرين عـام .
واليوم عبر صواعق متربصات بالسلام
صوتي يجيئك بالبريد
من غابة الدم والحرائق والمرارة والخيام
صوتي يجيئك زهرة حمراء في العام الجديد
من يأتي قاتلا ..!
يرتد عن بابي قتيلا !! (١١)

انه يرفض الوعود الدولية الخادعة . ويدرك أن عليه هو وحده ان يمسك بزمام قضيته وان يصنع مصيرها . ومن هـذا الادراك الجديد الواضح كشمس يوليو ، القاسي مثلها ، يولد الفلسطيني مـن جديد . يولد فلسطيني آخر غير ذلك الذي عرفته بطاقات الصليب الاحمـر وقوائم وكالة الغوث وساحات المخيمات فـي غـزة ووادي الاردن . فلسطيني ولد وسط بوتقة النكسة وانصهر في اتونها . فرفض كـل الاساطير القديمة والاغنيات القديمة . فلسطيني لا يمد يـده ليشحذ ولكن ليطعن ويحارب ويقاتل . فلسطيني ولد غداة الخامس من شهـر حزيران ...

ضربة البرق التي تنقض في عرض الطريق
تغمر العابر بالضوء ولو كان حريق
يذكر القارىء ، او لا يذكر القارىء
لكني ، لكي يفهم كل الناس ما قلت
أعيـد :
نحن في الخامس من شهر حزيران
ولدنا من جديد .. (١٢)

ومع هذه الولادة الجديدة اقبل واقع جديد . عالم جديد غير عالم الاحلام والامنيات القديمة . عالم يصرع هـذه الجثث القديمة وينهض شامخا فوقها . لا يتأسى على موتها بل يستمد منه الاصرار والصلابة . فهذا الواقع الجديد ليس امتدادا جديدا للقديم ولكنه نقيض له . انه الجديد الذي يولد فوق جثة القديم ، ينمو منها وضدها معا . لذلـك تموت كل الاساطير القديمة والتمنيات القديمة .. لكـن موت هـذه الاساطير لم يجرف الشاعر معه . لانه يرفض الموت حتى بعدما انهارت الاحلام القديمة الوضيئة ...

وليكـن ...
لا بد لي أن ارفض الموت ،
وان كانت اساطيري تموت
انني أبحث في الانقاض عن ضوء
وعن شعر جديد (١٣)

لا بد له اذن أن يرفض الموت وان يبحث وسط الانقاض عن ميلاد جديد ، وعن منطلق جديد لقضيته . خاصة وقد تكشفت النكسة عـن واقع مغاير تمام المغايرة لذلك الذي عاشته المأساة الفلسطينية قبلها .. اول جزئيات هذه المغايرة ان كل الارض الفلسطينية قد وقعت في الاسر .. بجبالها وصحاريها ووديانها الخصيبة ..

أترى الى كل الجبال
وكل بيارات أهلي
كيف صارت كلها
صارت أسيـرة
وأنا كبرت .. كبرت
يا حبي القديم مع الجدار (١٤)

واتساع رقعة الارض الاسيرة يعني لدى الفلسطيني ازدياد عمـق المقاومة واتساع رقعتها . فالشاعر لم يتغير مـع تفاقم المأساة بالصورة التي كانت تداعب احلام عدوه . ولكنه ازداد معها تمسكا بموقفه واصرارا عليه . لم يستسلم لليأس بل مضى مع التفاؤل حتى منتهاه ..

ــ هل تغيرت كثيرا ؟
ــ مـا تغيرت كثيرا ..
عندما نرجع ، كالريح ، الى منزلنا
حدقي في جبهتي
تجدي الورد نخيلا
والينابيع عـرق
تجديني ، مثلما كنت
صغيرا وجميلا (١٥)

وهذا التفاؤل الذي يعيشه الشاعر ليس تفاؤلا ساذجا . ولكنـه تفاؤل ثوري يولد وسط المأساة ويتلمس وسط حلكتهـا السادرة خيوط النور . تفاؤل يدرك فداحة المأساة التي تعيشها القضية الفلسطينية بعد النكسة ، ولكنه لا يستسلم لليأس ولا يضخم الهزيمة . تفاؤل يدرك دور الفن في ان يكشف ويعري ويأسو الجراح معـا .. وان يأخذ بالايدي ويستنهض الهمم ..

أصمدي .. لا تضعفي .. يا أبنة عمي
هذه الارض التي تحصدها نار الجريمة
والتي تنكمش اليوم بحزن وسكوت
هذه الارض سيبقى
قلبها المغدور حيا لا يموت (١٦

تفاؤل يدرك ان الهزيمة شيء والموت شيء آخر . وان الذي انهزم حقا شيء غير قلب هذه الارض وانسان هذه الارض الـذي تحمل آلاف الرزايا بجلد وصلابة . والذي تضرب جذوره في أعماقها وتمتد الـى اغوار أغوارها . فاذا ما انثنى جذعه امـام ريح عاتية ، فليس معنـى هذا انه قد انكسر او هوى .. ان شجرة الانسان .. شجرة الحياة فوق هذه الارض ، لن تهوى ولن تتحطم . انها انثنت فقـط ، وسوف تنهض ثانية من جديد ...

ستقوم الشجرة

---

(١٠) و (١١) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة) .

(١٢) من قصيدة سميح القاسم (حدث في الخامس من حزيران) من ديوان « سقوط الاقنعة » .

(١٣) من قصيدة محمود درويش (الورود والقاموس) مـن ديوان (آخر الليل) .

(١٤) من قصيدة محمود درويش (كبـر الاسير) مـن ديـوان (آخر الليل) .

(١٥) من قصيدة محمود درويش (مقاطع) نشرت بمجلة (الطريق) البيروتية ، اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(١٦) من قصيدة فدوى طوقان (حمزة) نشرت بمجلـة (الآداب) نوفمبر ١٩٦٨ .

ستقوم الشجرة والاغصان
ستنمو في الشمس وتخضر
وستورق ضحكات الشجرة
في وجه الشمس
وسيأتي الطير ..

لا بد سيأتي الطير ، سيأتي الطير ، سيأتي الطير (١٧)

نعم .. ستقوم الشجرة من جديد لان جذورها تلغ في دم مئات الابطال والضحايا . وستأتي الطيور .. رمز الحياة والسلام والهناء . والشاعر يعرف ان قيام الشجرة ومجيء الطيور ليسا بالشيء اليسير. انهما مطلب صعب يستنزف تحقيقه المزيد من الدماء والمزيد من التضحيات . خاصة وان الدرب الجديد الذي دفعت اليه القضية دفعا بعد النكسة بدل الكثير من الرؤى والمعايير . واعاد طرح عشرات الافكار القديمة ومراجعتها من جديد . ومن أهم الافكار التي اعيدت مراجعتها فكرتا الثأر والعودة .

(٦) الحياة .. وليس مجرد الثأر

بدأ الشاعر يرفض فكرة الثأر القديمة التي حوصرت القضية في اطارها الضيق لسنوات عديدة .. فالظروف الجديدة نفسها هي التي دفعت القضية الى اجتياز هذه الفكرة المحدودة . فلم تعد القضية قضية ثأر يستطيع معها الانسان ان يعيش مجرد حياته البسيطة ذاتها ، سواء اثأر لنفسه أم لم يثأر لها . ولكنها أصبحت قضية الحياة ذاتها بتفاصيلها المتناهية الصغر .. قضية ان يكون الفلسطيني هنا والآن ، او لا يكون على الاطلاق ، بل لقد تجاوزت التحديات كل هذا ، واصبحت القضية ليست في أن يكون الفلسطيني او لا يكون فحسب ، بل ان يكون العرب او لا يكونوا . لقد تعرضت كينونتهم ذاتها للخطر ، بعدما اثبت الوحش الصهيوني ان اطماعه التوسعية لا تعرف الحدود . وان تلك العبارة المبتذلة التي تتصدر واجهة الكنيسيت الاسرائيلي « من النيل الى الفرات » ليست مجرد عبارة دعائية ، او شعار للاستهلاك المحلي .. هكذا بعد ما فاق تبجح العدو الصهيوني كل مدى، بعد هذه المكاشفة الكبيرة المريرة اخذت القضية الفلسطينية هذا الوضع الجديد الذي أصبحت معه قضية حياة او موت .. قضية الحياة ذاتها ...

يوم رأينا الموت والخيانة
تراجع المد واغلقت نوافذ السماء
وأمسكت انفاسها المدينة
يوم انحسار الموج ، يوم أسلمت
بشاعة الهوى الى الضياء وجهها
ترمد الرجاء
واختنقت بغصة البلاء
مدينتي الحزينة
اختفت الاطفال والاغاني
لا ظل ، لا صدى
والحزن في مدينتي يدب عاريا
والصمت في مدينتي مهيمن
مخضب الخطى
الصمت كالجبال رابض
كالليل غامض
الصمت فاجع محمل
بوطأة الموت وبالهزيمة

(١٧) من قصيدة فدوى طوقان (كلمات الى وطني) نشرت بمجلة (الآداب) سبتمبر ١٩٦٧ .

أواه يا مدينتي الصامدة الحزينة (١٨)

هكذا تعني هزيمة العربي موته ، موته المادي والمعنوي معا . تعني القضاء على ضحكات الاطفال والاجهاز على كل مظاهر الحياة التي يعيشها ، على كل جزئياتها المتناهية الصغر على الاغنيات البسيطة والضحكات المجلجلة البريئة وكل ما تحمله الكلمات في حروفها من حياة .. فالمحتل لا يكتفي باضطهاد العربي والاستيلاء على ارضه ، ولكنه يريد ان يستولي على حياته ، ان يجهز على القدرات الثاوية في اعماقه ..

كان في ودي ان أسمعكم
قصة عن عندليب ميت
كان في ودي ان أسمعكم
قصة ..
لو لم يقصوا شفتي (١٩)

ان يقص شفتيه ، رمز الحياة الاكبر في جسد الفلسطيني ، فلا يهمه ان ينبض قلب الفلسطيني او يتوقف عن النبض ، وانما الذي يهم المحتل هو أن تخرس الشفتان فلا تتكلما أبدا . لان في هذا الموت المعنوي للفلسطيني بداية الموت الحقيقي له . ومن ثم يتمرد الفلسطيني على هذا الموت ويحس بالصمت ثقيلا ورابضا كالجبال وغامضا كالليل ، صمت بليد ينشر الحزن ويقضي على الاغنيات وعلى الانفعالات البسيطة ذاتها لانه صمت الهزيمة . صمت المقهور وهو يستجمع قوته لينفجر ويدمدم بالغضب والثورة .. في ظل هذا الصمت الجنائزي لا يستطيع الفلسطيني ان يمارس طقوس حياته ، لا يستطيع حتى ان يحب لان مدينته الحزينة الصامتة محملة بوطأة الموت وبالهزيمة .

لو ان الافاعي الهوالك ليست
تعربد في كل درب
وتحفر قبرا لاهلي وشعبي
وتزرع موتا ونار
لو ان الهزيمة لا تمطر الآن ارض بلادي
حجارة خزي وعار
لكنت الى جنبك الآن
عند شواطىء حبك أرسي

ـ التتمة على الصفحة ٩٢ ـ

(١٨) من قصيدة فدوى طوقان (كلمات الى وطني) نشرت في (الآداب) سبتمبر ١٩٦٧ .

(١٩) من قصيدة سميح القاسم (الشفة المقصوصة) نشرت في مجلة (الطريق) اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

يوم غير عادي في حياة موظف عادي

١ ــ مع الجريدة اليومية .

أقرأ في جريدة الصباح
أخبارهم
في القدس ، في فيتنام ، في المكسيك
جراحهم وموتهم
« حقيقة التاريخ هم بلا جدال » .
أقرأ أيضا صفحة الاموات والمودات
وأقرأ البخت
وأشرب القهوة مسرعا
من قبل أن يسرقني الوقت .

٢ ــ مع صورة شهيد .

صورته فوق زجاج الباص
في التاسعة من العمر
مـــات
وفي يده مستقبله الخاص

نسف الجسر .
نظرته تفضحني
تشير لي ، تدينني ، تجرحني
نظرته تخجلني .

فأرفع ياقة المعطف
ويسقط وجهي المرهق
وأنزل سائرا وحدي
بدون هدف
فيبلعني ضجيج الشارع الاجوف .

٣ ــ مـع نفســه .

حلمت بأني رأيت الفضاء عيونه
رأيت الرمــال عيونه
رأيت بأني أموت وحيدا
وتأكلني في السرير السحالى .

القاهــرة — **يسرى خميس**

الليل والرجال

قصة بقلم وليد حاج عبد

تحدث الليل بصوت خفيض سمعته الدماء في العروق فقال : « خذوا حذركم » فتحسس الاشباح الثلاثة السلاح ، وكان باردا كالصمت الذي يوغلون فيه قدما منذ ثلاث ساعات . ونظر حميد خلفه فانطفأ ضوء قرية النخيلة ✶ فعلم أن الساعة الثانية عشرة . فهذا الضوء يطفأ عادة في هذا الوقت . وارتسمت على سفح الجبل القائم قبالتهم ظلال قرمزية باهتة رمت بها انوار مستعمرة هونين (٢) .

ورمق حميد المكان بنظرة متفحصة هادئة ... كان المكان غارقا في ظلمة كثيفة فحث خطاه مع زميليه . كان رباح يمشي أمامه ، أما علي فعلى اربع خطوات منه الى جهة اليمين . وقد سمع انفاسهما تتردد ببطء وحزم تحت الثقل الذي تنوء به اكتافهما . وحدث نفسه :

« عما قريب يستريحان ويضعان ما يحملان وعندها سيتفجر هذا الصمت وسيستحيل الليل الى نهار ويمتلىء الجو بالرصاص والموت والجنون . »

وتابعت الاقدام السير بينما تنفس جوف الارض في هذه اللحظات عن هدير خيل اليه أنه تجاوبت اصداؤه في كل مكان . وتحول الرجال الى آذان وحمل الليل الاصوات بوضوح .

همس رباح من المقدمة « لقد مرت الى الامام » وتابع الرجال السير بعد ان اختفى كل أثر للعربة المجنزرة التي مرت غير بعيد عنهم . وعاد السكون وهبت نسمة حركت الاعشاب الجافة وحملت لاذنيه اصوات الكثير من مخلوقات الارض الصغيرة السابحة في الظلمة والعشب . وحدث نفسه : « الرجال وحيدون في هذا الليل القطبي.. ان لليل بعدا وهم يتيهون الآن في ذلك البعد . » ولكن ما بال علي الى يمينه قد اطبق فكيه بمثل هذه الشدة والعنف ؟ ايكون خائفا أم تراه يستشعر البرد ، ام هو وحيد هو الاخر في هذا الليل ؟ ولكن الارجح انه يحاول العثور على نجم يهديه سواء السبيل في هذا الخواء الهائل

وهمس : « علي » .

وسمعه يجيب : نعم ما بالك ؟

ـ هل تشكو شيئا يا علي ؟

ـ مثل ماذا ؟ او ماذا تظن بالاحرى ؟

ـ هل تشعر بقليل من الخوف والوحدة ؟

ـ ربما ولكن ليس كثيرا وباستطاعتي فيما احسب ان اقضي عليه عند اللزوم .

ـ حسنا . اسأل رباح كم بقي لنا للوصول للهدف ؟

وتحدث الشيخ السائر في المقدمة بصوت يشوبه الحذر والانذار:

ـ لم يبق الكثير ، حوالي نصف ساعة من السير . كونا على حذر . يبدو أن المكان تجوبه دوريات مستمرة للعدو .

وعاد رباح الى الصمت وهو يسير في المقدمة بخطوات واسعة يتبعها زميلاه بينما تساءل حميد في داخله : « ما بال هذا الليل اسمك من جدار ؟! » لكأن ليل العالم بأسره قد تجمع في هذا المكان ، واستحال الى شيء عاقل يعاكسه . واحس انه يكرهه ويمقته ... مرة ارسلته أمه لشراء حاجة . كانت الدنيا ليلا ... (كان صغيرا آنذاك)، وبينما هو سائر مر من امام دار يقام بها حفل عرس ، وصادف مروره لحظة دخول العريس ، ورأى بأعين مفتوحة ثلاثة من الخراف تذبح ويسيل دمها على الارض غزيرا .. أحمر .. قانيا . وأثناء عودته للبيت بدا لعينيه الليل شاسعا وصورة الخراف المظلومة المسكينة تلازمه وهي ترتعد والدم يتفجر منها ... لكم بدا الليل كثيفا جدا في عينيه . ومثل هذه الليلة ليلة عاد المجاهدون بوالده شهيدا الى قرية الطيرة والتهليل تضج به حناجر الرجال ووجه والده المضرج بالدم وسنوات وسنوات من حياته هو تضرجت بالبؤس والدم والجوع ... وزفر .. وليالي كانون الاول ، اجل هي الاخرى كم يذكر ظلامها الكثيف والصغير يرتعد أمام مداخل دور السينما في دمشق ليبيع ما يحمله من قطع الكاتو أو الكعك ، والمزاريب في الشوارع الخاوية يتعالى نشيجها ... لشد ما تاق الى دفء البيت والفراش ووالدته في تلك الليالي ، الا ان جثة ابيه القتيل والدم الذي ضرج وجهه وظلام تلك الليلة السميك كالجدار يسمره في مكانه حتى يخرج رواد دور السينما ... ان ساعده الضعيف اشتد وان فرخ الصقر قد طار واشتعلت في صدره النار . وهتف رباح :

ـ احترس . الهدف امامكم .

ـ أجل .

وابصر المعسكر المعادي على مسافة مائة الى مائة وخمسين مترا.. كانت تحجبه عنهم تلة صغيرة وقد انكشف الان عندما اصبحوا في اسفل التلة من الجهة المقابلة .

وهمس علي : لنهيىء انفسنا على مهل هنا .

قال رباح : حسنا .. هيا .

وابتدأت عملية تجهيز السلاح وبعد ثوان صاح رباح :

ـ نحن على استعداد . اذهب يا علي . قم بعملية الحراسة والحماية على التلة . لا تفتح النيران الا اذا شعرت بانها ضرورية ومجدية طبعا .

وابتدأت عملية قصف المعسكر .

وصاح رباح : احسنت يا حميد . اعتقد أن مهجع الجنود هو الذي اصيب . ان النيران تلتهمه .. حسنا جدا . غير مكانك بسرعة .

وخلال تغيير حميد لمكانه ، كان رباح قد اطلق هو الاخر القذيفة الثانية وهتف :

ـ انظر . اصيب برج المراقبة ... انتبه ... انتبه . ابتدأت رماية العدو .

وتحول الليل الى نهار وصعدت السماء قذائف ملتهبة مشتعلة انارت المكان وابتدأت تهبط ببطء شديد . وصاح علي من التلة: يكفي. انسحبا ايها الاخوان .

✶ النخيلة : قرية سورية تتاخم الحدود اللبنانية الاسرائيلية .

(٢) ـ هونين : مستعمرة اسرائيلية في الجليل الاعلى .

وهتف حميد : لا ... قذيفة اخرى ... آه ها هي تلك العربة نصف المجنزرة وستصلنا بعد قليل .. لا .. خذي .

واطلق . فاندلعت النيران في العربة ونبض الدم خلف طبلتي اذنيه .. آه يا حلكة الليالي السود يا دم القتيل ... وهم بمعاودة الكرة فيما صرخ علي بجنون : اخوي ... انسحبا . انظرا من ايـن اتوا . سأجبرهم على تغيير اتجاه هجومهم .

وهدر الرشاش الذي يحمله فتوقفت السيارة الاولى وترجـل منها عدد من رجال العدو وصاح رباح :

ـ لم يبق اي مجال للبقاء .. هيا يا حميد ... يا حميد هيا اسرع ... يا الله اين انت ؟

وأضاءت قنبلة مضيئة المكان ، فرأى رباح وعلي حميدا جالسـا على الارض والدم يغمر وجهه ... وأن علي :

ـ اخي انت مصاب ، ولم تتكلم ؟

وحشرج حميد : لا فائدة ... لا وقت .. اللـــه ! لماذا انتمـا واقفان هكذا ؟ اذهبا ! اذهبا سريعا !

واضاف بصوت واهن :

ـ اعتقد ان اصابتي بليغة . انه صدري واصابة خفيفة فـي رأسي .

وسعل ، وخرجت دفقة دم من فمه فأشار اليها بصمت .

ـ حسنا ... دمدم رباح .

وتلاقت العيون فانحنى رباح وقبل جبينه ورأى حميد دمعتيـن كبيرتين تترقرقان في عيني رباح بينما اطلق علي زخة من النيران .

وهمس حميد بصوت مبحوح :

ـ اذهبا يا رفيقي . رعاكما الله .

خفتت اصوات الرجال بعد قليل فكرر حميد مرة اخرى فـي نفسه ببطء « اذهبا . رعاكما الله » انني اشعر برأسي صاحيا وقـد انسحب الرفاق ولم يبق في الساحة غير العدو ، انهم يتقدمون ببطء .. كم هم حذرون بل خائفون .. يجب ان اطلق حتى لا يفطنوا الـى خلو الساحة فيتعقبوا الرفيقين .. وارعد الرشاش بين يديه فاتاه الجواب حالا وهمس الرصاص بين الاعشاب واز على الحجارة فتطايرت قطعات صغيرة منها .. لا بأس جازت الحيلة . انهم يتقدمون نحـوي الان وبمزيد من الحذر ... يجب ان تقدم لهم الهدية ويؤخذ بثـأر القتيل . ذلك يعني ان ارتاح قليلا .. ولكن ماذا لو وجدوني ميتا .. اجل لو انتهت الحياة قبل ثوان من تقديم الهدية ؟ وادار بصره فيمـا حوله ، كانت قد حجبت وجه القمر غيمة هائلة سوداء وفكر : مـن المحتمل ان يهطل المطر بعد قليل .. ولكن لن يكون هنا . وعاد يحدق في وجه القمر. كانت السحابة قد حجبته تماما عن العيون . ونظـر حوله . كانوا قد اصبحوا على بعد لا يزيد عن اربعين مترا .. يستطيع ان يرتاح ثواني قليلة اخرى .. هذه الغيمة تشبه تلك الغيوم التي كان يسميها وهو صغير بالحوت الذي قالت له جدته انه يأكل القمر .. كان يصدق ويخرج مع صبية الحارة يقرعون القصدير لافزاع الحـوت حتى يترك القمر .. وندت حركة قريبة منه فتوثبت حواسه كلها ... كانت هناك ظلال داكنة قريبة تقترب منه ... سحابة اخرى شبيهة بتلك التي في السماء والتي تأكل القمر ولكنها اكبر من أن يفزعهـا الاطفال والقصدير . وجمع قواه كلها ، هذه الغيمة الجديدة اللعينـة لا بد لها من الرجال .

وازداد الليل كثافة كان ليل العالم الفى ثقله في هذا المكان وشعر بمعدته تطحن الفراغ والدوار يعصف برأسه فايقن انـه لـن يستطيع صبرا . وابتسم للغيب وهب واقفا ، وهدر السلاح بين يديـه ... وكأن مئات الابر وخزت رأسه وصدره وساقيه فهوى ... وعندها شعر برباح يقبله مرة اخرى في جبينه .

وليد حاج عبد

هكذا انتصر « الفيتكونغ »

بقلم

ريمون نشاطي

« فقد « الفيتكونغ » منذ ان دخل في حرب المواجهة المباشرة مع اميركا مـا يقرب مـن نصف مليون مقاتل ، خلاف الجرحى والاسرى ولا سيما الذيـن تلفت اعصابهم وانهال عليهم اليأس .. ورغـم ذلـك ، صمدت الجبهة ، وواصلت الكفاح بعزم أكبر ، وبقدرة دفاعية أقوى حتى استطاعت أن توجه ضرباتها المتتالية في قلب العاصمة سايغون التي تنتظر الآن هجوما كـاسحا عليها ...

« لقد استطاعت الجبهة ان تقود كفاح الجماهير الشعبية وان تصمد ببطولة امام اكبر واقوى دولة في العالم .. وقد اقتنع العالم كله بشرعيتها ولم يبق الآن سوى الاعتراف بها رسميا ، ومـن جانب الولايـات المتحدة اولا .. وهكذا انتصر الفيتكونغ » .

كتاب نحتاج اليه الآن ، لانـه يحمل لنا دروسا كثيرة في نضالنا وكفاحنا لاسترداد ارضنا المسلوبة ..

٢٥٠ ق٠ ل

صدر حديثا

حكاية الولد الفلسطيني

لان الورد لا يجرح
قتلت الورد
لان الهمس لا يفضح
سأعجن كل أسراري بلحم الرعد
أنا الولد الفلسطيني
أنا الولد المطل على بلاد القش والطين
خبرت غبارها ، ودوارها ، والسهد
ويوم كبرت قالوا : لم يزل ولدا ، وقالوا : قد ..
وفي المرآة أضحكني خيال رجالنا في المهد
وأبكاني الدم المهدور في غير الميادين
— تحارب خيلنا في السند
ووقت الشاي .. نحكي عن فلسطين —
ويوم عجزت ان افرح
كبرت ، وغيرت ، لي ، جلدها الاشياء
تساقطت الجراح على الربابة فانبرت تصدح
بلاد الله ضيقة على الفقراء
بلاد الله واسعة .. وقد تطفح
بقافلة من التجار .. والدشمان .. والادباء
— أيأمر سيدي فنكب أهل الجوع والاعباء ؟
— أتقذفهم .. ومن يبقى ليخدمنا ؟
— اذن نصفح
ويوم كبرت لم اصفح
حلفت بنومة الشهداء .. بالجرح المشعشع في : لن أصفح

أنا الرجل الفلسطيني
اقول لكم : رأيت النوق في وادي الغضا تذبح
رأيت الفارس العربي يسأل كسرة من خبز حطين
ولا ينجح ..
فكيف ، بربكم ، أصفح ؟
أنا الرجل الفلسطيني
أقول لكم : رأيت السادة الفقراء
وكان الجوع يشحذ الف سكين
والف شظية نهضت من المنفى تناديني :
— غريب وجهك العربي بين مخيمات الثلج والرمضاء
بعيد وجهك الوضاء

— فكيف يعود ؟
— بالجسد الفتي نعبد الهيجاء
سنرفع جرحنا وطنا ونسكنه
سنلفم دمعنا بالصبر ، بالبارود ، نشحنه
ولسنا نعبد الآتي .. ألم ترنا نكونه ؟
— جياع نحن ..
— طاب الفتح ان الجوع يفتنه
— جياع نحن ..
— ماذا يخسر الفقراء ؟
اعاشتهم؟ مخيمهم؟ أجبنا أنت ماذا يخسر الفقراء ؟
انخسر جوعنا والقيد ؟
أتعلم أن هذا الكون لا يهتم بالشحاذ والبكاء ؟
أتعلم أن هذا الكون بارك من يرد الكيد ؟
— علمت ..
— اذن ..؟
— ليفل وطيسنا المخزون في كل الميادين
لتفل مخيمات القش والطين
أنا العربي الفلسطيني
اقول ، وقد بدلت لساني العاري بلحم الرعد :
الا لا يجهلن أحد علينا بعد
حرقنا ، منذ اربعة ، ثياب المهد (✶)
والقمنا وحوش الغاب مما تنبت الصحراء
رجالا لحمهم مر ، ورملا عاصف الانواء
واما ليلة جنت .. أضاء الوجد
وقد تعوي الثعالب وهي تدهن سمها بالشهد :
— صغار .. عظمهم بفو .. بدون كساء
أيحتملون برد الليل .. هل نصر بهم يحرز ؟
— أجل .. ويضيء هذا النصر في الطرقات والاحياء
أجل .. ونهارنا العربي مفتوح على الدنيا .. على الشرفاء
لان الكف سوف تلاطم المخرز
ولن تعجز ..
الا لا يجهلن أحد علينا بعد .. ان الكف لن تعجز

حمص — **أحمد دحبور**

(✶) اربعة اعوام : عمر الثورة الفلسطينية المسلحة .



وأدب غسّان كنفاني

بقلم احمد محمد عطية

ان الاديب مقاتل بالكلمات ، في حرب التحرير . كما كتب «هو شي منه » في رسالة وجهها الى الادباء والفنانين الفيتناميين في مناسبة المعرض الفني لعام ١٩٥١ ، خلال حرب المقاومة الفيتنامية ضد قوات الاستعمار الفرنسي (١) .

وان الفدائي مصلح اجتماعي ، يحمل السلاح تعبيراً عن انتفاضة الشعب ضد مضطهديه . كما ذكر جيفارا (٢) .

ليس امام الشعب الفلسطيني الا طريقان لا ثالث لهما : اما الثورة او الانقراض او التلاشي . كما اعلنت فتح (٣) .

ان كل نقد اجتماعي – مهما كان نظريا او مقصورا على حلقات الاساتذة – انما هو في الوقت نفسه نشاط سياسي ، وعمل اجتماعي. كما كتب ادوارد كارديللي (٤) .

هذه الكلمات هي مرشدنا ودليلنا في دراسة ادب غسان كنفاني كانموذج متقدم لادب الثورة الفلسطينية ، وكشاديها الذي لم يكف عن الانشاد من اجلها حتى في احلك فتراتها واشدها الما .

وينبغي ان نبدأ بمفهوم ما نعنيه بالثورة الفلسطينية ، وبمسيرتها التاريخية ، في اختصار حسبما يسمح المجال ، لنتبين مدى وقع خطوات القضية الفلسطينية وثورتها ، على ادب غسان كنفاني .

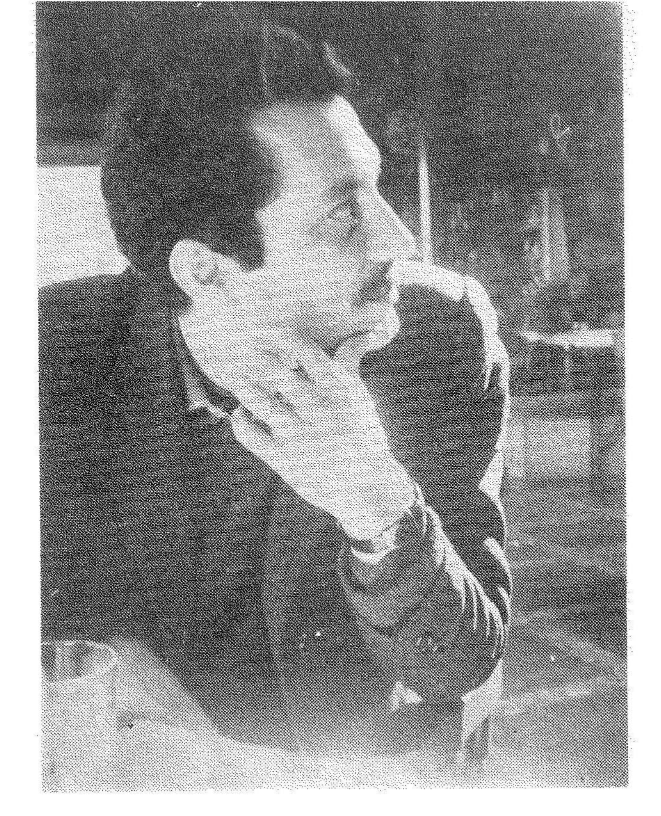
على ان لهذه الدراسة تحفظا ازاء أدب غسان كنفاني النقدي ، انها موجهة اساسا الى غسان كنفاني كفنان مبدع خلاق ، وليس كناقد وباحث ادبي . لانه في حين يبلغ الذروة في اعماله الفنية ، تهبط دراساته النقدية كثيرا عن مستوى اعماله الفنية . وقد سبق لي ان وجهت اهتماما خاصا الى غسان كنفاني كناقد وباحث ادبي في مقال مطول عن كتابه « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » . ومع اشادتي به كعمل ثوري وكسبق ادبي وصحفي ، فقد لاحظت ان الجهد الحقيقي المبذول في الكتاب هو جهد تجميعي وليس دراسيا . « فان الجهد الحقيقي الذي بذله مؤلف الكتاب هو في تجميع مصادر البحث وليس في البحث ذاته ، الذي لا يخرج عن كونه مجرد تعليق على شعر المقاومة الفلسطينية الصامدة في وجه العدوان الصهيوني ... » (٥) . ان كتابات غسان كنفاني النقدية تغلب عليها الحماسة اكثر من الموضوعية او ما اسماه « بالبرود الموضوعي » ، وقد لاحظت الملاحظة نفسها على كتابه النقدي الثاني « في الادب الصهيوني » ، فالخطأ الاساسي في الكتاب هو التعميم والتجميع . اذ يغلب على الكتاب تجميع مقتطفات من الدراسات وتعليقات على الروايات . ولكنه لم يقدم دراسة واحدة لرواية صهيونية ليدلنا على مهاويها الفنية كما قال . كان يوضح لنا مثلا العيب الفني في الاعمال الادبية الصهيونية ، فهو قد اكتفى بالاستشهاد بفقرات من كتابات اخرى . هل العيب لان العمل الفني تناول اخطاء في المضمون التاريخي . هذا امر يتعلق بمضمون العمل الفني ، ولا يهدمه كعمل فني من اساسه ، ولكن اين المآخذ الفنية على الاعمال الادبية الصهيونية ولماذا لم تذكر اطلاقا ؟ كما ان عناوين الكتاب غير متفقة مع مضامينها . فكتاب « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » (٦) عن شعر المقاومة وهو جزء من كل . و « في الادب الصهيوني »(٧) ايضا يدور الحديث عن الرواية الصهيونية .

لذا فعندما اقصر الدراسة على فن غسان كنفاني القصصي فلأنه في رأيي ابرز وجوه الاديب الفلسطيني العظيم ، رغم علمي بأنه صحفي ناجح وناقد ومعلق سياسي ، وروائي ، ومسرحي ...

انتهى التحفظ ، ولنعد الى موضوع الثورة الفلسطينية .

اولا ، هل هي حركة مقاومة ام ثورة فدائية ام ثورة مسلحة ؟

تؤكد فتح دائما على انها تقوم بثورة فلسطينية مسلحة لا بحركة مقاومة ، تأسيسا على انها تقوم بحرب تحرير شعبية ، وبحركة تحرير



وطنية . هذا ما تؤكده كتابات فتح (٨) ، وتصريحات ياسر عرفات (٩) المتحدث الرسمي بلسانها . وما يدل عليه التطور الظاهر في تغيير اسم صحيفة فتح « العاصفة » الى « الثورة الفلسطينية » . تقول الصحيفة : « كان دور الطلائع وهي تطلق الشرارات الاولى لتعيد الامل الى نفوس الجماهير ولتعيد لها ايضا ثقتها بنفسها وبمستقبلها، كان هذا الدور دور مقاومة . ولكن تصميم الطلائع وايمانها بنفسها وبالشعب الذي تنتمي اليه ، وبوعيها وادراكها لابعاد القضية التي تتبناها ، امور اهلت هذه الطلائع لان تكون خير نواة لثورة يعيشها شعبنا اليوم بكل دقائقها وظروفها ... اجل انها ثورة فلسطينية بكل ما في الثورة من معنى .. » كانت حركة المقاومة الفدائية طليعة الثورة الفلسطينية ، طليعة بكل ما تحمل الطليعة من نبوءة وبطولة وفداء ، لكي توقظ جماهير الفلسطينيين من سبات اللامبالاة والاعتماد على الغير . حركة المقاومة كانت لاشعال نيران الثورة في الجماهير الممزقة اليائسة اللامبالية . ولم تلبث هذه الطلائع ان تحولت الى تنظيم سياسي واسع والى حركة ثورية كاملة تعمل وفق تكتيك واستراتيجية ثورية واعية وتستفيد من تراث الثورات العالمية . انظر مثلا رأي فتح في الوحدة الوطنية وكيفية اكتساب الخبرات من حركات التحرير الوطنية ومن الثورات التقدمية ، ثم فهم دور الطبقات في الوحدة الوطنية . فقد اجرت فتح مقارنة بين الخطأ الذي حدث في الوحدة التي قامت بين الحزب الشيوعي الصيني والكومنتانج واثره في فشل ثورة ١٩٢٥ . وفي المقابل قدمت نموذج الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام . ثم اسست فهمها على ضرورة ان تكون الوحدة الوطنية بين ثوار يقومون بالكفاح المسلح ، ولهم مصالح طبقية في الثورة الفلسطينية . ونظرة فتح للطبقات المساومة ، وهي تحليل علمي يدل على وعي ثوري كامل ، تجعلها تصل الى البلورة التالية : « يجب على الوحدة الوطنية ان تدعم الكفاح المسلح » (١٠) . وهي تستبعد البورجوازية من قيادة الكفاح المسلح لانها ليست صاحبة مصلحة حقيقية ، وغالبا ما ترتضي بالدعاية الطنانة وتحيل الامر الى الغير . وانما ترتكن فتح في مفهومها للثورة الفلسطينية على المعدمين والبؤساء والكادحين الممزقين في الخيام وفي الصحارى الذين وقعت عليهم المأساة والذين يعانونها ليل نهار والذين هم لذلك اصحاب مصلحة حقيقية في متابعة الكفاح المسلح ، والذين لا يتمتعون بأية مزايا طبقية يخشون عليها من الضياع . « ولا يغير اختلاف ظروف الثورة الفلسطينية من هذه الوقائع شيئا كثيرا فهنا ايضا توجد طبقة من الذين تشدهم امتيازاتهم باستمرار الى اختيار الطريق الاسلم لهم

* – الهوامش مجمعة في نهاية الدراسة .

والى اتباع الوسائل السهلة لتحقيق انتصارات سياسية دعائية في الغالب . وفي الوقت نفسه توجد ايضا الطبقات المحرومة والمعدمة التي تتكون منها غالبية الشعب الفلسطيني وهي الطبقات الوحيدة التي عانت كل عبء النكسة وكل اثار فقدان الوطن ، وهي الوحيدة القادرة بالتالي على بذل دمائها في سبيل استرجاع وطنها ، لانها لا تخسر في الواقع من جراء ذلك الا عذابها الدائم وحرمانها وضياعها المستمر. » (١١) . وهذا يدلنا على طبيعة الثورة الفلسطينية ، ابعادها وجنودها وقادتها . فالبورجوازية الفلسطينية اختارت طريق الدعاية السياسية الناعمة بينما اختار الثوريون المناضلون طريق الكفاح المسلح والمعاناة الحقيقية ضد العدو . وتدلل فتح على اهمية قيادة المحرومين والفقراء لثورة الشعب الفلسطيني بان هؤلاء هم ذوو الحس الجماهيري الصادق والامكانية الثورية الملتهبة .

ونخلص من هذا كله الى ان ما يجري من كفاح فلسطيني مسلح ضد العدوان الاسرائيلي انما هو ثورة فلسطينية مسلحة وليس مجرد حركة فدائية او حركة مقاومة ، لان الاخيرة لم تكن الا طليعة الثورة ، وقد تخطت الثورة الفلسطينية هذه المرحلة الاولية من الكفاح المسلح وبدأت في مواجهة العدو من داخل الارض المحتلة وفق تكتيك واستراتيجية محددين تمهيدا للانتقال الى المواجهة الشاملة مع العدو، هي ثورة وطنية اذن كما قال هو شي منه : « ان حرب المقاومة الطويلة هي الثورة الوطنية على اعلى مستوى . » (١٢) .

وقد عانت القضية الفلسطينية طويلا من افتقاد العنصر الفلسطيني المستقل ، واكتسبت العدو ارضا جديدة . ويروي الدكتور صلاح العقاد في كتابه « قضية فلسطين ــ المرحلة الحرجة » (١٣) انه كان من اثر الاضطهاد البريطاني العنيف ضد المقاومة العربية في اواخر الثلاثينيات ١٩٣٨ ــ ١٩٣٩ ــ أن توقفت حركة المقاومة العربية مؤقتا في اعقاب الحرب العالمية الثانية بينما بدأ اليهود يقاومون الانتداب البريطاني بعد ان نالوا من بريطانيا كل الوعود والتسهيلات ولكنهم ارادوا فلسطين لهم وحدهم ، فبدت حركة العصابات الصهيونية المسلحة ضد قوات الاحتلال البريطاني وكأنها حركة تحرير وطني تقدمية ، وكان لهذا اثره في موقف الاتحاد السوفياتي آنذاك المؤيد للتقسيم والذي دخل فيه ايضا أن الرجعية العربية كانت تتاجر بقضية فلسطين من قاعدة اقطاعية استعمارية بينما في الوجه المقابل كانت المزارع الجماعية الصهيونية تمثل حركة تقدمية بالقياس الى التأخر العربي آنئذ . وبدأت المقاومة العربية من جديد بناء على قرار الرؤساء والملوك العرب في عاليه في اكتوبر ١٩٤٧ ، بتأييد المقاومة المسلحة اعتمادا على الفلسطينيين والمتطوعين من الدول العربية ودون تدخل جيوش نظامية عربية رسمية . وقام جيشان ، جيش المجاهدين الفلسطينيين الذي يعمل من الداخل ، وجيش الانقاذ العربي الذي يقف في الخارج على اهبة الاستعداد . ولعبت العقلية المتخلفة والخلافات بين الاسر الحاكمة دورها في فشل جهود جيش الانقاذ . وكما يذكر الدكتور صلاح العقاد كان الحسيني يريد حرب عصابات على طراز الثورات العربية القديمة ضد البريطانيين . وقد اخفى الحسيني الاسلحة التي امدته بها مصر في منزله بالزيتون ولم يزود جيش المجاهدين الا باسلحة عتيقة اما جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي فقد وقع اسيراً للمنازعات العربية الدولية وضحية لرفض قائده القاوقجي التعاون مع عبد القادر قائد جيش المجاهدين مما قلل من فاعلية الجيشين (١٤) .

ومن المعروف أن الاطماع الرجعية العربية وتخلف الجيوش العربية كان لها دورها الاساسي في نجاح العصابات الصهيونية في تحقيق اطماعها والاستيلاء على فلسطين . ويذكر في هذا المجال قول حاييم وايزمان اول رئيس دولة اسرائيلي : « ان الجيوش العربية كانت انعكاسا للاوضاع الطبقية المسيطرة على العالم العربي ، فالضباط مفرطون في السمنة والجنود غاية في النحافة » .

ذلك كان دورا من ادوار الكفاح المسلح من اكتوبر ١٩٤٧ وحتى قيام اسرائيل .

فاذا أردنا الاستزادة فلنرجع الى كتابي « النكبة والبناء » (١٥) للدكتور وليد القمحاوي ، و « الثورة العربية الكبرى في فلسطين » للشهيد صبحي ياسين. والانطباع الذي يتولد لدي عند قراءة الكتابين، انه بينما كان اليهود يبنون المستعمرات ويستولون على الاراضي ويهودون كل شيء حتى ان طوابع البريد كتب عليها في سنة ١٩٢٠ ارض اسرائيل ، كان العرب يقومون بالمظاهرات الصاخبة التي تنجم عن حماسة ثورية ومد ثوري ثم لا تلبث أن تخمد بينما اليهود ماضون في سياستهم نحو تهويد فلسطين .وقد كافح مناضلون عديدون وقتلوا. ولكن ذلك لا يجعلنا نتفق مع صبحي ياسين في لغته الانشائية بقوله « وبذلك انتصر العرب الاحرار في فلسطين على الصهيونية النازية ومن ورائها الاستعمار المجرم بانتهاء هذه الثورة » (١٦) . كيف والصهيونية كانت تعقد عشرات المؤتمرات وتستجلب الاف المهاجرين والمهاجرات . انظر الى كتاب واحد من سلسلة دراسات فلسطينية مثل كتاب اديب قعوار « المرأة اليهودية في فلسطين المحتلة » وستعلم كم من المؤتمرات عقدتها المرأة اليهودية في فلسطين في مطلع القرن العشرين وبعده في العشرينات والثلاثينات ، وكيف بنيت المستعمرات والمدن اليهودية . ويؤخذ عموما على كتابات صبحي ياسين انه عد مظاهرات الاحتجاج التي برع فيها العرب عموما في ذلك الوقت ، نوعا من الكفاح المسلح ضد اليهود ، كيف بالمظاهرات والمطالب ؟ كما شاب كتاباته بعض الافكار الساذجة التي تراود العامة كفكرة الملائكة الذين يحاربون مع رجال المقاومة الى غير ذلك . ويلاحظ ان ذلك كان رأي جمهرة الرجعية العربية في تفسير النكسة تفسيرات غيبية بالغة السذاجة (١٧) . ومع انه يعترف بأن مواجهة وعد بلفور كانت مجرد مواجهة حماسية عاطفية لم تأخذ شكل الكفاح المسلح وانما اتخذت شكل عقد المؤتمرات . كمؤتمر دمشق في يونيو ١٩١٩ ، ومؤتمر النادي العربي في فبراير ١٩٢٠ . واكتفى المؤتمران باصدار قرارات التنديد الحماسية . يقول صبحي ياسين في كتابه « حرب العصابات في فلسطين » : « ولكن جميع الانتفاضات التي حدثت بين ١٩٢٠ و ١٩٣٣ كانت فورات حماسية عاطفية حدثت بصورة عفوية في اعقاب تحديات صهيونية . ولم تكن هناك اية منظمة ثورية فلسطينية تؤمن بنظرية عمل واضحة تواصل الكفاح حتى النصر » (١٨) .

غير ان الشهيد صبحي ياسين يشيد عن حق ببطولة الشيخ عز الدين القسام قائد عمليات فردية للكفاح المسلح في فلسطين ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ . وقامت مجموعة مظاهرات اسفرت عن توحيد الاحزاب الفلسطينية في اللجنة العربية العليا ، الا ان صبحي ياسين يؤكد انها لم تكن وحدة حقيقية وانما للاستهلاك العام ، وظلت الاحزاب على تناحرها . وانتهت المظاهرات بدعوة من الحسيني للتعاون مع الدولة الصديقة بريطانيا ، اخذا برأي نوري السعيد وزير خارجية العراق آنئذ . ويدلنا الشهيد صبحي ياسين على أنه في سنوات ١٩٣٦-١٩٣٩ قامت منظمة فدائية في الجليل ويافا وشمال فلسطين وفي عكا ايضا وسائر انحاء فلسطين . وقامت باعمال مسلحة ضد الانجليز واليهود. وكان لنشاطها شعبية واسعة . وكان نشاطها في شكل فصائل مسلحة موزعة على القرى والمدن الفلسطينية في الشمال . وتراوحت اعمال هذه الفصائل بين زرع الالغام والقاء القنابل اليدوية ومهاجمة المعسكرات البريطانية . وكان من نتائج ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ عدول بريطانيا المؤقت عن مشروع تقسيم فلسطين ، وكانت اعمال الكفاح المسلح تشن كاعمال تكتيكية لحرب تحرير وطنية بهدف تحقيق الاستقلال الوطني ووقف الهجرة اليهودية ومنع تقسيم فلسطين . وقد تحقق الجزء الاخير اذ عدلت بريطانيا مؤقتا عن سياسة تقسيم فلسطين بناء على تقرير لجنة جون وود هيد البريطانية . غير أن الثورة انتهت بقيام الحرب العالمية الثانية دون ان تحقق شيئا يذكر . وتحولت البلاد الى حكم انجليزي ارهابي شديد العنف . وكانت الفترة بين ١٩٣٩-١٩٤٧ اشد الفترات اهمية في تاريخ فلسطين وهي التي توقف فيها نشاط الكفاح المسلح الفلسطيني حتى بدأ على النحو السالف ذكره ، وكان صورة للخلافات بين الدول العربية وبين القيادات الفلسطينية .

من الواضح ان العمل المسلح الفلسطيني افتقد التكتيك المدروس ضمن استراتيجية عامة واضحة ومحددة . وانه كان يثار انطلاقا من

افكار دينية وغيبية اكثر من انطلاقه من وعي سياسي ناضج ، ومسن دراسة مكان الكفاح المسلح الفلسطيني في ضوء تيارات الموقف الدولي والاستفادة من الخبرات العالمية المماثلة . وكانت اقرب الصور اكتمالا هي الجمعية السرية التي الفها الشيخ عز الدين القسام ومارست نشاطها من ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ بقيادة الشيخ القسام ومجموعة من الشيوخ الذين زاولوا الكفاح المسلح على نهج المجاهدين العرب الاول في عصر الفتوحات الاسلامية ففشل الكفاح المسلح في أن يؤتي ثماره المرجوة . ويؤكد صبحي ياسين (١٩) ان اعلان دخول جيوش الدول العربية فلسطين كان مثبطا للعمل الفدائي وادعى للتواكل والاستسلام ارتكانا على قوة الجيوش العربية ومقدرتها .

وفي ظروف صعبة لوجود عدوين ، الانجليز واليهود ، وافتقادا لقيادة ثورية موحدة اقتصر النشاط الوطني على اعمال فدائية فردية ومظاهرات صاخبة تطالب الدول العربية بالتدخل . ولعبت الخلافات بين الدول العربية وبين القادة الفلسطينيين دورا مماثلا لخلو الميدان من قيادة ثورية موحدة . كما لعبت الخيانات دورها ايضا في زيادة الموقف سوءا على سوء (٢٠) .

بعد نكبة ١٩٤٨ سيطرت مشاعر اليأس والحزن العميق وعدم التصديق على كل الفلسطينيين . ولكن نكسة ١٩٦٧ اشعلت حماسا رهيبا وثقة لا حد لها في قوة العمل الفدائي الفلسطيني الذي تحول الى ثورة مسلحة عارمة . لماذا عم اليأس الفلسطينيين بعد النكبة ؟ لانهم فوجئوا بحياة الالم والتشرد والغربة بعد حياة الاستقرار في بلادهم واراضيهم . اما لماذا اشتدت الثورة الفلسطينية المسلحة ؟ فلانها كانت تعبيرا حقيقيا عن الرفض الكامل للواقع الفلسطيني المر الذي لم يعرف الراحة او الاستقرار او الوطن . وسنتفق مع الدكتور نديم البيطار في تأييده لعبارة جيد « ان العالم ، سيجد نجاته ، ان كان من الممكن ذلك ، عن طريق المتمردين . فدونهم ستلقى حضارتنا ، ثقافتنا ، وكل ما نحب ، نهايته .. فهؤلاء المتمردون هم ملح الارض.. » (٢١) . حقا أن الانسان الحقيقي هو انسان البير كامو المتمرد . وقد طرح الفلسطينيون عنهم جدران اللامبالاة والاتكالية وتولوا امورهم بانفسهم ونهض المتمردون ليحطموا العالم الزائف حولهم ، العالم اليائس الثابت ، وليحولوه الى عالم متفجر بالثورة المسلحة ، ولم يعد هنالك مجال للمناقشة حول اولوية العمل الفدائي . ان الفدائي المسلح هو الثوري الجديد الذي يطرح كل مشاكله الخاصة ليحارب من اجل قضيته العامة ، قضية الشعب الفلسطيني المعذب . ان الفدائي هو الصورة الارقى للثوري الفلسطيني ، انه يبدأ برفض العالم الذي يعيشه ، برفض الهزيمة ، ويتحول الى ترجمة هذا الرفض الى عمل مناضل للتغيير الثوري وفق مفهوم محدد ، عودة الارض ووقف الاحتلال الاجنبي الصهيوني . انه لا يبالي الموت ، لان الحياة التي حوله لا ترضيه ، هو يبيع الموت مقابل حياة حرة كريمة لشعبه ، ومن هذا كله خرجت الثورة الفلسطينية المسلحة قوية عظيمة واثقة بقدرتها على استعادة الحق السليب بنفسها . ان القول بأن جبهة التحرير الفيتنامية نجحت بسبب الغابات ، وجبهة التحرير الجزائرية نجحت بسبب الجبال ، هو قول ساذج . لان كل ثورة مسلحة قادرة على خلق ظروفها ودراسة وضعيتها وخصائصها وخصائص عدوها والاستفادة منها. ولذلك امكن للثورة الفلسطينية المسلحة ان يكون لها فكرها السياسي الثوري الواعي الذي يحلل التاريخ الفلسطيني تحليلا علميا ، فيرى أن فشل ثورة ١٩٣٦ وحرب ١٩٤٨ راجع الى اقصاء الكفاح الثوري الفلسطيني عن دوره واحالته الى الدول العربية التي كانت تحكمها الرجعية العربية المتعاونة مع الاستعمار التي كانت تطلب الى الشعب الفلسطيني الهدوء لتحقيق تنازلات من الاستعمار . ومن ثم تحول الكفاح الفلسطيني الى كفاح سلبي ، مقاطعات ومظاهرات . ان اختيار طريق الثورة الفلسطينية جعل الدعم العربي فعالا ، وقطع الطريق على البورجوازية الفلسطينية في احتواء الثورة الفلسطينية وتحويلها الى ديماغوجية والي وسيلة للتحالف مع البورجوازية العربية .

وهكذا قامت الثورة الفلسطينية المسلحة اعتمادا على انسان الخيمة الممزق المحروم البائس ، اعتمادا على سخطه وغضبه المدفون في سنوات اللامبالاة . ووصلت الثورة الى حد استعمال الصواريخ الثقيلة ضد العدو ومواجهته عشرات المرات في اليوم الواحد وفي كل انحاء الارض المحتلة .

لقد حدث تغيير جذري في نوعية العلاقات بين الشعب الفلسطيني والعدو الاسرائيلي ممثل الامبريالية الجديدة في المنطقة . فاين تقع كل هذه الاحداث على خريطة الادب ؟

من الملاحظ ان الادب العربي في خلال الحروب الصليبية كان ادبا دينيا (٢٢) غيبيا لم يشد بالانسان بقدر ما اشاد بالملائكة . وربما ذلك للطابع الظاهر للحروب الصليبية من انها حروب دينية ، على خلاف الواقع المعروف الان من أن الدين المسيحي لم يكن الا ستارا للاستعمار الاوروبي . كما ان الدين اليهودي ليس الا ستارا للاستعمار الصهيوني الغربي الجديد . وليس ادل على ذلك من الجملة الشهيرة التي قالها اللنبي لدى دخوله دمشق « الان انتهت الحروب الصليبية».

بينما نجد الادب العربي اكثر نضجا وواقعية في مواجهة الاستعمارين التركي والاوروبي ، بالاعتماد على الشعب كقوة اساسية واثارته اعتمادا على الامجاد القديمة . وتميزت الاعمال الادبية بوعي سياسي وثقة عظيمة في الشعوب وفي الكفاح المسلح ، وبالانفتاح على حركة التحرير العالمية وادابها .

اما الان فسنجد اثرا واضحا وسريعا لانتشار الثورة الفلسطينية المسلحة على الادب العربي الحديث ، بمقارنة بسيطة لاعمال شاعر مثل نزار قباني في قصيدتيه « هوامش على دفتر النكسة » و «فتح». وهذه ابيات من قصيدته « هوامش على دفتر النكسة » (٢٣) :

يا أيها الاطفال ، انتم بعد ، طيبون
وطاهرون ، كالندى والثلج ، طاهرون
لا تقرأوا عن جيلنا المهزوم يا أطفال
فنحن خائبون ..
ونحن مثل قشرة البطيخ تافهون
ونحن منخورون .. منخورون كالنعال ..
لا تقرأوا اخبارنا
لا تقتفوا آثارنا
لا تقبلوا افكارنا
فنحن جيل القيء ، والزهري ، والسعال
ونحن جيل الدجل ، والرقص على الحبال

وهذه أبيات من قصيدته الثانية « فتح » (٢٤) ، وهي تدلنا على مدى الاثر العميق الذي ولدته الثورة الفلسطينية المسلحة في الادب العربي الحديث :

يا « فتح » يا شاطئنا من بعد ما فقدنا
يا شمس نصف الليل لاحت بعد ما ضجرنا
يا رعشة الربيع فينا بعدما يبسنا
حين قرأنا عنكم كل الذي قرأنا
خمسين قرنا بكم كبرنا ..
وارتفعت قاماتنا
وازهرت حياتنا
من بعد ما نشفنا

وليس ادل على اهمية الطريق الذي سلكه الشعب الفلسطيني في كفاحه المسلح من الامال التي يعقدها شاعر الارض المحتلة محمود درويش على « العاصفة » الجناح العسكري لمنظمة « فتح » ، في قصيدته « وعود من العاصفة » :

وليكن ..
لا بد لي ان ارفض الموت
وان احرق دمع الاغنيات الراعفة
واعري شجر الزيتون

وبذلك ظل أسعد يدور ويدور في الصحراء بحثا عن طريق . وحتى عندما حدثه المهرب السمين الذي خاطب أبا قيس من قبل ، عن الطريق ، ردد : « الطريق ! أتوجد بعد طرق في هذه الدنيا ؟! » . الضياع والوحدة والغربة نفس ما لاقاه أسعد ثاني الثلاثة رجال في رحلتهم المفردة في الشمس والصحراء الملتهبة . « انه وحيد في كل هذا العالم » . والعالم كله يضطهده ويطارده . فالمعتقل صحراء والطريق صحراء حتى بدا العالم كله أمامه وكأن « الصحراء موجودة في كل مكان » . وفي الصحراء الملتهبة طارت أوراقه وكاد يفقد هويته في رحلة العذاب ، والتقطه رجل انكليزي يفهم كل شيء عن الهروب والتهريب وعن فلسطين وعن ضياع أهلها . أما نقود الرحلة فقد دفعها عمه كمغامرة لعلها تنقذ ابنته من العنوسة، من الوحدة أو من العار.

ومروان هو ثالث الثلاثة رجال ، الذي اصطدم أيضا مثل الآخرين بشرط الخمسة عشر دينارا . فشعر بأن آمال السنوات الطويلة تنهار فجأة . آمال الرحلة الى الكويت ، بحثا عن المأوى واللقمة .

ويضع غسان كنفاني رأيه في سلوك الثلاثة ، على لسان المهرب السمين الفظ ، انهم جميعا يبكون كالارامل ، يبكون مأساتهم ولا شيء أكثر من هذا ، هذا كل ما فعله الفلسطينيون بعد النكبة « كلكم تأتون الى هنا ثم تبدأون بالنواح كالارامل ! » (ص ٣٦) .

ويجترع مروان الاهانة تلو الاهانة من المهرب كأنما ليدلنا على حياة الاهانة التي يعيشها الفلسطيني بعيدا عن وطنه ، حتى عندما صفعه المهرب علىوجهه جزاء تهديده له بابلاغ الشرطة . وعندما صفعه المهرب السمين حاول أن يرد ولكنه تبين ضعفه . وغزاه الشعور بالوحدة والغربة وجموع الناس من حوله لا تشعر به . ورغم انقطاع خيوط الامل بصفعات المهرب على وجهه الا انه ظل يغمره حنين عجيب لان يدور مثل هؤلاء الناس في دورات حياتهم المتعددة والمثيرة . وحمل مروان مأساته . كانت مأساة ابو قيس في زوجته وابنه قيس والامل في عيش كريم لهما . ومأساة أسعد في البحث عن عمل والبعد عن المطاردة وسداد دين الرحلة بالزواج من ابنة عمه صاحب الدين . أما مأساة مروان ذي الستة عشر ربيعا فتكمن في اعالة أسرته المكونة من أمه وأخوته ، التي تركها والده وتزوج من امرأة أخرى مشوهة ولكن ثرية طمعا في تأمين مستقبله ، وذلك بعد انقطاع مورد المال من ابنه الاكبر بالكويت . وعندما يكتب لامه فهو لا يجد حتى لديه القدرة على الكراهية ، رغم ما قام به أبوه من عمل كريه .

مأساة أسرة مروان هي ثمرة المأساة الفلسطينية ، فأبوه عاش عشر سنوات في المخيم الطيني بأمل أن ينقذه ابنه زكريا بالكويت من فقره ، فلما انقطعت أخباره ، تزوج من الفتاة التي فقدت ساقها أثناء قصف اليهود لمدينة يافا ، والتي رفض الجميع أن يتزوجوها بسبب فقدها لساقها . فاجتمع المشوهان معا . أما زكريا فقد تزوج في الكويت ككل من يذهب الى هناك فيتزوج الكويت وينسى الوطن والاهل . أو كما قال ابو الخير لمروان : المال اولا ثم الاخلاق . ويلخص والد مروان اليأس الكامل بعد النكبة وتصويره لها كقدر قاس بقوله : «أنت تعرف يا مروان بأن لا يد لي في الامر ، هذا شيء مكتوب لنا بعد الخليقة » (ص ٤٨) .

ويتعرف الثلاثة الى فلسطيني رابع ، سائق يعمل في خدمة رجل ثري معروف ، فيعرض عليهم اقتيادهم في خزان الماء الضخم الفارغ في سيارته الى الكويت ، لقاء ما يمكنهم دفعه . وتبدأ رحلة العذاب والموت . أما السائق أبو الخيزران فهو مناضل فلسطيني قديم فقد رجولته أثناء معركة مع العدو . ان الموت أهون لديه . لقد أضاع رجولته حقا في سبيل الوطن ، ولكن الوطن ضاع ورجولته ضاعت وكل شيء ضاع .

وبدأت الرحلة التي شبهها أبو الخيزران بالسراط الذي يقود الى النار او الى الجنة . على أن يهبط الجميع في قاع خزان السيارة الخالي قبل نقطة الحدود ويصعدوا بعدها . ويكشف أبو الخيزران عن قصص الفلسطينيين الذين ضاعوا في الصحراء الموحشة « قصص رجال تحولوا الى كلاب وهم يبحثون عن نقطة ماء واحدة ... » . وحملتهم السيارة وهم داخل الخزان الساخن المختنق كالجحيم . وفي السيارة تختلط احلامهم بالامهم . أبو قيس يعاني من ذل الكيلو من طحين الاعاشة . ومروان يفكر في ان زوجة أبيه كانت صبية مرغوبة لولا القنبلة اليهودية التي أودت بساقها وفخذها . وأبو الخيزران يفكر في حياته التي ضاعت في المغامرة بحثا عن المال ، ورجولته التي ضاعت في سبيل الوطن الضائع . أما مروان فلا يفكر الا في ذله لعمه لقاء الخمسين دينارا التي لولا أمل تزويجه لابنته لما نالها .

وفي أحدى نقط الحدود يضيع الوقت من ابي الخيزران في هذر سمج من موظفي النقطة . فيكتشف موت الثلاثة . وينال ابو الخيزران أموالهم وساعاتهم . ويردد عليهم السؤال الرهيب : « لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقولوا ؟ لماذا ؟ » (ص ١٠٦) .

وبهذا السؤال الملح الذي يتكرر في نهاية رواية « رجال في الشمس » تكرارا مؤلما موحيا ، ينادي غسان كنفاني الفلسطينيين : لماذا صمتم حتى ضاع الوطن ، لماذا ؟ ولماذا صمتم كل هذه السنين حين ضاع الوطن ؟ بهذا النداء الفاجع يختتم غسان كنفاني روايته القصيرة المحكمة فنيا « رجال في الشمس » . والبناء الروائي والقصصي عموما في أدب غسان كنفاني بناء غير تقليدي . ويحتاج الى دراسة منفصلة نظرا لاهمية المعمار الفني في أدبه والذي لا يقل أهمية عندي عن المضمون العميق لادبه .

كتبت رواية « رجال في الشمس » في ظل جمود القضية الفلسطينية في اطار الروتينيات الدولية . أما رواية « ما تبقى لكم » (٢٨) فقد صدرت بعد مضي حوالي العامين على مباشرة منظمة فتح لاول مرة نشاط فلسطيني ثوري مسلح منظم بعد النكبة. (الرواية صدرت في سبتمبر ١٩٦٦ ـ ومارست فتح أولى عملياتها الثورية المسلحة في أول يناير ١٩٦٥) لذا فان اهداء الرواية هنا لا يخلو من معنى . « الى خالد .. العائد الاول الذي ما زال يسير » . بينما كان الاهداء الاول لرواية « رجال في الشمس » الى « آني كنفاني » ينم عن الارتباط الشخصي بالاسرة . يدلنا الاهداء الثاني على نجاح فتح في ربط الفلسطيني بوطنه .

وكما يقول غسان كنفاني في توضيح أسلوب العمل الفني في « ما تبقى لكم » فان هذه الرواية تريد ان تقول رأيها دفعة واحدة . وقد أتمت الرواية ما أرادته بنجاح ، مع انها قصيرة جدا (٧٥ صفحة قطع صغير) . وقد أدلت بما تريده مرة واحدة حقا بلا فصول ولا تواصل . واختلط فيها السرد بالمونولوج بتيار الوعي ، واختلط الماضي بالحاضر اختلاطا ذكيا موحيا . فترجم الفكرة العميقة من خلال قصة بسيطة . أما القصة فهي رحيل حامد الشاب الفلسطيني الصغير من غزه ، الى الام في الضفة الغربية ، عبر أرض الوطن الفلسطيني المحتلة . والام هنا بشكل واضح هي فلسطين ، الممزقة . ففي الاردن أم حامد ، وفي غزة أخته ، وهو في الطريق بينهما على الارض المحتلة. أما لماذا يرحل حامد عبر الصحراء الموحشة كما رحل ابو قيس وأسعد ومروان من قبل ، فتلك هي القصة .

وتلعب الشمس دورا هاما في قصص غسان كنفاني يجعلنا نفسرها كرمز لقدر مفروض على الفلسطينيين . في « رجال في الشمس » نجدها من أسباب موت الرجال الثلاثة في خزان العربة الخالي . وفي « ما تبقى لكم » هي أول ما يراه البطل ، وهي المؤشر الزمني لرحلته. وكذلك الصحراء فان أبطال القصتين يتنسمونها ويتسمعون دقات قلوبهم عليها .

وأبطال الروايتين يفرون من وضعيتهم وضياعهم الفلسطيني . ولكن شتان بين رحلة الثلاثة في « رجال في الشمس » ورحلة زكريا في « ما تبقى لكم » ، ان الاول هاربون من وطنهم ومصيرهم فماتوا دون كلمة احتجاج واحدة . أما الاخير فلم يبتعد خطوة واحدة عن أرض الوطن . ولم يكف عن الحلم بالام ، بالارض الام . بل وقام يربط

ـ التتمة على الصفحة ١٠٣ ـ

حديث الدرب ...

قصة بقلم يوسف أحمد المحمود

ـ ما اسمك ، يا صبي ؟
رشقه الصبي بنظرة فاحصة ، وقال :
ـ كما أسماني أهلي !
ـ ابن من ؟
ـ ابن أمي وأبي ..
ـ كيف تأكدت من ذلك ؟
وأدنى الاستغراب من جفني الصبي قليلا ، ثم بلا مبالاة :
ـ ألست ابن أمك وأبيك ، أم ان للبغلة ابنا ؟!
وتجاوز الرجل الشطر الثاني ، وهو يرد :
ـ على ذمة أمي ..
ـ ألا تزال فوق الارض ؟
ـ ترغب أن تخطبها اليَّ !
لمع شدقا الصبي بابتسامة هشة ، وقال بنشاط :
ـ أظنها تحت الارض ، فانت رجل كبير !
ـ اذن ، أبواك لا يزالان فوقها ، فكيف ترعى انت هذه البقرات ؟
ـ كلا ! ﷲ ... قتل أبي .
وتلمست يده قصبة علقت في كتفه كالبندقية ، ثم عاد يقول :
ـ شاربك كبير ، فكيف لم تذهب الى الحرب !
ـ الهر شواربه أكبر ، فهل يذهب الى الحرب ؟
ـ ولكن أبي ذهب . ألم تقل لك أمك : اذا ما صار شارب الرجل يمسك براس اصبعيه ، فعليه أن يذهب الى الحرب ؟

والتفت معجلا يصيح : « صبيحة . لا تمدي بوزك الى الزرع . عبد الله وراءنا ، ابن حرام ، فلا يفلتك بلا « قطعية » » .

ولكن الصيحة كانت أردع للرجل منها لاطماع البقرة . فرفع رأس البغلة عن العشب المنحسر في جانبي الطريق ، بينما كانت تقتحم عينيه، اللتين بدا فيهما الدمع كدم جرح في يوم بارد ، صورة ديوب العاصي الذي كثيرا ما صادفه في هذه الطريق ، فيدخن معه سيجارة عربية من على ظهر بغلته ، وهما يتبادلان الحديث عن الاسعار والمواسم هذا العام .

ولم تكد البغلة تجد في سيرها حتى لاحت له امرأة ، تغور تارة وترتفع تارة أخرى ، كأنما الطريق ، كما يراها ، قد كسرت بزلزال .. وشبه ضباب فاتر يحاول أن يغمرها .

انها مائلة قليلا الى الامام تحت حمل حشيش غض ، تدلى حتى كتفيها ، فجعلها لا تبصر من الطريق الى أعلى من ركبتيها . ثم سمعها تقول للصبي : « ألا تزال هنا كأنك تمشي على بيض ! ألم أقل لك ، لا تدعني أراك الا في البيت ؟ سق البقرات ، كفاهن ما رعين . اركب الحمار فالارض تسلق القدمين . لماذا لم تغرب مع رشيد هذا اليوم ؟ »
ومضت تغني بصوت يزدرد التعب بعض مقاطعه :

سنين كتير من العمر مريت وعيشتني ، يا حبيب القلب مريت
وبتذكرك كل ما بالدرب مريت وبشوف وجهك نابت عل عشاب .

خنس الرجل ببغلته في جانب الطريق حتى تجاوزته ، فاستأنف السير ، بينما كانت خواطره تستأنف العودة الى ضحى يوم ، كأنما رش جوه بمسحوق أربد صلب يكبس النفس ويحاول أن يرده من الانف والفم معا . يومذاك وقف على رشيد القمع ، ثم قال ، وهو ينوي المزاح :

ـ أرى بقراتك ، ما شاء الله ، ضعف الاسبوع الماضي ، يا أبا دياب!
فزحزح أبو دياب شفتيه ، اللتين قلما يفلتهما من بين أسنانه ، ورد :
ـ بركة الله ، الربيع يكثر الفراش والعصافير ، ألا يكثر البقرات؟
ـ أتبيع هذه الصبحة ؟
ـ ليست لي ...
ـ آ ، صحيح . هذه بقرة ديوب العاصي . لعله يبيعها ، فهل هو وراءك ؟
ـ يعلم الله أين ترابه .. ذهب الى الحرب .
ـ الحرب ! من يقوم له بشغله ؟
ـ أقوم الآن برعي البقرات ، وفي يوم الحصاد سأجعل يوما في زرعي ويوما في زرعه .
ـ كل الناس أبو دياب ؟ بارك الله فيك ، هكذا الجار !
ـ ماذا أعمل .. الحرب لا قدرة لي عليها ، أفلا نمكن منها اربابها ؟
ـ ياليت كل الناس يقدرون مثلك .
ـ كل الناس خير وبركة .. لقد ذهب ، في هذين اليومين ، أكثر من ثلاثين رجلا . والله لو كان فيَّ قدرة ما تركت أحدا يسبقني ، ولكن ـ كما نرى ـ صارت يدي ترجف بالسيجارة .

واستمر الضباب كأنما تدفعه أمامه عيناه ، كأنه هالة لوجه ديوب العاصي .. حاجباه المقرونان يلتقي سوادهما بسواد ناصيته النافرة من تحت الكوفية والعقال كجذور شجرة تشق جدار قلعة قديمة .. جبهته شق صخرة بركانية شطرت حديثا فلا تزال تلمع .. كتفاه جناحا صقر يهم بالطيران عموديا ، وعيناه شطرتان من الصوان الحاد ، يخيل لمن يراهما ان جفنيه لا ينطبقان حتى في النوم .. يمشي قطعة واحدة كجذع بلوط اسودت في قلبه مئات السنين فلا يعود ينفذ فيه الرصاص !

***

كان ديوب العاصي لا يعرف نفسه الا وهو يطرق ذلك الدرب مرتين كل يوم . فالبيت هو الطرف الاول والحقل هو الطرف الثاني . والدرب من تحت قدميه كقبان سيارات الشحن . تارة ينوء بما يحمله ديوب العاصي من الحقل . وتارة كشريط التسجيل ، يتلقى فيض كل حال من أحواله . فان اطمأن الى خصب الحقل .. ان حفلت ضروع البقرات بالحليب ، رفع صوته بالغناء ، أو وقع أنغامه صفيرا كنحلة تثير سخاء الزهر برنينها .

وان داهمه البيت بالمضايقات ، أو أنذره الحقل بالاخلال بحساباته .. أو أخذ « الطباق » باشداق البقرات و « التقريع » باظلافهن ، لوى رأسه كعصفور أضناه الطيران فلا يجد أرضا يغمرها الثلج ، ونثر آهاته غناء أيضا ، ولكنه يلزم فيه حد الصلاة فلا يتجاوز اذنه هو .

ربما كانت تلك الاحوال تتكرر ، ولكن ديوب العاصي لا يتلقاها باحساس متكرر ، كان كل خطوة يخطوها في الزمان لها درجات في

الاحساس . والجديد الذي يسجله الدرب لا يمحو القديم كما هي الحال في عرف أشرطة التسجيل .. من الوادي بدأت ، يا ديوب العاصي ، وكلما ارتفعت في جبل الزمان اتسع مدى رؤيتك ، واعتورتك تأثيرات المناخ .

وأحيانا كانت نظراته تضيع في صمت موحش . فيرى كل بقرة من بقراته قد صارت اثنتين ، ثم يتلاشين ، ولا يعود يحس الا باصوات امتصاص كامتصاص الاسمنت المسلح اذا ما سقي الماء مساء يوم قائظ في بضعة الايام الاولى لصبه .. يعلم الله أين وصلت ، يا ديوب العاصي ! ثم ينجلي السديم ، فيرى أول ما يرى أرنبة أنفه كأنما سقط ظله في بركة فوقه .

الحقول هي نفس الحقول . فاذا ما استرد منه مالك حقلا عوضه من مالك آخر ، وحاشا الله أن يقطع مخلوقا ، والدنيا ما عليها بخيل ، فمن لم يجد عليك جاد على غيرك . والبيت هو ذاك البيت يكاد التواضع يطمسه في الارض ، ولا يفوت بابه أن يشارك الارض بشرب المطر حتى لا يعود يغلق الا على شفا الصدغ الداخلي . واذا ما ثقل الشتاء ربما فاضت قرانيه بالينابيع وشقته السواقي الى الباب . أما سطحه وجدرانه التي تطين كل صيف فربما زادت قوة الانبات فيها على قوة الحقول ، فيلوح كأنه دبابة غمرت بالحشيش للتضليل . والمعدة ليست « بيت الداء » وحسب وانما مصدر الحركة الابدية . فلا تستمد من الحقل رطلا حتى تحرق فيه من العضلات ما يوازي قنطارا ، ومن تحتاجه في شيء يحتاجك بأشياء ، ومن لا يقدم التسعة لا يأكل العشرة . ما أشبه الارض بالمرأة تنتق الرجل في ليلة ، ثم لا يكاد يشب عنها كأم حتى يعود اليها كزوجة !

هكذا يا ديوب العاصي ، من البيت الى الحقل ، ومن الحقل الى البيت ، فلو بقيت ماشيا أما كنت قطعت الدنيا بقرانيها الاربع . والحديث نفس الحديث ، الموسم جيد أو رديء ، فلو كان مما يكتب ، أما كنت ركمت هذا الوادي بأوراقه !

ولكن الحديث تغير ضحى ذات يوم ...

كان ديوب العاصي على الدرب . بقراته ، كما هي الحال في أكثر الاحيان ، يتسابقن مع بقرات جاره رشيد بالتقاف العشب المنحاز بين حجارة الطريق ، فيصلن الى البيت دون أن يفقدن شيئا مما أصبنه في الحقول . كان يرد على رشيد :

ـ ضع رأسك بين الرؤوس ، وقل : يا قطاع الرؤوس . اذا حلق جارك بلّ لحيتك . انهم لا يريدون فلسطين وحدها ، وليس من أجلها وحدها جاءوا . آباؤنا كانوا يساقون الى السفر برلك ليحاربوا مع الدولة التي حاربوها مرارا وتكرارا ...

وتعجل رشيد القول :

ـ الحق معك . ولكن اذا ذهبت فقتلت ، لا سمح الله ، فان بقراتك سيبقين في الدار . أمك عاجزة وابناك في « اللفلوفة » . امرأتك .. صحيح انها نشطة ، ولكن كثرة الشغل تعمي القلب ، والبيت بغير رجل كالطعام بغير ملح . الزرع ، ما شاء الله ، « دف سبل » جمعة ساخنة مثل هذه الجمعة يقع الحصاد . ارضك « مبعزقة » ، في الوادي ، في الظهر ، في هذه الناحية وفي تلك .. « الطرش » يتلفها تلفا ، وأصحاب الارض لا يرضون منك بهذا . أنت رجل شغيل ، ومع هذا فانك تشهق فلا تلحق . هل تستطيع امرأتك أن تنام على البيدر في البرية ، والليل يجزع منه كل صنديد ؟ جنيات عين مسعود يأخذن عقلها ، ألا تعرف النساء ؟ انتظر عدة أيام .. أمس كانوا يقولون في السوق ان الدول الكبرى تدخلت للصلح .

ـ هذا هو عقلك ! من يشعل النار ليحرقك هل يطفئها ؟ من لا يدبر أموره بنفسه ليس برجل . الرجال خلقت للحرب . اليهود يجتمعون علينا من أطراف الدنيا ، يقتلوننا في أرضنا ، ويعيشون في بيوتنا ، ونحن على ضربة حجر بمقلاع فلا نذهب لردهم . هم يتركون متاجرهم في عواصم العالم ويأتون لاستلاب ارضنا وهتك أعراضنا ، وأنا لا أترك رعي أربع خمس بقرات ! الرجال للحرب وليس لرعي البقر والتثاؤب على الدرب .

ـ حكيك صحيح والله . أتظن أن دمك أسخن من دمي ، لا وحياة سيدنا الخضر ، ولكن ...

ـ شغل ضروري وشغل أضر . الحرب لا تنتظر . أخبار تثير النخوة . والله ، وما لك علي يمين ، ما وجدت للنوم طعما منذ وقعت الحرب . انسان يقطع البحار والقفار ليسلبك بيتك وأرضك ويقتل أولادك ويفضح زوجتك ، هل تحني له رأسك ؟

ـ حقا صعبة ، ولكن أولاد حرام ، الدول كلها معهم ، ماذا نعمل ..

ـ نعمل مثلهم .. نقاتلهم كما يقاتلوننا ، فاما هلكة واما ملكة .

ـ أولاد حرام !

ـ من لحم ودم مثلنا ، فهل هم من سنديان ونحن من صفصاف .. بيننا وبينهم ..

ـ أبو دمر عن صحيح ! والله ، لو كانت بيننا وبينهم لاكلناهم بلا ملح ، ولكن الدول ...

ـ ما شأن الدول بنا ! هذه الدول التي تصف معهم لو جاء اليهود يحتلون أرضها ويقتلون أهلها ، هل تقول لهم : أهلا وسهلا !

ـ غريب ! يحكون عن أوروبا انها متمدنة ، فكيف تساعد أناسا لاحتلال أرض الاخرين وتقتيلهم فيها ؟

ـ أوروبا تتخلص بذلك من عدوين . أولا ترتاح من اليهود في بلدانها ، وثانيا تشغلنا نحن بهم .

ـ يا عمي .. دود الخل منه وفيه . لو كانت العرب يدا واحدة من كان يجرؤ عليهم ، ولكن هذا يشد وذاك يرخي ، والاجانب خبثاء يدسون بيننا ويشتغلون شغلهم .

ـ هذا هو قولنا . صار فينا مثل ما صار بجحا . قالوا له : رائحة وحشة في ضيعتك . قال : اذا لم تكن في حارتي فلا يهمني . قالوا : بل في حارتك . قال : لا يهمني اذا لم تكن في بيتي . قالوا : في بيتك هي . قال : اذا لم تكن في أنا فلا أبالي . أخيرا ستكون في ظهورنا جميعا .

ـ يفرجها الله ...

ـ جل اسم الله ! اذا جاء واحد وأخذ بقراتك من أمامك ، هل تدعو الله أن يرده ، أو تكسر أنت رأسه ؟

ـ أخذ الحق صعب ، والله .

ـ كأني على نار . أنا هنا والحرب عالقة ! كيف يسمع العالم أن اليهود يقتلون العرب ويأخذون أرضهم . كم يحط هذا من شهامتنا ، ومن له عين يظهر بين الناس بعدها !

***

بخار الماء يبدو كأنه يتسع ويضيق كغلاصم ضفادع أجهدتها حفلة نقيق حادة . وأحيانا يظهر كنحل هارب ، ولكنه متواصل بلا نهاية . الجو ، وقد أخذت الشمس تدلف نحو الظهيرة ، ينذر بشيء من الحر . أسراب من النساء ، بعضهن يحملن حشيشا تغلب عليه الصفرة الشاحبة ، وبعضهن يحملن « بلانا » تشتد به الخضرة الى حد السواد . أكثرهن قد حشون أحذيتهن في خواصر الحملة ، اما توفيرا للنعل ، واما تخففا في نقل الاقدام التي يحثها ثقل الحمل من الرأس وحرارة التراب من تحتها .. وواحدة في الطليعة تغني :

يا طير الهيبي ، يا طير الهيبي مين قال اسماعيل يخطف وهيبه
محمد ، يا محمد جب الطبيب صبي اللي ببطنا طالعلو سنونا

وواحدة في المؤخرة ، متوسطة السن ، تحرص أن تصل حبل السرب ، ولكنها تشد التي قبلها بسؤال لاهث :

ـ ما رأينا تمرة اليوم ، هل سبقتنا ، ام انها لا تزال وراءنا ؟

وردت تلك بما يشبه الامتعاض :

ـ ما شاء الله ، كم تتظاهرين أنك لا تعلمين شيئا ، زوجها ذهب الى الحرب !

ـ باسم الله الرحمن الرحيم ! وحق الذي خلق الخلق وقسم الرزق ، ما دخل هذا الخبر أذني الا منك . هل جن ؟ أولاده صغار

ورزقه لا تأكله النار .

ـ جن أم لم يجن ، ابنك أليس في الحرب !

ـ ابني عسكري ...

ـ وهذا شاب ثارت نخوته ..

ـ لهذا ، اذا ، رأيت أمه ، وكانت تأخذ دور الحليب الى جارتنا، تبكي . ظننتها قد تناكفت مع كنتها ، فلم أجرؤ على تكليمها . كنتهـا صعبة ذوقتها الزيت المغلي .

ـ يا أختي ، كنائن هذه الايام أشد من الحرب . اما هو ، فابـن حلال ، والله دائما الى جانب أمه .

ـ نصرهم الله وحماهم جميعا ليحمي لنا ذلك الصبي . والله لو كنت في الحرب لكنت أكثر ارتياحا . قطع الله اليهود ، من أيـن جاءتنا هذه المصيبة ! ما تخلصنا من تركيا حتى داهمتنا فرنسا ، وما ارتحنا من فرنسا حتى هاجمنا هؤلاء . ماذا عملنا للرب !

ـ الراية البيضاء على فرنسا ! صحيح كانت تحتل الارض ، ولكنها تركتنا في بيوتنا ، أما اليهود ، يا رب أجرنا ، فانهم يأخذون الارض ويذبحون أهلها . كنت أمس أشتري ملحا مـن السوق ، فسمعتهم يحكون العجائب : المرضع يذبحون طفلها على ركبتها .والحامل يشقون بطنها ويتركون جنينها مندلقا ، وما سواهما فيفضحون ، يارب سترك . الموت ولا الفضح .

ـ لا تسمعيني مثل هذا ، يكاد أن يغمى علي . كان الله في عون أهل تلك البلاد .

ـ الله لا يحارب . ولكنه يقول : قم ، يا عبدي لاقوم معك،واقعد لاقعدك . يا ليت كل الرجال مثلك ، يا ديوب العاصي .

***

انقضى موسم الحصاد ، وفي نفس تمرة حساب لغير الغلة التـي جنتها لاول مرة من حصاد لم تمتد اليه يـد زوجها . احاديث كثيـرة شحنتها في تلك النفس ، وهي تغدو وتروح على ذلك الدرب . ولكـن حساب الحرب كان أكثر ترددا والحاحا في كل نفس . هل يعود ديوب العاصي أم تسقطه من هذا الحساب ؟

قالت لها احدى جاراتها بحنق ذات يوم :

ـ تكلمي .. ألم يعد لك لسان !

وغمغمت دون أن ترفع شفتيها مع مقاطع كلماتها :

ـ لماذا الكلام ! وجدت نفسي يتيمة ، فلم أدر كيف عشت . فهل يشق علي أن أعيش ارملة لا أدري كيف أجعل ولدي يعيشان ؟

وقالت الجارة بأسى :

ـ لو كان بين الاحياء أما كان يذكركم بقصاصة ورق ؟

ولكن وجه تمرة المغزلي غار من فوق فكيها ، وظلت ملامحه الكثيفة كخطوط الطوبوغرافيا تشير الى شدة ارتفاع الجبل ، ظلت كما يظل احساس الذي فقد أحد أعضاء جسمه حديثا ، انه لا يزال ينعم بذلك العضو . أما عنقها فانها ، على قصرها ، غاصت بين كتفيها ..

انها لا تبكي . ربما كانت في يتمها قد بكت عن كل ما ستعيشه . انها تعتسف الدرب حتى لاتصادف امراة عليه .. النساء كالبوم لا ينقلن الا اخبار السوء . واذا ما كانت في البيت ، فانها لا تسعـى للجلوس الى جارة .

حتى حماتها اذا ما طلبت اليها شيئا ، لا تجيبها بصوت . بـل تفعل ما تشير اليه متحاشية رفع بصرها فيها ، كما تتحاشى حـركة لسانها . مرة قالت :

ـ أراك لم تعودي تذكرين زوجك لا بشفة ولا بلسان !

ـ كان الله معه حيث كان .

ـ لمحت ساعي البريد منذ يومين قادما باتجاه الحارة ، فهل دفع اليك شيئا ؟

ـ متى كنت أخفي عنك خيرا أو سوءا !

ـ قلبي يحدثني بما نكره ، فلعلك تكتمين علي ...

ـ ان تكتمت أنا فالناس لا يتكتمون على ما يخص جيرانهم .

ـ أرى يتمك قد أعدى بنيك .

ـ ماذا تريدين ، ألمليح من الله والرديء مني أنا ؟

ـ كنت مارة أمام دكان الترك .. كانوا يقرأون « كزيطة » ، فلما ابصروني طووها .

ـتحكين بالساعة مليون كلمة ، فلماذا لم تسأليهم بكلمتين ؟

ـ اخرستني الدموع .. اللاجئون صاروا في كل بلدة .. رئيـس المخفر يطوف على وجوه القرى لجمع الفرش ..

ـ ماعندنا فقد أعطيناه !

ـ أي والله ، أعطيت من كيس الذي خلفك . أما كفاك شقاء اليتم حتى تكمليها بشقاء الترمل ؟ كيف تتكلم كأن القط لم يأكل لها خميرا.

وقامت الى النوم . انها لا تجد مهربا من نفسها ، وكـان يكفيها ان تهرب من الاخرين ، فكيف تمادت مع حماتها ؟ كيف اقتحمت عليهـا نفسها ، والقت فيها هذه الحفنة من الاشواك ، « ارى يتمك قد اعدى بنيك » ، يا لشوك الصبار ، في اليد لا يطاق ، فكيف به في الاعماق !

من هنا نفذت . هذا ما سترميها بـه كلما دق الكـوز بالجرة .

وظلت عيناها تلمعان في الظلام . آه ، كيف تضيء العينان بالدموع ! انها لا تحس في البيت ، فهل هي في العراء كما يمكن ان يكونزوجها؟

ولم تمعن في التساؤل . وجهه الذي يحده طرفـا الكوفيـة « المزرزرة » المنحدران على الصدغين حتى اذا مـا التقيا تحت حنكيه ، اصعد كل طرف بعكس جهة الانحدار الى أن يفرزهما تحت العقال .. واذا ما كان البرد مؤذيا رفع طوقا مما تحت الحنكين وتلثم به ، وظـل أنفه نافرا كبرعم البلوط . هذا هو الاطار الذي يبدو لها به ذلـك الوجه . ما أقل ما يظهر منه ، ولكن السماء أكبر مما ترى منها ، وهي في قرارة الوادي . عيناه المزدهيتان لا تكفان عن الحركه . انهمـا كمنظار لا تزال ترى فيهما أكثر من هذا العالم . اللمعان لا يفارقجبينه كانه يرشح بالعرق في « عز دين » الشتاء !

ظنت هذا حلما . كما ظنته أن سيكون حقيقة . اذ أنه قلما عاد ، اذا ما كان غائبا ، الا في الليل .

***

كلا . لن تعدي ولديها باليتم . انها لا تماري في أنها نشـأت يتيمة ، وعاشت شراسة الضبعالتي تخلف الجاموسة في أولادهـا . ولكن الامثال تقول : اذا مات الاب فهناك رب ، أمـا ان ماتـت الام فاحفر وطم .

زوجها نفسه ، هل حدثها مرة عن أبيه ؟ استعرضت كل الذيـن ادركتهم طفولتها في القرية ، ولكنها لم تر جسما ورا اسم أبيه. فلتقل حماتها ما يعن لها ، فمتى كانت ترد عليها . وهل يدرك النقص فـي الناس الا صاحب النقص !

عزمت الخروج عن الصمت . لقد تركه أبوه وحيدا بين ابنتين ، اما هو فقد ترك صبيين . انها ليست شيئا اخر في هذا البيت،ففرع الشجرة لا ينمو الا على امه ، والاولاد هم الجذور التي تمسك الشجرة في مكانها . لقد اختار ديوب العاصي مصيره ، وابناه ليسا بحاجـة للتساؤل عنه ، فصبيان الحارة لا يتورعون أن يقرعوا بعضهم بعضـا باي نقص يطرأ على بيت أحدهم . واذا أردت اخبارها فعليك بصغارها. ولكنها ، وعضت على نواجذها ، هي التي ستقرر مصير الولدين معا.

كلا ، يا تمرة .. لن أجعلهما يخلفانه فـي حراثـة الارض . لـو أن شخصا في هذه القرية أو في القرى المجاورة قتلك ، يا ديـوب العاصي ، هل كنت أرضى لك بعقاب الحكومة ، فكيف أن يكون القاتل من الذين حاولوا أن يقتلوا النبي قبلك ! لعينيك ، يا ديوب . وحق علام الغيوب وكاشف الكروب ما رضيت لك الا دما بدم .

قالت لها امراة ، وهي تنظر الى صبي يسوق البقرات أمامها في الدرب :

ـ كبر الاولاد ، الحمد لله ، وسيريحونك !

وخفت تقول دون أن يبدو التعب في قولها مما تحمل علـى رأسها :

ـ لا لهذا أريدهما أن يكبرا . أريد أن أراهما في العسكر ، أن أقول : كبر اليتامى ، يا دياب وجوك !

ـ أتحرمين منهما كما حرمت من أبيهما ؟

ـ ما ضاع حق وراءه طالب .

ـما دمت تعلمينهما في المدرسة ، ان شاء الله سيتوظفان ، ويكفيانك الرواح والمجيء على هذا الدرب .. ألم تضجري منه ، فقد نقبته أقدامكم .

ـ ان لم يقبلا في العسكر فأمامهما الخدمة الالزامية .

ـ اتركي أحدهما للوظيفة والثاني للعـ ...

ـ انني لا أريدهما لما أعيش به . بدأت حياتي يتما ، وانتصفت ترملا ، فلا يهمني أن تنتهي ثكلا . بل ما يهمني أن أحيي دم زوجي بدم أبنائي كما يحيي التاجر ماله بماله .

ـ ما شاء الله ، ما احكمك !

ـ الدم لن يصير ماء. ولن يكون الابن بغير ما كان الاب . كأنني، كل لحظة ، اسمعه يلح علي بهذا . لو كان من يسمعه عندما قتل ما اظنه كان اوصى الا بهذا .

ـ اذا ، ترينه في منامك ؟

ـ رؤيته في اليقظة لا تترك شيئا للنوم .

ـ مسكينة أمه ! طلعت روحها ، وهي تقول : كم كان يخفف من حزني لو رأيته ولو قطعا قطعا ...

ـ وأنا لا يشفي نفسي الا ان يحارب ابناه حيث قتل .

***

وظل الدرب مترنحا بين نهاية السفح وبداية الجبل . وكأنهبرزخ بين التربة البركانية الشاحبة ، ولا يزال يشتد بهـــا السواد كلمـــا اشتد الجبل سموقا ، وبين تربة يتناوبها البياض المعـــرق والشهبة والحمرة ، مستندة الى جدر صخرية قائمة ، او متهاوية في منحـدرات لا تهدأ بها حتى تغوص في النهر المتعرج كحية تتقي الحجارة بالنوائهـا هنا وهناك .

لقد تقلصت الحقول التي تواصل تمرة حرثها ، فملاكها لا يلقـون بها الا لمن تتوفر لديه اليد العاملةوالوقت معا . ومع هذا فانتمـرة ما تفتأ تغدو وتروح على الدرب .. ترعى البقرات ، وتحتطب او تجمع الحشيش ليكون علفا مع التبن . ومن يوم لاخر يرى معها صبيضـاع لون بنطلونه القصير بين الوان الرقع الغليظة ، يعسكر السواد فـــي قذاله وعنقه ، ثم يلزم ساقيه كأنه خلقة وليس من لفح الشمس الملبـد بالوسخ . والقصبة المربوطة قبل الطرفين بشرائط مختلفة الالوانايضا، لا تفارق كتفه ، سواء اتقى حرارة الارض بظهر الحمار ، او تتبـــع البقرات الباحثات عن المرعى .

وكثيرا ما تتأخر بالعودة الى القيلوله . وصاحب البغلة الـــذي سأل الصبي ، معابثة ، عن اسمه ذات يوم ، لا يزال يحمل سلعه بين قريته والبلدة ، ولكن الابتسامة صارت تأخذ مكان الانقباض فيشفتيه كلما وقعت عيناه على الصبي .. لم يعد يسأله باشفاق : ((كيفانت، يا صغير)) بل انه يقول بصوت مفخم : ((كيف حال الشباب اليوم!)) واذا ما أنس فيه الارتياح ، أشار الى القصبة ، وقال :

ـ كم يهوديا قتلت اليوم ، يا دمر ؟

فيسدد دمر اليه ، ويرد :

ـ لم يبق الا أنت . خذ حذرك ، ولا تقل اني غدرتك !

ولا يكفكف من قهقهة الرجل الا وثبة صورة ديوب العاصي فيرحمه في سره ، ويحاول أن يبث نظراته بين الزرع ، لعله يبصر تمرة،فيحييها تقديرا لما تعانيه واعجابا بدمر . ولكن النظر لا يمضي بعيدا تحـــت الشمس الساطعة . والزرع الاخضر يميل الى السواد كلما دلفـــت الشمس الى الظهيرة .

سواد رطب في الارض وضوء ساطع في الجو ، كلاهما يعـــزز الصمت كما يعززه هدوء الليل ، فلا يسمع الا انات الجداجد تنطلــق مستقيمة سريعة كطلقات بندقية الى ارض بعيدة .

من الذي ينمو على الاوهام : دمر ام أمه تمرة !

ولكن آمال الرجل التي تحولت الى اوهام تستيقظ في نفســـه فتشغله عن الجواب . هذا هو العام الخامس ، وابنه المغترب فـــي البرازيل لا تزال الخيبة تمنعه حتى من الكتابة اليه : الاغتراب والحرب شقيقان !

***

مرة اخرى تنافصت الارض التي تزرعها تمرة حتى صارت لا تزيد عن حقل واحد . ولكنها تذهب اليه بلا حذر . لم يعد باستطاعة المالـك ان يأخذ ارضه من الفلاح اذا ما عن له ذلك . انها تدرس الزرعوتذريه دون ان تستأذن المالك .. دون ان يحضر ، فيجلس تحت الزيتونة في طرف البيدر الغربي ، يمصمص عظام الفروج المقلي بالسمن .. لـــم تعد تكيل الغلة تحت عينيه . هي وذمتها ، ان شاءت ارسلت اليـــه بشيء ، وان شاءت منعته .

ولكن هواجس تمرة في غير هذا المجال . حقا ، ان الفلاح استرد بعض ارضه التي سلبها عبر مئات السنين .. لقد ثار بعض الثار ، او كله ، ولكن :

ـ الثأر الاخر ، يا تمرة ان تسترجع حقول فلسطين .. الارض التي سقاها ديوب العاصي دمه ، ما آن لزرعها ان يحصد !

ـ انك تحظى ب ((مأذونيات)) كثيرة ، يا دمر !

ـ ما رأيت في الدنيا مثلك أما ! الامهات ينذرن ألف نذر ليعفى أولادهن من خدمة العلم ، وأنت تضيقين بمأذونية بضعة ايام اقضيها عندك . اراك لم تعودي تطيقين رؤيتي !

ـ ليس هذا ما أقصد . ولكن هل رأيتنا نغيب عن حقل الــزرع يوما أو يومين ؟

ـ ما شاء الله ، ما افهمك ! كل شيء تقيسينه بالفلاحـــة والزراعة ؟

***

انفلت فكاها برعدة هزت كتفيها كأنما تخرج من لدى الموقد فـــي ليلة شديدة البرد ، ولكنها الحرارة تفعل بها ما يفعل البرد في غيرها. الشمس ترتع في الضحى .

ـ حان استيفاء الدين ، يا ديوب العاصي . ما اطلنا عليك.عشرون عاما تقريبا ، ومن خلف مامات ...

اطلقت ذلك صياحا رغم تشددها بكتم ما في نفسها ، ثم بكـت لاول مرة ، وهي تتبع الصيحة :

ـ قسما بدمك ، يا ديوب ، كل شبر من ارض فلسطين لارفعـن عليه مجمرة بخور ، ولاضعن باقة زهر على كل حجر فيها . ان دمك في كل مياهها . لحمك وعظامك في كل ترابها وحجارتها ، وشعر راسك في نباتها وغصون اشجارها . دمر ، أبن ديوب العاصي ، والله ... كبر اليتامى ، يا دياب وجوك !

وتشد راديو الترانزستور الى اذنها ...

ـ رحت ، يا ديوب العاصي ، والحصاد على الابواب .. صرنـا في العام العشرين .. اليوم الثالث لبدء الحصاد ، وهو اليوم الاول للحرب .. دمر ، ابني ، حصادك هناك .. كبر اليتامى ، يا ديـاب وجوك ..

وتحاول ان تستانف الحصاد ، ولكنها خرجت عن ملك نفسها ..

ـ حصاد الحرب التي زرعناها منذ عشرين عاما ، اولى منك،ايها الزرع . قسما بالله لارقصن من اول فلسطين الى اخرها طولا وعرضا .. عشرون سنة وانا جائعة ، ظامئة لهذا اليوم . البقرة ، زيتونة .. لا بل أنت ، يا رمان سأجعلك أجرة الطريق . دمر ، لا أريدك راجعا.. ابن ابيك ، والله يشهد ، فلا تترك النساء ارامل كما تركني اليهود.. الاطفال لا تتركهم ايتاما كما تركوك .. كلهم جميعا ، رجالا ، نســاء واطفالا، ثمن ما اكلوه من فلسطين . العربي بقي اربعين سنة حتـى اخذ بثاره ، وقال : استعجلت . ظنوا انهم اخذوها بلا ثمن .. لا يموت حق وراءه طالب .. الان استيفاء الحساب .

ان نفسها تغلبها . افلتت الراديو ، وهي تسمع اخر محطة اذاعة تقول : والى هنا ، سيداتي ، سادتي ينتهي ارسالنا على ان نستأنفه في الساعة ... صباحا ...

ترى ! هل يتوقف القتال ؟ لماذا لا تكون الاذاعة في الجبهة ؟ لمثل هذا فليقدموا وصفا حيا . لن انام ، يا دمر ، فانت غير نائم . ليتني معك في كل خطوة لازغرد لك ..

ولكنها في الصباح وقفت عن متابعة الخبر الاول كأن كل حماسها قد جفل ، وقالت :

ـ أكنت ، اذا ، نائما طوال الليل ، يا دمر ، فلم تصل الى تل ابيب !

وبدا لتمرة انها بلا اقدام . انها مجرد كومة على الارض. حاولت ان تحث نفسها على شيء ، ولكن تلك النفس كسحابة صادفت جوا حارا ، فراحت ترتفع ، وتتمزق هنا وهناك .

اسقاط طائرات ! هذا ، يا دمر لا يعني شيئا . العدو هو الذي يهجم .. ما كنت أظن الا ان رصاصكم خيط اسرائيل تخييطا .. تصورتها صارت كالغربال . والله ، ان رجعت حيا فلا أنظرن اليك ولو طبقت السماء على الارض .

أظلمت نفسها قبل المساء . كانت موحشة كغابة في أمسية شتاء ثقيلة .

ـ لقد مات ابنك حيث مت أنت ، وأنا لن أموت هنا . الحجارة لا تصير كلسا الا اذا شبعت نارا . قلت له : انك تحظى بمأذونيات كثيرة . الزرع لا ينمو بمطرة واحدة .. ثلاث مرات يتناول الانسان غذاء في اليوم . مرتين فتحت الحرب ابوابها . الذي ينتصر مرتين متواليتين لا يقضي على الحرب ، بل يزيدها ضراما . « المغلوب لا يشبع غلوب » بل يستمر في المغالبة حتى يغلب . لن اموت ها هنا.. مرة ثالثة تفتح الحرب ابوابها .. عندئذ اذهب واموت فرحا حيث متنا ألما .. تباعدنا في الحياة فلنتجاور في الموت .

***

ولم تصدق . صاحت بها احدى الجارات :

ـ اسرعي .. في السوق عائد من الحرب لا يزال بسلاحه .. كل الذين لهم رجال في الحرب خفوا اليه يستطلعونه .

ـ تهزئين بي ؟

ـ هذا وقت مزاح ! ما بقيت امرأة لها « عضيد » في الحرب الا ذهبت اليه . اسرعي قبل أن يذهب ، استدعاه مدير الناحية ، ظنوه هاربا ، ولكنه يحمل مأذونية ...

وردت كأنها لا تصدق :

ـ هذا وقت يؤذن فيه ذو سلاح .. اليهود هنا !

ـ قل للجب : بو . يجيبك : بو ! استدركيه قبل ان يذهب .

ـ من فقدت الزوج لا تبالي بفقد الابن ..

ـ وماذا يبقى لك ؟

ـ لا أريد رجلا يبقى بلا أرض ، بل أرضا تبقى بلا رجال . خرابها عزيزة ولا عمارها ذليلة .

ـ وأنت « تقوقين » مثل البومة في الخراب ! ماذا يعني أن يكون الدنيا كلها لك ، وليس لك فيها زوج ولا ابن ؟

ـ الدنيا كلها لي اذا قتل زوجي وابني وأنا دفاعا عن شبر يخصنا منها . الملك بالكرامة وليس بشيء اخر .

ـ وما لك من الارض ؟ صدقت أن القطعة التي لا تزالين تحرثينها صارت لك .

ـ ما كان فقد كان . والورقة التي تفرط من الشجرة ، لا يمكن ان تعود هي نفسها الى مكانها . اننا نسترد حقوقا طال اغتصابها . ومع هذا فقد ربيت ولدي للثأر . والله ، ان لم تكن قد قتلت ، يا دمر فلا فتحت عيني في وجهك .

ـ اذا ، عيشي وحدك في هذا البيت ، ما اراك ستتركين فيه جنس الرجال !

ـ ان يقتل ابني في الحرب ولا يهودي يسوقنا كالدواب امامه .

ـ ماذا سيوصلهم الى هنا ...

ـ ديوب العاصي لم ينتظرهم امام بيته ...

ـ فتحي عينك . اهل تلك القرى طفشوا ..

ـ لا يستحق ان يعيش من يفر عن بيته .. ما بقي حياء للرجال.

ـ ولكنهم يلاقون الذبح ان بقوا . !

ـ ذبح الانسان في بيته ولا سلامته بالفرار . العصفور عندما يذبح يرفس السكين باظافره . واخيرا أين نلجأ ؟

ـ ما اراك الا جننت ..

ـ المجنون من يفر عن بيته..

ـ اسألي ربك ان يكون قد كتب السلامة لابنك .. الف ام تبكي ولا تبكي امي .

ـ لا يشرف أما أن تبكي الف آم وتبقى هي بلا بكاء . بل أسأله أن يكون قد كتب له القتل . والله ، مرة اخرى ، ان رجع حيا ، فلا نظرته عيني ، وأنا تمرة عند يميني .

***

صارت تمرة ترتعد بالخوف والبرد معا . انها بين التاسع والثاني عشر من حزيران ، شهر الشمس والحصاد والحرب . فكم كانت تشتهي فيه الظل في النهار ، وكم كانت آمالها تسرح مع نجوم لياليه المزدهية كمراهقات نشئن في الحلية !

تارة تحس أنها ألقيت على رأسها من قمة السماء ، وتارة اخرى كقنفذة غار فيها ريشها الذي أعدته لاخطار الحياة ، فاذا به هو الذي يخترق اعماقها .

لا تريد ان تسمع . ولكن العائدين كثروا ، وكانوا يفرغون رصاص سلاحهم رشا ودراكا في زوايا الليل ، فيفرض على اذنيها السمع ، فتعقب بمقت :

ـ عشرون سنة ، ونحن نعد للثأر ، حتى اذا ما حانت ساعته جئتم ها هنا تفرغون السلاح . آه ، يا دمر ان عدت كهؤلاء !

جاءتها نقرة خنة حذرة من قبل الباب . انتظرت حتى شفعتها ثانية وثالثة ، فقالت بتوجس :

ـ من بالباب ؟

ـ أنا ...

وكان الصوت أخن من النقرة ، فردت واثبة من مجثمها :

ـ دمر ؟ جئت ، يا بن كيت وكيت ، والله لا نظرت اليك .. الرجال خلقت لـ « الفنطزية » !

ـ أمي ...

ـ لست بأمك . لماذا أمك ! تنح عن الباب لاخرج . لن يعلوني سقف مع مثلك . تركت دم ديوب العاصي ؟ الان حتى ايقنت بموته . انه لم يعقب . اللهم ، اني ما زنيت ، ولكنك لست بابنه ولا بابني . الثمار تكون على غصن واحد في شجرة واحدة وتسقى بماء واحد ، ولكن بعضها لا يزكو .. الان اندبك ، يا ديوب العاصي ..

ـ أمي .. يد واحدة لا تصفق .

ـ ما ربيتك لآكل من عملك .. جئتم تحدثوننا عن انتصار عدوكم؟ ربيتك لاتحدث بانتصارك ، لارفع لديوب العاصي قبرا في فلسطين ولاقيم الافراح من حوله .

وانقطع الصوت من البيت ...

خرجت من بوابة خلفية . انطلقت الى الدرب تحت الظلام. وارتفع صوت تمرة بالوداع الاخير :

هوى العز ، يا غالي هوانا   انتظرت كتير ما نسم هوانا
موت بعز لا عيشة بهوانا   ولا دمر ينادي على البواب !

يوسف احمد المحمود

رثاء شهيد

الى فاروق نجم بطل معركة تدمير الصواريخ في سيناء ٢٦ اكتوبر ١٩٦٨

حين اطلَّ على شرفتنا
ورأى أشواق مدينتنا
لم يقطع مسراه
النجم الجوّاب الثاقب
أخلف موعده الليله
طالت أيام الرحله
أم عاجله السَّهم الحاقد ؟
كل مساء ينتظر القلب
موعده .. يأتي .. يستهوي زهره
يسقينا سحره
يطفي نيران الوجد
ينفض غيمات السَّهد
يخفي في سترته الاشواك
وجراحات الصخر
وعلى الوجه المعبود الفائب
وهــج الاسلاك
ونثار غبــار
ويفوح الصبار
ويغيم نهار
والنجم الجوّاب الثاقب
ما حان .. ولا حان الموعد

***

الاعين عنّي ترتد
تستخفي .. والايدي تطوي الانباء
عن عينيَّ الظامئتين
عن كفيَّ الخاليتين
ومدينتنا عبر الصحراء
ورد يسقيه نهر الدم
رؤيا نجم يهوي في الدم
يــا نجمي
يــا نجمي المخضوب الجبهة بالدم
يــا نجمي الفائب
أين طواك الافق الشاحب ؟

***

يا شهداء المأساه
يا اشباح الويل
مات الليل
والنجم الجوّاب الثاقب
لم يقطع مسراه
يأتي .. لا يأتى

اني أعرفه
يرنو بعيون نبيّ
يبسم عن ثغر شهيد
يهبط غوثا للعاني في قريتنا
وشهابا يرجم افك مدينتنا
وجناحا لغريب وطريد

***

يا زهرة وادينا الفوّاح بعطر الحب
وعبير ضحايا الحريه
بلبلك الليلة أوغل في مسراه
يأتي .. لا يأتى
يأتي لحنا من سيناء
كل مساء تعزفه الريح الشرقيه
وتردده الاصداء
رعدا في الآذان الصَّماء
سكينا في أجفان الجبناء
عشرة آلاف شهيد
دمهم ما زال يروّي البريّه
يسمل أعيننا الجوفاء
ويلطّخ أيدينا
يدعو مليون شهيد
من كل شهاب ، نجم ، يهوى
لكن لا تهوى سيناء
نهبا في اقدام القتله
قتلة أحباب الله

***

اللعنة فوق رؤوس الفرسان المقهورين
ان لم يهو نداءك يا سيناء
يا غزة .. يا لؤلؤة فلسطين
يا قمما شمَّا في جولان
يا ضفتنا الغربيه
يا قدس الاسراء ويا سر الابديه
يا شاهدة العصر المقتول القاتل
اللعنة فوق جبين البشريه
اللعنة فوق رؤوس الفرسان المقهورين
ان لم يهو فداك العشاق
عشاق الحريه
مليون شهيد .. نجم .. حتى النصر

القاهرة — حسن فتح الباب

شعر المأساة في الارض المحتلة

– تتمة المنشور على الصفحة ٧٦ –

سفينة عمري
لكنا كفرخي حمام (٢٠)

ان وطأة الهزيمة ترزح فوق كل شيء ، تستلب المعنى من كل ما في الحياة من بساطة وبهجة وحب . فليس لأي شيء معنى ولا قيمة في حضورها الكئيب المزعج .. في حضورها ذاك لا يستطيع المحب أن يتواصل مع حبيبته ، ولا يستطيع الطفل أن يألف لعبته ، ولا تستطيع الضحكات أن تتواثب فوق الشفاه أو تزغرد فوق الوجنات .. أو بمعنى آخر ، لا تستطيع الحياة أن تسير في الوطن . فليس الوطن مجرد الارض والجبال والاشجار . ولكن الوطن هو العودة الآمنة الى البيت وعناق الزوجة والارتماء في حضن الام ..

ان الوطن
أن أحتسي قهوة أمي
أن أعود ، آمنا ، مع المساء (٢١)

ولقد فقد الفلسطيني – حتى – الموجود في الارض المحتلة الوطن بهذا المعنى ففقدت الحياة طعمها . وماتت فيها كل مظاهرها الطبيعية. ومن ثم أخذ الشاعر يعيد طرح القضية على هذا النحو الجديد ، على انها قضية الحياة ذاتها وليست مجرد قضية ثأر قديم ، فقد توحد الفلسطيني بالآلام الهائلة التي تمخضت عنها النكسة ، وأصبح جزءا من هذه الجراحات الجديدة الدامية ..

وأنا نعناعة التل
أنا النبع وغصن الورد
والمزراب والمدفاة المهجورة
السطح .. أنا سنبلة الحقل
الشجيرات .. ودوري القباب
وأنا قطعة أرض ، سكة .. همة فلاح
رحيل في التراب
فاذا بيارة تطلع من لحمي
وأطفال وخبز وكتاب (٢٢)

هكذا توحد الفلسطيني بالارض والجراحات الجديدة ، بصورة جعلت داخله يشتعل برؤى جديدة نعيد النظر في كل شيء .. في قضية الثأر كما رأينا وفي قضية العودة أيضا .. فلم تعد العودة التي يريدها الفلسطيني هي تلك العودة الرومانسية العقيمة ، التي امتلأت بها الاغنيات وأفضت ، على مدى عشرين عاما ، الى درب مغلق . ولكنها أصبحت عودة تشتعل بالنار وبالثورة . فالعدوان الذي وسع رقعة الارض المحتلة ضاعف أيضا عدد اللاجئين وعمق مأساتهم . لكن الشيء الجديد هو ان معسكرات اللجوء تحولت الى ساحات تدريب على القتال والمقاومة . وان رافضي الهجرة والنزوح توحدوا مع طالبي العودة وامتزجوا بهم بصورة صنعت من أجسادهم الرافضة الثاوية في قيعان نهر الاردن ، جسرا حيا للعودة ..

الجسر يكبر كل يوم كالطريق
وهجرة الدم في مياه النهر
تخت من حصى الوادي
تماثيلا .. تماثيلا .. لها لون النجوم
ولسعة الذكرى
وطعم الحب حين يصير أكثر من عباده (٢٣)

فوق هذا الجسر الرهيب الذي صنعته الاجداث وعبّدته الدماء ، ستعود قوافل النازحين التي خرجت من الارض أمام نيران العدو الحاصدة . ستعود رغم فداحة الثمن ، وهي تدرك فداحة هذا الثمن بحق ، ومن ثم لا تتغنى بمجرد عودة حلمية شاحبة كتلك التي امتلأت بها قصائد ما قبل النكسة . انها تتغنى بعودة قاسية باهظة الثمن ، لكنها شديدة التألق والوضوح . عودة تعرف الاصرار وتدرك الحقيقة ، فقد انكشفت عن عينيها غشاوات الاقنعة ، عودة لها طعم جديد ، هو طعم عام ١٩٦٧ وليس طعم عام ١٩٤٨ ..

مشيا على الاقدام ،
أو زحفا على الايدي نعود (٢٤)

والشاعر يدرك فداحة هذه العودة ولكنه يؤيدها ، وينادي بها ، ويحتضنها بحبه وبشعره . يأسو جراح شعبه خلال هذه العودة القاسية المريرة ويحاول في الوقت نفسه أن يصنع بكلماته جسر العودة ، أو بمعنى أدق أن يشارك في صناعة هذا الجسر وفي بنائه ..

أحبائي ...
برمش العين أفرش درب عودتكم
برمش العين
وأحضن جرحكم ، وألمّ شوك الدرب
بالجفنين
وبالكفّين
أطحن صخرة الصوان بالكفّين
ومن لحمي سأبني جسر عودتكم
على الشطّين (٢٥)

هنا يدرك الشاعر ان الشعر وحده لا يصنع جسور العودة ، فيؤكد انه سيشارك بلحمه في بناء هذا الجسر . سيشارك فيه بالنضال وبحمل السلاح وبالتضحية بكيانه الانساني كله فداء لهذا الجسر المرتجى .. جسر العودة الى الارض والى الوطن . فهذا الجسر وحده هو البرهان الساطع على الاخلاص للارض وللوطن ، هو التواصل العميق بين ماضي القضية وبين حاضرها ..

وعلينا كان أن نحارب
سربا من دجاج
ونحس العار حتى العظم منا
انما لا بأس :
هذا لحمنا جسر على البحر الاجاج
لضفاف لم نخنها أو تخنا (٢٦)

انه التكفير الجديد عن خطايا الهروب وعن عار التشرد والضياع . وهو التصحيح العميق لاخطاء الماضي ، وفي الوقت نفسه هو الطريق الحقيقي الى المستقبل ، الى خيوط الصباح الاولى بعدما تكاثفت الظلمة واشتدت جهامتها الحالكة .

(٧) عندما تتحول الكلمات الى شظايا

قلت ان الشاعر الفلسطيني يدرك ان الشعر وحده لا يستطيع أن ينجز ما يصبو اليه الانسان الفلسطيني الذي ولد في بوتقة النكسة

---

(٢٠) من قصيدة فدوى طوقان « كلمات الى وطني » نشرت في « الآداب » سبتمبر ١٩٦٧ .

(٢١) من قصيدة محمود درويش « جندي يحلم بالزنابق البيضاء » من ديوان (آخر الليل) .

(٢٢) من ديوان سميح القاسم « سقوط الاقنعة)

(٢٣) من قصيدة محمود درويش « الجسر » ، نشرت في « الطريق » – أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(٢٤) من قصيدة محمود درويش السابقة .

(٢٥) من قصيدة توفيق زياد « جسر العودة » نشرت في « الطريق » – أكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(٢٦) من قصيدة توفيق زياد « أدفنوا أمواتكم وانهضوا » نشرت في « الطريق » العدد نفسه .

القاسية .. لان هذا الفلسطيني الجديد بات يعرف بعد أن علمته (العاصفة) الطريق .. ان ..

كل الذي يقال ،
لغو ،
اذا لم يصنع الرجال (٢٧)

ولذلك فان الشاعر يطمح الى الاسهام ، بكلماته ، في صناعة هؤلاء الرجال . أن يفجر في أعماقهم الغضب وأن يضع أقدامهم على بداية الطريق .. بل ويطمح أيضا الى أن يحارب بالكلمات .. أن تتحول الكلمات بين يديه الى شظايا ، وأن تكون لها فاعلية المدفع وقوة القنبلة . فالشاعر الحق لا يستطيع أن ينفصل عن جراح شعبه ولا يستطيع الشعر ان يبرر حتى وجوده ذاته ، اذا لم يكن معاناة للواقع واحساسا عميقا به . ومن ثم فان الشاعر الفلسطيني لا يستطيع أن يستعير من القاموس كلماته ولكن من الجراح والآلام والتعاسات اليومية العديدة ..

لا بد لي أن أرفض الورد الذي
يأتي من القاموس أو ديوان شعر
ينبت الورد على ساعد فلاح
وفي قبضة عامل
ينبت الورد على جرح مقاتل
وعلى جبهة صخر (٢٨)

من هذه الآلام والجراح ينبض شعر المأساة . من سواعد الفلاحين وقبضات العمال وجراح المقاتلين .. من صلابة الشعب وصموده يولد شعر المأساة . ولذلك يأبى شاعر الارض المحتلة أن يجرفه تيار الغناء الاسيان . ويرفض هذا الغناء الممجوج الذي لا يرتفع الى مستوى معاناة العربي في الارض المحتلة .. بل ويرفض الغناء كلية لانه اشتاق الى الفعل منذ أمد بعيد .. اشتاق الى أن يفعل شيئا يجهز به على أيام التغني والتأسي والضياع ..

غناؤك يا غريب الاهل طال ، وطالت الايام
وأورقت الربابة في يديك وشاخت الايام
فهل ستظل طول العمر محروقا تناديني ؟!
مع اللحن الفلسطيني ؟
وهل ستظل طول العمر تشحذ عودة هرمت
على سطح من الطين ؟! (٢٩)

ان شاعر ما بعد النكسة يضيق بأوضاع ما قبل النكسة بكل ما فيها من حياة وفن . ويدرك ان فن ما بعد النكسة لا بد وأن ينطلق من آفاق جديدة وأن يستقي الهامه من القلوب التي صهرتها النكسة ، ثم يرتد اليها بعطائه الشعري ليساعدها على أن تكتشف واقعها وتغيره بصلابة وجسارة وجلد ..

نأخذ أغنياتنا
من قلبك المعذب المصهور
وتحت غمرة القتام والديجور
نعجنها بالنور والبخور ، والحب والنذور
ننفخ فيها قوة الصوان والصخور
ثم نعيدها لقلبك النقي ، قلبك البللور
يا شعبنا المكافح الصبور (٣٠)

هذه القصائد التي يستلهمها الشعر في الارض المحتلة من جراحات ما بعد النكسة .. قصائد لها طعم خاص .. طعم السكر المر كما يقول توفيق زياد ، لانها قصائد حلوة وقاسية معا . يحاول فيها الشعر أن يكون حادا كنصل السكين ، حارا كدم انبثق فجأة من طلقة رصاص في جسد مقاتل . يحاول أن يكون كذلك حتى يستطيع أن يستنهض همم الصعاليك والمساكين . وأن يتوهج بدماء الجراحات الدامية وصلابة المقاتلين الابطال ليوقظ في النفوس شعلة المقاومة وليدمي في الوقت نفسه وجه المغتصب ويقض مضجعه ..

وأكتب للصعاليك القصائد
سكرا مرا
وأكتب للمساكين
وأغمس ريشتي في قلب قلبي ، في شراييني
وآكل حائط الفولاذ
أشرب ريح تشرين
وأدمي وجه مغتصبي
بشعر كالسكاكين
وان كسر الردى ظهري
وضعت مكانه صوانة من صخر حطين (٣١)

ان حدة الشعر هي أحد وجوه قوة وصلابة المقاتل الفلسطيني واحد جذورها معا . ولذلك يطمح الشاعر الفلسطيني دائما الى أن تكون لكلماته فعالية كبيرة ودور واضح . لا يريد لها أن تكون مجرد أغنيات يثرثرها الناس ساعة الفراغ أو يتذكرونها عند الاضطجاعة المسترخية قبيل النوم .. لكنه يريدها قنبلة ومدفعا.. مطرقة وفأسا.. جزءا هاما من الحياة في قلب الارض المحتلة ..

أيها النسر المقاتل
أيها الاعصار ، يا ناهش أطنان السلاسل
أيها الملدوغ من جحرين مرات عديدة
أعطني ازميلك المسكوب في قلب المرارة
أعطني مطرقة .. لغما .. شرارة
علمني أصنع فأسا – من قصيدة (٣٢)

ان الشاعر يريد أن يوقظ الفلسطيني الذي لدغ من نفس الجحرين مرات عديدة .. من جحر الغدر الصهيوني ومن جحر تركه قضيته بأيدي الحكام والمحافل الدولية . وهو يريد أيضا أن يحقق هذا الدور الكبير للفن من خلال محاولته لتحويل أغنياته الى خناجر تستطيع أن تنغرس في قلب العدو . خناجر من الكلمات القاسية القادرة على انجاب الفدائيين ..

ولكنني لا أغني ككل البلابل
فان السلاسل
تعلمني أن أقاتل .. أقاتل .. أقاتل
لاني أحبك أكثر
غنائي خناجر ورد
وصمتي طفولة رعد (٣٣)

هنا يعرف ان الطريق الوحيد للتحرر من ربقة السلاسل الرهيبة التي تقيد بالاسر خطواته ، هو القتال . ولذلك فانه يحاول أن يجعل كلماته خناجر من ورود الكلمات تمزق وتفضح ... بل انه يحاول أيضا أن يعطي صوته معنى جديدا ، يجعله صمتا ثوريا كصمت البحر أو كالهدوء الذي يسبق العاصفة . انه طفولة الرعد الذي لن يلبث ان ينطلق عنيفا وقاسيا ، في كلمات كالخناجر وأفعال كالاساطير .. فهو

(٢٧) من ديوان سميح القاسم « سقوط الاقنعة » .

(٢٨) من قصيدة محمود درويش « الورود والقاموس » من ديوان (آخر الليل) .

(٢٩) من قصيدة سميح القاسم « مغني الربابة) نشرت بمجلة « المصور » القاهرية في ٢ أغسطس ١٩٦٨ .

(٣٠) من قصيدة فدوى طوقان « اغنيات صغيرة الى الفدائيين » نشرت في « الآداب » أغسطس ١٩٦٨ .

(٣١) من قصيدة توفيق زياد « السكر المر » نشرت في « الطريق » – عدد أوكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(٣٢) من قصيدة سميح القاسم « طلب انتساب » نشرت في « الطريق » العدد السابق .

(٣٣) من قصيدة محمود درويش « أحبك أكثر » من ديوان (آخر الليل) .

يضيق كثيرا بالكلمات برغم قدرته على تفجيرها بالشرر . ومن ثم يندفع كالعاصفة يقاتل .. ويقاتل .. ويقاتل ..

أجلس كي أكتب !
ماذا أكتب ؟.. ما جدوى القول ؟
يا بلدي ... يا أهلي ... يا شعبي
ما أحقر أن يجلس انسان كي يكتب في هذا اليوم
هل أحمي بلدي بالكلمة
هل أنقذ بلدي بالكلمة
كل الكلمات اليوم
ملح لا يورق أو يزهر في هذا الليل (٣٤)

انه ينكر الاستسلام للتغني فليس هذا أوان الكلمات . لقد شبع الفلسطيني كلاما حتى التخمة . لكنه لم يعثر على فعل واحد ، طوال عشرين عاما . ومن ثم فانه يعتقد ان الاوان قد آن ليبدل بالفعل الكلمات ..

آن لي أن أبدل اللفظة بالفعل ، وآن
لي أن أثبت حبي للثرى والقبّره
فالعصا تفترس القيثار في هذا الزمان
وأنا أصغر في المرآة ، مذ لاحت ورائي شجرة (٣٥)

هكذا بالكلمات يضيق شاعرنا . يريد أن يستعيض عنها بفعل قوي مدمدم هادر .. ولذلك فانه يضيق أيضا بصمته الهادىء المتخاذل . انه يريد صمتا مدويا .. صمتا قاسيا ينشر الرعب في قلب العدو كصمت البحر وكصمت المقابر ..

ليتني أعرف سر الشجرة
ليتني أدفن كل الكلمات الميته
ليت لي قوة صمت المقبره
يا يدا تعزف ! يا للعار ، خمسين وتر
ليتني أكتب بالمنجل تاريخي
وبالفاس حياتي .. وجناح القبّره (٣٦)

هكذا بالكلمات يضيق شاعرنا . يضيق بها ألف مرة . لكنه ما يلبث ثانية ان يدرك ان شعر الفلسطيني في الارض المحتلة ضرب من القتال . انه شعلة كبيرة يتحلق حولها العرب . تؤكد فيهم عروبتهم وتوقد جذوة الصلابة والبسالة في أعماقهم . انها هي التي احتفظت بجوهرهم صافيا وقويا طوال سنوات الاضطهاد الرهيبة منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم . هي التي حافظت على جذوة الحياة في اعماقهم برغم محاولات اليهود المستمرة الدائبة لتفتيتها وتمزيقها فيهم .. هي التي حافظت فيهم على ما جاءت العاصفة ففجرته بالشرر ..

لم نكن قبل حزيران كأفراخ الحمام
ولذا لم يتفتت حبنا بين السلاسل
نحن يا أختاه من عشرين عام
نحن لا نكتب أشعارا ، ولكنا نقاتل (٣٧)

هكذا تحول الشعر الى خنجر ، الى سلاح يقاتل به الشعب الفلسطيني كما يقاتل « بفتح » و « بالجبهة الشعبية » لانه تفجر وسط الجراح الدامية التي خلفتها النكسة ، فكان له تأثير المدفع وقوة القنبلة .. ولان الشاعر توحد بالفدائي ، كتب شعره بالسكاكين على جدران الخنادق ، وبحد السونكي فوق روابي طوباس عندما اشتعلت فيها نيران المقاومة ، وبالشظايا في ساحات التدريب على حروب العصابات كتب ..

جعلوا جرحي دواه
ولذا
فانا أكتب شعري بشظيّه ! (٣٨)

وعندما كتب الشعر بالشظايا أصبح هو الآخر شظية تخترق قلب العدو وتقض مضجعه . ومن ثم أدرك العدو خطورته الى الحد الذي قال فيه موشى دايان عن قصائد فدوى طوقان « ان كل قصيدة من هذه القصائد تصنع عشرين فدائيا » . وقصائد شعراء الارض المحتلة تصنع المقاومة بحق . لانها تساعد الانسان الفلسطيني على رؤية واقعه وفهمه بصورة تصبح معها الثورة الفدائية هي الحل الوحيد المطروح لعلاج المسالة الفلسطينية . ولانها تقوم بهذا الدور الكبير فانها تتعرض للسجن والمنفي وللمصادرة .. للصراخ المسعور من العدو ..

اسجنوا هذي القصيدة
غرفة التوقيف خير ، لهدوء الامن
خير من نشيد .. وجريدة (٣٩)

لكن السجن يزيد القصائد اشتعالا ، لا يقضي عليها بل يؤجج نيرانها فتندفع وسط الجموع .. ان مقاومة السلطة الاسرائيلية لهذه القصائد بهذه الصورة العنيفة والضارية تؤكد للشاعر انه يسير في الطريق الصحيح .. فيتمادى في الغناء ، وهو يعرف ان مقاومة شعره من السلطات هي في الواقع أكبر دعاية له ، وهي أيضا أسرع الطرق لانتشاره ..

كانت الاغنية الزرقاء فكرة
حاول السلطان أن يطمسها
ففدت ميلاد جمرة !
كانت الاغنية الحمراء جمرة
حاول السلطان أن يحبسها
فاذا بالنار ثورة
كان صوت الدم مغموسا بلون العاصفة
وحصى الميدان أفواه جروح راعفة
وأنا أضحك مفتونا بميلاد الرياح
عندما قاومني السلطان ،
أمسكت بمفتاح الصباح (٤٠)

هكذا استطاع الشعر أن يقض مضاجع السلطان . وعندما طورد وسجن وعذب ادرك انه قد أمسك حقا بمفتاح الصباح ، وانه قد اضطلع بدوره ببسالة وصدق ، فأخذ يضحك مزهوا فرحا لميلاد الرياح التي ستكنس الشر والعسف والاحتلال . والتي تستدعي معها بشائر الغد الواعد بالسعادة والهدوء والامان ، بعدما طال العذاب والضياع والشتات .

(٨) ضرورة البقاء فوق ثرى الوطن

عندما أمسك الشعر بمفتاح الصباح ، وأصبح سلاحا حقيقيا في معركة البقاء التي يعيشها الشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة ، اتضحت امام الشاعر الرؤية ، فبدأ يعالج أكثر القضايا الحاحا على هذه اللحظة الحضارية التي يعيشها بعد النكسة . وكانت ضرورة البقاء فوق الارض المحتلة في مقدمة قضايا هذه الخطة . لان ما يريده المستعمر الاسرائيلي ليس اكثر من رقعة الارض الخالية . والهرب أمام عنفه وضراوته ليس الا تحقيقا سريعا لمخططه التوسعي . ومن هنا كانت

---

(٣٤) من قصيدة فدوى طوقان « الفدائي والارض » نشرت في « الآداب » مارس ١٩٦٨ .

(٣٥) من قصيدة محمود درويش « يوميات جرح فلسطيني » نشرت في « الآداب » يوليو ١٩٦٨ .

(٣٦) من قصيدة محمود درويش « مغني الدم » من ديوان (آخر الليل) .

(٣٧) من قصيدة محمود درويش « يوميات جرح فلسطيني » نشرت في « الآداب » يوليو ١٩٦٨ .

(٣٨) من قصيدة سميح القاسم « شظايا » نشرت في مجلة « الطريق » البيروتية ، اوكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(٣٩) ، (٤٠) من قصيدة محمود درويش « الاغنية والسلطان » من ديوان (آخر الليل) .

ضرورة البقاء والمقاومة هي أكثر القضايا الحاحا وتطلبا للمعالجة بعد النكسة ، بعد أن عبر النهر الى الاردن هربا أكثر من نصف مليون فلسطيني في ستة أيام ، ورفضت اسرائيل بعنف أن تسمح لهم بالعودة الى أراضيهم من جديد . بعد هذه الواقعة الدامية التي أخذت تتجدد كل يوم خلال أفواج النازحين عن ثرى الوطن . أخذ الشاعر يصرخ مطالبا بضرورة البقاء وزرع الارض ألغاما تحت أقدام العدو حتى يضطر هو مرغما الى الهرب منها ... ففي هذا الزمان لا بد ـ كما يقول أرنستو غيفارا ـ من مواجهة العنف بالعنف . أما الهروب من هذه المواجهة فليس الا نوعا من الاستخذاء والهزيمة .. ومن هنا يدعو الشاعر الى ضرورة أن نزرع ..

الارض خناجر
تحت الاقدام الوحشية
والارض مقابر
للاحلام الهمجية (٤١)

وحتى يتحقق هذا المطلب الكبير فانه يستلزم بداءة أن يظل الفلسطيني في أرضه .. وأن يتشبث بالبقاء فوقها مهما كانت الصعاب ومهما كان الثمن ..

سأظل هنا
في بيت مبني من أحجار
في كوخ مصنوع من أغصان الاشجار
سأظل هنا أمسك جرحي بيد
والوح بالاخرى ..
لربيع يحمل لبلادي
دفء الشمس وباقات الازهار (٤٢)

فالبقاء فوق ثرى الوطن هو الحياة في ذاتها برغم كل الالام وكل الجراحات ، برغم ان الفلسطيني يجبر على أن يمسك جراحه بيد ، ويلوح بالاخرى لاشعة الامل القادمة مع جحافل المقاومة . فبقاؤه هو امل القضية الكبير . ومن ثم عليه ان يتحمل في سبيل هذا البقاء كل شيء : العسف والجرح والاحزان . لان ترك هذه الارض هو الذل بعينه، هو الضياع والموت والبقاء فوقها هو حاضر القضية ومستقبلها .. هكذا يؤكد الشاعر مواسيا تلك الام العظيمة التي هجرها ابنها بعد ما ضاق بمرارة الحياة فوق الارض المحتلة ..

لم تفهمي وصغيرك الغالي
لم يدر ان قميصه البالي
ما دام يخفق في رياح الحزن والشده
ستظل تخفق راية العوده
فخذي أخاه وأفهميه
ان المذلة أن يبيع ثرى أبيه
وافهميه
ان اختلاج الروح في البذره
أقوى من الصخره
وجذورنا في رحم هذي الارض ممتده
وقميصنا البالي
ما دام يخفق في رياح الحزن والشده
ستظل تخفق راية العوده
ستظل تخفق راية العوده (٤٣)

هكذا يؤكد الشاعر ان البقاء هو الطريق الوحيد الى العودة والى غد القضية ، وان الهرب اجهاز على هذا الغد الذي سيصنع العودة وخيانة له . ومن ثم على الام ان تزرع في اعماق صغيرها ضرورة البقاء

(٤١) و (٤٢) من قصيدة سالم جبران « بقاء » نشرت بمجلة « الطريق » أوكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨

(٤٣) من قصيدة سميح القاسم (قميصنا البالي) من ديوانه (دخان البراكين) .

.. البقاء برغم الجراحات والآلام والاحزان .. البقاء برغم العسف والعذاب والمذلة ..

سأبقى رغم اذلالي
وجرحي والاسى المقوت
هنا في حصن أجدادي
وأرضي والسنى الموروث
سأبقى رغم اذلالي ولن أرحل
هنا جذري وتاريخي وقصة حبي الاول
هنا وطني
فمت في حقدك المغموس بالعار
ولن أرحل (٤٤)

ان رفض الفلسطيني للرحيل عن ارض الوطن هو اكبر العوامل التي تفجر حقد الاسرائيلي عليه . انه ينقض الاساس الفكري الذي قامت عليه اسرائيل منذ كانت فكرة جنينية دعا اليها هيرتزل في مؤتمر بال الاول عام ١٨٩٧ « فلسطين وطن بلا سكان ونحن شعب بلا وطن » ان بقاء العرب في الارض المحتلة يقوض هذه الفكرة من جذورها ، لانه يؤكد ان فلسطين وطن له سكانه المتشبثون به الباقون فوق ثراه . ان هذا البقاء في الواقع هو الشيء الرئيسي الذي يقوض استعمار اسرائيل الاستيطاني من الداخل . انه ينهش البناء المزيف الذي تريد اسرائيل ان تقيمه فوق ارض خالية تركها أهلها ورحلوا . ومن هنا يأتي الاصرار على البقاء كنغمة رئيسية مشتركة بين كل شعراء الارض المحتلة .. لا يشبع احدهم من تكرارها . فهي جوهر القضية الفلسطينية .. قضية ان تكون هناك فلسطين او لا تكون ..

كالسنديان هنا سنبقى كالصخور
كعرائس الزيتون فوق ربى بلادي كالنهور
كحمائم البرية الخضراء انا سوف نخفق
فوق ارضك يا بلادي كالنسور
لولاك هل كنا سوى جثث
ولولانا ، أكنت سوى قبور
كالسنديان .. هنا سنبقى كالصخور (٤٥)

ان الفلسطيني الذي يترك ارضه يحكم على نفسه بالموت . بأن يكون اقل اخلاصا للوطن من الصخور الباقية ومن الاشجار العتيقة التي لا تستطيع الحياة خارج ثراه . ان السنديانة اذا نزعت من ارضها الام تموت . وكذلك الانسان الذي ينزع جذوره من ارض بلاده يموت هو الآخر ..

ونحن غريبان ، كنا هنا
قريبين كنا من الموت
كنا بعيدين عن بيتنا (٤٦)

فالاغتراب نوع من الموت . نوع من الانحراف عن الجوهر الانساني، لان جوهر الانسان لا يتحقق الا في الوطن .. عندما يحس بالحب وبالامن وبالتحقق . اما عندما يفتقد الانسان كل هذا بالغربة فانه يقترب حقيقة من الموت .. من الموت الحقيقي والموت المعنوي .. واذا رضي الفلسطيني باللجوء والغربة فانه يحكم على نفسه بالموت .. بأن يصير جثة حية في مخيمات اللاجئين ، حيث يمتهن وحيث يقتل فيه كل يوم الانسان .. وحتى لو استطاع الفلسطيني ان يحقق ذاته ـ بالمفهوم البرجوازي ـ خارج الارض الفلسطينية ، فانه سيظل ابدا جثة متحركة ضيعت جذورها .. بهذا الفهم يصرخ سميح القاسم وهو يرد على

(٤٤) من قصيدة فتحي قاسم (هنا جذري) نشرت بمجلة (الطريق) اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨

(٤٥) من قصيدة سالم جبران (كالسنديان) نشر بمجلة (الطريق) اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨

(٤٦) من قصيدة محمود درويش (غريبان) نشرت بمجلة (الطريق) اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨

رسالة رفيق صباه الفلسطيني الذي يعيش في بيروت ، والذي حقق كل شيء .. الدرجة الجامعية والسيارة والصديقة الاجنبية الجميلة.. ولكنه في الوقت نفسه فقد كل شيء .. انه يموت هناك في الغربة دونما هدف ..

رسالتك التي اجتازت الي المليل والاسلاك
رسالتك التي حطت على بابي ، جناح ملاك
أتعلم ؟!.. حين فضتها يداي تنفضت اشواك
على وجهي وفي قلبي
أخي الغالي !!
اليك هناك في بيروت
اليك هناك حيث تموت
كزنبقة بلا جذر
كنهر ضيع المنبع
كأغنية بلا مطلع
كعاصفة بلا عمر
اليك هناك حيث تموت كالشمس الخريفية
.... بأكفان حريرية (٤٧)

ان هذا الفلسطيني الذي يعيش خارج فلسطين ، والذي يموت كل يوم ، لانه بدد حياته كنهر ناضب ضيع منبعه . وكعاصفة بلا عمر ولا تاريخ . ان هذا الفلسطيني هو عار القضية الفلسطينية ولعنتها معا .. هكذا يراه الشاعر الغاضب الثائر .. سميح القاسم .. فيصرخ فيه ..

اليك هناك يا جرحي ويا عاري
ويا ساكب ماء الوجه في ناري
اليك .. اليك ..
من قلبي المقاوم جائعا عاري
تحياتي واشواقي
ولعنة بيتك الباقي (٤٨)

انه عار القضية الفلسطينية ولعنتها . انه شريك اليهود في القضاء على فلسطين الحبيبة لانه ييسر لهم بهروبه الطريق . واذا كان لمثل هذا الفلسطيني ان يتعزى واهما بانه قد حقق ذاته ، وانه قد اكد كفاءة الفلسطيني وذكاء الفلسطيني ومهارة الفلسطيني ، فليس هذا سوى وهم وخداع . فالغالبية العظمى من الذين تركوا الارض ، يتجرعون مرارة اللجوء والتشريد دون ان يكون لعذاباتهم المعنى المتساوق مع فداحتها . ان عذابات العرب في الارض المحتلة تكتسب معنى مضاعفا ، وكذلك تكتسب تضحياتهم معنى . اما عذابات اللاجيء فانها تضيع وسط مسارب مجردة من العواطف الكاذبة والاشفاق الدولي البغيض .. تضيع تحت ظلال الصليب الاحمر الذي يبارك الآلام وينزع عنها خصوصيتها .. انه يحولها الى آلام تجريدية . فهو يشفق على الفلسطيني وعلى اليهودي وعلى ضحايا الحرب الاهلية في نيجيريا بنفس الاسلوب . ان آلام الفلسطيني وعذاباته في مخيمات اللاجئين تفقد طعمها الخاص ، ومن ثم تفقد دورها الثوري الفعال ...

عجنوا بالوحل خبزي
ورموشي بالغبار
أخذوا مني حصاني الخشبي
جعلوني احمل الاثقال عن ظهر ابي
جعلوني احمل الليلة عام
آه .. من فجرني في لحظة جدول نار
آه .. من يسلبني طعم الحمام
تحت اعلام الصليب الاحمر (٤٩)

هكذا يعاني الفلسطيني مرارة اللجوء القاسية . وحتى يستطيع ان يمنح هذه المرارة معنى فان عليه ان يحولها الى تمرد . الى وجه آخر من وجوه البقاء في فلسطين . وهو السعي الى العودة بالاسلوب الذي عمده جيفارا بدمه .. بالعنف .. بالتمرد على الشفقة المغلفة بالاوراق الملونة والتي تقدمها مكاتب الصليب الاحمر الدولية .. عليه ان يشارك في صنع غد العودة بعيدا عن الاغنيات الحالمة المكتفية بالترنم بالعودة في الاناشيد وعلى صفحات الجرائد . عليه ان يكون وجها آخر للفلسطيني القابع فوق الارض بجلد وصلابة. فهذا وحده هو الفلسطيني الحق الجدير بشرف الانتماء الى هذا الشعب الذي يحمل صليب الانسان في القرن العشرين ويسجل لعنته .. وعليه ان يبقى وان يضرب في الارض جذوره رغم هذه العذابات وتلك الجراح الدامية . وان يدافع عن وجوده وبقائه بآخر ما يملك من سلاح .. بأسنانه ذاتها لو استدعي الامر ...

بأسناني ساحمي كل شبر من ثرى وطني
بأسناني .. ولن ارضى بديلا عنه
لو علقت من شريان شرياني
أنا باق ، اسير محبتي لسياج داري
للندى ... للزنبق الحاني
أنا باق .. ولن تقوى علي جميع صلباني
أنا باق .. لآخذكم .. وآخذكم ..
وآخذكم باحضاني
باسناني .. ساحمي كل شبر من
ثرى وطني .. بأسناني (٥٠)

ان البقاء برغم كل الصعاب هو القضية الاساسية والمصيرية في فلسطين . فبلاد كثيرة احتلت وعانت من ويلات الغزو والهزيمة . لكن أيا منها لم يتركها أهلها خالية يرتع فيها الغازي ويستمتع بالحياة فوقها في هدوء . فبقاء اصحاب الارض الاصلية كان دائما العنصر الجوهري في أي مقاومة للغزو والاحتلال. لان مجرد البقاء ، مجرد الوجود الصامت الرافض ، مقاومة هائلة فعالة قادرة على انهاء الاحتلال والاجهاز على كل جبروته وتسلطه . وحتى لو ادى هذا البقاء الى الموت تحت وطأة العنف والضغط والارهاب . فان هذا الموت هو الحياة بذاتها . لانه موت له معنى .. موت في سبيل شيء ومن أجل شيء ..

كفاني اموت عليها وادفن فيها
وتحت ثراها اذوب وافنى
وابعث عشبا على ارضها
وابعث زهرة
تعيث بها كف طفل نمته بلادي
كفاني أظل بحضن بلادي
ترابا .. وعشبا .. وزهرة (٥١)

فوق ثرى الوطن يصبح لحياة الفلسطيني معنى . بل ان موته ايضا فوق هذا الثرى يكتسب كذلك معنى . لانه سيخصب هذه الارض . وسيصنع تراثا من الضحايا الذين يستصرخون الهمم طلبا للثار . ولانه سيساهم في تبرير الحياة فوق هذه الارض المليئة بالاشواك للاجيال القادمة . ولانه اخيرا سيؤكد ان الفلسطيني يستحق ان يسترد بلاده لانه بذل من أجلها الكثير . لانه عاش فوقها ومات في سبيلها . لذلك فان حلم الفلسطينيين الدائم . الباقي منهم فوق ارض الوطن والمحترق بالاغتراب بعيدا عنها ، هو ان يموت اذ يموت فوق هذا الثرى الحبيب..

يا شجر المرجان عرشت اغصانه
على جوانب الطريق

---

(٤٧) و (٤٨) من قصيدة سميح القاسم (اليك هناك حيث تموت) نشرت بملحق (الانوار) الاسبوعي الصادر في ٣٠ يونيو ١٩٦٨ .

(٤٩) من قصيدة محمود درويش (اغنية ساذجة عن الصليب الاحمر) من ديوانه « آخر الليل » .

(٥٠) من قصيدة توفيق زياد (بأسناني) نشرت في مجلة (الطريق) عدد اكتوبر ونوفمبر ١٩٦٨ .

(٥١) من قصيدة فدوى طوقان (اغنيات صغيرة الى الفدائيين) نشرت في (الآداب) اغسطس ١٩٦٨ .

اعشق موتي في مواسم الفداء والعطاء
أعشق موتي تحت ظلك المضرج الفريق (٥٢)

اذن لا حياة الا فوق الارض الفلسطينية ولا موت الا عليها .. ففي هذه الارض تضرب جذور الفلسطيني الى آلاف السنين . وفيها يكتسب وجوده معناه وقيمته . وفيها أيضا يكتسب موته معناه . لانه سيساهم في صنع غدها ، سيموت ليحييها ..

خذي عيني وانتصبي وناديني
حوار القاتل المقتول في عصبي
يحررني من الايام والشكوى
ويسقيني ..
على مهل عصير الريح واللهب
وتقتلني ... لاحييها
فلسطيني !! (٥٣)

فمن رماده ستنهض فلسطين . ستبعث كأدونيس من جديد ، ستنتفض وترفع هامتها في وجه الريح .. هكذا بموته فوق ترابها يمنحها الحياة . فما بالك بحياته فوق هذا التراب . انه بذلك يمنحها حياة مضاعفة . ومن ثم فعليه ان يبقى . يدحض دعاوي المتشائمين ويقاوم علل مبرري الهرب ومفلسفي اللجوء .. عليه ان يبقى ويحاول ان يساعد شعبه على البقاء وعلى الحياة مع الصعاب والمحن ...

سأظل فوق ترابك المذبوح يا وطني
مع المزمار ، أنشد للربيع
وأقول للباكين والمتشائمين
ان الشتاء يموت فابتسموا
ولا تتخاذلوا تحت الدموع
هاتوا أياديكم ، فمعركة البقاء تريدكم
جندا ... ومعركة الرجوع (٥٤)

هكذا يكتسب البقاء عشرات القيم والدلالات . الى الحد الذي يصبح فيه مفخرة يعتز بها الشاعر فيتغنى بمجرد هذا البقاء . حتى ولو كان بقاء هادئا لا مذلة فيه ولا هوان . ان هذا البقاء المجرد في حد ذاته ، له قيمته الكبرى لانه وحده الذي يصنع حاضر القضية الايجابي ببساطته الآسرة وشرعيته ...

أقول لكم :
أنا ما بعت صحبتنا
ولا دنست أحلام الصبا الحلوة
ولا مزقت اشرعة نسجناها
ولا شتت افكارا قلقناها
انا ما رمت الا ان نعيش العمر اعمارا
وان نبني هنا ..
هنا في أرض نكبتنا ، لنا دارا (٥٥)

فالبقاء في الارض اخلاص لتراث طويل من الاحلام المشتركة والذكريات المشتركة والافكار المشتركة . وهو في الواقع ضرورة لان الفلسطيني لا يستطيع ان يصطحب هذه الاشياء الجوهرية ، التي تصنع جذر الانسان ، معه في غربته . ومن ثم عليه ان يظل هو بجوارها .. ان يبقى ليعيش معها فيهب حياته الطعم والمعنى ..

آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبة
وأنا لست مسافر
انني العاشق ، والارض حبيبة (٥٦)

ليس باستطاعة الفلسطيني أن يصطحب معه جراحاته ولا ارضه الى حيثما ارتحل . ولكن عليه ان يعيشها فوق ثرى الوطن وان يحولها الى منارات تضيء الطريق للاجيال القادمة . والى اشعار يتغنى بها الباقون ليتشبثوا بالبقاء برغم كل شيء ، برغم ثانوية الدور الذي يقوم به العربي فوق الارض المحتلة . وبرغم الظروف القاسية التي تفرض عليه اوضاعا طبقية معينة . وبرغم حرب الابادة الاسرائيلية . برغم كل هذا يبقى العربي في الارض المحتلة قويا ومتألقا وشجاعا . يرفع بمجرد بقائه راية الاحتجاج على هذا الوجود الصهيوني الكئيب .. ويهدم بمجرد بقائه ذاته ، اسطورة هذا الوجود المزعوم ...

هنا على صدوركم باقون كالجدار
ننظف الصحون في الحانات
ونملأ الكئوس للسادات
ونمسح البلاط في المطابخ السوداء
حتى نسل لقمة الصغار
من بين أنيابكم الزرقاء
هنا على صدوركم باقون كالجدار
نجوع .. نعرى .. نتحدى
ننشد الاشعار
ونملأ الشوارع الصخاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الاطفال جيلا ثائرا وراء جيل
... اذا عطشنا ، نعصر الصخرا
ونأكل التراب ان جعنا ، ولا نرحل
يا جذرنا الحي تشبث
واضربي في القاع يا أصول (٥٧)

هكذا أصبحت ضرورة البقاء فوق ثرى الوطن هي القضية الاساسية التي تطرحها الظروف الجديدة التي تعيشها المأساة بعد مرورها بهذه الانعطافة الكيانية الكبرى بعيد حزيران . ومن ثم الح عليها كل شعراء الارض المحتلة هذا الالحاح الشديد المتكرر . لانهم يدركون اهمية هذا البقاء ويؤمنون بضرورته .

(٩) الصمود والمقاومة .. طريق الخلاص

بعد ان ازاحت النكسة الاقنعة واعادت طرح القضايا من جديد . أخذت هذه القضايا الجديدة التي نضجت ابعادها على نيران الهزيمة المريرة تطرح بنفسها اسلوب العلاج .. فبعد ان اصبحت القضية قضية حياة او موت ، وليس مجرد قضية ثارية تافهة ، وبعد ان اخذت العودة هذا الشكل الدموي الجديد المليء بالعنف والضراوة ، وبعد أن أصبح البقاء في الارض ضرورة جوهرية خاصة وقد وقعت كل الارض الفلسطينية في براثن الاحتلال . بعد كل هذه التحولات الجديدة اخذت القضية تطرح بنفسها اسلوبها الجديد للعلاج ، الاسلوب الذي ولد مع (العاصفة) والذي نما بعدها بشكل واسع من خلال المنظمات الفدائية العديدة التي ساهمت بفعالية في بلورة الاسلوب النضالي كشكل للمواجهة الجديدة . اسلوب الحرب الشعبية الذي اعتمدت عليه تلك المنظمات الفدائية الفلسطينية التي تقودها « فتح » والتي تضم بين جنباتها عددا كبيرا من المنظمات الفعالة مثل (الجبهة الشعبية) و (قوات التحرير الشعبية) وغير ذلك من المنظمات التي حاولت ان

(٥٢) من قصيدة فدوى طوقان (اغنيات صغيرة الى الفدائيين) نشرت في (الآداب) أغسطس ١٩٦٨

(٥٣) من قصيدة محمود درويش (خلف الاسلاك) نشرت في مجلة (الطريق) العدد المشار اليه .

(٥٤) من قصيدة سالم جبران (سعيا للربيع) نشرت في (الطريق) العدد المشار اليه سابقا .

(٥٥) من قصيدة طارق عون الله (الرسالة الاخيرة) نشرت بمجلة (الطريق) .

(٥٦) من قصيدة محمود درويش (يوميات جرح فلسطيني) نشرت في (الآداب) يوليو ١٩٦٨ .

(٥٧) من قصيدة توفيق زياد (من وراء القضبان) من ديوانه الاخير (أشد على أيديكم) .

تزرع الارض خناجر تحت اقدام العدو .. ان تفقده الامان والاطمئنان والاحساس بالنصر ، والزهو بتحقيق الحلم الموعود . هـذا الاسلوب الجديد الذي ولد وسط نيران النكسة ونضج في اتونها . لـم يعد قضية فلسطين الى الفلسطيني ، بعد ان ظلت تجـارة رائجة تتبادل الحكومات اللعب بها والفلسطيني آخر من يكون له رأي فيها ، فحسب. ولكنه أيضا وضع القضية في وضعها الصحيح كقضية شعب وقضيـة تحرر . قضية نضال شعبي لا قضية مناقشات سياسية ومداولات دولية في اروقة الامم المتحدة وردهات مجلس الامن . لقـد أيقـن الفلسطيني ان العالم كله قد شارك ـ بعمـد او بمحض المصادفة ـ فـي تكريس مأساته . ومن ثم بدأ ينبذ كل هذه القرارات التي لم تعد تساوي قيمة الاوراق التي كتبت عليها ولا الحبر الذي كتبت بـه . فهذه القرارات قد عاصرت سنوات المأساة العشرين بكل جراحاتها الدامية ، ولم تكن في الواقع سوى تكريس لهذه الجراح وسبب في مزيد من الآلام . هـذه القرارات التي لم تصنع له طوال عشرين عاما ، تحمل فيها ـ كأيوب ـ وزر جريمة لم يرتكبها ، هي التي أفقدته الثقة في هذه المحافل الدولية، فأدار لقراراتها ظهره ومضى يصنع بنفسه فجر قضيته ..

يا مجلس الامن القديم
صوتي يجيئك زهرة حمراء من حقل الجريمة
فالى اللقاء .. الى اللقاء
يا مجلس الامن القديم
أراك ... في القدس القديمة (٥٨)

هكذا تيقن الفلسطيني من لا جدوى قرارات على ورق . ومن انـه لا مناص من حمل السلاح والنهوض للمقاومة . اذن تمرد على جراحاتك يا صديقي ، وخذ من عنفها العزم والتصميم ، فلا قيمة لجرح لا يشعل في الليل الحرائق ، ولا يحمل البرء للجسد الذي عانى من آلامه ..

جبهتي لا تحمل الظل وظلي لا أراه
وأنا .. أبصق في الجرح الذي
لا يشعل الليل جباه
خبىء الدمعة للعيد ، فلن نبكي سوى من فرح
ولنسم الموت في الساحة
عرسـا وحيـاه (٥٩)

هكذا يحرق الفلسطيني مراكبه القديمة وينهض ويستمد من جراحه العزم والقوة والصلابة . موقنا بان هذا وحده هو الطريق الذي يمكنه ان يزرع وسط غابات الاحزان والجراح أجنة الفرح . لذلك فهو يريـد ان يسمع العالم كله هذا الصوت الجديد وتلك اللغة الجديدة.. فالعالم لم يسمع من الفلسطيني طوال الاعوام العشرين الماضية سـوى صوت اللاجيء ، ولم يعرف من تحدياته سوى تحدي اليد الممتدة تريـد ان تأخذ ثمن عذاباتها خبزا وقروشا ، تكفر بها الانسانية عـن جريمتهـا الكبرى ، ويدفع بها الانسان عن نفسه بشاعة هـذا المصير .. لكـن الفلسطيني اليوم يريد ان يسمع العالم لغة جديدة ..

أيها العالم صارت رئتي
كير حداد حزين
واستحالت لغتي
جمرة .. سوطا .. فدائيا .. كمين
أيها العالم ، هل تسمع ؟
صارت زنبقاتي ،
زنبقاتي ـ آه ـ أبواقا تدوي
لاحتراقي في خيام اللاجئين
وأنا كنت مربيها .. قرونا وقرون ! (٦٠)

(٥٨) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة)

(٥٩) من قصيدة محمود درويش (يوميات جرح فلسطيني) نشرت في (الآداب) .

(٦٠) من ديوان سميح القاسم (سقوط الاقنعة) .

هكذا تغيرت لغة الفلسطيني ، وتغير التحدي القديم ، تحرر مـن الشكوى ومن الاستجداء والركون الى القرارات الدولية . ونهض واثقـا من ان غد قضيته لن يصنع بغير التضحيات والدماء التي تغسل عـار سنوات الانتظار الطويلة واللجوء .. ابتلع دموعه القديمة وايقن مـن بزوغ الفجر .. فصاح ..

دمعتي في الحلق يا أخت ، وفي عيني نار
وتحررت من الشكوى على باب الخليفة
كل من ماتوا ، ومن سوف يموتون على باب النهار
عانقوني ، صنعوا مني قذيفة (٦١)

هكذا من تراث الضحايا الطويل تولد المقاومة . وهي مقاومة ضارية لان جذورها تلغ في دماء عشرين عاما مـن الذل والمهانة والجراح .. مقاومة لا تخاف من الموت بل تشتهيه ، فقد عاشت في المخيمات ما هو اكثر بشاعة وضراوة من هذا الموت البسيط . عاشت الضياع والموت في كل لحظة آلاف المرات ، ومن ثم فهي تستهين بهـذا الموت البطولي ، بل ترحب به ، لانه الموت الوحيد الذي يكتسب معنـى وسط هـذه التنويعات العديدة على لحن الموت الكئيب ..

يـا ألف هلا بالموت
واحترق النجم الهاوي ومرق
عبر الربوات ... برقا مشتعل الصوت
زارعا الاشعاع الحي على الربوات
في أرض لن يقهرها الموت
ابدا لن يقهرها الموت (٦٢)

هذا الترحيب المأساوي بالموت يعانقه وعي شديـد بوعورة الدرب وبضرورة تقديم قرابين الضحايا في هيكل النصر .. قرابين كثيرة على درب طويلة شقية ، درب تجتاز فـي طريقهـا العنف وابواب الليـل الجهنمية .. لكنها تعبر كل هذا على ضوء مشاعل مـن دماء الشهداء والضحايا ..

لا تحزني اذا سقطت قبل موعدي
فدربنا طويلة شقيه
ودون موعد الوصول ترتمي على المدى
شواطىء الليل الجهنميه
نعبرها على مشاعل الدماء
لكي يجيء بعدنا الفرح (٦٣)

فهذه التضحيات الكبيرة هي الطريـق الوحيد للخلاص . هي هي الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يوقف فلسطين من جديد عـلى قدميها ، وأن يرد لها الحياة .. ف :

من حزننا الكبير من
تدبق الدماء في جدراننا
من اختلاج الموت والحياة
ستبعث الحياة فيك من جديد
يا جرحنا العميق أنت ، يا عذابنا
يا حبنا الوحيد .. (٦٤)

هذه التضحيات الكبيرة التي تقدمها (فتح) والمنظمات الفدائية الاخرى هي وحـدها التي سترد الى فلسطين الحياة ، وترد الـى الفلسطيني القدرة على الفرح وعلى أن تتفجر في أعماقه الاغنيـات ،

(٦١) من قصيدة محمود درويش (يوميات جرح فلسطيني) نشرت في (الآداب) .

(٦٢) من قصيدة فدوى طوقان (الفدائي والارض) نشرت فـي (الآداب) مارس ١٩٦٨ .

(٦٣) من قصيدة فدوى طـوقان « الفدائي والارض » نشرت في « الآداب » .

(٦٤) من قصيدة فدوى طـوقان « كلمات الى وطني » نشرت في « الآداب » .

اغنيات غير تلك الاغنيات المستجدية البليدة ، لانها اغنيات نشوانة بخمر النصر ، تعرف انها تستحقه لانها دفعت في سبيله أغلى ثمن ..

فاذا كنت أغني للفرح ...
خلف أجفان العيون الخائفه
فلأن العاصفه
وعدتني بنبيذ وبأنخاب جديده
وبأقواس قزح
ولأن العاصفه ،
كنست صوت العصافير البليده
والغصون المستعاره
عن جذوع الشجيرات الواقفه (٦٥)

هكذا يعرف الفلسطيني ان ما يقدمه لمنظمات الفداء لا يضيع هباء ، فهذه المنظمات هي القادرة على صنع غد القضية الفلسطينية وعلى صياغة مستقبلها . لذلك يحس الشاعر الفلسطيني في الارض المحتلة بأن طريقه الوحيد الى الخلاص هو الصمود واستمرار المقاومة .. فالشرارة التي اندلعت ذات يوم من عام ١٩٦٥ ليس من حق أحد أن يوقفها ، لانها استمرت موقدة منذ ذلك اليوم بدماء الضحايا .. هذه الدماء الزكية التي استحالت الى وصية من دم تستغيث مطالبة باستمرار المقاومة ، حتى لا تزهق بايقافها أرواح هؤلاء الضحايا ولا تهدر دماؤهم ..

هي لا تريد ، ولا تعيد
رثاؤنا هي لا تساوم
فوصية الدم تستغيث بأن نقاوم (٦٦)

هذه المقاومة الدامية هي التي تعطي دماء الضحايا معناها ودورها . وهي التي تفجر أناشيد الشعراء بالغضب والصمود ، لتفجر في أعماق الفلسطيني الحقد والمقاومة ، فالفن الحقيقي عندما يؤجج في الاعماق الغضب والحقد فانه يقنعنا بانسانية هذه الانفعالات غير الانسانية . انه يجسم لنا غضبا انسانيا وحقدا انسانيا ، لانه يجسم لنا الغضب والحقد من أجل الانسان .. وهذا ما يفعله (مغني الدم) محمود درويش .. وهو يستلهم من جرح النكبة الغائر في مذبحة كفرقاسم الحقد والقوة والصمود .. يستلهم منه الخلاص ..

كفرقاسم

انني عدت من الموت لاحيا ! لاغني
فدعيني أستعر صوتي من جرح توهج
وأعينيني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج
انني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاد ، أن أمشي على جرحي
وامشي ... ثم أمشي .. وأقاوم (٦٧)

هكذا يؤجج الشاعر في النفوس حقدا ثوريا وغضبا ثوريا .. يصرخ طالبا المقاومة فهي وحدها طريق الخلاص من هذه العذابات ..

فهاتوا الهراوات .. هاتوا المشاعل
والقوا المسابح للنار
القوا غبار القرون
وقوموا نقاتل !! (٦٨)

فالقتال وحده هو الذي يستطيع أن يصنع غد القضية الفلسطينية وأن يشيد صرح مستقبلها .. قتال لا يخاف ولا يجبن ولا يتوقف .. لا تضعفه ضراوة العدو ولا تفل عضده . بل ان مقاومة العدو له لا تزيده الا اشتعالا لانها تعلم الفلسطيني انه يسير على الدرب المؤدي الى الصباح ، وهو يعرف من قبل ان الدرب طويل وشاق وانه لا بد في نهاية المطاف منتصر ، ما عليه الا أن يواصل المقاومة برغم العسف والاضطهاد والمحاربة في القوت والرزق .. ان صموده ومواصلته الكبيرة للمقاومة هي وحدها التي ستعيد فلسطين ، ومن ثم فانه يصرخ بضرورة استمرار هذه المقاومة واشعال جذوتها الملتهبة ..

ربما أفقد ما شئت معاشي
ربما أعرض للبيع ثيابي .. وفراشي
ربما أعمل .. حجارا ، وعتالا ، وكناس شوارع
ربما أخدم .. في سود المصانع
ربما أبحث في روث المواشي — عن حبوب
ربما أخمد .. عريانا .. وجائع
يا عدو الشمس .. لكن .. لن أساوم
والى آخر نبض في عروقي .. سأقاوم ! (٦٩)

هكذا لا بد من المقاومة والصمود مهما كانت فداحة الثمن .. فهذا الطريق وحده هو طريق الخلاص ، بعدما وقعت كل الارض الفلسطينية في الاسر ، وبعدما انزاحت عن عيني الفلسطيني جميع الغشاوات والاقنعة .

(١٠) شعر المقاومة .. وقضايا الشكل الفني

بقيت في النهاية كلمات قليلة عن قضايا التعبير الفني في شعر

---

(٦٥) من قصيدة محمود درويش « وعود من العاصفة » نشرت في ديوانه (آخر الليل) .

(٦٦) من قصيدة محمود درويش « عيون الموتى على الابواب » في ديوانه (آخر الليل) .

(٦٧) من قصيدة محمود درويش « مغنى الدم » من ديوان (آخر الليل) .

(٦٨) من قصيدة سميح القاسم « اصوات من حق بعيدة » نشرت في مجلة « الكواكب » في ١٧ سبتمبر ١٩٦٨ .

(٦٩) من قصيدة سميح القاسم « في سوق البطالة » من ديوانه (دمي على كفي) .

المقاومة ، خاصة وقد كثر اللغط من المدعين ، وذوي الياقات المنشاة حول ضعف هذا الشعر الفني ، غير اني ارى عكس ذلك تماما ، أرى ان تفجر هذا الشعر بكل هذه القضايا الكبيرة هو الذي يمنحه شكله الخاص الفريد . كما ان الظروف القاسية التي يكتب فيها تحت سطوة التهديد والمصادرة هي التي تمنحه أسلوبه الخاص ذاك . فهو شعر يكتب في الهروب والتشريد والتهديد والمقاومة ، ومن ثم فانه يحمل سمات كل هذه الظروف .. يضطر الى ان يكون قصيرا وحادا كالشظايا . مراوغا كجندي حرب العصابات مقتحما مثله . وهو شعر مكتوب في السجن وفي زنزانات التوقيف وحجرات الاقامة الجبرية المحددة .. انها قصائد تحفر على الحوائط ، ومن ثم فهي قصائد صارخة احيانا زاعقة أحيانا ، واضحة كيوم مشمس في معظم الاحيان.. فشاعر الارض المحتلة لا يعرف رفاهية البناء الرمزي ولا يتخبط في متاهات الغموض ، انه يعرف هدفه ويعرف قارئه ، ويعرف عدوه بوضوح ساطع شديد . يعرف لغته وطريقه وجمهوره ..

لغتي صوت خرير الماء في نهر الزوابع
ومرايا الشمس والحنطة في ساحات حروب
ربما اخطات في التعبير أحيانا
ولكن كنت ـ لا اخجل ـ رائع
عندما استبدلت بالقاموس قلبي (٧٠)

انه يعرف لغته ودوره وجمهوره . لذلك يترك الشعر ينبت تلقائيا من القلب ليصيب القلب مباشرة . لذلك فانه يضطر ازاء عنف الظروف التي يعيشها الشاعر في الارض المحتلة ، الى التعبير عن بعض تجاربه دون أن تكمل أو تنضج ، ليس نقصا في الخبرة ولا عجزا عن الفهم العميق لطبيعة التجربة ، ولكن رغبة في تلبية الحاجة الملحة الى الافضاء الذي لا يستطيع أن ينتظر حتى تتنسم التجربة رياح الخصب والاكتمال .. وهو لهذا لا يتورع عن أن يستخدم بعض الكلمات العامية عندما يجد انها اقدر من الالفاظ الفصحى المبذولة امامه على التعبير.. يستخدمها دون أن يتعب نفسه في البحث عن معادلات فصيحة لها قد تكون غائبة عن متناول يده في تلك اللحظة . فليس لديه الوقت الكافي لتنميق الاشياء . وهو لهذا أيضا يستعمل اكثر من بحر عروضي واحد في بنائه الموسيقي للقصيدة الواحدة .. ولا يهمه كثيرا أن تتقارب نغمات البحور العروضية ولا أن تخدش صلابتها الاذن ، فالآذان التي تسمعه والتي يكتب من اجلها قد اعتادت كل يوم سماع أصوات الانفجارات والطلقات الغادرة . ومن ثم لن تستنكف الانصات الى بعض النغمات المتباينة .

لكنه برغم كل هذا شعر نفاذ وشديد الشفافية ، يخترق القلب مباشرة ببنائه البسيط الساحر الرائع ، وبابتعاده عن الاغراق في الرمز والطلسمية ، وبأسلوبه التعبيري الفريد الذي لا يوقعه أبدا في براثن الشعر الحماسي برغم ارتفاع نبرته احيانا وتوهج تجربته دائما.. انه برغم هذا الارتفاع في النبرة والتوهج في التجربة يترك المجال دائما أمام فعالية القارىء للمشاركة في القصيدة من خلال اعتماده على الايماءات الحادة والموحية والغنية بالدلالات . وبسبب اهتمامه بالتركيز على الموروث الشعبي واقترابه الدائم من مكونات الرؤية الشعبية ، ولجوئه الى توصيل أكبر قدر من المعاني والايحاءات .. وربما لكل هذا فانه يعتمد كثيرا في بناء تجربته على الشكل الجديد الذي يعتمد على وحدة التفعيلة بدلا من وحدة البيت ، لانه شعر عن الحرية وينشد في الشكل التحرر .

القاهرة — **صبري حافظ**

(٧٠) من قصيدة محمود درويش « يوميات جرح فلسطيني » نشرت في « الآداب » يوليو ١٩٦٨ .

ماذا نقول للصغار ؟!

ماذا نقول للصغار عندما
تنفجر القنابل ؟
وتسقط المنازل ؟
حين تهب النار !!
ويزحف الدمار ؟

وتنبري عينان تسألان
عن سبب الدخان .. عن مسبّب الدخان
والسر في سكوتنا
والسر في ارتعاشنا
نجيب ما نجيب ؟!
وليس في وجوهنا الا أسى عصيب .

ويجمد الكلام في شفاهنا
الحرب ..!! هل نحكي لهم عن « بعبع » مخيف ،
عن مارد عنيف
يعبث بالناس وبالاهواء
يبعثر الاجساد والدماء .

أوّاه يا صغارنا
لو اننا نستطيع
أن نجمّد الاشرار كالصقيع
نهذب البشر ،
ونخنق الكدر ،

أوّاه لو نقدر أن
نغيّر الايام
نبعدكم عن العذاب والشقاء والخطر
وننشر السلام في
الافئدة الصغار
في أعين من ذعرها تطير ،
لو كان في قدرتنا أن نجعل الحروب
حكاية تعجبكم
أو لعبة تمتعكم ،
لو اننا نستطيع
نبعدكم الى دنى ، آمنة فيحاء
كثيرة الحنان والعطاء
لو ان في امكاننا
نزرع في دروبكم
الحب والسلام والصفاء .

مي علوش

الطير تأكل من رؤوسهم

قصة بقلم عبد الرحمن مجيد الربيعي

نهض صلاح مخدرا بعد أن بقي ممددا في فراشه وقتا طويلا مستدرا خيوط الاحلام الناعمة التي تنسج في رأسه ملامح لقائه المرتقب مع (ن) . وكيف تدخلت الكلية كالمحتلة وفق تلك الطقوس الغائرة التي توقف ما خفت من تطلعات ، وكيف تعتزل الاخرين وتتربع على عرشها المعزول ، ثم أخذ يهيىء الكلمات المناسبة التي يحملها تحية الصباح ويقدمها أوسمة لصدرها الثائر ، وكيف يعلن لها دائما :

ـ لم أدخل الدرس الاول مطلقا منذ أن وطئت قدماي أرض هذه الكلية الملعونة قبل أربع سنوات .

وتترك شعرها الاشقر هبة لتحركات الهواء في فضاء الممر وتعلن بدلال : ـ أيها الكسول !

***

أخذ صلاح يؤدي مهمات الصباح الباردة ، تمارين رياضية وتنفس عميق ، وموسيقى الصباح ، وقرقعة الملاعق في أقداح الشاي ، والكتب ، والباص ، ثم الجلوس بأمان في زاوية نادي الكلية ، التدخين ، واستعراض الوجوه الرائعة .

فتح شباك الغرفة على مصراعيه . الجو رائع فلا بد من أناقة مفرطه ، لاقتنص من صمت الاشياء حتى يبدأ الدوار مفعوله !

وانتبه الى صحيفة « الثورة » الملقاة على المنضدة والى العنوان الكبير الذي يعلو صفحتها الاولى : « اعدام الجواسيس » ، سهرته كانت منصبة مع الراديو منصتا الى قرارات الحكم التي صدرت بحق خمسة عشر جاسوسا كانوا يزرعون المدينة بالالغام والشائعات ثم يقدمون أسرارنا للعدو بيسر . ونظر بتركيز الى العنوان . وتخيل أعناقهم التي جرت من خلالها كلمات الخيانة ، وكيف ستنتهشم لتزهق أرواحهم المدنسة . ثم تذكر دفاعهم الهزيل ، ما أسهل الخيانة في عرف هؤلاء . انه غالبا ما يجد نفسه مختنقة بهذا الشكل الهمجي في لحظات المواجهة أمام مواقع السقوط التي تسرق بعض الناس .

وخطا صوب الراديو وفتحه ، وتسرب صوت المذيع الى فضاء الغرفة وهو يعيد قراءة الاحكام ضمن نشرة الاخبار الصباحية ، وفكر ان يمكث بعض الوقت منصتا لهذه القرارات للمرة الثانية ، وأخذ يدور داخل الغرفة ملقيا نظرات عجلة على الكتب المبعثرة والى صورة الوجه البدوي المعلق على الجدار والذي يذكره بـ (ن) دائما .

ـ عرفت وجهك قبل أن اراك !

وتشير بيدها اليه وترد : ـ يا لك من متفلسف !

ـ صدقيني ، في صورة التقطتها من مجلة ملونة ، ترسبت في عينيها فاضطررت الى تعليقها على الجدار ، وعندما رأيتك ، هتفت انني قد وجدت الاصل ، ولكن اعلمي بأن الصورة أكثر سلاما منك . أما أنت فأكبر مشاغبة في الدنيا ، عيناك معركة !

***

حمل صلاح الراديو معه وعلقه قرب المغسلة . أخذت الفرشاة تمخر بين أسنانه محدثة رغوة كبيرة على فمه ، وضحك لمنظر وجهه المرسم في المرآة ، كم يبدو الانسان قبيحا في بعض اللحظات مهما كانت ملامحه ! وقبل أن تركد البسمة على وجهه سمع صوتا آخر يعلن بأن الاحكام قد نفذت صباح هذا اليوم ، وأن جثث الخونة معلقة في ساحة التحرير شاهدا على أن الشعب أقوى منهم ، ثم يأتي صوت ثالث يطالب المواطنين بالتجمع في ساحة الميدان لاظهار تأييدهم أمام الرأي العام ، وظهرت من وجهه علامات الارتياح واستعاد تلك الحماسة التي كادت أن تجف في خضم الحياة الباردة التي أعطاها جسده ورأسه منذ سنين . فأسرع بارتداء ملابسه وترك ذقنه دون حلاقة ، لتذهب (ن) وجميع النساء الى الجحيم ، النصف المشلول دائما ، ثم خفف من هذا الحكم عندما أعلن : لتذهب (ن) وحدها الى الجنة فوجهها الوردي لا يمكن أن يسلم للنار بسهولة ، ولكنها لم تفتح فمها بحديث عن الناس يوما .

ـ أنت أيتها البرجوازية المتعجرفة ، عدوتي الطبقية الاولى ونحن نعمل من أجل أسقاط قممكم وامتيازاتكم .

وتعلن بدلال : ـ أنتم تفهمونني خطأ !

ـ أريد أن أراك بين الناس ، قدماك في طريقهم . تمتلئين بالحماس لانتصاراتهم وأفراحهم ، وتشاركين في مسيراتهم ، وآنذاك سأحبك حتما !

***

كانت الجموع تحتشد في ساحة « الميدان » واللافتات ترتفع ، وتوقد حماس صلاح ، ووجد جسده في الخضم . كانت هذه بالنسبة له أعراسا رائعة تلغي كل تردده وتزرعه في المقدمة كالراية .

وانضم الى طلاب كليته ، انها ليست معهم ، ابنة الجشعين . كانوا جميعهم يدا واحدة وصوتا واحدا ، انه منجذب اليها بصورة ما ، ولكن الاشياء قد رصفت بطريقة لا تسمح ليده بأن تأخذ يدها بنقاء ، وأحس بانه قد أصبح أكثر قابلية على البذل والعطاء . وها هو يمنح صوته وحماسه الآن للحقيقة الانسانية وللتاريخ والناس . وغابت كل تلك التطلعات الملساء التي كانت تنزلق في قحفه ، وبقي لهاثه يعلو ، انها ليست المرة الاولى له ، كان يتظاهر دوما في المناسبات والثورات ، وكان يندفع باصرار ، وكان جزاؤه السجن والايام المقرورة وراء القضبان ، وعندما يخرج يجد أن حماسه واصراره قد زادا .. (ن) يا ابنة الضالين ، أين وجهك في هذا الجسم العظيم ؟ وتأفف وأحس بأن مهمات الرجال أكبر من السجود لعيني امرأة تمارس ترفعها الطبقي بغباء .

وأخذت المظاهرة تمضي .

ـ أنت فرح يا صلاح .

ـ انني في عرسي !

ـ منذ الاحتلال الانكليزي حتى اليوم لم تكشف شبكة تجسس واحدة ، وما تعليق « عدس » الا ستار ، ولكنهم تركوا ألف « عدس » آخر يمرح بأمان .

وأخذهم الهتاف الهادر : ـ جبهة وطنية !

وانتزعا صوتيهما من حديثهما المنفرد ورمياهما مع الاصوات الهاتفة . وأخذ صلاح بالتعرق رغم برودة الجو ، وأحس على نحو غريب بانه يهدر كالشلال ولن تطيق قوة على اخماد حماسه .

وعند منتصف « شارع الجمهورية » اندفعت بعض النساء الى صفوف المتظاهرين وأخذن يلقين بالحلوى على الرؤوس وهن يزغردن بزهو ، واندس بعض الصبية بين أرجل المتظاهرين ليجمعوا الحلوى .

ـ لماذا لا تكون (ن) معنا الآن ؟

ثم أردف :

ـ لو فعلت ذلك لاستطاعت أن تأخذ قلبي بيسر ولا حاجة لكلماتها

التي تسطرها لي على صفحات الكتب ؟

بلع ريقه والتقط كلمات الهتاف ، وكانت يده ترتفع الى أعلى ، وعيناه تزدادان اتساعا وتحديا ، ستبقى القمم عالية ولن أرمي رأسي بخدعة أخرى ، الوطن يريد صوتي ، لن يكون صلاح لامرأة ، صلاح ملك للحقيقة والتاريخ والمظاهرات .

ـ أنظر ، الجثث تلوح لنا .

أجاب صلاح :

ـ لا أستطيع تمييزها ، لقد أخذ نظري بالهفوت !

ـ أنظر ثياب الاعدام الحمراء .

ـ قلت لك لا أستطيع النظر من هذا البعد .

وأخذ الزحف الهادر يستمر ، وعندما توقفت المسيرة عند ساحة التحرير طالعتهم الجثث المعلقة على المشانق المنصوبة بصورة دائرية . وحاول الحصول على مواقع لاقدامه وسط الالوف المحتشدة ، على الارض والعمارات وأعمدة الكهرباء ، ثياب الاعدام الحمراء تلتمع مع الشمس وهي ترتفع كوثائق الادانة لكل من يحاول أن يمد يده من جديد ، احدى عشرة جثة علقت كل اثنتين في مشنقة ، والجثة الاخيرة علقت وحدها ، وقد ألصقت ورقة كبيرة في صدر كل واحدة حاملة اسم الخائن الذي كانته .

واستل صلاح جسده من بين المتظاهرين واندفع الى الساحة . كان مشهداً مرعبا . الاجساد معلقة من أعناقها والهواء يحركها فتنفتل يمنة ويسرة ، أواه ، انني أعلن صوتي ، كرروا هذا مع كل من خانوا ، في هذا الوقت ولا تؤجلوا أبدا . وأحس بأنه يتلوى تحت كابوس ثقيل ، وأخذ يفرك عينيه ليعيد اليهما صفاءهما حتى تلتصقا جيدا بهذا المشهد الخالد . جمع بصقة كبيرة ورماها ، ثم انتابه دوار مفاجيء ورغبة في التقيؤ ، فاستل جسده وانسحب من المكان ، وأخذ يهرول ويطلق حوارا منفردا أنزله على النفوس الضعيفة ، وسراق التاريخ... دناءة كبيرة ... سفالة ... يا صلاح اين تخبىء وجهك ؟ حياة واحدة لماذا لا نحياها بأصالة ونقاء ؟!

***

عاد صلاح الى بيته .

ـ هل رأيت الجثث ؟

كان صوت أخته مليئا بالفرح .

ـ نعم .

وأخذت تمسح التراب العالق على كتفه وتقول :

ـ شاهدتهم في التليفزيون !

وألقى بجسده على الكرسي ، وتابعت :

ـ هل أنت جائع ؟

ولم يدر بماذا يرد ، انه جائع فعلا . لكن الرعب قد دمر كل رغبة له في الطعام .

قال لها : أجلبي لي الراديو أولا .

ـ حسنا .

وأخذ يحرك مؤشره بين المحطات ، كان يبحث عن اذاعة العدو . ماذا ستقول ؟ وبماذا ستتحدث ، وأية طعنة جاءت الى رؤوس الخيانة؟ سننهيهم حتما ، اننا مصرون على هذا ، ولن نترك أبوابنا مفتوحة لتعيث بنا رياحهم .

وأخذ يستمع الى موسيقى كلاسيكية تبثها المحطة ، ثم أخذ المذيع بعدها يتلو نشرة الاخبار ، ويعلن أن الكنيست في اجتماع هام ، وأنهم قد هددوا ، وأنهم قد احتجوا ، وأنهم وأنهم ... تف ، جميعكم الى الجحيم ، ألم يدنكم الجميع ، فلماذا لا تكفون ؟ الاحتجاج خدعة تمارس على مقاعد الامم المتحدة الانيقة ، وقد عرفنا كيف نحتج نحن .

واستمر المذيع في قراءته بأن هؤلاء لا علاقة لهم باسرائيل وأن كل جريمتهم أنهم يهود ، وضحك من هذا الادعاء ، ألم يستمعوا الى المحاكمات التي بثها راديو بغداد لليال متتالية ؟ ثم ازدادت ضحكته انطلاقا عندما واصل المذيع القول بأن (يو ثانت) قد أعرب عن أسفه لهذا الحادث ، يا (يو ثانت) المسكين لا تسقط أنت ولا تلوث صوتك، يا (يو ثانت) الانيق والبطر ان لغتنا غير لغة ملفات حقيبة (جونار يارنج) التي تدور من عاصمة الى أخرى ، وقد آن لنا ان نتكلم .

ـ أتريد الطعام ؟

وهنا أغلق الصوت القبيح الذي ينطلق من المذياع ، وقال لاخته وهو فرح للحماس الذي يطفح به وجهها الحلو : ـ نعم هاتيه .

بغداد — عبد الرحمن مجيد الربيعي

في الثورة الفلسطينية

— تتمة المنشور على الصفحة ٨٥ —

من كل الغصون الراعفة
فاذا كنت اغني للفرح
خلف اجفان العيون الخائفة
فلان العاصفة
وعدتني بنبيذ
وبأقواس قزح
ولان العاصفة
كنست صوت العصافير البليدة
والغصون المستعارة
عن جذوع الشجيرات الواقفة

انه اثر واضح وسريع وعظيم ذلك الذي طبعته الثورة الفلسطينية المسلحة على ادبنا العربي الحديث . هو اثر يخالف ما حدث بعد نكبة ١٩٤٨ . يذكر غسان كنفاني ان الصمت خيم على الادب العربي الفلسطيني بعد نكبة ١٩٤٨ نتيجة لذهول النكبة ، ثم صدر ادب فلسطيني يمكن اعتباره ادب منفى لا أدب لجوء (٢٥) . وغلب الحماس وعدم التصديق على هذا الادب وكان في اغلبه شعراً . وفي داخل فلسطين المحتلة قام الادب الشعبي الفلسطيني لسهولة تداوله وعدم خضوعه لاجهزة القمع الصهيونية بنصيب عظيم في التعبير عن النكبة بحزن عميق ثم بثورة عارمة كرد فعل للمكاسب العربية الثورية خارج فلسطين . وبعد موجة من الشعر الغرامي في أوائل الخمسينات عادت الثورة العارمة الى الشعر العربي داخل فلسطين المحتلة ، بعد أن حقق الفلسطينيون الارتباطات الشخصية بالحب ، بدأوا يعاودون الارتباط بالوطن . ان مقارنة بسيطة بين قصيدة الشاعر الفلسطيني توفيق زيادة ، الذي تعرض للطرد من وظيفته عقابا لشعره ، وهي قصيدة « المستحيل » (٢٦) وتاريخها ١٩٦٥ وبين قصائد محمود درويش بعد النكسة واشتداد الثورة الفلسطينية المسلحة ، لترينا بوضوح ان الامل اصبح حقيقة ، وان الشعر تحول من الغضب الى الحرب ، من الشعور الى الفعل . وان المجال لا يتسع بالطبع لمقارنات كثيرة تؤيد وجهة نظرنا . فالجزء التالي من موضوعنا هو : أين يقف غسان كنفاني من الثورة الفلسطينية ؟ وسنتناول ثلاثة نماذج من انتاجه القصصي كدليل لنا الى دراسة ادبه القصصي : « رجال في الشمس » ، و « ما تبقى لكم » ، و « عن الرجال والبنادق » .

الكتاب الاول : « رجال في الشمس » (٢٧) . قصة طويلة أو رواية قصيرة ، تعرض لمأساة الفلسطينيين بعد الاستيقاظ من هول النكبة ، ومن اليأس الكاذب والامل الكاذب كذلك ، والهرولة في أرجاء الوطن العربي بعيدا عن الارض الفلسطينية ، بحثا عن لقمة الخبز ، وعن الحياة بعيدا عن الوطن الفلسطيني . وتعرض الرواية هذا البحث من خلال ثلاث شخصيات فلسطينية ، أبو قيس ، وأسعد ، ومروان . ويخوض الثلاثة رحلة العذاب هربا من العذاب . من البداية يذكرنا كل سطر في الرواية بالمأساة التي تلح بشعور آسن من الغربة والارض الخالية كالابد الاسود ، والمدرس سليم الذي لا يعرف كيف يصلي ولكنه يجيد اطلاق الرصاص ، والذي يحسد لموته قبل سقوط القرية في أيدي اليهود بليلة واحدة ، يحسد لانه ظل في الارض حتى وهو ميت. أي حنين حزين للارض والوطن تدلنا عليه الكلمات الاولى لهذه الرواية الرائعة . مات سليم في وطنه وحمل أبو قيس — أحد أبطال الرواية — عاره على كتفه عبر الصحراء الملتهبة الخالية في طريقه الى الكويت بحثا عن « لقمة خبز » . كل كلمة تشير بعناية الى الامس والى الامل في جيل جديد ، حتى بعد أن يناقف أبو قيس من الحمل الجديد الذي تحمله زوجته في بطنها ، يرفض أن يكون القادم بنتا بل انه يكرر في اصرار : « كلا ! نريد صبيا ! صبيا ! » . يريد رجلا للمستقبل . هذا هو أبو قيس الذي غادر قريته الفلسطينية المحتلة الى قرية أخرى بعيدة عن خط النار . ثم لا يلبث أن يغادرها ، يغادر الوطن والارض ، بحثاً عن مورد للرزق ، لقمة الخبز . وكلما ابتعد أبو قيس عن وطنه ازداد احساسه بقربه . عندما صوب بصره نحو شط العرب « أحس أكثر من أي وقت مضى بأنه غريب وصغير » . وحتى عندما يحلم بالكويت فانه يحلم بأرضه وبشجيرات الزيتون العشر . ان غسان كنفاني فنان واع يدلنا تيار الوعي والمونولوج الداخلي لابي قيس على التصوير الدقيق لمأساة الفلسطيني خارج وطنه بعد النكبة . لقد ظل عشر سنوات في ذهول ، ليتبين انه فقد كل شيء « لقد احتجت الى عشر سنوات كبيرة كي تصدق انك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها .. في هذه السنوات الطويلة شق الناس طرقهم وأنت مقع ككلب عجوز في بيت حقير .. ماذا تراك كنت تنتظر ؟ أن تثقب الثروة سقف بيتك .. بيتك انه ليس بيتك .. » (ص ١٤ و ١٥) . عشر سنوات في الخيش وفي القفر وفي بيت غريب . هكذا انقضت حياة الفلسطيني أبو قيس بعد النكبه كما صورها بدقة غسان كنفاني في « رجال في الشمس » . واذا خاف ابو قيس العجوز من عناء الرحلة الذي قد يجلب له الموت السريع لا يلبث أن يؤكد له تيار وعيه المتدفق بأن الموت أفضل من حياة الانتظار ، انتظار العودة الى الارض والزيتون والوطن . عشر سنوات من الانتظار بلا أمل حقيقي . ومن اجل أن يتعلم قيس ، الجيل الفلسطيني الجديد ، ومن أجل حياة جديدة مستقرة ، يطرح أبو قيس لامبالاته جانبا ويمضي في طريقه الى الكويت ، فيقع في أيدي أحد سماسرة التهريب الى الكويت ، الذي يطالبه بكل ما معه من نقود لقاء تهريبه عبر دروب الصحراء

مجلة « مواقف »
العروبة والثورة

هل للدين منطقه الخاص ؟ هل هو متناقض مع الثورة ؟ ما معنى الوحي ؟ هل الانجيل وضع ام معنى ؟ هل القرآن كتاب السكون ام كتاب الحركة ؟ هل الفكر العربي المعاصر فكر ثودي ؟ كيف تكون العلمنة الانقلابية ؟ هل الانسان للثورة ام الثورة للانسان ؟ ما هو الطريق الى الثورة العربية : العقل ام العنف ؟ كيف تكون الفلسفة سلاحا للثورة ؟ هل الثورة العربية القائمة ثورة من اجل السلطة ام من اجل الشعب ؟

هذه الاسئلة يجيب عنها في دراسات جديدة خاصة كتاب العدد الثاني من مجلة « مواقف » الذي صدر اليوم . وهم . رينه حبشي ، حسن صعب ، جورج خضر ، بولس الخوري ، مكسيم رودنسون ، نديم البيطار ، لاسلوجيوركو ، عادل ضاهر ، حيدر حيدر ، سليمان العيسى ، هشام شرابي .

يتضمن العدد كذلك حوارا شاملا عن « لحظة القدرة على كل شيء » ، كما يراها ، بول غيراغوسيان . وفي العدد صوت شعري جديد ينشر للمرة الاولى هو حسين عبد اللطيف في « الشخص خارج القوس » ، ومحمد الماغوط في « شواطىء متعرجة لا يحدها البصر » ، وسركون بولص في « عاصمة آدم » ، ورفيق شرف في « نصوص ورسوم » ، وجمال ابو حمدان في « ملصقات على حائط عتيق » . ويتضمن العدد وثيقتين الاولى بعنوان « التناقضات في الوحي الآلهي » للودفيغ فويرباخ ، والثانية بعنوان « الفلسفة ، سلاحا للثورة » للفيلسوف الماركسي الفرنسي المعاصر لوي آلتوسير .

ونتاهاتها الى الكويت . يهرب ابو قيس من وهدة اليأس والحرمان الى رحلة العذاب التي ينبهه الى أهوالها المهرب السمين . ولكنه أينما يتجه تشده رائحة أرضه وتنساب في شرايينه كالطوفان .

أما أسعد ، الرجل الثاني ، فقد سار في رحلة التهريب ووقع ضحيتها فدفع عشرين دينارا لمهرب هربه من الاردن الى العراق ، الا انه تركه يدور في الصحراء المحرقة خوفا من مطاردة السلطات له . الارض الممزقة عبر رحلته الجريئة .

فماذا تقول رواية « ما تبقى لكم » ؟

ان حامد يعاني أيضا من اثار المأساة على أسرته . لقد غرر زكريا العميل الصهيوني ، بأخته ، وفض بكارتها . فاضطر حامد لان يزوجها له . ولم يستطع أن يمضي ليلة واحدة في المنزل . قرر أن يغادر غزة متجها الى أمه في الاردن عبر الارض المحتلة . « لو كانت أمك هنا . اذا تشاجرا قال لها : لو كانت أمك هنا ، اذا ضحكا ، اذا انتابها الالم ، اذا عجزت عن الطبخ ، اذا طردوه من عمله ، اذا وجد عملا : لو كانت أمك هنا ، أو كانت أمك هنا ، وأمه لم تكن هنا أبدا ، على بعد ساعات من المشي ، في الاردن ، لم يستطع أحد أن يمشيها في ستة عشر عاما .. » (ص ١١) . الام هنا أيضا هي الوطن الام . لو كان الوطن موجودا لما نال العار من أخته ، ولما اضطر الجبان زكريا الى الخيانة ، ولما اضطر الى تزويجه أخته . ولكن حامد هو أول من يعلم ان سلسلة التمنيات هذه لا فائدة منها . لقد ظل مقيدا الى غزة ستة عشر عاما وهو الان يفك قيوده وينطلق عبر أرض الوطن المجزأة . ان الصحراء وحش مخيف يصعب اجتيازه وهي تبتلع الرجال في الروايتين . ولعل المؤلف أراد أن يوضح مدى بشاعة ترك الوطن والهرب خلال الصحراء المميتة . « أن الصحراء تبتلع عشرة من امثاله في ليلة واحدة ، عليه أولا أن يجتاز حدودنا ثم عليه أن يجتاز حدودهم ثم حدود الاردن ، وبين هذه الميتات الاربع توجد مئات الميتات الاخرى في الصحراء » (ص ١٣) .

في « ما تبقى لكم » ظهر العدو مرة أخرى في المواجهة . وبدأ حامد يعاني من ارهابه ولكن باصرار على حماية الثوريين المسلحين . أما زكريا النتن فقد ركع على قدميه وأوشك على أن يدلي للضابط الاسرائيلي بمعلوماته عن الفدائي البطل الفلسطيني « سالم » الذي يبحثون عنه . ولكن سالم ظهر عندئذ « والتفت الى زكريا وشيعه بنظرات رجل ميت باردة وقاسية تعلن عن ولادة شبح » .

ان زكريا النتن اغتصب مريم بينما حامد غارق في دوامة أول الشهر ، ليأتي بالاعاشة . هذا ما تبقى لكم : العار ، وانتظار أول الشهر ولقيماته . ومرة أخرى تعود يافا وضحاياها . ان الاسرة كلها ضحية الهجوم الوحشي على يافا وهو يصور الهجوم والخروج الفلسطيني تصويرا دقيقا . « ووراء الشاطىء الاسود كانت يافا تحترق تحت شهب مذنبة من الضجيج الملتهب المتساقط في كل مكان . ونحن نطوف فوق موج داكن من الصراخ والدعاء .. ويافا تغطس كالشعلة في مياه الافق البعيد ، وتنطفىء في عيوننا نقطة نقطة .. » . وفي يافا فقد أباه أيضا في معركة مع العدو . أبوه الذي كان يؤجل كل شيء من أجل القضية ، قضية فلسطين . أما حامد فلماذا يذهب الى أمه ؟ لماذا لا يكون رجلا مكتفيا لا يبحث عن الام ؟ ليس البحث عن الام هو الغاية ، بل العمل الشاق ، عمل الرجال . أن المونولوج الداخلي يدلنا على عذاب حامد وتمزقه .. أن البحث عن الام ليس بكاف . ومادامت الذات غير مؤكدة فيجب تحديد الذات الشخصية الفلسطينية : « غزة راحت الان وامحت وراءك في الليل . خيوط الصوف كرت كلها ، ولم تعد أنت مجرد كرة لفوا عليها خيطان الصوف ستة عشر عاما ، ولكن من أنت ؟ » (ص ٤١) لننظر أي صورة رهيبة يصورها غسان كنفاني للانتظار الفلسطيني ، انها صورة أليمة حقا ولكنها تحرك الصخر « ربما كان أفضل لك أن تمضي عمرك راكعا هنا ، مكبا ، يكاد جبينك يمس الارض بانتظار أن تركلك قدم ثقيلة ، فتنتصب واقفا والذل يتآكلك في جسدك كالجرب » (ص ٤٤) . وحين جاءت حامد الفرصة ليجنده سالم للعمل المسلح اغتال زكريا الفرصة ووشى بسالم . اما سالم فلم يعد ذليلا لانه واجه العدو ولم يستكن لارهابه،

وحين مات سالم بطلقة واحدة عاد الذل مرة أخرى . قال الضابط الاسرائيلي لهم : « انصرفوا الى بيوتكم . لقد شهدتم ما فيه الكفاية.. فحمل كل منا ذله الخاص ، وانزلقنا الى المعسكر من جديد » .

ان غسان كنفاني يحرك الثورة في الجماهير الفلسطينية الممزقة. ان من لا يحمل السلاح تافه . فعندما سألته أخته لماذا يقتلونك أنت ؟ شعر بتفاهته . وبينما عانى أبطال « رجال في الشمس » من الوحدة ، تصبح الوحدة في «ما تبقى لكم » دافعا للثورة ولليقظة . « أورثني يقيني بوحدتي المطلقة مزيدا من رغبتي في الدفاع عن حياتي دفاعا وحشيا .. » (ص ٤٨) .

ان كل شيء في « ما تبقى لكم » يرفض الانتظار . حامد يرفض الانتظار اكثر من ستة عشر عاما . ومريم ترفض الانتظار ، انتظار زوجها الذي يجعلها مجرد ممر في ذهابه من زوجته القديمة الى عمله .

ليس لدى الفلسطينيين شيء يخسرونه . هذا ما يؤكده غسان كنفاني . وقد اكتشف بطله حامد هذا عندما بدأ في التحرك عبر الارض المحتلة وعندما حمله التحرك الى مواجهة العدو وجها لوجه . ان تحركه من الانتظار اللامجدي خلق موقفا جديدا ، هو ليس الخاسر فيه لانه خسر كل ما لديه . وكلما جمد حامد تحول الزمن إلى خصم له . وعندما التقى بالعدو التقى به لقاء القوي تعويضا عن حادثة الفدائي سالم الذي طلب اليه أن يكف عن التمنيات .

أما ما تبقى لكم ، فهو الموت والعار والفقر والضياع . هذا ما تبقى لكم . وهو قبض الريح . فتحركوا فلن تخسروا شيئا لانه لم يعد هنالك شيء . هذا ما تقوله رواية « ما تبقى لكم » وما يقوله غسان كنفاني وبالصراحة المباشرة ودون صراخ ممجوج في الفن : « ما تبقى لكم . ما تبقى لي . حساب البقايا . حساب الخسارة . حساب الموت .. » (ص ٥٨) .

أما زكريا الخائن فقد أراد أن يوقف مسيرة الزمن . أوقف الساعة التي تدق كل دقة تذكر بمرور زمن جديد من الضياع « وكانت الدقات تحوم بيننا كطلقات رصاص قاتل » (ص ٦٤) .

ان حامد الشاب الفلسطيني تحرك ولتحركه معنى تحرك الفلسطيني من تردده وانتظاره ولامبالاته . تحرك و « غادر المحطة المهجورة وتركنا على رصيفها المحطم ، نستمع الى صوت الصمت المفعم بالغربة والوحشة والمجهول يدق . يدق . يدق ... » (ص ٦٨) . ويصف غسان الانتظار وصفا صادقا أليما . وقد نقله حامد الى العدو عندما واجهه ، وهو ما تواجهه الصهيونية عندما يتحرك الفلسطينيون الى أرضهم . الانتظار ، انتظار الضربة القادمة . وعندما يتحرك الفلسطيني للعمل ضد العدو يكف عن الانتظار والتفرج فيتحول العدو الى متفرج وسيمسك الفلسطيني بزمام الموقف .

وحين تمزق مريم زكريا بسكينها الحاد ، فانها تمزق الخيانة، والاستسلام ، فهي تقتل طلبا للحياة .

وهكذا تزداد حدة النبرة التي يتحدث بها غسان كنفاني . من دعوة الى اليقظة في « رجال في الشمس » ، الى دعوة الى التحرك ضد العدوان في « ما تبقى لكم » .

ذلك كان أدب غسان كنفاني قبل النكسة . أما بعد النكسة فلدينا كتابه « عن الرجال والبنادق » (٢٩) . وهو مكون من مجموعة قصص قصيرة بطلها واحد ، وهي تعد قصصا قصيرة تجاوزا ، فالاصح أن نسميها كما أسماها المؤلف لوحات . وعندما يصور كاتب فلسطيني مخلص وفنان صادق مادة قصصية بعد النكسة وبعد اشتداد الثورة الفلسطينية المسلحة (اكتوبر ١٩٦٨) فان أهم ما ينتظر منه كمقاتل بالكلمات ، هو أن يستفيد من خبرة ثوري عظيم كماوتسي تونغ الذي كتب (٣٠) : « يجب أن نجمع المواد والحكايات المتعلقة بانتصارنا ، كما يجب أن نجمع أسماء الوحدات والضباط والجنود الذين قاتلوا بشجاعة . وعلينا أن نستخدم هذه المواد من أجل وضع الخطوط العريضة للدعاية وتأليف الاغاني والرقصات والمسرحيات التقليدية والحديثة » . و « حين تروى القصص يجب أن نخصص الكثير من الوقت للقصص التي تتحدث عن مآثر الاقدمين

بجمة وأعمالهم الكبرى ، وكلماتهم الممتازة وسلوكهم الباهر ، لكي تحقق اثرا موحيا » .

فلنر الى أي مدى سارت المجموعة الاخيرة لغسان كنفاني في هذا الطريق الحتمي للادب والفن في المعركة . لقد صدرت المجموعة وقد أتمت الثورة الفلسطينية المسلحة مرحلة تكوين الطلائع الثورية والتفاف الجماهير الفلسطينية من حولها ، كما كونت تنظيماتها الثورية المسلحة وفي سبيلها لتكوين التنظيم الثوري الموحد الذي يقود المواجهة الشاملة مع العدو . وأضحت المواجهة مع العدو يومية وتطورت أشكال المواجهة من البندقية القديمة الى زرع الالغام الى الصواريخ الحديثة واسقاط طائرات العدو الهليكوبتر . وقدمت الثورة نماذج عظيمة عديدة من الابطال مثل الشهيد يغمور وهذا هو اسمه الحركي اما اسمه الحقيقي فهو محمود غانم ابو خوص ، الذي تحول من قاطع طريق الى مناضل يتحدى الموت . والمناضلة فاطمة البرناوي (٢٨ سنة) التي لم يظهر لها اثر في ادبنا سوى رسائل الاديبة ليلى بعلبكي (في مجلة الاسبوع العربي اللبنانية) بعنوان رسالة الى مناضلة . فاطمة البرناوي التي حكم عليها بالسجن مدى الحياة بسبب تفجير سينما صهيون . والتي اعترفت المحكمة العسكرية الاسرائيلية في أللد بصمودها مع رفاقها في مواجهة الارهاب الصهيوني . وصاحت في قضاتها المجرمين « افعلوا ما شئتم .. فلن تهمنا احكامكم » .

هذه البطولات الاسطورية اين مكانها من ادب غسان كنفاني ومن ادبنا العربي الحديث ؟ ان الثورة الجزائرية نجحت في اثارة الرأي العام العالمي بقصص المناضلات الجزائريات جميلة بوحريد وغيرها .

اول ملاحظة على كتاب « عن الرجال والبنادق » ان معظم القصص يعود تاريخها الى ما قبل النكسة . وفيما عدا القصتين الاخيرتين (من تسع قصص ومقدمة ومؤخرة) . وقد اعترف غسان في تقديمه للكتاب بوجود لوحة ناقصة سيرسمها الرجال والبنادق . ولكن الرجال يرسمون هذه اللوحة ليل نهار بالدم والعرق والرصاص . وهذه اللوحة هي التي كنا ننتظرها من أديب مخلص للقضية الفلسطينية وجيد الرؤية مثل غسان كنفاني .

يبدأ غسان كنفاني بذكر كلمة الكاتب الصيني القديم سان تسي نقلا عن كتاب ليدل هارت الاستراتيجية وتاريخها في العالم ، والحكمة تقول « ان الحرب حيلة . ان الانتصار هو ان تتوقع كل شيء والا تجعل عدوك يتوقع . ثم يعبر الفنان عن الشعور بالذنب الذي يؤرقه ، الشعور بالنعومة والدفء بينما الابطال يزحفون في الوحل والظلام والمطر يصنعون المجد والشرف . « ترى ماذا يفعل في هذه الظروف الرجال الذين يزحفون تحت صدر العتمة ليبنوا لنا شرفا نظيفا غير ملطخ بالوحل ؟ » (ص ٧) ويكاد يكون مدخل الكتاب هو الوحيد الذي يدلنا على اثر النكسة في ادب غسان كنفاني . فهو يصف المخيمات بأنها خرق بالية مثل رايات هزيمة . وهو يكشف جري البورجوازية الناعمة وراء الدعاية المظهرية واستخدام القضية كتسلية واسلوب شهرة ووصول . وأرى النكسة واضحة الاثر على الفنان . انها قبضة السم . انها وحل على الوجوه . كيف يبتسم الناس والوحل يغطي وجوههم . أي صدق اكثر من هذا في التعبير عن مأساة المثقف وهو يرى مواطنيه يلهون وكأنهم يتناسون ما حدث ، وان ما حدث لرهيب . « أيمكن ان تكون هذه هي وجوهنا حقا ؟ كيف استطعنا ان ننظفها بهذه السرعة من الوحل الذي طرشه حزيران (يونيو) فوقها ؟ أصحيح اننا نبتسم ؟ أصحيح .. » (ص ٩)

فاذا ما طالعنا قصص المجموعة . « الصغير يستعير مرتينة خاله ويشرق الى صفد » عنوان القصة الاولى . وهي لوحة بالاصح كما اسماها غسان ، تصور الكفاح المسلح القديم . بندقية عتيقة يعدها العجوز مدفعا ويعتبرها الشاب منصور صالحة لاصطياد العصافير ويحلم بسلاح حقيقي ويتفادى الدوريات الانجليزية ويلجأ الى صفد ليحاصرها ببندقيته وحماسته العارمة ـ انها قصة من الماضي القديم ومن الكفاح القديم فيها صدق وفيها نقد . ويصف غسان كيف أضحت البندقية ثقيلة ولا تتحمل خزانتها الا طلقة واحدة تحشى وتطلق ثم اخرى بعدها ، انها معوقة ومن متحف تاريخ السلاح . يريد منصور استعارة بندقية خاله العجوز ليغزو بها قلعة صفد ، وبينما يستنكر العجوز الغزو بعشرين رصاصة يفكر منصور بأنه « لو حمل كل رجل في الجليل عشرين فشكة واتجه الى قلعة صفد لمزقناها في لحظة واحدة . » (ص ٢٤) أما شقيقه قاسم فقد صار طبيبا بورجوازيا يستنكر ان يعمل في القرية مع حلاق الصحة ويتجه الى المدينة النظيفة حيفا .

وتجيء اللحظة الحاسمة في القصة التاريخية عندما يعقد غسان مقارنة بين ما يفعله المثقف العربي البورجوازي بهربه من الارض ومن القرية ، ولجوء اليهود الى القرية والتزاحم على العمل فيها . كما قال أبو قاسم : « انظر الى اليهود ، حين يجيء الواحد منهم ينصرف الى العمل في القرى .. لماذا لا تفتح عيادتك في مجد الكروم ؟ » وتشير القصة بذلك الى فرار الطبيب البورجوازي بعيدا عن أرضه . وبقاء الاخ الفلاح الكادح منصور يزرع الارض ويحمل السلاح دفاعا عنها .

في القصة التالية « الدكتور قاسم يتحدث لايفا عن منصور الذي وصل الى صفد » وفي حيفا غرق الطبيب البورجوازي الشاب في ثراء المدينة ونعومتها وفي منزل اليهودية ايفا وغفل عامدا عن رؤية المدفع اليهودي المتمكن من المدينة فيصطاد العرب قتلى اينما كانوا في المدينة. وفي علاقته باليهودية ايفا كان يتجاهل القضية ويهرب الى الطعام والانثى . اما ايفا فانها كانت تعرف القضية وتعنيها اولا واخيرا . وبنقلات بارعة يقارن غسان كنفاني في لحظة تداعي المعاني بين ما يأكله الدكتور قاسم من زبد ومربى وبين ما يأكله شقيقه منصور من خبز اسمر خشن وزعتر جاف مع الرصاص . كان الطبيب غارقا في كرسيه الهزاز في منزل أسرة ايفا . بينما أخذ حبل البندقية يحز في كتف منصور كالمنشار . ان منصور يكتشف بوعيه الفطري البسيط ، كم هي غريبة وضالة الحياة في المدن . « غريبون اهل المدن كأن الامر لا يعنيهم . » (ص ٣٥) وهو نفس ما اكتشفه غسان في مقدمة كتابه بعد النكسة وكيف نسيها الناس بسرعة . ووجد منصور اليهود يقاتلون بمدافع ذات منظار وفوق الاسطح ومن اماكن استراتيجية والعرب في اماكن ضيقة في متناول اليهود . ثم يسرد غسان سردا تاريخيا مباشرا بعيدا عن الفن قصة دخول اليهود الاوروبيين الى فلسطين . كان اليهود يعيشون مع العرب ويتعاملون معا في اخاء وود ويتسمون بأسماء عربية ويتحدثون بالعربية ويبيعون في محلات صغيرة . الى أن جاء اليهود المهاجرون ففتحوا المحال الكبيرة وتستروا خلفها لاعداد خطط الاستيلاء على البلاد بالسلاح والارهاب . كان الجدود العرب ينظرون بلا مبالاة الى المحلات الكبيرة التي فتحها الاشكيناز ، اليهود الاوروبيون، بينما تخفي هذه المحلات شحنات الاسلحة وجماعات الهاجناة الارهابية. كل شيء معد بدقة . والانجليز متواطئون مع اليهود . فالانجليز يكتشفون خراطيش الصيد مع العرب ولا يكتشفون الاسلحة الثقيلة اليهودية . الانجليز ينامون عند هجوم اليهود ويستيقظون عند تحرك العرب ويبعدونهم عن اكتشاف ما يفعله اليهود في مرتفعات المدينة وقبابها.

واخيرا يعود غسان الى قصته الاصلية فيرينا كيف استطاعت البندقية القديمة ان تعمل عملا بطوليا في مواجهة السلاح اليهودي والمكر اليهودي والتقدم اليهودي ، قصة من التاريخ القديم الحديث كتبت في فبراير ١٩٦٥ . وتتابع مسيرة منصور الشاب الفلسطيني في قصة « ابو الحسن يقوص على سيارة انجليزية » وفيها يشيد غسان كنفاني بالماضي التليد في الكفاح ضد الانجليز . ويواصل منصور مسيرته في الكفاح المسلح الفردي لان اباه في القرية واخاه مع اليهودية في حيفا . ثم في القصة التالية « الصغير وابوه والمرتينة يذهبون الى قلعة جنين » يلتقي منصور بالاب فجأة في قتال مع العدو ويموت ابوه. وتتضمن القصة نقد العمل الوطني المسلح في القديم ، كان عملا بطوليا حقا ولكنه مخطط بعقلية عشائرية متخلفة « انتهى كل شيء ، هيا بنا ، لقد كانت غزوة عشائرية لا تعرف رأسها من ذنبها ، ولكن سنتعلم . » (ص ٨٠) وبهذه القصة ينتهي القسم الاول عن زمن الحرب . اما

القسم الثاني من الكتاب فهو زمن الاشتباك كما يقول غسان كنفاني ، الاشتباك مع فقر الحياة ، مع الجوع والعري . وهو اقسى في رأي المؤلف . فالحرب هدنة . اما في الاشتباك فلا هدنة ولا راحة . قتال مستمر مع الحياة المرة . ويصف حياة الفلسطينيين بعد النكبة بانها قتال مستمر ، اشتباك لاهث ، قتال عنيف في سبيل الطعام الذي يلهي الانسان عن كل ما عداه « أنت لا تعرف كيف يمر المقاتل بين طلقتين طول نهاره . كان عصام يندفع كالسهم ليخطف رأس ملفوف ممزق او حزمة بصل . » (ص ٩٣) وهي قصة حديثة فتاريخها مارس ١٩٦٧ بينما قصص المجموعة الاولى تعود تاريخا الى سنة ١٩٦٥ . وقصتنا هذه تصور حالة الفقر والضياع التي غرق فيها الفلسطينيون بعد النكبة .

ونقفز الى القصتين الاخيرتين من المجموعة لانهما كتبتا بعد النكسة ـ فبراير ١٩٦٨ . الاولى « صديق سليمان يتعلم اشياء كثيرة في ليلة واحدة » تحض الفلسطينيين جميعا على ان يكونوا ثوارا وفدائيين لانه لم يعد هناك امان لهم سواء سكتوا ام حاربوا فمنازلهم تحطمها الغام العدو انتقاما لاي شيء . وعرف بطل القصة انه لا بد من حمل السلاح لانه لم يعد هناك امان حتى في ظل الاستكانة . عندما فكر بطل القصة ببطء في كل شيء استبعده الضابط من صفوف الفدائيين فوقع اسيرا لاهانات جنود العدو الاسرائيلي. وحين يفخر الجندي الاسرائيلي بمقدرته العسكرية يجيبه فكره الداخلي بأنه سيجيء دور الفلسطينيين ويتغلبون عليهم قتالا . وفكر : « ذلك لانكم تأخذون وقتكم . انتظروا حتى نأخذ وقتنا . » (ص ١١٩) وحين رفضه معسكر الابطال الفدائيين جلس الى جوار أمه فسخر منه جندي العدو بأنه صبي أمه . ولما أفلت من اتهام العدو ، صدمته اجابة أمه بأنه بريء .

اما القصة الاخيرة « حامد يكف عن سماع قصص الاعمام » فهي تحكي ايضا ومباشرة ما تريد كما فعلت القصة السابقة . وفيها يمزق غسان استكانة الاجيال السابقة من الفلسطينيين للنكبة . كما يمزق حكمة الكبار والاعمام . عندما يفجر الفدائي حامد دبابة للعدو فيفقد سمعه ويكف عن سماع الحكم القديمة . ولم يعد يسمع سوى اصوات الانفجارات . ولم يعد يهتم للعدو ووقع اقدامه الثقيلة في الشوارع .

« خيمة عن خيمة لا تفرق » ملاحظة الختام . بهذه الكلمات البسيطة التي تنطقها الام عندما تكتشف ذهاب ابنها للحاق بالفدائيين متمنية ان تلحق بهم لتعمل شيئا من أجلهم ، تطبخ طعاما او تحوك ثيابا في خيمة اخرى من الخيام الكثيرة . وهي لن تخسر شيئا سوى الخيمة . والخيمة موجودة في كل مكان لانها الحد الادنى لاي حياة انسانية . لن يخسر الفلسطينيون شيئا سوى خيامهم البالية ، سوى قيودهم واوتادهم . فيا أيها الفلسطينيون من أجل حرب التحرير . هبوا من نوم عشرين عاما في الاعتماد على الغير حتى ضاعت القضية الفلسطينية وضعتم او كدتم تضيعون . هذا هو محتوى آخر لوحات كتاب « عن الرجال والبناق » لغسان كنفاني .

وفي رأيي ان المعركة كانت تستحق وتنتظر من شاديها ما هو اكثر من مجموعة « عن الرجال والبنادق » .

ان قصص البطولة تصنع بالدم والرصاص ليل نهار ، ان العالم يتابع ثورتنا الفلسطينية المسلحة العظيمة بدهشة وانبهار ، ان الاديب مطالب بأن يصاحب ما يجري على الارض المحتلة بالرواية والانشاد ، مطالب بأن يخاطب جماهيرنا العربية كي يشدها الى العمل الثوري المسلح ، الى الوجه العربي المشرق في ثورتنا الجديدة . الاديب مطالب ايضا بأن يدلي الى العالم بدلوه ـ حقا ان الفن تفطيه المباشرة وهذا واضح في مجموعة « عن الرجال والبنادق » ، ولكن أولوية التغني بالمعركة تغطي على ما عداها . وهذا كله أقوله ليقيني بأن غسان كنفاني فنان فلسطيني مخلص وصادق . وقد تنوعت موضوعاته ولكنها كلها تصب في اطار القضية الفلسطينية ، وتنوعت كتبه من الدعوة الى اليقظة في « رجال في الشمس » الى الدعوة الى التحرك ضد العدو في « ما تبقى لكم » الى نداء النضال في « عن الرجال والبنادق » .

القاهرة — أحمد محمد عطية

الهوامش :

(١) هوشي منه ـ مختارات حرب التحرير الفيتنامية ـ ترجمة منير شفيق ـ نشر دار الطليعة ببيروت ـ الطبعة الثانية ابريل ١٩٦٨ ـ ص ٢٤٨ .

(٢) جيفارا ـ سيرته وكتاباته الجديدة ـ ترجمة حسن فخر ـ نشر دار الاتحاد ببيروت ـ الطبعة الاولى مارس ١٩٦٨ ص ٦٢ .

(٣) الثورة الفلسطينية ، العدد السابع ـ يونيو ١٩٦٨ .

(٤) ادوارد كارديلي ـ في النقد الاجتماعي ـ ترجمة احمد فؤاد بلبع ـ نشر دار المعارف بمصر ـ الطبعة الاولى ١٩٦٨ ص ٤٨ .

(٥) مجلة الكتاب العربي ، عدد مايو ١٩٦٧ .

(٦) أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ، غسان كنفاني ـ نشر دار الآداب ببيروت ـ ١٩٦٦ .

(٧) في الادب الصهيوني ـ غسان كنفاني ـ دراسات فلسطينية (٢٢) ـ نوفمبر ١٩٦٧ .

(٨) مجلة الثورةالفلسطينيةـ العدد الحادي‌عشرـ سبتمبر ١٩٦٨ .

(٩) الاهرام ـ عدد ٣١ ديسمبر ١٩٦٨ .

(١٠) الثورة الفلسطينية ـ عدد ٦ سبتمبر ١٩٦٨ .

(١١) المرجع السابق .

(١٢) هوشي منه ـ مختارات حرب التحرير الفيتنامية ـ ص٢٤٣ .

(١٣) الدكتور صلاح العقاد ـ قضية فلسطين المرحلة الحرجة (١٩٤٥ ـ ١٩٥٦) نشر معهد الدراسات العربية ـ الطبعة الاولى ١٩٦٨ ، راجع ص ٤٩ وما بعدها .

(١٤) انظر رواية المحادثة التليفونية بين القاوقجي والحسيني عندما طلب الاخير اسلحة من الاول فرفض امداده بها ، تكشف اليهود الموقف بتسمعهم هذه المكالمة وتسبب ذلك في هجومهم المفاجيء وسقوط القسطل ـ المرجع السابق ص ٧٢ .

(١٥) راجع مقالي عن الكتاب ـ مجلة الآداب عدد فبراير ١٩٦٦ .

(١٦) صبحي ياسين ـ الثورة العربية الكبرى في فلسطين ـ دار الكاتب‌العربي ـ الطبعة الثانية يوليو ١٩٦٧ ، راجع ص ٢٥ و٢٧ و٢٨ .

(١٧) انظر الفصل الخاص بالانحراف الايديولوجي في كتاب الدكتور نديم البيطار « من النكسة .. الى الثورة » نشر دار الطليعة ببيروت ـ ١٩٦٨ ـ ص ١٥٣ وما بعدها .

(١٨) صبحي ياسين ـ حرب العصابات في فلسطين ـ نشر دار الكاتب العربي بالقاهرة ـ الطبعة الاولى ١٩٦٧ ، ص ٥٩ .

(١٩) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٢٠) انظر مثلا قصة اتصال القاوقجي بالمخابرات البريطانية في كتاب صبحي ياسين « حرب العصابات في فلسطين » ص ١٦٦ .

(٢١) من النكسة الى الثورة ، ص ٢١٤ .

(٢٢) عباس خضر ـ أدب المقاومة ـ المكتبة الثقافية (العدد ٢٠٤) أغسطس ١٩٦٨ ، ص ١٤ و ١٥ .

(٢٣) نزار قباني ـ هوامش على دفتر النكسة ـ منشورات نزار قباني ـ الطبعة الثانية اكتوبر ١٩٦٧ .

(٢٤) مجلة الآداب ـ عدد يونيو ١٩٦٨ .

(٢٥) مجلة الادب الافريقي الآسيوي ـ المكتب الدائم للكتاب الآسيويين ـ العدد ٢ و٣ المجلد الاول صيف ١٩٦٨ .

(٢٦) غسان كنفاني ـ أدب المقاومة في فلسطين المحتلة .

(٢٧) غسان كنفاني ـ رجال في الشمس ـ نشر دار الطليعة ببيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٦٣ .

(٢٨) غسان كنفاني ـ ما تبقى لكم ـ نشر دار الطليعة ببيروت ـ الطبعة الاولى سبتمبر ١٩٦٦ .

(٢٩) غسان كنفاني ـ عن الرجال والبنادق ـ نشر دار الآداب ببيروت ـ الطبعة الاولى اكتوبر ١٩٦٨ .

(٣٠) ماوتسي تونج ـ حرب العصابات ـ ترجمة ناجي علوش ـ نشر دار الطليعة ببيروت ـالطبعة الثانية يونيو ١٩٦٨ ـ ص١٣٥ و١٤١ .

الانسان والارض والموت

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣١ ـ

العقل وان نصل الى اقصى درجاته من التفكير . عندئذ سيقول العقل لكل شيء : كن فيكون .

ـ لست الها .

ـ لكن قبل ذلك ، يجب ان تصفو نفسي وتشف وترق . تعلو على الشهوات ، والجوع ، والظمأ . وهذا ما افعله .

ـ كيف ؟ الا تأكل ؟

ـ كسرة واحدة من هذا الخبز .

ـ هذا الخبز الجاف يا انور ؟ ستضمر ، وتدمر جهازك الهضمي .

ـ لم أعد أتبول ، او اجوع .

ـ لماذا ؟

ـ ستصير نفسي روحا شفافة .

ـ وجسدك ؟

ـ ليس جسدي هو الهدف . هدفي العقل .

اوشكت ان أقول له انه مجنون . لكنني خفت منه . بدا لي مجنونا فعلا . « جنون يوناني » . وبرقت عينا انور ، عدة لحظات بوميض هستيري ، وهو يقول :

ـ أترى هذا المكان ؟ سأبني فيه يوما ناطحة سحاب . ستملأ المصانع هذه الارض . سأزرع الصحارى الشرقية ، وانزل المطر في عز الصيف . سأحول هذه البلاد الى جنة . جنة على الارض .

الف فكرة وفكرة اردت ان اعارض بها ليفيق . لكنني خفت منه . عيناه مجنونتان . ويداه متشنجتان . وفمه معوج . زحفت للخلف بعيدا عن باب كوخه ، ببطء . ثم نهضت واقفا ، وجريت اعدو بعيدا عنه . خفت حتى ان اذهب الى سيد لاحدثه عن أنور . هو الآخر يفكر، واخشى ان اعرف فيم يفكر . لقد عرفت كيف يفكر انور الآن . لا . لست مستعدا بعد لصدمة اخرى . واخشى ان اواجه حتى نفسي .

***

اقرأ مع الكثيرين في مدينتي ما تنشره الصحف عن اعمال الفدائيين ، ومذابح اليهود الوحشية . أحس بالذنب ، وعلي ان ابرىء نفسي . تساقطت القرى والمدن قديما في بلادي ، لان واحدة منها لم تتقدم لتقف مع اختها ، في مواجهة الغزاة الوافدين من وراء البحار . وعلي ان أدفع ضريبة وجودي ، افدي ارضنا العربية بدمي . في الليل، وانا اسمع من راديو الجار اغنية : « اخي ايها العربي الابي » ، سرت رعدة بالهوان والياس في جسدي وروحي . يناضلون وحدهم السيل والطوفان والاعصار فكرت انني لو مت هناك ، فلدى ابي وامي ابناء آخرون ، يجدان فيهم عوضا . وقد ولدت امي ، في الصباح السابق ، اختا لي « انور التفاكشي » سحقه الحلم والضياع ، وبينهما كان تمزقه . أمس سار محني القامة ، ويداه معقودتان خلف ظهره ، وعيناه شاردتان على الفلنكات الخشبية ، فدهمه قطار قادم . تبدو المدينة كلها كأنها قد تطوعت ، او على وشك التطوع ، مع انه لم يذهب منها سوى اثنين : سيد اليتيم ، وصبي اسمه انور لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره . لم يخبرني سيد بقراره ، حتى سمعت عن رحيله . اخبرتني امه دون دمعة انه حطم الفلاوت بيد « هاون » نحاسية . قررت ان اتطوع مع الفدائيين ، الذين ذهبوا من مدينتي الصغيرة الى فلسطين ، الارض التي احبها ، ولا اعرف عنها الا اسمها ، ونثارا من المعلومات التاريخية . لم تظهر نتيجة امتحاني بعد . لكن ، ما شاني بها الآن ، وليس ورائي زوجة ولا اولاد . وربما لن يكون لي اي غد على الاطلاق .

في الصباح ، وضعت قراري موضع التنفيذ . وكان في جيبي جنيهان . اشتريت بنطلونا قصيرا ، وقميصا نصف كم ، وبيريه كاكي . وذهبت الى امي مودعا . كان ابي خارج البيت . بكت والحت ، واسرعت بالهرب منها والسفر الى الاسماعيلية . غيرت القطار الى القنطرة غرب، وعبرت القناة في معدية الى القنطرة شرق . وركبت قطار آخر في الرابعة مساء . كان القطار غاصا بالجنود العائدين من اجازاتهم الى رفح وغزة . لم يكن قد بقي معي سوى ربع جنيه ، وليس في جيبي تذكرة سفر عبر سيناء الى غزة . احسست لذلك بالذنب . وفكرت انني سأدفع الكثير ، وربما دمي ، من اجل كل شيء . لزمت الصمت مستسلما لما يمكن ان يحدث . لقد وصلت من مدينتي الى هذا القطار دون أي تذكرة سفر . ومن يفكر في ثقب تذاكر قطارات تحمل جنودا يحاربون . انقذني فضول الجنود ابناء الفلاحين في قرى بلادي . فأكلت معهم فطيرا ، وخبزا ، وجبنا ، ودجاجا . واعطاني عريف تذكرة قديمة ذكر لي انها لم تثقب ، وان مفتش القطار لن يعرف تاريخها في ضوء بطارية ، داخل قطار مظلم . ورحت ارقب كثبان سيناء الرملية السوداء ، في فتور .

على باب العربة ، ظهر مفتش القطار في غبش الغروب . مسح العربة كلها بنظرة ، وتقدم نحوي بمعطفه الاسود . نظر الي في ريبة فابتسمت برقة ، وناولته التذكرة فثقبها ، وفحص وجهي بالبطارية . وسألني : ـ ما آخر الخط ؟

فقلت كما علمني العريف : ـ رفح .

ـ وبعدها ؟

ـ غزة .

وابتسم المفتش قائلا :

ـ وجهك أشقر . من يرك يحسبك يهوديا .

ابتسمت . وسألني : ـ كنت في اجازة ؟

ـ نعم .

ـ متطوع ؟

ـ نعم .

ـ أين تصريحك ؟

ـ فقدته .

كنت فكرت قبلا في سؤاله واجبت عليه . وهز رأسه ، ومضى عني .

نمت وصحوت في ظلام القطار مرات عديدة . وتوقف القطار في رفح فترة ، احسست معها انني في قلب معسكر . وهبط من القطار كثير من الجنود ومعهم العريف ، وهم يضحكون ، ويتحدثون عن كل شيء ، الا عن الحرب ، وربما كان ذلك ، بسبب فترة الهدنة التي لا مبرر لها في نظر أحد ، ولن تجلب سوى الضرر في كل تقدير . وخيل الي وانا أنام ثانية في مقعدي ، انني أقوم برحلة أسطورية موحشة ، في أرض مجهولة ، ومع ذلك ، لم تخطر ببالي أية رغبة في العودة . وحين صحوت ، كانت الساعة العاشرة مساء ، والقطار خاليا

الا من بعض الجنود ، الذين ناموا على أرفف القطار العليا . فصعدت الى رف خال . لا بد اننا قد بلغنا غزة . ووضعت رأسي على ساعدي، ونمت بدوري .

***

مع الصباح صحوت . كان القطار خاليا ، والنوافذ مفتوحة ، وقرص الشمس يتألق في نافذة القطار المفتوحة . نزلت مسرعا الى رصيف المحطة . وسألت أحد العمال عن المعسكر الخاص بالفدائيين . فضحك ، وقال :

ـ المعسكر ؟.. لقد جاءت سيارة منه منذ نصف ساعة ، وذهبت. أين كنت ؟

ـ كنت نائما .

ـ المسافة طويلة . عشرون كيلومترا على الطريق الى رفح . انتظر . ستأتي سيارة جيب من المعسكر في العاشرة .

وتركني الشاب الفلسطيني ومضى . وجلست على المحطة ، أرقب من مقعدي بيوت غزة . مدينة في الرمال ، واطئة الدور ، هادئة تماما . لولا ثياب عسكرية تروح وتجيء . وقلت لنفسي :

((هذه هي فلسطين)) .

وجدت نفسي تائها في داخلي ، وسط المشهد الهادىء الذي لم تألفه عيناي . ربما كان ذلك بسبب السفر ، والتعب ، وكون الاشياء ما تزال بعد مجهولة في حواسي ومشاعري . وقدرت أن هذا الشعور سوف يتغير ، عندما أذوب في هذا العالم الجديد ، عندما ألتصق التصاقا حميما بالتجربة الجديدة ، وبهذه الارض الاسطورية . ولم أكن في تلك اللحظة آسفا على شيء مضى . وحاولت أن أتخيل حياتي في الايام والساعات المقبلة .

جاءت سيارة جيب . وتوقفت عند باب المحطة . وسمعت صوتا ينادي :

ـ معسكر البريج . معسكر البريج .

وأسرعت الى السيارة . حياني السائق المتطوع وهو يبتسم . لم يكن ثمة أحد آخر معه غيري . بادلني حديث تعارف . ودهش اذ أخبرته انني جئت من غير نقود تقريبا ، وبلا ملابس سوى ما علي ، وبلا تصريح تطوع ، أو كشف طبي . لقد جئت وحيدا ، وبعيدا عن أية جهة . وقال لي :

ـ هذا افضل . كل شيء سيكون على ما يرام .

وصمت دهرا . ورحت أرقب ما حولي . رمال وكثبان حمراء ، لو وطئتها قدم لانهالت به الى السفح في لحظات . وللحظة ظننتها رمالا متحركة ، يكفي أن تنقل فيها خطوة ، لتغوص بالتعيس الغريب الى الاعماق ، تبتلعه وتخفيه الى الابد . وسألته :

ـ لماذا وافقنا على الهدنة ؟ كنا قريبين من تل أبيب .

أجابني وعيناه على الطريق :

ـ الخيانة ؟

قلت :

ـ لا أحسب ان هناك انسانا يخون وطنه .

قال ، ويداه على عجلة القيادة ، وعيناه على وجهي :

ـ من خان وطنه بتسليح الجيش بالاسلحة الفاسدة ، يقبل الخيانة مرة أخرى .

قلت محتجا :

ـ لكنهم سينظمون أنفسهم من جديد ، ويتسلحون بصورة أقوى وأعنف .

قال بهدوء :

ـ ذلك يحدث الآن .

وتنهد :

ـ هذه هي حكوماتنا .

ـ ونحن ؟

استغربت لوقع الكلمة . لم أقل : أنتم . لقد أصبحت واحدا منهم . نظرت اليه . لم أجد صدى لما دار في خاطري . قال ببساطة :

ـ الفدائي لا يوقف عملياته .

وعدنا الى الصمت ، والطريق يطوى طيا تحت عجلات السيارة. طريق معبد كالمرآة تحت الشمس ، وسط الكثبان . لم أكن غاضبا . كان حزني أعمق وأعنف من كل غضب . وحدثت نفسي ألا شيء بعد سوى دوام الموت ، وكثرة الضحايا . وخفت للحظة أن يتوقف العمل الفدائي يوما . مآس كثيرة سوف تحدث . ولخوفي خنقت خوفي .

انعطفت بنا السيارة يسارا على طريق منحدر معبد . ورأيت المعسكر . مساحة واسعة تتناثر فيها العنابر ، والنباتات الشوكية ، تحيط بها أسلاك شائكة ، خلفها دوائر من الخنادق المتقاطعة في الرمال . ورفع الحارس المسلح ، حاجز البوابة الخشبي عن عرض الطريق ، ثم أغلقه ثانية ، ووقف أمام كشكه الخشبي ، وشد بابهامه سير البندقية المعلقة في كتفه . وتوقفت السيارة أمام غرفة صغيرة جدا ، كانت هي مقر قيادة المعسكر . ودوّن شاب في مقر القيادة اسمي وسني وبلدي ، وذكر لي أن أتوجه الى عنبر رقم ٩ ، وأشار لي الى ناحيته .

كان المعسكر خاليا فيما بدا لي من الرجال . خمنت انهم في المواقع الامامية . وفي عنبر رقم ٩ لم أجد أحداً . كان أمام باب العنبر جدار يحجز عن مدخله شظايا القنابل . كان العنبر بلا باب . وبدت نوافذه الست العريضة عارية تماما من الحواجز والشيش والزجاج . فقط كانت النوافذ مسدودة بسلك رفيع متقاطع في مسافات صغيرة جدا ، لمنع الذباب ، وحشرات الرمال المتسلقة . وكانت الاسرة أبوابا خشبية خضراء اللون ، يحملها من الطرفين برميلان من الصاج . وعند مكان الاقدام كانت بطانيتان مطبقتان على كل سرير . وفي طرف العنبر كان دولاب خشبي ذو عيون عديدة مفتوحة الابواب .

طفت في أنحاء المعسكر بحثا عن أي رفيق . كانت العنابر خالية. وبينها كان عنبر صغير به فرن مهجور ، ومناضد محطمة ، وفوق فوهة الفرن ، كان رسم كاريكاتوري لا ينسى ، لجمل يركبه عربي سمين بعباءته وعقاله ، ويمسك بلجامه جون بول ، أو ربما كان لورنس . وعلمت ، فيما بعد ، أن هذا المعسكر كان للجيش البريطاني ، الذي رحل مع دخول الجيوش العربية ، مسلما كل ما هو حيوي وهام في البلاد لليهود .

في ساحة ثانية واسعة ، التقيت بنحو ثلاثين شابا . كانوا يمارسون ألعابا رياضية ، تحت أشراف قائد فصيلة . لم تكن ثمة رتب لاحدهم . وكانوا يمارسون لعبة ((البصلة)) التي كنا نلعبها في الحارة. ووقفت أرقبهم . وجاء قائد الفصيلة ، وقدم نفسه الي ، وضمني الى رجاله في الحال . ولقد مضت عدة أيام ، قبل أن أسبقهم جميعا في العدو ، عدا شاب فلسطيني قصير القامة ، اسمه أحمد . وكان يجري كحمامة تطير ، لا تكاد قدماه تمسان الارض . وكنت واياه مرشحين لان نكون ذيل المثلث ، لاي دورية استطلاع ، يمكن أن تقع في كمين للعدو .

***

ثمة حوادث بارزة لا تنسى معي ، في أيام التدريب السريع على القنبلة اليدوية ، وبندقية لي أنفيلد ، وميزر ، ومدفع التومي، والبرن، وكوكتيل مولوتوف ، وتعطيل الدبابات ، والزحف بلا سراويل ولا سترات ، وسط حقول النباتات الشوكية الجافة .

كانت بداية هذه الحوادث في أول ليلة لي بالمعسكر . نمت على سريري في عنبر رقم ٩ . كانت ليلة خريفية باردة . ولم تكن أية ملابس قد صرفت لي بعد . نمت تلك الليلة نوما عميقا ، صحوت فيه مرتين . في المرة الاولى كنت أقشعر من البرد . ووعيت انه ليس على جسدي سوى بطانية واحدة . الاخرى لا أدري أين ذهبت عني . لكن النوم سرعان ما أغرقني في سردابه المعتم الساكن من جديد . وفي المرة الثانية ، استيقظت على ضوء بطارية . كان صلاح يطمئن على نومنا . ووجدته يفحص غطائي . وفي الحال انصرف عني ، وأخذ

يحصي البطاطين فوق الآخرين . ووجد بطانيتي فوق زميل جديد ، فسحبها مع بطانيتيه الآخرين من فوقه ، وأيقظه . وجاء صلاح بالبطاطين جميعا وغطاني بها . وقال لي :

ـ هذه الملابس لا تنفعك . قابلني في الصباح قبل طابور التدريب.

وأخذ صلاح « عنتر » معه ، وعاقبه . أوقفه أمام باب العنبر حتى الصباح حارسا له . كان عنتر قد جاء الى المعسكر قبلي بيوم ، بعد أن تشتتت وحدته التي كان يقودها الضابط الفدائي الثائر أحمد عبد العزيز ، عقب مصرعه الذي ما زال يثير الكثير من الشكوك . كان عنتر شابا قصير القامة ، أسود البشرة ، ماكر العينين ، ولهما بريق ساخر دائما . لا تنقصه روح المرح ولا الشجاعة ولا الانانية أيضا . ودمعت عيناي تأثرا من الموقف ، واستسلمت للنوم من جديد .

***

حصلت على ملابس كاملة لاول مرة . ومع الضحى واجهت تجربة قاسية مع عنتر ، بعد أن ذهب صلاح الى المواقع الامامية . كنا نمسك بالبندقية لاول مرة . وكان عنتر هو الذي يتولى تدريبنا منذ اليوم . واليوم أيضا تعرفت جيدا الى عطية . كان عنتر يمسك بالبندقية من وسطها بيد واحدة . وفجأة التفت الي قائلا :

ـ امسك ..

وفي لحظة خاطفة ، كان قد قذفها في وجهي . كانت حركة سريعة ومفاجئة . وحدت عن طريق البندقية قبل أن تصطدم بوجهي . فسقطت مرتطمة بالارض . لم تكن في خاطري أية فكرة عما يريده مني . وصرخ عنتر في وجهي ساخرا مؤنبا . وانحنى عطية وأمسك بالبندقية وقال لي :

ـ لا تحزن . استعد .

وابتعد ، وقذف البندقية نحوي ، فلقفتها بكف مقلوبة ، من وسطها تماما ، وكل عرق فيّ ينبض بالسرور ، والرغبة في التحدي . في الحال صحت بعنتر :

ـ امسك .

وقذفت البندقية في وجهه . ولدهشتي لقفها في الحال وهو يضحك ، وأعادها الي فلقفتها ضاحكا بدوري . ودارت البندقية كالكرة بين الرجال . وصرنا منذ هذا الموقف العابر صديقين .

كان تدريبنا متواصلا من الصباح الى الغروب . باستثناء ثلاث ساعات لوجبات الطعام . ومع التدريب المستمر ، خف لحمي ، وأصبحت روحي أكثر صفاء ، وعناقا للرمال ، ولضوء الشمس ، وبريق النجوم ، وسمر الرفاق ، ولذة التأمل في نوبات الحراسة ، ومغامرات الاحلام مع العدو . وساعة الاستحمام اليومية مع الغروب ، عاريا مع رفاق عراة ، تحت شبكة من الانابيب ، ومجموعة من الصنابير ، وأيضا ساعة الاكل الفريدة في المطعم المعتم ، مرتين ، في الظهيرة ، والعشاء . وأذكر ان زميلا جديدا وفد الينا بعد أسبوع . كان على جسده عشرات الكيلوغرامات الزائدة من اللحم . وكان يلهث عندما يجري قليلا . ولم يرحمه عنتر . كان يجعله يعدو حولنا لمدة ساعة ، ثلاث مرات كل يوم ، دون توقف ، بينما نكون نحن مشغولين بالاستماع الى شروح مفصلة عن السلاح ، والهجوم ، والانسحاب . وكان عنتر يقول لنا ، عندما نشفق على الزميل المترهل :

ـ بعد ثلاثة أيام سترون النتيجة . هاتوا هنا مريضا بصدره وسوف أشفيه .

وزاد عنتر من عذاب زميلنا الجديد ، فحدد كمية طعامه من الخبز والارز واللحم . لكن زميلنا بعد أسبوع ، صار مثلنا تماما ، بل تحول شحمه الى عضلات نحسده عليها .

في الليل كنا ننقسم مجموعات ، كل ثلاثة رجال مجموعة ، ونتبادل الحراسة في التباب المسقوفة بأكياس الرمال ، من التاسعة مساء الى السادسة صباحا . واحد يحرس ، والآخران ينامان خارج التبة . وكانت أول حراسة لي في منتصف الليل ، في تبة تقع قرب الاسلاك الشائكة فوق ربوة ، تطل على واد ، وخلفها ، داخل المعسكر ، حقل طالما أدمتني أشواكه الطويلة المدببة الجافة ، وتاقت نفسي حتى المقامرة الى اطلاق رصاصة ، عندما سمعت صوت حيوان بعيد ، يأتي من خلف هضبة بعيدة ، في ضوء القمر . ورفعت البندقية وجذبت الترباس وأعدته ، وأسندت كعبها الى كتفي . وصوبت بندقيتي الى عين القمر ، وضغطت على الزناد ، فانطلقت رصاصة مدوية ، وجف لها قلبي ، وكانت أعصابي ما تزال متوترة . لم يستيقظ احد من رفيقيّ . ولم يأت أحد ليسأل . وفكرت ان أيامنا في المعسكر ينقصها شيء هام . شيء فكري مفقود ، ما أكثر حاجتنا اليه . عندما تلتحم جماعتنا بالعدو ليالي ونهارات عديدة . لماذا نحارب ؟ بوسعي ان أجيب على هذا السؤال بوضوح . ثم .. من العدو الذي نحاربه ؟ وما الذي نريده تماما من عدونا ؟ على الاقل ، فليكن هذا عهدا بيننا ، نتواصى عليه .

ومع الصباح ، جاء صلاح . أوقفنا صفين ، ووقف بينهما ، وسأل :

ـ من أطلق رصاصة في الليل ؟ الفدائي لا يكذب .

تقدمت نحوه خطوة ، قائلا :

ـ أنا !

نظر الي لحظة ، لم يسألني عن سبب بدا لي انه يعرفه . ثم قال :

ـ كلهم سيتدربون بالذخيرة الحية ، عداك ، حتى تذهب الى المواقع الامامية .

وقد كان . لكن هذه المشكلة حللتها وحدي فيما بعد . عندما ذهبت الى المواقع الامامية ، ووقفت للحراسة خلف أكياس الرمال ، في تبة بعيدة ، كان رفيقاي نائمين ، وبندقيتي مسندة الى الاكياس ، واصبعي على الزناد ، وخواطري شاردة مع نجوم الليل . أفكر انها تظل تومض الى الابد في الحرب وفي السلام . وفجأة سمعت صوتا أمامي :

ـ سلّم يا مسلم !

في ذات اللحظة ، تركزت عيناي على جندي يقف امامي ، بخوذته الحديدية ، ومدفعه الرشاش مصوب الى وجهي . في الحال ، وراسي تنزل قليلا الى أسفل ، ضغط اصبعي على الزناد ، وسقط الجندي قتيلا . وصحا رفيقاي ، وانطلقت الكشافات تجوب التل البعيد . لا أحد ، ولم يكن القتيل سوى فتاة يهودية في زي محارب ، نقلناها الى الخلف ، وواريناها التراب . ووددت لو كنا قريبين من البحر ، حتى لا تثوى في نومتها الابدية ، مع رجالنا ، في ارض واحدة . لكن الشيء المحير حقا ، هو : لماذا تواصل زحفها ، وتأتي من ورائي من مدخل التبة ، وتاخذني أسيرا ، كما كانت تود ، ما دامت لم ترد قتلي على غفلة ؟!

***

جاء أخيرا للراحة ، صديقاي سيد وأنور ، وزميل لي في الدراسة اسمه فارس . كانوا قد عادوا لتوهم من هجمة موفقة ، للمرة الثانية ، على مستعمرة للعدو ، أبيد كل من فيها من المحاربين . في المرة الاولى، رفعوا العلم فوق المستعمرة ، وأسلموها بما فيها من سلاح وذخيرة ومؤن لابناء البلاد وعادوا الى مواقعهم ، ولم يكن قد بقي منهم سوى خمسة وعشرين مجاهدا ، من بين ثمانين . لكن المستعمرة سرعان ما هجرت ، واضطر رجالنا الى مهاجمتها ، والاستيلاء عليها ، وتدمير كل قائم فيها بالديناميت ، حتى لا يستفيد منها العدو مرة ثانية .

في البداية ، رأيت فارس . تبادلنا التحية والعناق ، وكان فرحا بنفسه في وضعه الجديد . ورفع بندقيته التومي ، وجهها بغير تصويب ، الى سلك تليفون بعيد نسبيا ، واطلق ، فانقطع السلك في الحال . وضحك . وراعتني براعته . وسألته عن سيد فارشدني الى مكانه بالمعسكر .

رأيته من بعيد . فأسرعت أعدو اليه كالريح . وتعانقنا . وكان سعيدا بمجيئي . ومع انه كان بحاجة الى النوم ، بعد ليلة قضاها في معركة عنيفة لاستعادة المستعمرة ، فقد جلس يتحدث معي . حدثني عن الفتاة اليهودية التي وجدها عارية على سرير ، في قبو بالمستعمرة .

وكيف دعته الى نفسها ، فقتلها في الحال . ووجد تحت وسادتها مسدسا ، ويدها ممسكة به . وحدثني عن أنور ، الصبي الفدائي ، الذي رفضوا أن يأخذوه معهم ، في احدى العمليات الساخنة . فركب خلسة في فجوة مكشوفة بمقدمة المدرعة . وبرغم الاشتباك العنيف الذي حدث ، لم يصب برصاصة ، بل انه قفز ومعه قنبلة يدوية ، وزحف حتى فجرها تحت عربة مصفحة للعدو ، كانت تقطع على رجالنا الطريق. وحدثني عن المهاجرين العرب ، الذين جاءوا لاجئين ، في ديارهم ، من قراهم ، نساء وأطفالا ، واقاموا وراء التلال ، لينالوا من المعسكرات القريبة أرزا ودقيقا .

وحدثني سيد عن أشياء كثيرة . ونهض بي الى مخزن موارب الباب ، دفع بابه ، وأراني في ظلمة المخزن ، بنادق قصيرة صدئة المزالق ، نسميها في قرانا : « الفـــرد » . وخناجر ذات حدين . وزجاجات صغيرة من كوكتيل مولوتوف ، وعتلات حديدية . ورحت أتأمل ما حولي في التحف الحربي لمعسكرنا الصغير . ودهشت لنموذج السونكي في هذه البندقية الغريبة ، لم يكن سوى مسمار حديدي صدىء ، مثلث الاضلاع ، وغير حاد . وقال سيد :

ـ بهذه البنادق ، حارب الاوائل من رجالنا في هذا المعسكر . وحصلوا بالمغامرات الانتحارية من العدو ، على خمس مصفحات سليمة ، وعدد وافر من القنابل اليدوية ، والمدافع الرشاشة ، والبنادق الحديثة ، العديدة الانواع ، التي نتدرب عليها . وعندما جاء الجيش أصبحنا نأخذ منه ما نحتاج اليه ، اذا لم تسعفنا المعارك والظروف ، بالحصول عليه من العدو .

قلت غير مصدق :

ـ جيش الملك ؟ أسلحة فاسدة ؟

قال سيد :

ـ الامر هنا ليس في يده . ضباط الجيش يمنحوننا خير ما عندهم . انهم يثقون بنا أكثر مما يثقون بحكومته .

وغادرنا المخزن . سرنا معا صامتين. وأراني سيد أحدى المصفحات الخمس ، واقفة في جانب من المعسكر ، وقد ثقب جسمها حول المزاغل برصاص البويز . وبدت لي الحرب ممكنة دائما ، حتى في أسوأ الظروف ، للحفاة ، وللعراة ، والمتخلفين حضاريا ، الذين لا يكادون يجدون قوت يومهم . وفكرت أن الانسان هو أعظم اختراع شهدته الارض ، وان ارادته هي أكبر طاقة في تاريخها كله . يقهره الموت ، لكنه لا يفني جنسه الحيواني والملائكي . نصف الشيطان ونصف الاله . يلبث عبر الدهور الا فناء له الا بفناء الارض نفسها. عاش برغم الطوفانات والزلازل ، والبراكين والاعاصير ، وصناع الموت ، وقدم جسده غذاء للارض ، وللحياة الجديدة عليها دائما . دورة من دورات الحياة والخلود هو الموت . قلت لسيد :

ـ برغم الهدنة . سنعود لنحارب . عاشت الشعوب دائما ، وهلك الغزاة .

نبر سيد مبتسما بمرارة وسخرية ، وقال :

ـ هلك الهنود الحمر ، وعاش الغزاة .

دهشت لملاحظته . ذلك أيضا صحيح . لكن ، متى عرف سيد هذه الحقيقة ؟ الميدان يجعلك تحارب ، ويجعلك أيضا تسأل ، وتجتر ، وتفكر ، وتتأمل في دروس الواقع واحتمالاته . حياة الميدان هي حياتك نفسها ، ومعك الكثيرون يتحدثون ويناقشون .

وقلت لسيد :

ـ والعمل ؟

ـ نحارب ، نحارب دائما . ارجو فقط بعد أن نموت ، أن يكون هناك من يحارب دائما .

وتركني سيد لينام . قال لي وهو يصافحني :

ـ أعتقد انني لن القاك الا هناك ، في المواقع الامامية . من يدري !!

ـ هز سيد رأسه ومضى مبتعدا . ولم نلتق بعد أبدا . فسيد في عمل حربي دائم . يسري وحده في الليل أو مع آخرين ليزرع الالغام حول المستعمرات ، والطرق المؤدية اليها ، أو ينسف برجا للمراقبة ، أو شبكة للمياه . كانت ساعاته عملا يتحدث عنه الرفاق في أعجاب هادىء . وعدوت لالتحق بمجموعتي في ساحة التدريب . وفي الليل قمت بنوبة حراسة ، مع عطية وعنتر اللذين كانا نائمين الى جواري . وكانت ليلة مظلمة ، ولاذعة البرد . تختفي خلف سحبها النجوم ، وتعوي حيوانات بعيدة ، لا أعرف لها اسما .

***

تلك الليلة ، في نوبة الحراسة ، هبت من البحر نسمة غريبة باردة ، حملت معها شذى عطريا لبيادر لم ترها عيناي ، وتراقصت أمام عينيَّ أوهام الليل ، وتخايلت لمركز الرؤية في داخلي معركة حربية كاملة . كانت دبابات العدو تتقدم في الليل ، من وراء هضبات بعيدة ، ثم سكنت تماما . وانسل امامها جنود للعدو . تقدموا في الظلمة . راحوا يقصفون الاسلاك الشائكة على يميني . فكرت بسرعة انه لا ينبغي ان تطلق رصاصة عليهم ، ولا حتى رصاصة الانذار المضيئة . أيقظت رفيقيَّ ، فذهب عطية مسرعا عبر الخنادق ، لينذر بالخطر . وجاء يحمل لنا الامر بالانسحاب الى الخنادق . وتقدمت الدبابات عبر فتحة الاسلاك مسرعة ، حتى توسطت المعسكر . قبل أن تطلق طلقة ، هاجمناها بالقنابل ، فراحت تحترق ، بينما كان رصاصنا يصطاد الهاربين منها .

غفوت مع معركتي الوهمية . كنت جالسا على أكياس دافئة من الرمال ، وبندقيتي مسندة بين ساقيَّ . ورحت أحلم حلما متقطعا . كنت معهم في اقتحام المستعمرة . كانت المقاومة ضارية . وقتل الكثيرون من رجالنا . وكنت مفقودا بينهم وسط الانقاض . وأفقت لنفسي مع الضحى . كنت جريحا في كتفي ، وقد نزف الكثير من دمي . ونهضت بين الانقاض متثاقلا في اعياء . لم يكن ثمة احد فيما يبدو غيري . واحسست بالظمأ ، فرحت أبحث حولي عن الماء . وسمعت صوتا خافتا يهمس : ماء . ماء . اتجهت الى مصدر الصوت . رأيته أمامي مسندا ظهره الى حجر . لم يكن واحدا من رجالنا . كان من أعدائنا . لم يكن يراني . كان مغمض العينين ، يئن من جراحه . أسرعت آتيه بالماء ، الذي أحسب انني شربت منه . رفعت رأسه ، وسقيته من كوب . فتح عينيه ، ومد يده تحت سترته ، وأخرج مسدسا صوبه الي . قلت بهدوء وسرعة :

ـ أسكت الآن . أنت بحاجة الي .

اقمت معه أياما ، ليالي ونهارات عديدة ، أضمد جراحه ، بما أقابله من ثياب ممزقة . كانت رائحة العفن والتحلل حولنا بين الانقاض . وجاءت ليلة قمرية ، بدا فيها لكلينا ، انه قادر على أن يأخذ الآخر أسيرا الى قومه . كان مسدسه قد صار معي . أخذته منه ، في أول مرة رأيته فيها محموما يهذي . وكان يعرف ذلك . وبدا لي انه لم ييأس من أسري . كان جرح كتفي القريب من القلب ، قد التأم على الرصاصة التي بداخله . ورأيتني مشتاقا بعنف الى حوار معه . قلت له :

ـ لا أمل لكم .

قال لي :

ـ الامل نصنعه صنعا .

ـ كيف ؟

ـ الاقوى يبقى .

ـ نحن الاقوى .

ـ لم ؟

ـ لاننا الاكثر .

قال لي :

ـ كلنا محاربون . رجالا ونساء وصبية . أما انتم ؟

وضحك . وأضاف :

ـ على قلتنا المحاربة . فنحن أكثر من محاربيكم جميعا ، وأقدر . سنكون الاكثر والاقدر دائما .

ـ اليوم ؟ ربما . غدا ؟ ربما أيضا . لكن ، بعد غد ؟
ـ لنا مدد دائم من قومنا . سنصبح ملايين هنا .
ـ وأين انسانيتكم ؟
ـ انسانية ؟ في معركة مصير ؟ ضعفت ؟ هذه بضاعة الضعفاء . الاقوى يبقى .
ـ الاصلح هو الذي يبقى . ثم .. كنتم بغنى عن هذه المعركة .
ـ الاقوى هو الاصلح . ومع ذلك ، بالانتقاء الطبيعي ، فنحن الاصلح . كل خبرة الشعوب نملكها . عشنا مشردين دائما حتى نلناها .
ـ بالمصادفة !
ـ فليكن .. لدينا أيضا كل وسائل السلطة . المال . العلم . الخبرات الفنية المتنوعة . أما أنتم ؟ هه ! التاريخ يسبقكم . هنود حمر !
ـ كانت لهم حضارة .
ـ أنتم أيضا . لكن ، الزمن تجاوزكم . سنة الحياة . لا بد أن تستسلموا لنا ، أو ...
ـ أو ؟
ـ أو تبادوا ..
ـ كيف ؟ مضى ذلك الزمن . ظروف العصر تغيرت .
ـ الانسان دائما يغير أي ظرف لصالحه ، اذا لم يستطع أن يركبه . اسمع .
ـ قل .
ـ نحن في قمة المجتمعات المتحضرة . لنا سهم وافر في كل ما هو هام لديها : المال ، العلم ، الفن ، الدعاية . نعيش في مكان القلب منها ، ولسنا منها . لاسباب عديدة تسحب أبسطة السلطة والسيطرة من تحت أقدامها . نستخدمها الآن لنحل محلها ، في هذا العالم .
وتنهد اليهودي الضامر الوجه ، الحاد العينين ، وقال :
ـ سنضعكم أمام الامر الواقع ، عدة سنين . ثم .. نضعكم أمام أمر واقع من جديد .. وهكذا .
ـ كيف ؟
ـ مزيدا من الارض .. مزيدا من الارض دائما . لا شجرة بدون أرض . لا شعب بدون أرض . اذا احتاج الواحد منكم لشبر ، ليعيش ، فالواحد منا بحاجة الى هكتار ، ليحيا .
ـ وأصحاب الارض ؟
ـ عليهم أن يذوبوا في كيان اسرائيل ، أو ...
وضحك . كان واثقا من نفسه . قاومت رغبة في صفعه وقتله .
قال لي مهونا :
ـ لا عليك . هذا قدر اسرائيل . بأيدينا نصنعه .
ـ وقدرنا ؟ نحن أيضا نصنعه .
ـ بالتأكيد . وسوف نرى . انكم تعانون من أمراض الشيخوخة . أمراض عديدة . انظر .
وأشار اليهودي الى ناحية . نظرت حيث أشار . لكمني في وجهي ، فوقعت متدحرجا الى أسفل . دفعت نفسي أكثر للتدحرج بعيدا عنه . وكان يلقي بنفسه نحوي من أعلى . اصطدته برصاصة من مسدسه . وانحدرت أبحث عن قومي .
أفقت من حلمي ، على البندقية تسحب من بين يدي . فتحت عيني وأنا انهض بفزع . كانت البندقية مشهرة في وجهي . في الظلمة ميزت وجه صلاح القريب مني . قال :
ـ كلمة السر ؟
قلت : ـ محارب .
رد الي البندقية قائلا :
ـ لا تنم في الحراسة . انتهت نوبتك . ايقظ زميلك .
كان طرف سيجارته يتقد في الظلام . وهو يجذب نفسا عميقا ، ويمضي مبتعدا الى تبة أخرى . وكنت غارقا في خجلي ، فلم ألتفت اليها . وأنا أنام مع الفجر ، فكرت انني لم أكن احلم . كنت في غاية اليقظة . الآن فقط ، سأنام . والمشكلة هي انني سوف أحلم من جديد .

***

أمس ، شهدت واحدة من المعارك التي حصل بمثلها رجالنا ، على ما يريدونه من العدو . كانت أول معركة أشترك فيها عند منعطف هضاب ، كنا نكمن في أعلى تلين ، وأيدينا على الزناد . جاءت سيارتا نقل كنا نعرف سلفا ما بهما . وكان كامل هو الوحيد الذي يرفع جسمه الى مستوى صخرة ناتئة ، يرقب حركة السيارتين . عندما انعطفتا مع الطريق ، رفع كامل يده بحركة خاطفة وأنزلها الى أسفل . في الحال فتحنا الرشاشات على الرجال الاربعة في صندوقي السيارتين ، والحارسين المتواريين في الجزء الخلفي . وأعطبنا العجلات الامامية . واصطدمت السيارة الخلفية بالسيارة الامامية ، فمالت جانبا ، وحجزهما جانب الهضبة . وظل موتوراهما يهدران . واخذنا السيارتين غنيمة بما تحملان : دجاج ، وصناديق مؤونة ، وعلب شيكولاتة . وذلك اليوم عم الفرح رجالنا في المعسكر ، والمواقع الامامية . لقد أتيحت لنا عدة وجبات طيبة ومترفة . وسوف يفرح أطفالنا اللاجئون ، حول المعسكر ، عدة أيام ، بما نحمله اليهم .
في ذلك اليوم أيضا ، تعرفت الى كامل لاول مرة ، معرفة روح بروح . طويل ، لوحي القامة ، مشدود العنق دائما . لا يعطي وجهه أي انفعال . عيناه ساكنتان أبدا . وراءهما عقل يحسن التفكير والتدبير ، لوح البرد والحر وجهه ، فاصبح من الصعب أن تتعرف الى لون بشرته الحقيقي . لقد ترك الميدان على وجهه هذا الطابع الاسمر المجهول الدرجة . نموذج لقائد كفء ، مزموم الشفتين . لم ينل كامل من التعليم سوى قدر ضئيل للغاية في مدرسة أولية . وها هو الميدان والنضال يمنحانه انسانيته وهويته ، وكل الخبرات التي يمكن أن يحصل عليها رجل من معدنه ، في أفضل الظروف الاجتماعية . وعندما جاء لزيارتنا ليلا ، وتنقل بيننا ، فكرت أن أعرض عليه خطة مثلى ، للهجوم على مستعمرة ، أي مستعمرة ، التي لم أرها بعد . لكنني حين رفعت عيني الى عينيه ، وكنا وحيدين ، بلعت ريقي . وقدرت انه سيقول لي :
ـ لا تحلم . كن واقعيا . هم لا يحلمون . وانما يروضون الواقع بالفكر ، الذي تحمله أنت أيضا ، في رأسك .
عرقي ما زال يتفصد بغزارة . بجانب سبابتي أدير عرق جبيني ، وأنثره بحذر على جدار حفرتي الاسطوانية . من تحت خوذتي يتحدر العرق خيوطا . في مائي غارقة رأسي ومبتلة . كل جسدي تستيقظ فيه غدد العرق وتتفتح . نبضات قلبي تخنقني بانفاسي . لذع الملح في عيني محرق . وطعم الملح في شفتي المزمومتين بعصبية . تضايقني هذه الغابة . بودي لو أهشمها بأسناني . غيبوبة تقبل من بعيد . تضغط أذني بطنين مقبض . عرق في ودجي تنبض بحدة موجعة ، تدق بنبضات القلب . تنشر الما حادا في دائرة رأسي وسقفها . كان شمسا محرقة تسطع فوق رأسي ساعات طويلة ، في صحراء مجدبة . في حمام ساخن ، بتكثف بخاره . تتشرب الرمال وهج الشمس المحرق ، اسفل ، فأسفل . تنفثه حرارة تذيب جسدي . تحيله خيوطا من ماء ملحي رطب . وهذه الدبابات لا تاتي بالخلاصة أو بالموت . أود لو انهض هاربا ، دافعا هذا السقف ، ناجيا من رائحة السرمال والبرتقال والليمون . أود . أود .
تضيق حولي الجدران ، وتقترب ، وتقترب . زاحفة باغفاءة وخدر . ترتعد أعصاب كفي بهذه القنبلة ، التي تزداد ثقلا . اشعر اني ساجن او انفجر . احرك يدي لافك أزرار سترتي ، وعقدة منديلي . أصابعي ترتعد وترتخي . لا سلطان لي عليها . أوه . كيف اذن سادفع بكل هذا الثقل ، الى أعلى . بهذه القنبلة الجهنمية الى سرة البطن . بل كيف ساجد القوة لازيح هذه الاغصان ، والاوراق ، والرمال ، مع قدوم دبابتي . ينبغي أن تاتي هذه الدبابة الآن . الان ، قبل أن يفوت الاوان ، وأغفو ، وأغفو .

لا . لا . لن أستسلم أبدا . ينبغي أن يظل هذا العقل يفكر . وأذناي تنصتان . لكن ، هذا الطنين ، يحجب عني اللحظة مدى السمع. ستختلط أصوات الدبابات بهذا الطنين فلا أميز شيئا . لا أدري . هل أقبلت ؟ هل مرت ؟ هل ما تزال بعيدة ونائية . ها أنذا أفلح أخيرا في تحرير زرار سترتي العلوي ، وفك عقدة منديلي . أجفف عرقي عن الوجه والعنق والنحر . وثيابي كلها الآن مبتلة . لا . لا ينبغي أن أتحرك كثيرا . كل حركة تستنفد جزءا من طاقتي ، تزيد من عرقي ، تحتاج مزيدا من النبض والانفاس . بل ينبغي أن أتحرك لاظل يقظا ، لانجو من الخدر . وهذه الاغماءة التي تزحف في بطء قاتل . ما كنت لاصمد لها حتى اللحظة ، لو كنت هناك على سطح الارض في مدينتي البعيدة . لكن ، كل حركة ، خطوة على طريق الموت . فلافكر اذن . كيف ؟ ليس هناك جديد يهم ، ولا قديم يثير . يزيد بي الحنين الى صدر أمي ، الى الغفوة والسكون في حجرها . في هذه الحفرة من الارض . هناك في الغرفة النائية .

يحضرني اللحظة وجه أمي . دائري أسمر . لا تعبير في عينيها العسليتين سوى العطف والحنو . بريق لحب البنين والبنات لا يخبو. كهذه الحفرة النهمة ابدا للروح والجسد . امس ، مع الغروب ، جاءت رسالتها بخط أبي ، وكلماته :

« أمك مريضة جدا . تريد أن تراك . لا تكن قاسيا يا بني . تعال ، ثم .. عد » .

لكنني أعلم انني لو ذهبت ، فقد لا أعود أبدا . ليست لي أية صفة في مدينتي ، سوى صفة هارب ليتطوع بلا هوية ، وبلا اذن ، وبلا تصريح طبي . سأظل أحمل ما حييت شعورا بالعار والندم . ولسوف يزيد احساسي بالضياع بين قومي . حياة آسنة ، لان ضريبتها وفداءها لا يدفعان بسخاء كما ينبغي . كتبت لك في الحال يا أمي ، وأسلمت كلماتي للرفاق ، ليحملوها اليك . واعلم يا أمي انك في أيام النفاس العسيرة ، قد تقتلين على فراشك ، بسببي .

« لا . ربما في وقت آخر يا أمي . دعواتي » .

كم مضى من الوقت في هذه الحفرة . ساعتي تركتها مع كامل ، ومعها بضعة قروش . كنت بها امني نفسي بعنقود من العنب . عقارب ساعتي الفوسفورية كانت ستنير لي ظلام هذه الحفرة ، وترسم بالوهم ، أخاديد غائرة ، في هذه اللحظات الابدية . كانت الغابة تثير لعاب فمي بغزارة ، وها هو حلقي يجف ويظمأ . أقبلي ، اقبلي بالموت أو الخلاص ، أيتها الدبابات ، وأسرعي . على جناحين من الحلم ، يحملني الحنين الى مدينتي ، وبيتي ، وغرفتي . أطباق الطعام تحملها يدا أمي . تضعها على المائدة . لكن ، يا أمي ، أين الملح ، والماء .

الصباح الاول ، في الغرفة المؤجرة مؤقتا ، لاسبوع الامتحانات . الساعة السادسة صباحا . يدي تدير مزلاج النافذة ، وتدفع مصراعيها الخشبيين . حارة ضيقة . ونافذة أخرى بالمقابل مفتوحة . سرير في المواجهة ، وهي عليه شبه عارية ، في صباح صيفي .

ــ محمد . محمد . تعال .

تكسر يدي حصاة من الجدار الجيري . تقذفك بها . تفتح عينيها الواسعتين . تخرج لسانها بغير اكتراث ، وتدير ظهرها العاري . ووجهها الى الحائط . تواصلين نومك من جديد . طوال ليلة كاملة ، ظللت معهم تضحكين ضحكة مسطولة ، وكركرة محمومة لا تتوقف ، حتى خمدت أصوات الرجال ، وانطفأ الضوء . في الظهيرة سمعت صوتك تغتسلين ، خلف نافذة مغلقة .

ــ سنيه . سنيه . تعالي . جاء سيد .

ــ حالا يا أبي .

تهبطين ولا أراك . أسمع صوت قدميك المخضبتين بالحناء .

ــ تعالي هنا . أين الريال ؟

ــ ريال . طيب . عندما أعود يا أبي .

ــ معك ريال يا سنية . أريد السجائر . لا تخافي . معك سيد . سيأتيك بزبون .

ــ أف . طيب يا أبي . خذ .

ربما أقتل المأساة في حياتك أيضا يا سنية . أحرر ، مع هذه الارض ، جسدك ، عندما تدفع يدي هذه القنبلة في الدبابة الحادية عشرة ، الثانية عشرة ، الثالثة عشرة . الدبابة الالف يا سنية .

ــ أنت يا بني . قل . متى يكون الجهاد فرض كفاية ؟ ومتى يكون فرض عين ؟

الآن ، أقول لك ، يا شيخي ، ذا الوجه المرتخي ، والكرش السمين : الجهاد فرض عين . فرض عين حين يصبح الفداء قدرا وواجبا . تعرف ذلك يا شيخي ، وتعرفه روحك الكامنة في أعماق أبي . فلم يدعوني اليه ، كاذبا كان أو صادقا ؟! لم ، لم يا شيخي ، لا نحيا ما نفكر فيه، ونحسه ؟!

« ها هي الدبابات تقبل من بعيد .

هديرها تسري به الارض الى حفرتي . عجلاتها تهز ذرات الرمال . تنشر في أديمها موجات ، راعدة ، صاخبة ، متلاحقة . توقف أيها الطنين . دعني أسمع . بل فاهدر معها . اني أعلم اللحظة انها تقبل . رفقا بي يا قاع حفرتي ، يا قلبي . دع يدي تتحرك ، وهذه القنبلة يخف ثقلها في كفي . آلاف النمال تسري في أطرافي بخدر موجع . تمددي يا كل عضلة فيَّ وتقلصي . لحظتك الرائعة وذروتك الآن . هبتك لروحي ، ولهذه الارض . لنور النهار ، ووميض النجوم. لقومي . خلاصك لي ، لنا ، الآن . الان. ها هي سيارة الجيب تمر فوقي مسرعة . تتساقط الرمال من جدرانك يا حفرتي . ليس الآن . كوني لحدا اذا شئت . لكن ، لا تدعي سقفك يسقط أبدا ، حتى تأتي دبابتي .

تقبل الدبابة ثقيلة وبطيئة . ترتج الارض تحتي . يتفجر الصوت الهادر المصم ، شلالا ينقطع . يبتعد ليهدر من جديد . الدبابة الثانية. في فيلم ما ، نامت سيدة عاقر بين قضبان قطار . مر القطار فوقها عربة عربة ، لتحمل . بودي لو فتحت كوة في سقف هذه الحفرة ، لارى مشهدا فريدا ومرعبا : عجلات الدبابة الساحقة ، جنازيرها التي تطحن كل شيء ، وهذه البطون الخرافية . حتى تأتي دبابتي .

الدبابة الثالثة ، الرابعة ، الخامسة ، خيالي يخترق السقف والهدير ، وأراك قطار من العجلات والجنازير والبطون . الدبابة السادسة . السابعة . الثامنة . التاسعة . العاشرة . أسرع يا عطية. أزل سقفك بيسراك . بيمناك فادفع بقنبلتك في سرة البطن تماما .

دبابتي تقبل بالخلاص ، بالحياة أو بالموت ، بل بهما معا . أزل هذا السقف الآن ، ليس بوسعهم أن يروا شيئا . ازل غشاء هذه القنبلة اللزج . أنظر . الضوء يعشيك ، لكنك ترى . انظر . هذه هي سرة البطن . فلندفعها معا يا رفاق . يا سر الارض والانسان والحياة والموت . خذي . ابتعدي أيتها الدبابة الآن ، واسرعي . عد الآن لرقدتك . المغناطيس يلتصق بالحديد . احتراق ما يتوهج ، يتفاعل في قلبك يا قنبلتي . قلب . قبل . قنبلة . قبلة . قبيلة . قبيل لحظة الرعود والانفجار .

طم . طم . طم . طم .

يا للنور الساطع ، والبرودة المرعشة . أسناني تصطك . وهج الشمس يسري باردا في عظامي . رصاص رجالنا يحاصر الهاربين من دباباتهم . يخنق الصراخ الزاعق المحموم . بعضا من عطاياكم لقومي . سوف تتعانقون أيها الرفاق . سوف تجيئون ؛ سوف تدثرونني بالبطاطين . دعوني أولا أغف لانام . وحيا كنت أو ميتا ، فاسكبوا في فمي لبنا وملحا. ظامىء قلبي ، وجافة شفتاي . لحظة . لحظة يا رفاق. ماذا قال عطية ؟ أجل . أجل .

ــ من التراب جئنا . والى التراب نعود .

القاهرة

سليمان فياض

غور الأردن !

(الى رفيقي في غارات الليل « عنتر » السوداني طريح احد المشافي)

غور الاردنْ
ديمومة حرب لم تعلنْ
جثث تتناثر ،
لم تدفنْ
غور الاردنْ
يمتد على مرمى الاعينْ
كطبول جوفاء تطنطنْ
يقرعها طبال أرعنْ
تهتز جبال أزليهْ
وتثور رياح غجريهْ
وتخر صخور من القمهْ
وترف طيور في الجثمهْ
وتروع في المهد الاطفالْ
وتئن شيوخْ
بكهوف تفرق في الظلمهْ
الارض تميدْ
الارض تميدْ
وقذائف تسقط كالزلزالْ
فتصدّع اكواخ العمالْ
وتحرق أثمار وغلالْ
وتفر خراف في العتمهْ
تثغو وتلوبْ
والراعي مذعور القدمينْ
في وجه ملهوف ، متعبْ
والكلب يلوذ الى الهرب
والهر يموء من الصدمه
بيسان على الطرف الآخرْ
تتماوج ، تسبح في الاضواءْ
وتشع كقنديل السامرْ
للركب الساري في الصحراء

★★★

وأنا أتسلل في خفهْ
اجتاز النهر الى الضفهْ
مع بعض رفاقْ
آه ! ما أروعها غارات الليلْ
آه ! ما أشجعهم فرسان الليلْ
أشباح الليل الوحشية
في رحلة صيد بشريهْ
في ساح الارض المغتصبهْ
خبز ورصاصْ
همس ورصاصْ
زحف ورصاصْ
لذات ليست في الاعراسْ
في خمرة كاسْ

★★★

يتململ رجل في الخندقْ
وقذيفة صاروخ تطلقْ
طلقات تتلوها طلقاتْ
فتدك بيوتْ
ويسود خفوتْ
بيسان تموتْ
تتلوى كالانثى العاقرْ
قد أرقها عقم الاخصابْ
فقر الانجابْ
بيسان يبابْ
بيسان تهاوى كالحطبهْ
وتفخخ في الطرق الالغامْ

★★★

بيروت تنامْ
والشرق ينامْ
والمومس غطت في الاحلام
والحانة أغلقت الابوابْ
نضب الروادْ
والكاهن قد مل المحرابْ
والشاشة في دور اللهو
انسدلتْ
تعب الخفاش من الطيرانْ
وتكوم في بعض الجدرانْ
سكن الصرصارْ
ونعيق من بوم ثرثارْ

★★★

وأنا ورفاقي في خفهْ
نجتاز النهر من الضفهْ
وجريح زنجي المظهرْ
ويلقب بالفارس عنترْ
في لون الابنوس الاسمرْ
صليات قد خرقت كفهْ
وشهيد قد اثقل كتفهْ
ويواصل في شرف زحفهْ

★★★

الليلـة
قد تولد نطفهْ
في جيل سينا ضل خلفهْ
وستدعم في غدها صفهْ

★★★

غـور الاردنْ
ديمومة حرب لم تعلن
جثث تتناثـر
لم تدفنْ
تمتد على مرمى الاعينْ

جبال الضفة الشرقية
محمد عبد الرحيم

الثورة العربية والفكـر العربي

- تتمة المنشور على الصفحة ٣ -

الاسرائيلي ضـد التوحش العربي الذي يراد به القـاء اسرائيل في البحـر .

ذلك ان حرب التحرير لم تكن واردة . ولا أدري ماذا تعني حرب فيتنام التحررية أقل من ألقاء القوى العسكرية الاميركية في البحر ، ولا نضال الشعوب ضد الحكم العنصري في روديسيا أو جنوب‌افريقيا. ماذا تعني مظاهرات الطلبة في أوكيناوا في اليابان الا طرد القـواعد الاميركية ؟

ان حرب‌التحرير الفلسطينية لا تعني الا ما تعنيه أية حرب‌تحريرية أخرى .

ولماذا قبلت حرب التحرير الجزائرية وقد ألقت بأكثر من تعداد سكان اسرائيل خارج الجزائر من المستوطنين الفرنسيين ؟

***

حقائق غرقت في المتاهات ،وضاعت بين اقدام الدعاية الاسرائيلية التي ارجو ان انبه الى طابعها العام . فالوجه الذي تظهر به الدعاية الصهيونية وجه اليسار التقدمي ، الوجه الذي استعار من اليسـار الاوروبي الحقيقي نغمة الحريـة ، والمضمون الانساني ، وعذابات التضحية في سبيل الوجود الحر . بينما انطلقت ردودنا صفـراء وباهتة ، لان الذي يتصدى لها عناصر عفى عليها الزمن ، لا تستطيع ان تدرك حتى مغزى الوجود الاسرائيلي . اما معنى الحرية عندها فمعنى باهت ومتخلف يتفق تماما مع ما تصمنا به اسرائيل . وبكل البساطة لان المفكر اليساري العربي ، المفكر الذي أنهك كثيرا حتى العجز في وطننا ، منفي ، لانه خطر . ولم نسأل خطر ضد من ؟ خطر ضد النظام العام لتوزيع الثروة ؟ ولكن كيف تكون هذه القضية مطروحة والوطن العربي مكبل بالاستعباد ؟ استعباد حقيقي ، ينطوي على اعمق معـاني الاذلال . ان الخطر الوحيد الذي يمثله هذا المفكر هو ضد الامبريالية، وضد الاحتلال الاخطبوطي الاسرائيلي . هذا الاحتلال العنصري ، الـذي يمقت بكل الضراوة المتخيلة والذي فكر بكل المقت الذي لـم تعرفـه البشرية الا في الدرامات العنيفة ، ان يقتل ويعذب ويفني وكان علـى اعتاب ان يجرب الحرب البيولوجية ، حرب الاوبئة وحرب الافنـاء البشري . لكن هذه الفضائح لم تثر . ترددت قليلا ثم طمست .

ولكن - لاعتبارات كثيرة - أهمها التوجس الاميركي والامبريالي بوجه عام ، من أي فكر تقدمي يطرحه العرب ، ينفى ويشجب ويضرب حتى الهلاك المفكر العرب التقدمي ، فضلا عن ابعاده عـن شرح حقيقة الوضع في بلاده . وهكذا نحارب في جبهة الدعاية باسلحة فاسـدة مع مصادرة الاسلحة الحقيقة عن عمد .

وبدلا من ان تأخذ الحركة الصهيونية ابعادها الحقيقية كحركـة عنصرية مماثلة بطبيعتها كفكرة عنصرية للامبريالية العالمية ، ومماثلـة لها بحكم الوجود والحماية للمصالح الامبريالية ، فضلا عن تحديهـا لابسط مبادىء الشرعية واكثرها بداهة اذ تقوم على ابشع‌انواع الاحتلال واكثرها قدما وكلاسيكية ، واشدها تناقضا مع الفكر الليبرالي فضلا عن الفكر اليساري التقدمي . اخذت ابعادا مغايرة تماما ، اصبحت الواحة المتقدمة والمتطورة وسط صحراء مـن التخلف الحضاري والاجتماعي باوسع معانيه ، اصبحت المنارة الوحيدة التي تضيء وسط الظلمة القاحلة . ولم تقع الصهيونية في اسر الخط الواحد ، لم تتجمد عند صورتها الاولى كمطمح لقيادات رجعية تتعامل مع بريطانيا كعميلة وتتفاهم مع تركيا بالرشوة والتهديد ، بل اصبحت حـركة فكرية ، يستطيع المثقف الغربي ان يجد فيها كل التيارات الحديثة من اقصى اليمين حيث مواقع الفاشية ، الى اقصى اليسار ، كلهم يعزفـون سيمفونية واحدة متعددة الانغام ولكن على آلات مختلفة .

ونتيجة لعشرات الكتابات الصهيونية التي اتخذت جميع الاشكال، لم يعد ممكنا ان يتكلم المثقف العربي عن مأساة اللاجئين ، لنستعمـل اساليب التسول التقليدية فنعري عاهاتنا ونبرزها امام « الاثريـاء » لنستجدي شيئا من الشفقة . او عن اسرائيل كاحتلال استيطانـي سافر ، ذلك ان كتاب اسرائيل يعرفون ان اميركا الحديثة قامـت بالطريقة نفسها ، وان العالم عرف في تاريخه ابشع انواع عمليات التهجير الجماعية على عهد اسبانيا عقب هزيمة العرب . ان الضمير الاوروبي غني بالآثام وقادر على هضمها ، ولكننا كنا نظن دائما اننـا نخاطب ملائكة .

وحين نتحدث - عن طيبة - عن مغزى الوطن الذي يقوم علـى العنصرية وعلى وحدة الدين ، نفاجأ بأن اسرائيل ليست السابقـة الوحيدة ، وقد يرد عليك مثقف تقدمي اوروبي بأن العصر الحديـث عرف هذا النوع من الاوطان ، وقد يبتسم ابتسامة مفحمة ويقول لك ما رأيك في باكستان !

وعلى الرغم مما في كل هذا من مغالطات ، فان احـدا ليس مستعدا ان يستمع لك ، بعد الطنطنة الكثيرة التي اغرقت نفسك فيها في خط واحد ، وفكرة واحدة وهي ادانة العمل غير الانساني الذي قامت به اسرائيل ضد العرب حين اجلتهم عن اراضيهم وشردتهم في الخيام .

ان اوروبا عرفت وقبلت ومارست ما هو ابشع من هذا . والذي يهتز له قلب العالم طربا هو الانتصار ، هو القوة . ومـا زال مفتاح الحضارة الحديثة وطوطمها المعبود هو القوة ، ويبدو انه سيظل كذلك الى مدى طويل .

ان الطبيعة نفسها تختزل الضعفاء وتنتخب الاقوى ، ان شريعـة التقدم هي في المنافسة والصدام والانتصار . أليس هذا مفهومـا جوهريا للحياة الحديثة دعم بنظريات في البيولوجيا وفـي الفلسفة الاجتماعية !

علينا ان نقبل هذا بكل بساطة أو نختزل كأي عيدان هشة زائدة عن الحاجة ، وسنكون مضحكين بالنسبة للعالم لو توقعنا أن‌يذرف احد علينا دمعة .

ولكننا لم نسأل انفسنا عن القوة .. ما هي القوة .. ؟ الكثيرون منا يتحدثون بتسليم العجائز عن العلم والتكنولوجيا وعـن الدولة العصرية . ولننتظر دهورا حتى نحقق هذا كله . الا ان الدولة العصرية بكل مظاهرها ليست الا مظهر القوة ، اما القوة ذاتها فلم نتأملهـا . القوة التي جعلت حفنة من العرب البدائيين - الى حد ما - يفتحـون العالم في صدر الاسلام ، والتي جعلت الجيوش الاوروبية في عصر الاستعمار الاول تقتحم دولا يعيش فيها مئات الملايين . ليست هـي العقيدة وحدها . فنحن نفعل في ذلك - بالنسبة للعقيدة الدينية - ما نفعله بالنسبة لكل شيء . الاستجداء .. استجداء الدولة الاقوى ، فاذا عجزنا استجدينا السماء . اننا نتملق السماء ايضا وهو امـر مضحك لم نتبينه ، الان وفجأة تزدحم الجوامع ، الان وفجأة تزخـر اعمدة الصحف بالتدين ، الان وفجأة تمتلىء السماوات العربية بالدعاء والتراتيل . ولعلنا ايضا نعري خزينا وعارنا وعجزنا للسماء كـي ترضى . اما القوة فهي شيء اخر ، ان نتفاهم مع الموت ، ان نألفـه وان ننظر اليه في بعده الحقيقي ، ان نخوضه ، وان نخترقه ، وان نستغل فيه بكل ضراوة حب الحياة ، وحب العظمة الانسانية . ان نرتفع فوق الحيوانية التي الفناها من عصور رخوة كئيبة ، حيـث نمارس اللذائذ الصغيرة كما يجتر حمل صغير طعامه البائس في‌سعادة غامرة . ان نعرف ان الانسان يجب ان يعيش كانسان . وهو ما فعلتـه كل الامم - غاصبة أو صاحبة رسالة - في كل العصور .

ولكن « حالة » القوة ظاهرة تاريخية لا تستطيع ان تفرضها مثـل هذه الكلمات . بل لعل هذه الكلمات هي التي فرضتها « حالة » القوة.

فبعد ان تشرد الفلسطيني - البديل لليهودي التائه القديم - في انحاء الارض ، وبعد أن مارس بعض ما مارسه اليهودي القديم - على

صفر مدة التشريد ـ جرب المرارة نفسها . نجح في اوروبا واميركـا وفي بعض العواصم العربية ، وعاش حياة فردية مثل التي يعيشهـا المواطنون في ارجاء الارض ، بل ربما وفق الى احسن منها كثيرا . ولكنه لم يجد في النهاية الا المرارة . اكتشف ان الشبع والزهو المادي لم يكن الا سرابا . وها هوذا يقابل بالاستهانة ، وبابتسامات خبيثة مؤدبة ، تنطوي على احتقاره كعنصر بشري . وعلى الرغم من انه لم يكن مسئولا عن كل ما حدث ، فان العالم كله يتلذذ بمضغ ضعفه.وبعد يونيو انضم الى المشرد الفلسطيني كل العرب ، أصبح العربي بشكل عام هو المشرد حتى في وطنه ، ويكاد العربي يجد في قلب كل انسان خارج الوطن العربي منفى ، حيا للمنبوذين ، جيتو عربيا ، يزيحه اليه كلما اتصل بينهما حديث .

وفي الوقت نفسه كان العالم قد شبع من اللذائذ الصغيرة،ففقدت الحياة معناها في ظل الضياع الفردي والاجتماعي الذي يعيشه المثقف في كل الاوطان . وظهر ادب الاحتجاج ولمعت كلمات جديدة عن الاغتراب والعزلة ، تجاه الانظمة الغولية التي سدت جميع المنافذ ، ووقعت العالم داخل قالب محكم من علم السيطرة على الشعوب والافراد . وقامت الجزائر وكوبا وفييتنام بتحويل التمرد الفلسفي او الفكري الى تمرد حيوي ، وقام مفكرون جدد يبحثون عن الخلاص الروحي بالمدفع . ووقف شي جيفارا العظيم نبيا لكل المشردين ولكل الضائعين ، واعطى للموت الجليل معناه الحقيقي ، واعطى للحياة الذليلة معناها ايضا .

واستطاع التفاهم مع الموت ان يقهر العلم والتكنولوجيا والدولة العصرية ، او على الاصح قد كشف عن ان هذه المسميات الساحرة ، لا يصنعها الا التفاهم مع الموت ، ومن قلب نضال الفلاحين السذج في الصين صنعت القنبلة الهيدروجينية والصواريخ عابرة القارات في اقل من عشرين سنة ، واستطاع الفلاح الفيتنامي ان يصمد وان يقهر بالتفاهم مع الموت كل المسميات الحديثة ، ثم ان يصنعها وان يفهمها وتفهمه وان يطوعها لنفسه .

ومع ذلك فالقضية التي يصارع من اجلها الفيتناميون والكوبيون، على شرفها ، لا تتساوى مع القضية التي يناضل من اجلها العرب. ان الامبريالية لا تريد روح الشعوب التي تحاربها ، بل اموالها وعروضها. اما الصهيونية فتريد وطنا خالصا مطهرا حتى من اثر اي عربي . ان اعتى القواعد العسكرية الاميركية او الانجليزية ، طارئة ومؤقتة ، اما الاستيطان الاسرائيلي فيريد ازاحة تاريخ باكمله ليبني على الاساطير تاريخا اخر . والذي انكسر في حرب يونيو ليست الاوطان ، بل التراث الانساني والروحي للعربي ، الشخصية الانسانية للعربي ..

وللاسف لم يكن الفكر العربي مدركا لكل هذه الابعاد ، اما فكر التمرد الحديث والثورة الدموية ، فهو الذي غزانا وافاقنا من سباتنا. اصبحت كتابات الثوار « الرومانسيين » من امثال جيفارا هي العامل المنبه ، واصبح نماذج البطولات الثورية في الجزائر وكوبا وفيتنام مثلا حيا . كما اصبح تاريخ الابطال الاول للثورات الاشتراكية الحديثة منارة وعامل حض واثارة . واخيرا الكتابات الغربية الحديثة ذاتها التي عكست ما في العالم من فراغ وضياع لفقدانه للمغزى الروحي .

وهكذا حمل الفلسطيني الذي كان يدرس او يعمل ويحلم احلام البورجوازية الصغيرة حقيبته وذهب الى فلسطين ، قاتلا او مقتولا . وكل تراثه من الفكر هو ما طرحه الانبياء المحدثون .

ورجلا وراء رجل ، واصبحت للفلسطيني كرامة ، اصبح موجودا، اصبح حقيقة ، وبدت الدهشة على الجميع . وعقب الهزيمة ازدادت الصورة وضوحا ، وصار الوجود العربي كله ماثلا في الحركةالفدائية، في حرب التحرير العربية .

ومن ثم بدأ الكتاب العرب اقتناص الصورة الغائبة ، بدأ المفكرون العرب يكتشفون انهم ما زالوا قادرين على التفكير . ومع الخطوات الاولى لحركة التحرير الفلسطينية خطا الفكر العربي خطواته الاولى . وعما قليل سيولد فكر عربي جديد هو وليد للعمل الفدائي . ومن جديد عدلت الصورة ، واصبح من قلب الواقع المحتدم يولد الفكر ، وكنـا لسنين طويلة نريد ان نفرض الكلمات والافكار على الواقع المغاير .

كنا نتحدث عن الوحدة العربية ، ونكثر من النقاش ، ونقدم من الادلة كل ما نستطيع ابتداعه ، ولكن شيئا من هذا لم يتحقق ، لان العمل يسبق الفكر ، والفكر حين يسبق العمل يصبح سفسطة .

الان نستطيع ان نتحدث عن وحدة العمل الفدائي ، عن وحدةحركة التحرير ، لان من يريد الوحدة في العمل الفدائي يستطيع ان يحمل سلاحه ويذهب بلا نقاش وبلا جدل طويل او قصير . وفي ساحةالفداء تستعيد الافكار صوابها ، وتقوم كل الاجسام على قواعدها الصحيحة .

وعندما انغمسنا في العمل اختفت الاساطير ، وينبغي ان تختفي، واختفت العنجهية والغرور والادعاء . وكلما اقتربنا من العمل اقتربنا من الواقع ، اقتربنا من الانسان الجوهر البسيط المتواضع ، واقتربنا من الفكر الصحيح . ولعله قد آن الاوان ان نفكر ونحن نتحرك،ونتحرك ونحن نفكر . وبالتالي علينا الا نترك لاية قوة ان تجتذبنا الى المناطق الوهمية .

فنحن مثلا لا نريد او يجب الا نريد لحركة التحرير الفلسطينية ان تبدو اكثر من حقيقتها ، ولا ان نسمح لاحد ان يجرنا الى هذا . وعلى العكس من ذلك من الافضل ان نبدو اقل من حقيقتنا ، فنحن شعب ـ للكثير من الاسباب ـ نستمرىء التفاخر ، ونميل الى المبالغة، وتكاد العاطفة الفافعة القصيرة النفس تستولي علينا . وقد يأتي المناضل من اقاصي الارض ليحمل بندقيته ، مأزوما ، مصمما ، مدركا ان حياته لا مغزى لها بغير انتصار حقيقي ، فتتلقفه اقلام العاجزين ، الذين يظنون انهم كلما بالغوا في التمجيد ادوا ما عليهم من واجب ، ورفعوا ما عليهم من عجز ، وشيئا فشيئا ننتصر على الورق قبل ان ننتصر في الحقيقة والواقع .

الواقع انه لم يبق لنا الا التبتل ، ان ننصهر في الكفاح انصهار عابد متنسك ، شديد النسك ، فكم أثمنا في حق أنفسنا، ولن نستطيع ان نتطهر الا بمزيد من الدماء ، ومزيد من الالام الايجابية ، آلام قهر الذات قبل قهر العدو ، آلام الدربة على التواضع ، واعادة ضبط الكلام على حجم الوقائع . ثم كراهية الخلي الذي يتغنى بفضائلنا ، ونحن نعلم أننا بلا فضائل ما دمنا لم نخلص ارواحنا من ربقة الاستعباد .

لهذا اتوجس خيفة حين ارى صحف الامبريالية تحتفي بنا او ببعض رجالنا ، واتوجس خيفة حين نحتفي نحن ايضا بابطالنا ونغرقهم معنا في فقاعات الظهور والتغني بالامجاد ، ثم المناقشات العقيمة !

وبعد هذا علينا ان نحدد بالصرامة نفسها مواقعنا بالنسبة لكل القوى المحيطة ونتعلم كيف نكسبها او نحذرها . ومن حسن الحظ ان للامبريالية اعداء كثيرين ، ولثورة التحرير العالمية ابعادا ، وللعمل السياسي علما وخبرات ، ولا اظن ان شيئا من هذا يفوت مناضل بيت النية على النصر .

واخشى ان اقول انه لم يبق لهذا الجيل الا ان تنتصر حركة التحرير الفدائية ، أن تتوهج ، وأن تزداد جماهيرية ، وأن تتجه كل القوى ، وكل الافكار الى حماية ودعم الحركة الفدائية . ولقد بدأت هذه المعاني تتضح في اذهاننا جميعا ، وعما قريب يتحول العالم العربي الى ارضية متعددة الاعماق تحتضن حركة التحرير ، ومن خلال العمل وحده سنكتشف الطرق التي تؤدي الى تنظيم كل شيء ، وفي مقدمة ذلك تنظيم الفكر نفسه .

ومن هنا فان اثر حركة التحرير الفدائيه على الفكر العربيسيكون بالغ الخطورة ، سيكون تأثيرا حضاريا يلمس الحياة الفكرية والروحية في كل جانب من جوانبها ، وسيوجد فن جديد ، وفكر جديد ، لانه يبني لاول مرة في تاريخنا الحديث على ارض صلبة من الاصطدام الخطر ، والدماء الزكية المراقة .

ويبدو انه منذ اليوم ستستعيد الكلمات فاعليتها ، وتعود اليها خطورتها ان صادقة او كاذبة ، وسيصبح القتال في كل الميادين له خطره ومسئوليته ، حتى في ميدان الكلمة .

احمد عباس صالح

سينما المقاومة

حقيقتها في العالم العربي وواقعها في السينما العالمية

بقلم خيرية البشلاوي

اذا ما تساءلنا اليوم ، ونحن نواجه لحظات مصيرية حاسمة من حياة أمتنا العربية : اين الدليل على وجود سلاح خلاق بين يدي السينمائي العربي ؟ اين الكاميرا واين دورها وسط معركة المقاومة ؟ لما وجدنا اجابة على تساؤلنا غير هذا الركام الهائل من الشرائط السينمائية المتحركة التي تخرجها ستوديوهات القاهرة وبيروت ـ اكبر مصانع السينما في الوطن العربي .. هذه الشرائط التي تقول في جرأة سافرة « ما شأني ومعركة المقاومة ؟ .. انني لا ابغي سوى التسلية الرخيصة ولا شأن لي بتلك الاحداث الجسام .. فمعركتي الحقيقية هي كيف أضحك على المشاهد وكيف استنفد امواله .. وكيف اجني من وراء السينما اكبر ربح ممكن » .

ان السينما سلاح قوي وفعال تستحوذ على عقل المشاهد ووجدانه بما تنقله من واقع حي متجسد يحمل اليه عبر المحيطات والقارات والبلدان المختلفة في قالب جذاب مشوق العالم باسره من احداث وما يعانيه انسانه من هموم ومشكلات اجتماعية وعاطفية وعلاقات انسانية معقدة بالاضافة الى ما تنقله السينما اليوم من افكار فلسفية وفكرية اعتدنا ان نلتقي بها في سائر الفنون الاخرى التي تعتمد في تأثيرها على الكلمة مثل فنون المسرح والرواية والشعر . انها وسيلة لجأت اليها الشعوب المناضلة واستخدمتها بمهارة متفانية في معركة الديمقراطية والتحرر الوطني وفي سبيل نصرة قضاياها المصيرية تماما كما لجأت اليها الدول الاستعمارية لتنفيذ مخططها الامبريالي باهدافه الخبيثة واستخدمته سلاحا صارخا لتبرير عدوانها على الشعوب وعلى منجزاتها التي حققتها وامالها التي تبغي تحقيقها .

ومع ذلك وبرغم تاريخها الطويل الذي يعود الى اربعين سنة الى الوراء ظلت السينما العربية في مصر في واد والجماهير بواقعها ومجتمعها المتطور في واد آخر . ولست أعتقد انني بحاجة الى القول بأن مجتمعنا العربي قد مر في مراحل نضاله وتطوره بتحديات كبيرة وخاض تجارب قاسية مريرة ضد قوى الاستعمار والصهيونية ، واستطاع مع ذلك ان ينير طريق نضاله بثورة سياسية واجتماعية واقتصادية عام ١٩٥٢ كانت املا لكثير من الشعوب ورمزا يتمثلونه بينما يواجهون اشد القوى الاستعمارية ضراوة ووحشية .. وبعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ تطور النضال الفلسطيني المسلح ليجسد كيانا لفلسطين لم يكن في حسبان اسرائيل .. نبحث هذا ليؤكد حق ابناء فلسطين في استرجاع وطنهم وانتزاع حريتهم وفرض وجودهم على ارض الآباء والاجداد .

وبينما اهتزت الجبهة الثقافية على طول فروعها المختلفة من شعر وقصة ومسرح وفنون تشكيلية ، وبينما راحت ردود فعلها تجاه النكسة تأخذ اشكالا قاتمة احيانا ومتفائلة احيانا اخرى كانت تصب في مجرى واحد هو المعركة والخوض فيها بكل ثقل أقلامهم وحرارتها ...

وبينما كانت فروع الثقافة المختلفة تمهد وتدعم حركة التقدم في المعركة ساهمت السينما المصرية بل السينما العربية بافلام « بابا عايز كده » و « شنبو في المصيدة » و « مجرم تحت الاختبار » والفيلم اللبناني « حبيبة الكل » و « فندق الاحلام » الخ. هذه الافلام التي امتلأت بها السوق . وكلها افلام هابطة متخلفة .

ان السينما العربية تكاد تكون واقعة باكملها تحت ظلال الفكر المتخلف السطحي التافه ، رغم كل المحاولات التي حاولت ان تهز هذا الفكر .. فالشيء المؤكد أن ازمة السينما الحقيقية في بلادنا هي ازمة « فكر » في المجال الاول . وهي ايضا ازمة احساس بدور السينما ومدى قدرتها عموما .. فقد تعود صناع السينما ان ينظروا الى هذا الفن الواسع الانتشار والنفاذ بامتهان شديد وبوصفه سلعة لكسب العيش والمزيد من الثراء .. فالقائمون على عمل الافلام في بلادنا ، وهذه حقيقة ، لا يستطيعون أن يقدموا من خلال السينما الا ما يحملونه هم انفسهم من فكر وما يمثلونه من موقف اجتماعي وسط علاقات القوى الاجتماعية في بلادنا ، وما يمتلكونه من فكر انما هو فكر ساذج متخلف ورجعي . وربما يعود ذلك الى ان ثقافتهم العامة والسينمائية على وجه الخصوص ثقافة محدودة للغاية بالاضافة الى ان الربح عندهم هو المعيار الوحيد . والربح هنا بأي ثمن ، ايا كان مستوى الربح فلن يكون السباق بالطبع سباقا في خدمة الفن او خدمة قضايانا القومية وانما هو سباق في سبيل مزيد من الامتهان للقيم الفنية وللفن عموما ، سباق مؤداه الرئيسي هو الانزلاق على منحدر التجارة والاسترزاق والتزييف ... وهذه الفئة تحكمها بصورة مباشرة اوضاعها الاقتصادية التي هي نتاج لما تفرضه اوضاع السوق واسعار التكلفة ، الامر الذي يجعلها اكثر خضوعا لقياس الربح والخسارة .

ليس غريبا اذن ـ مع هذا الوضع ـ أن تغيب قضايانا عن الشاشة العربية او ان تجسد في صورة مشوهة سخيفة تطمس في ثناياها كل الجوانب النضالية العظيمة ويغلب عليها طابع التهريج الساذج واكاد اقول الاستهتار البشع باهم رسالة يمكن ان يدافع عنها الفنان ويكرس حياته وفنه من اجلها .

ان أفلاما من مثل « مصطفى كامل » الذي اخرجه احمد بدرخان عام ١٩٥٣ وقام ببطولته انور احمد وماجدة .. و « طريق الابطال » الذي اخرجه محمود اسماعيل عام ١٩٦١ ومثل ادواره هند رستم وعماد حمدي وشكري سرحان .. والفيلم « كيلو ٩٩ » الذي يعتبر قاعا من فيضان الانهيار الفكري والفني الذي تردت فيه السينما المصرية .. وهو فيلم من اخراج ابراهيم حلمي عام ١٩٥٦ وبطولة ماري منيب ونيللي مظلوم واسماعيل يس . وجميعها افلام تهدف الى تصوير جانب من جوانب المقاومة في تاريخ بلادنا ، لكن المقاومة كما هو واضح ليست الا هدفا ثانويا فرضه المخرج على قصة الحب الاساسية التي يتعرض لها في فيلمه لاسباغ صفة الالتزام على فنه وكسب بعض الدعاية الزائفة السريعة لشد المتفرج وخداعه وتشويه فكره بما يحويه هذا الجانب من ضحالة فكرية وتصور قاصر عن معنى المقاومة الحقيقي . ان الابطال في « طريق الابطال » مثلا ليسوا اناسا واقعيين وانما هم ابطال مثاليون بعيدون عن واقع الحقيقة الواقعية يحملهم المخرج قيما انسانية وخلقية يكتفون في التعبير عنها بالكلمات الطنانة التي ينتهي تأثيرها بمجرد الانتهاء من القائها . هذا الى جانب السذاجة التكنيكية بوجه عام مثلما تبدو في تصويره للمعارك والحروب والتخلف البالغ في طريقة تجسيدها . فالقصة في هذه الافلام غالبا ما تكون دراما عاطفية فجة فرض على الربع الاخير منها قصة وطنية مفتعلة لا لشيء الا لكي تكون ارضية يموت عليها البطل وهو مشتبك في احدى المعارك الحربية .. اما الفيلم « كيلو ٩٩ » فهو يصور قصة ـ اذا جاز التعبير ـ بالغة التفاهة .. انه بالاحرى مجموعة من المشاهد المصورة فرضت عليها

حدوته بلهاء تتردد فيها كلمات الجلاء والانجليز والقتال دون اي فهم على الاطلاق مثاليا كان ام واقعيا لما هو الاحتلال او النضال الوطني ضد هذا الاحتلال .. وما يزيد الطين بلة ان نسمع « اسماعيل يس » بطل المقاومة في الفيلم وهو يغني بتهريجه المعهود بينما يحاول الضحك على الانجليز والنيل منهم : « سقف يا توني .. اتنطط يا توني .. اتشقلب يا توني .. على خيبتك يا توني .. خد شفطة كونياك وارقص على النغمات .. وانت يا مستر جاك .. أبوك السقا مات .. » وبذلك يتحول نضال الشعب المصري وشهداؤه ضد الاستعمار الانجليزي ويشخص من وجهة نظر الفيلم في هذه الكلمات التي ربما كان الابتذال كلمة تعبر عن مستوى ارفع من مستواها ... هذه الكلمات هي اسلحة بطلنا الوحيدة في « كيلو ٩٩ » الذي استطاع عن طريقها ان يقهر الانجليز ويجعل حياتهم في المعسكر جحيما من الرعب والخوف . انني لا زلت اذكر كلمات ناقد فاتني اسمه كتب معلقا « لو كان الانجليز بالصورة التي عرضها علينا الفيلم لما احتجنا فدائيين للهجوم عليهم ، ولما كنا في حاجة الى ثورة لمحاربتهم واجلائهم .. وكان يكفي ان نبعث اليهم باسماعيل ياسين ومعه بعض زجاجات الخمر ليسكرهم ويقتل من شاء منهم وكان يكفي ان نبعث اليهم ببعض الشبان لتتهافت عليهم المجندات ويجن لهم المعسكر ومن فيه » ..

وهكذا صورت المقاومة في افلامنا وشوهت .. وهكذا تعود المتفرج على رؤية الكفاح المسلح في صورة سهلة ميسرة لا تتطلب اكثر من بعض الفلهوة والخفة . حتى اذا ما فوجئنا بالنضال الحقيقي واضطررنا الى خوض المعركة نفاجأ بما تتطلبه المقاومة من استماتة ونضال وايمان وتدريب منظم وخبرة وتضحية قاسية وصعبة .. وهكذا ينسى مخرجونا ان طريق النضال والتحرر انما هو طريق صعب ووعر يكلف الشعوب التي تختاره طريقا لها بحارا من دماء ابنائها وارواحهم.

وقد تحوي صور المقاومة في افلامنا العربية جانبا اخر اقل عتامة .. جانبا تبرز فيه الجدية والمحاولة الطيبة وان لم يخل من الفكر الضحل والتصور الخاطىء الذي ينقصه الكثير من الثقافة والمعرفة الواعية بحقيقة النضال وصورته التي تجسدت في تاريخنا النضالي وتاريخ الشعوب التي استطاعت ان تنتزع حريتها واستقلالها عن طريق الثورة والكفاح المسلح .. هذا الى جانب الهدف التجاري الذي لم يغب بالطبع عن ذهن صانع الفيلم .. وهذا طبيعي ، فمثل هذه الافلام وتلك حقيقة احب ان انوه بها ، ظلت نتاج جهد فردي لبعض المهيمنين على صناعة السينما عندنا وهم فئة من التجار السينمائيين ينقسمون الى نوعيتين .. نوعية تضم المنتجين الكبار الذين تمرسوا في الانتاج منذ فترة طويلة حتى اصبحوا اشبه « بالاسطوات » او « المعلمين » بالتعبير العامي الشائع في مصر .. في انتاج الافلام العادية الهابطة فنيا والتي تعود بارباح طائلة نتيجة اعتمادها على اثارة الغرائز الرخيصة أو على التهريج الهزلي او لاعتمادها على اثارة الجوانب الانسانية الضعيفة عند الجمهور والتي تتميز بالابتذال العاطفي .. اما النوعية الثانية فتضم صغار المنتجين ممن لم يصلوا الى مستوى الاسطوات السابقين وممن ما زالوا يعيشون في مستوى يمكن أن نسميه بمستوى الكادحين السينمائيين . وعذرا اذا استخدمنا كلمة « أرزقية » لم تصل ارباحهم الى المستوى الذي يصبحون عنده على الشاشة من الرأسماليين الكبار وانما هم يعيشون من ايديهم لافواههم ويندفعون بالتالي الى انتاج افلام اكثر هبوطا واكثر ابتذالا من الافلام التي تنتجها الفئة السابقة . من هذه الجهود الفردية يبرز فيلم « جميلة الجزائرية » الذي أنتجته الفنانة العربية ماجدة واخرجه يوسف شاهين .. انه فيلم يصور حياة المجاهدة الجزائرية في صورة بعيدة عن الاسفاف أو الابتذال . فقد جندت له ماجدة عشرات من الكفاءات الفنية والادبية حتى خرج بصورة معقولة وفي أسلوب سينمائي جيد . وبرغم ما في الفيلم من تصور سطحي للعدو ومن أخطاء فنية كثيرة فقد لاقى نجاحا جماهيريا كبيرا وكان انفعال الجمهور به قويا حتى لقد كتبت الفيجارو الفرنسية حينئذ تقول « ان تأثير هذا الفيلم في خدمة اهداف جبهة التحرير الجزائرية يساوي ثلاث سنوات من الدعاية عن طريق الاذاعة » .

لقد عاد هذا الفيلم بدخل ضخم لمنتجته ماجدة ، فقد در ايرادات بلغت ثلاثين الف جنيه وهو لا يزال في الاستوديو ولم يكن قد عرض بعد في السوق التجارية ، وهذا يصور مدى حرص تجار السينما على الاستفادة من المعركة الوطنية وحماس الجماهير الشعبية لاي فيلم عربي يعالج القصة الوطنية معالجة جادة وناجحة . فالافلام التي تصور كفاح الشعوب تلهب حواس الجماهير . فمثلا بيعت نسخة من فيلم « بور سعيد » الذي اخرجه عز الدين ذو الفقار عام ١٩٥٧ وقام ببطولته فريد شوقي وليلى فوزي وهو فيلم يصور قصة استشهاد بور سعيد ومقاومة شعبها للعدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ من خلال قصة حب كما هو مألوف بين احد أبطال المقاومة الشعبية وفتاة فقيرة عاجزة - بيعت نسخة من هذا الفيلم الذي احتج البورسعيديون على طريقته في تصوير المعركة لاحد تجار سوريا بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه، وعندما عرض في دمشق عاد بايرادات بلغت ٢٠ الف جنيه ، فالجماهير العربية تتعطش للافلام التي تصور كفاح الشعوب ونضالها ، ومع ذلك فما يقدم لها من هذه الافلام لا يروي ظمأها بل ربما يزيده جفافا وبخاصة عندما تخرج هذه الافلام حاملة عناوين مشوقة واعدة مثل « ثورة اليمن » الذي كتب قصته صالح مرسي واخرجه عاطف سالم حتى اذا ما اقبل عليها ليراها آملا ان يرى فيها صورة حقيقية لنضاله اذا بها افلام تشوه هذا النضال وتحوله الى عمل صبياني ابله أو تشنج لا عقل فيه كما لو كانت الثورة مغامرة يقوم بها احد رعاة البقر.

سينما المقاومة التاريخية

من الافلام الوطنية التي ضمها سجلنا السينمائي العربي فيلم « الناصر صلاح الدين » الذي اخرجه يوسف شاهين وهو فيلم بذل فيه من الجهد والامكانيات ما يستحق الاشارة . انه الفيلم الاول الذي تساهم فيه الدولة مع منتجته آسيا وهو خطوة رائدة في افلام الانتاج الضخم .. يتناول « الناصر صلاح الدين » موضوعا تاريخيا بارزا مستمدا من فترة الصراع العربي ضد الصليبيين ، ويتحدث عن ذلك الصراع البطولي الذي خاضته مصر والشام بقيادة السلطان الناصر صلاح الدين الايوبي ضد الحملة الصليبية التي قادها ملك انجلترا ريتشارد قلب الاسد . وقد يكون من المضحك ان نتحدث عن الجانب التكنيكي في فيلم من هذا النوع بينما هو يتناول لحظة تاريخية من أهم لحظات الصراع القدري بين العرب واعدائهم طوال التاريخ،ولكننا نعرف اهمية التكنيك في هذا النوع من الافلام التي تعتمد اساسا على المناظر الضخمة والديكورات الباذخة وتحريك المجاميع الوفيرة ودراسة النواحي العسكرية والاتنلوجية والتحكم في هذه النواحي جميعا بالطريقة التي تخلق عند المتفرج حالة من الاقتناع الوهمي بان التاريخ قد بعث أمامه حيا على الشاشة البيضاء ... ونحن في غنى عن الحديث عن ذلك الجانب الذي نكتفي بجملة واحدة بشأنه . لقد حاول المخرج العربي أن يقلد الاميركيين في أفلامهم فبدا قزما ممسوخا لا روح فيه . لم يكن من المتوقع أن يقلد المخرج العربي أساتذته الاميركيين حتى في فهمهم لتاريخ بلاده والحق أن هذه عبارة قاسية والاكثر عدلا أن نقول أن المخرج لم يفعل أكثر من ان يردد المفهوم الشائع في أكثر كتاباتنا التاريخية والادبية عن هذه المرحلة من التاريخ ، وباختصار نقول أن الصراع القدري بين الحضارة العربية والحضارات الاوروبية في العصور الوسطى .. هذا الصراع الذي جر شعوبا برمتها وكان نقطة التحول الاولى في التاريخ الحديث كله والذي اشتبكت فيه كل قبائل وشعوب الاقطار العربية على وجه التقريب ، تحول في قصة الفيلم الى شيء اشبه بأقاصيص أجاثا كريستي البوليسية على احسن تقدير : صراع يدور في حدود استخدام الخناجر وقنينات السم وتبادل الهدايا من الجواري والاسرى من النساء . يتخلل هذا خطب طويلة عن العروبة والوطنية يلقيها رجال منتفخو الاوداج ، فاذا

كان هذا هو ما فعله المخرج العربي حينما لم يستطع أن ينقذ نفسه من تأثير المخرجين الاميركيين ولا المؤرخين العرب فما الذي يمكن ان يفعله مخرج اميركي في فيلم عربي مشابه ؟ .. وهذا السؤال ليس من قبيل المحاجة المنطقية وانما هو يشير الى فيلم حقيقي فعلا .. فقد حدث أن اسندت مهمة اخراج فيلم « واسلاماه » المأخوذ عن قصة لعلي احمد باكثير بنفس العنوان الى المخرج الاميركي « اندرو مارتون » وهو نفسه المخرج الذي كان مرة ثانية قد نال جائزة الاوسكار سنة ١٩٦٠ عن الفيلم الذي يمجد اسرائيل (بن هور) ولعل من الطرائف المرة التي تعبر عن مدى العقلية التي كانت تتحكم في الحقل السينمائي عندنا ان نستدعي هذا المخرج المتحيز قلبا وعقلا والذي لا يفهم ولا يريد أن يفهم تاريخنا وحقيقة شعبنا العربي واصالته لتوليه اخراج فيلم يتناول حقبة مشرقة من تاريخنا الاسلامي والقومي ايام المماليك.. يوم ان هب العرب ضد التتار واوقعوا بهم هزيمة منكرة في عين جالوت . وبرغم النصر الذي فرضه المخرج على نهاية الفيلم فرضا فقد صور المخرج الذي قام هو نفسه بكتابة السيناريو .. صور الشعب العربي على انه شعب مخبول لا حول له ولا قوة يطرب للرقص كالمجنون ويهز بطنه على دقات الطبول ويؤمن بالعفاريت والجان وهكذا شوه الفيلم قصة احمد باكثير التي كانت قد شوهت اصلا جوهر الحقيقة التاريخية عن الصراع العربي المغولي وشوه المخرج تاريخنا وطمس حقيقة شعبنا وجوهره ..

جانب اخر .. للصورة

ان افلام المقاومة تتطلب مسئولية وطنية في المجال الاول ، فهي افلام لا بد أن يقوم بها فنانون يؤمنون بقضية بلادهم فاهمين لحقيقة نضالهم . اناس ممن صهرتهم التجربة وممن يستطيعون اكتشاف الاسلوب الفني الملائم للتعبير عن ملحمة من ملاحم النضال العربي المعاصر .. شبان من الجيل نفسه الذي يخوض الان هذه الملحمة فهم وحدهم الذين يمكنهم ان ينقلوا روح النضال الحقيقي الى شاشة السينما لانهم وحدهم القادرون على حمل السلاح مثلما يحملون الكاميرا . على ان هذه الحقيقة المؤسفة لدور الفيلم الروائي في التعبير عن النضال العربي لا ينبغي أن تنسينا أن هناك فئة من الشبان تعمل في دأب واخلاص في مجال أخر للفيلم هو مجال الفيلم التسجيلي، فهم على تواضع انتاجهم وقلته يغرسون في اعمالهم السينمائية التسجيلية بذور العمل السينمائي النضالي الجاد ، ويعبرون من خلال هذه الاعمال عن رؤاهم وهمومهم التي يحفرها في وجدانهم قضيتنا المصيرية التي تهدد شعوبنا بأن تتحول الى شعوب من اللاجئين .

فبينما كانت المدافع تدوي أثناء عدوان يونيو الماضي ، وبينما كان يموت ابناؤنا صرعى رصاص صهيوني غاشم ، ومتعصب كانت هناك مجموعة من الشبان المتحمسين يقبعون في استوديو نحاس في القاهرة في المركز القومي للافلام التسجيلية الذي كان يرأسه حينئذ الفنان حسن فؤاد يكونون وحدة اطلق عليها اسم « آثار العدوان » تضم مجموعة من المخرجين التسجيليين الشبان منهم احمد راشد وهاشم النحاس ومحمد قناوي ويشرف عليها سعد نديم احد رواد الفيلم التسجيلي في الجمهورية العربية المتحدة واحد الذين اشتركوا في تصوير معارك بور سعيد اثناء العدوان الثلاثي ..

وقد ساهمت هذه الوحدة بافلام سريعة قصيرة تعبر عن العدوان وعن دور اميركا الخبيث في مؤازرته وتجسد للعالم تلك الصورة البالغة القتامة والقسوة للاجئين الفلسطينيين .. من هذه الافلام فيلم « ألعار لاميركا » للمخرج احمد راشد بالاشتراك مع سعد نديم ، وهو فيلم يعتمد على ترتيب مجموعة من الصور الفوتوغرافية الثابتة التي نشرت في الصحف والمجلات التي ظهرت في جميع بلدان العالم حتى اميركا ذاتها .. رتبت في مونتاج ذكي سريع لا يستغرق اكثر من ست دقائق ويعكس الفيلم في هذه الدقائق الست سياسة اميركا ازاء شعوب العالم . فهو يبدأ بطريقة تهكمية بعرض تمثال الحرية المشهور في مدخل ميناء نيويورك ثم يتبعه بصور تؤكد زيف هذه الحرية وكذبها .. يتبع ذلك مشاهد يهتز لها الوجدان الانساني : صور لشعب فيتنام وقد اطاح العدو الاميركي برؤوس الثوار الفيتناميين الذين يدافعون عن حرية بلادهم .. ثم صور للاجئين الفلسطينيين وقد شردوا وطردوا من ديارهم بعد ان اغتصب الصهاينة وطنهم .. والفيلم لا يستخدم اي تعليق لفوي لكن بتآلف المونتاج مع موسيقى جيمس بوند التي زاد المخرج من سرعتها ثم مع تركيز الكاميرا لثوان على بعض الصور لابراز وتكرار مشاهد معينة تضيف الى عمق الموضوع وتأثيره، هذا بالاضافة الى الايقاع السريع للفيلم .. وقد تآزرت كل هذه العوامل فخلفت احساسا بالقلق والتوتر استطاع ان ينفذ الى عقل المشاهد ووجدانه ..

ولعل فيلم « عدوان على الوطن العربي » هو اطول فيلم قدمته وحدة آثار العدوان وقام باخراجه سعد نديم .. فهو يستغرق ٣٠ دقيقة ويعتمد على الصور الحية التي سجلها سعد نديم بكاميرته عن آثار العدوان والتقطها من المناطق التي تعرضت للعدوان نفسه واعتمد ايضا على لقطات من الجرائد الاجنبية التي ظهرت اثناء العدوان وصورته .. فمثلا احتوى الفيلم على معركة دخول القدس .. على وحشية اليهود في عملية اعتدائهم على الاهالي .. على ما تركته هذه الوحشية من تشويه وآلام وقتلى وجرحى واطفال مشردين ، فجاء الفيلم ، برغم ما فيه من عيوب ربما ترجع الى ضغط الظروف التي كان يواجهها سعد نديم والاستعجال الذي غالبا ما يكون على حساب الطاقة الابداعية للفنان وقدراته ، جاء الفيلم كوثيقة سينمائية بشعة تحمل كل ما يدين العدوان ويدمغه بطابع الوحشية والاغتيال المنظم للمدنيين المسالمين ، الامر الذي يؤكد هدف اسرائيل الحقيقي من العدوان .. هدف ابادة الشعب العربي وطرده من ارضه واغتصاب وطنه وليس مجرد تأمين حدودها كما يبدو من اقوال زعمائها .. لكنها وثيقة آثرت وزارة الثقافة المصرية الا تعرضها على الجماهير لما فيها من صور مهيجة ومؤلمة لمشاعر المتفرجين وخاصة وان الفيلم يعبر عن احساس ميلودرامي مفجع اكبر مما يعبر عن رؤية نضالية للعدوان الوحشي والاثارة وكيفية مواجهته ..

هذه الافلام الى جانب افلام قصيرة اخرى اعدها المركز القومي للافلام التسجيلية اثناء العدوان وبعده مثل « كل تمام يا افندم » لمحمد كريم وفيلم عن المقاومة الشعبية لعبد العزيز فهمي وفيلم «السنا وحدنا» لصلاح التهامي ومعظمها افلام انتجت في تسرع ولم يسمح لها بالنضج الكافي لكي ترى النور كما ان الظروف التي انتجت هذه الافلام للوفاء باحتياجاتها لم تستمر اكثر من ايام قليلة .. كلها تعبر بصورة او باخرى عن مدى انفعال الفيلم التسجيلي وتجاوبه مع الاحداث القومية التي يعيش فيها وطننا . هذا في الوقت الذي ظل فيه الفيلم الروائي ليس فقط بعيدا عن الاحداث التي مثلت ذروة الصراع العربي لاسرائيل ولكنه أيضا يتجاهل هذه الاحداث كأنها لم تحدث ابدا او حدثت في كوكب اخر . وهذا الموقف اللامبالي يصل الى حد التخلي والنكوص عن تحمل مسئولية الفن الثوري الحقيقي فالافلام التي قدمها سواء ابان العدوان او بعده لا تدل الا على مدى استهتار الفنان السينمائي باحاسيس مجتمعه . وليس دليلا على هذا اقوى من افلام « وادي الموت » و « شهر عسل بدون ازعاج » و « المساجين الثلاثة » بالطبع مع بعض الاستثناءات التي تنوه وسط هذا الركام من الافلام الهابطة .

نقطة مضيئة من واقع مظلم

وهكذا فان من يعيش وراء كواليس مسرح الفيلم الروائي عندنا ومن يتابع النسخ النهائية التي تفرزها مصانع السينما وهي تعرض على الشاشة الكبيرة يكتشف والمرارة تملأ نفسه ان ما يحدث في حياتنا السينمائية الان بعد النكسة ليس في حقيقته الا استمرارا لما كان ولما لا بد أن يحارب ويواجه بمزيد من الحسم والثورية . ولعل

هذه الحقيقة هي التي تدفعنا الى التوقف عند المحاولة التي بذلت منذ شهر – من جانب بعض السينمائيين في الجمهورية العربية المتحدة ارادوا ان يخرجوا فيلما عن معركة الكرامة . فبعد هذه المعركة التي اسفرت عن نصر مشرف لقوات المقاومة العربية على جيش العدوان الصهيوني تحرك بعض سينمائيينا الكبار معلنين عن رغبتهم في عمل فيلم روائي طويل يحكي هذه المعركة من خلال قصة غرامية (!!) ورغم ان هذه المحاولة قد ماتت في مهدها بالسكتة القلبية ، وهي ميتة طبيعية لمثل هذه الافكار التي تولد شائهة وناقصة الخلق والاحساس ، نقول انه رغم توقف هذه المحاولة ، فان مجرد ان يطرأ على ذهن سينمائيينا الكبار فكرة معالجة معركة بطولية مثل معركة الكرامة من خلال قصة غرامية – ونحن نعرف ما هي قصصهم الغرامية وما تدور حوله وما تعبر عنه ، كما ان مجرد التفكير بهذه الطريقة في مثل هذه الظروف التي يحكمها الابطال في مواجهتهم للقتلة انما تعبر عن الاحساس الحقيقي لهؤلاء السينمائيين بالمعركة . احساس بارد فاتر الهمة بل هو احساس جدير بزواحف من ذوات الدم البارد وليس برجال خرجوا باحساسهم هذا من مشاهدة اشلاء القتل والبيوت المحروقة ودبابات العدو المدمرة التي خلفها وراءه بعد هزيمته . ان هذه الفكرة التي طرأت على اذهان هؤلاء السادة انما هي التعبير الحقيقي عن نوع العقلية وعن نوع عالمنا السينمائي بالفعل ..

وما دمنا نتحدث عن افلام المعارك وعن ما لم تفعله السينما العربية ازاء مسئوليتها عن قضية فلسطين فان النقيض المباشر لهذا العجز قد يساعدنا على فهم حقيقة الدور الذي يمكن ان تلعبه السينما العربية لخدمة قضايانا المصيرية ..

كانت لنا في الجزائر قضية مصيرية اخرى شبيهة بقضية فلسطين . فماذا فعلت السينما الجزائرية ؟؟ ليس امامنا فيلم عربي يمكننا ان نستشهد به سوى فيلم ((معركة الجزائر)) فهو وحده النقطة المضيئة وسط واقع مظلم متخلف لتاريخ الفيلم الروائي العربي .. وبالذات في افلام المقاومة .. انه نموذج للسينما الثورية التي انبعثت بالهام الثورة وحرب التحرير الشعبية من قلب واقع شعب مناضل دفع ثمنا غاليا لحريته .. لقد استقبلته الجماهير العربية استقبالا حماسيا بلغ حدا من الروعة يدفعنا الى القول باننا في حاجة ماسة الى سينما ثورية صادقة تحتضن مشاعر الجماهير المتعطشة الى الاعمال الفنية الثورية المتلهفة لرؤية بطولات الشعوب الحقيقية ونضالاتها من اجل التحرير . لقد اثار الفيلم ايضا اعجاب المثقفين والنقاد وكتبت عنه الكثير من المقالات النقدية والفيلم مع هذا النجاح الساحق يعتبر اول الافلام الروائية في الجزائر .

لقد اعتمد الفيلم على الناس البسطاء الذين كان يختارهم المخرج من الشارع احيانا .. فحتى (ابراهيم حجياج) الذي ادى دور البطل علي لابوانت بطل حي القصبة في الفيلم هو فلاح فقير جدا يعيش بعيدا عن العاصمة بحوالي عشرين او اربعين ميلا ولم يسبق له التمثيل ابدا .. واعتمد ايضا على بعض الثوار الحقيقيين الذين اشتركوا في معركة التحرير مثل ياسف سعدي الذي ادى دورا صغيرا واعتمد المخرج ايضا على حي القصبة كله (حوالي ٨٠ الف نسمة) هذا الحي العربي الفقير الذي كان له دور ايجابي في معركة التحرير الجزائرية ضد الفرنسيين .. لقد كان (علي لابوانت) رجلا جزائريا عاديا ليست له عضلات مفتولة او صفات ((جيمس بوند)) السحرية .. انه رجل يتعادل نصيبه من البطولة مع نصيب كل فرد من افراد الشعب الجزائري الذين اشتركوا في المعركة ، ومع ذلك فقد استطاع هؤلاء البسطاء والفقراء من الناس ان يشدوا انظارنا بنضالهم الذي سجله التاريخ في سطور مشرقة كنموذج لبطولة شعب باكمله .

ولم يكن اعتماد الفيلم في اختيار ابطاله على افراد عاديين وغير ممثلين محترفين من ابناء الشعب كما لم يكن اعتماده في خلق اماكن حدوث وقائعه على الاماكن الحقيقية التي انبتت المناضلين ودارت فيها معارك التحرير كلها .. لم يكن المخرج في هذا ولا ذاك يهدف الى اي نوع من الاستعراض السياحي ولا الى ابراز مهارته وانما كان يهدف الى هدف فني وفكري من نوع رفيع .. كان يهدف الى استخلاص الحقيقة الانسانية والتاريخية بكل تفاصيلها لكي ينقل الينا لا مجرد حقيقة ما حدث وانما حقيقة الناس الذين صنعوا بنضالهم هذا الذي حدث ..

ثم لم يعتمد فيلم معركة الجزائر في تأثيره في الوصول الى هدفه الفكري والوجداني على قصة غرامية او قصة حب تهدف الى زيادة التأثير كما تتصور العقلية التي تتحكم في افلامنا ، ولكن قصة الحب الحقيقية المؤثرة في الفيلم هي حب اهل الجزائر لبلدهم الجزائر رغم ان الفيلم لم ينس ان شعب الجزائر رجاله ونساءه لم يكفوا عن تبادل الحب ولا عن اقامة الافراح بطريقتهم الخاصة .. لقد تحول العرس في معركة الجزائر الى احتفال بمناسبة الزواج . هذه المناسبة التي تؤكد قدرة الشعب ورغبته في استمرار حياته كما تحول الحفل الى مظاهرة وطنية يحتفلون فيها بالحياة وبالنضال من اجل الحرية في وقت واحد .

لقد استطاع فيلم مثل معركة الجزائر بما فيه من تصوير حقيقي لكفاح شعب الجزائر وما اتسم به من معالجة فنية راقية ان يكون سفيرا مؤثرا فعالا لبلده . واذا كان الفيلم المصري ((جميلة)) يساوي اثر ثلاث سنوات من الدعاية عن طريق الاذاعة فان ((معركة الجزائر)) يعادل سنوات طويلة منها .

العدوان الاسرائيلي في السينما

ان المقاومة العربية الان تخوض معارك حاسمة من اجل الحق الفلسطيني ومن اجل نصرة شعب فلسطين اللاجيء .. وهي تقود هذه المعارك بينما معارك الصهيونية ضدها لا تقل ضراوة عن معاركها معها بالسلاح .

فاسرائيل تجند كل وسائل الاعلام لديها وبخاصة السينما بصفتها الفن الذي يجمع كل الفنون الاخرى .. وتحمل كل تأثيرها علاوة على انها الفن القادر على خلق اكبر قدر من الايهام بالحقيقة او بتجسيد الواقع كما هو ، وهي ايضا الفن القادر على الوصول الى الناس حيث يوجد الناس دون مشقة ، وهي ايضا الفن الذي يستخدم الهمة العصر الحديث التي يخلقها بنفسه : الممثلين النجوم الذين تحولهم اجهزة الدعاية الى نماذج بشرية مثالية يعشقها الناس ويقلدونها ويتتبعون اخبارها . وبهذا التأثير تجند اسرائيل كل امكانيات السينما لتشويه هذه القضية المقدسة والنيل منها ومن دوافعها المجيدة ، مضحية في ذلك بكل الامكانيات المادية والفنية الممكنة .. وليس هذا بغريب ، فتاريخ هذه الصناعة مرتبط برأس المال اليهودي ، وهو تاريخ يعكس مدى مهارة اليهود في استغلال السينما لتضليل الشعوب وخداعها . ومن يستعرض الافلام الكثيرة التي تنتجها شركات السينما في اميركا يجد فيها كما يقول احد الكتاب الصحفيين ((تاريخ الفكر اليهودي وتاريخ الافساد والانحلال المنظم المدروس لكل القيم الانسانية)) ويكفي ان نعرف مدى اسهام الرأس المال الذي يملكه اليهود في شركات الافلام الاميركية كما نشرتها صحيفة جيروزاليم بوست لندرك مدى التحكم في الانتاج السينمائي العالمي وتكريسه لصالحهم :

شركة وارنر	٥٤ بالمئة
يونيفرسال	٤٩ بالمئة
مترو جولدين ماير	٤٤ بالمئة
يونيتد ارتيست	٣٦ بالمئة
بارامونت	٣٥ بالمئة
فوكس	٣٢ بالمئة
كولومبيا	٢٩ بالمئة

وهذه بالطبع نسب قابلة للزيادة كما تتنبأ نفس الجريدة اليهودية ، هذا بالاضافة الى ان كثيرا ممن يعملون في هذا الحقل من اليهود ايضا .

وإذا ما استعرضنا افلام ما بعد الحرب العالمية الثانية لادركنا كيف استغل اليهود هذه الحرب الى اقصى حد . فقد راحوا ينتجون الافلام التي تهدف الى استغلال الجرائم النازية عن طريق تصوير تلك الجرائم في صورة غير حقيقية ليس عن طريق التقليل من شأن تلك الجرائم وانما عن طريق ايهام العالم بأن النازيين لم يرتكبوا اية جريمة الا ضد اليهود . وان على العالم ان يظل شاعراً بذنبه ، محملا بثقل الاحساس الفادح بالخطيئة التي ارتكبت في حقهم ، وان هذا الاحساس وهذه الخطيئة لا يمكن التكفير عنهما الا بالاستسلام الكامل لكل الرغبات المتوحشة التي لا تقل توحشا عن رغبات وجرائم النازيين انفسهم والتي تطوف بأذهان الصهاينة .. وقد خرجت الافلام الى العالم عكس تعمق هذا الشعور بالاثم والخطيئة ولعل فيلم « الوصايا العشر » يعتبر نموذجا للانتاج الضخم الذي يحوي كل حيل اليهود وخداعهم .. فهم انبياء .. وهم قوم محبوبون .. وهم شعب الله المختار .. الخ من الاوهام الاسطورية التي تزيف الحقائق التاريخية ، فتشويه التاريخ هو أهم معالم الافلام التي ظهرت لحساب اليهود بعد الحرب العالمية الثانية ..

ومن بين الافلام ايضا فيلم « بن هور » الذي تكلف عشرة ملايين من الدولارات ليقول ان اليهود أبرياء وانهم لم يصلبوا المسيح ، فاذا كان قد صلبه بعض اليهود في القدس فبقية أهل القدس ابرياء وعلى هذا فمن السخف أن نحملهم جميعا دم المسيح .. وقد يكون هذا الفيلم هو الذي يمهد لان يطلب اليهود من الكنيسة الكاثوليكية ان تبرئهم من دم المسيح ..

هناك ايضا فيلم « بلقيس ملكة سبأ » وهو يصور اوهام اليهود وامانيهم فقد شوهوا التاريخ وزيفوه ليحكوا عن معارك تاريخية لم تحدث قط هزمت فيها الجيوش المصرية ووقعت اسيرة الخيل العظيمة لسليمان ملك اسرائيل ..

وهكذا ترى كيف احسن اليهود استغلال هذه الوسيلة .. وكلما تقدم الزمن وتطور العلم كلما ازدادوا خبرة ووعيا بأحسن الاساليب وازدادوا تمكنا من استخدام السينما لخدمة اغراضهم .

وبعد احداث يونيو لم يكتف الاسرائيليون بارسال مندوب لهم من الامم المتحدة وايفاد وزرائهم لتزييف القضية الفلسطينية على طول العالم وعرضه ، بل جنبا الى جنب هذا النشاط السياسي الاسرائيلي كان الجانب الاعلامي الذي تعتبر السينما أهم وسائله .. فلقد تمت الاتصالات بين المسؤولين في اسرائيل ورجال السينما في العالم ، وعقب العدوان مباشرة انتج في اسرائيل الكثير من الافلام التي تتناول هذا العدوان وتمجده وتمهد لغيره .. فما تفعله اسرائيل ليس الا حقا مكتسبا لها لم تحقق من ورائه كل ما تبغيه .. وضمنت شركات السينما داخل اسرائيل خطتها التي تعدت المائة فيلم بافلام مدروسة هدفها الدعاية ، هدفها تمجيد « رسالة » الصهيونية . وهذه الشركات جميعها تعتمد في تمويل أفلامها على المعونات التي يغدقها عليها رأس المال الصهيوني في العالم ، بمعنى انها تعمل بامكانيات مادية هائلة وتكرس لها طاقات فنية عالية بالغة المهارة .. فكل ما تنتجه اسرائيل من افلام يتزايد عدده عاما بعد عام ويرتقي مستواه الفني فيزداد بذلك جاذبية ومقدرة على الاقناع .

وبينما كانت مشكلة المنتجين الاسرائيليين بعد حرب يونيو هي كيفية توزيع هذه الافلام التي تتناول العدوان عالميا لكي تتمكن كل الشعوب من رؤيتها ، كانت افلام عربية على غرار « حواء والقرد » و « حواء على الطريق » و « حلوة وشقية » تعرض في الاردن والقتال على اشده والشوارع تمتلىء بجثث القتلى الابرياء .. وتكفي هذه الحقيقة وحدها لكي ندرك مدى استهتار فناني السينما العرب بمصير بلادهم وبعدهم عن أهم قضاياه .

المقاومة في سينما الشعوب المناضلة

طالما كانت السينما وسيلة خلاقة استخدمتها الشعوب المناضلة التي مرت بظروف مشابهة لتلك التي نمر بها الآن وما اكثر التجارب الثورية في السينما العالمية التي عرضت في الجمهورية العربية المتحدة وشاهدها الالوف من الناس في بلادنا ..

فبعد الحرب العالمية الثانية التي انتهت بانتصار الحلفاء على دول المحور الفاشية اتجه الفنانون الروس الى انتاج الافلام القوية التي تتناول الحرب وتصور جهاد الشعب الروسي من هذه المعارك الطويلة القاسية وصمودهم امام قوى الغدر النازي وجبروته .. وساهمت الافلام التسجيلية على وجه الخصوص في تسجيل الحرب .. فالرغبة في استحضار بطولات الشعب وصموده كما صورها المئات من الفنانين اثناء نشوء المعارك ، هذه الرغبة كانت حلم فنان السينما التسجيلية وانشودته التي يرددها ويرددها معه الشعب الروسي الذي كان يتهافت على مثل هذه الافلام بحماسة زائدة ..

ولعل فيلم « الحرب العالمية الثانية » الذي شهدناه في القاهرة يعتبر من اعظم الافلام التسجيلية التي قدمتها السينما السوفياتية الى العالم وهو فيلم انتج حديثا من ألوف الامتار من الشرائط السينمائية التي صورت في مواقع القتال وفي الخنادق والمستشفيات ومن الوف الاوراق التي تمثل الوثائق الرسمية لحكومات وقيادات الدول والجيوش المتحاربة ومن ألوف الصور الفوتوغرافية للزعماء والجنود وضحايا المدنيين والقتلى ومن مانشيتات الصحف واخبار وكالات الانباء التي صدرت ابان معارك الحرب العالمية الثانية .

ولم يكن دور الفيلم الروائي في مجال المقاومة باقل من التسجيلي، فقد انتجت افلام مثل « نصرة ضابط ذكي » و « قصة رجل حقيقي » وفيلم « الكسندر ما تروسوف » وجميعها افلام اخرجت بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة وابطالها من أبطال الحرب الحقيقيين الذين استشهدوا على ارض المعارك .. وهناك ايضا فيلم « الجيل الجديد » الذي يقدم بشكل جذاب حياة الشبان والشابات وهم يتعلمون مواجهة المسؤوليات الجسام الملقاة على عواتقهم ، وهو نموذج للافلام السوفياتية في معالجته للبطولة ودوره في تأكيد الحب والزمالة كأساس للوطنية ، وايضا من كراهية للنزعة العسكرية واحترام للدور الذي لعبته المرأة السوفياتية في الكفاح . ويعكس هذا الفيلم وغيره من الانتاج السوفياتي خبرة بلد عبأ كل سكانه لملاقاة عدو غاشم ..

***

وقد لعبت السينما هذا الدور الايجابي المعبر في كل الدول الاشتراكية التي واجهت اندلاع الحرب وشرارة الثورة ضد الغاصب . فقد اعلن احد الفنانين التشيك في اواخر الاربعينات انه « ليس في وسع الجميع بالضرورة ان يحملوا البنادق ولكن حتى هؤلاء يجب الا يكفوا عن العمل .. ونحن سلاحنا هو الكاميرا وجبهتنا هي كل مناطق القتال وكل احداث المقاومة القابلة للتصوير والتي يمكن أن تصبح سينما .. » وقد عبر الفنان السينمائي التشيكي بالوبيك في هذه الكلمات المقتطفة من مقال له عن الدور الحقيقي الذي لعبته السينما اثناء العدوان النازي على تشيكوسلوفاكيا ، وهو الفنان نفسه الذي خاض تجربة الحرب .. يقول في مقاله عن « الانتفاضة الوطنية السلوفاكية في الفيلم .. » : « منذ ثلاثة وعشرين عاما كانت اعمال المقاومة تمثل واجبا يوميا مقدسا في بوهيميا وسلوفاكية . واذا كانت هذه الفترة قد اصبحت مجرد تاريخ بالنسبة لنا فانها ما زالت واقعا راهنا بالنسبة لبلدان كثيرة مناضلة .. وفي النصف الاول من عام ١٩٤٤ كان الاشتراك في اعمال المقاومة لا يعني فقط عملا سريا بل يعني ايضا انتماء كاملا لحركة معينة . وكان يحدد لكل فرد في اي جانب يقف ! وفي تلك الفترة سجل السينمائيون التشيك افلاما وثائقية قصيرة عن الحركة في سلوفاكيا الوسطى حيث بدأت الانتفاضة الوطنية وكانت مهمتنا حينذاك ان نعايش ونلاحق الحركة العاصفة للتراث الشعبي الثوري من حولنا .. وشيئا فشيئا جذبتنا دوامة هذه الثورة الشعبية الى قلبها .. ولم يعد ممكنا لاي منا ان يتوقف عن ملاحقة هذه الفترة التي لن تتكرر .. وفي ٢٩ اغسطس ١٩٤٤ كنا خمسة فقط ..

وكان علينا ان نختار : هل نبقى في سلوفاكيا حيث بدأت الاحداث ام نعود الى العاصمة براتسلافا ؟ .. وقررنا ان نبقى ، وحتى عندما جاءنا امر المخرج بالتليفون بأن نعود فورا اجبنا « لن نعود الى براتسلافا الا مع الجيش السوفياتي ! » .

وبقينا وسط المعركة ولم نكن بقرارنا هذا اقل ولا اكثر من اولئك الذين شاركوا مع الثوار ورفضوا البقاء في امان العاصمة على نهـــر الدانوب . وهكذا عبرنا ميدان القتال يوما بعد يـــوم ورسمنا صورا مجيدة ومؤثرة .. ولقد رأى الشعب كله افلامنا وبني الشعب كله مـــن ملايين القلوب متاريسه في وجه الاحتلال .. »

وبهذا استطاعت السينما التشيكية لان تسجل حركة المقاومة ضد الاحتلال النازي بمجموعة من الافلام الهامة في تاريخ « افلام المقاومة » منها « فندق الذئاب » و « الاغتيال » و « اللحظة الحاسمة » و «تذكرة بلا عودة » و « الارغن » وهي تصور المقاومة من عدة جوانب وتعبر عنهـا في عمق وحساسية .. كذلك صورت انتفاضة الشعب التشيكي وحروب التحرير وتآلف الجيش والشعب ضد النازي ، وذلك فـي قالب فنـي مشوق جمع بين المهارة التكنيكية والشاعرية الفنيـة وبيـــن الحقيقة الموضوعية . الشيء الذي يندر حدوثه في افلام تجسد القتال والمعارك الحربيـة .

***

وقد لا تقل مساهمة السينما اليوغسلافية والسينما البولندية في تناول الافلام التي تصور المقاومة عن السينما التشيكية او السوفياتية .. فقد تعرضت الاثنتان للظروف نفسها ووقع شعباهما باسرهما تحت وطأة جحافل النازي وطغيانه ، فشارك الاثنان بعديد من الافلام التــي تصور بطولات كلا من الشعب اليوغسلافي والشعب البولندي .. ومـن السينما اليوغسلافية نذكر على سبيل المثال فيلم « الشجاع لا يموت الا مرة واحدة » الذي عرض في القاهرة في الموسم الاول لنادي الفيلم. وهو ملحمة شعبية رائعة وفيلم « نظـرة الـى عين الشمس » وفيلـم « البطل » الذي عرضته سينما مترو في الجمهورية العربية المتحدة ..

وقدمت بولندا ضمن « افلام المقاومة » فيلـم « المرحلة الاخيرة » للمخرجة فاندا جاكوبسكا عام ١٩٤٨ وهـــو فيلم تدور احداثه فـــي معسكرات الاعتقال النازي وكانت المخرجة نفسها قـــد مرت بتجربـة الاعتقال في احد هذه المعسكرات فاستفادت مـــن ذكرياتها وتجاربهـــا الخاصة اثناء اخراجها للفيلم .. وقد عرض هذا الفيلم الذي لا يـزال يراه الشعب ويسعد به .. وانتجت بولندا أيضا فيلم « مدينة لا تعتمر» وهو يتناول نضال مدينة وارسو التي هدمها النازيون مرتين .

***

وهناك نموذج آخر للمقاومة في السينما شاهدناه في افلام فيتنام وكوريا وكوبا والصين .. نموذج الحرب الشعبية وحـرب العصابات ، فهذه الحرب نفسها هي التي تمارسها تلك الدول في نضالها ضد قوى الامبريالية العالمية ، ومنها الفيلم الفيتنامي « فان تروي » وهو فيلـم درامي تنتجه فيتنام وسط المعارك وفي ظروف عصيبة يمر بهـــا الشعب الفيتنامي لكن مع ذلك يعتبر من الافلام التــي بلغت حـدا مـــن النضج والواقعية جعلته يقترب من الافلام التسجيلية ، هذا بالطبع الى جانب المستوى الفني العالي في الاخراج والتحليل والتصوير ، والفيلم يحكي قصة بطل حقيقي أعدمته السلطات في سايغون عـــام ١٩٦٤ بناء علـى اوامر السلطات الامريكية لانه كان ينوي قتل روبرت مكنمارا وزير الدفاع الامريكي بصفته المجرم الذي يقود المجزرة التــي تسفك دماء ابنـــاء الشعب الفيتنامي ..

والفيلم الصيني « حرب الانفاق » فيلـــم يصور احداث كفـــاح الشعب الصيني ضد اليابان . ففـــي ٧ يوليو سنة ١٩٣٧ هاجـــم اليابانيون جسر « لوكيو » الواقع خارج بكين ولـــم تستطع حكومة تشيانج كاي شيك صد العدوان لان جماهيـــر الشعب الصيني كانت تعيش في حالة من الفوضى وعدم النظام ، وبذلك وقعت مناطق شاسعة من الصين في قبضة الغزاة اليابانيين ، الا ان الجيـــش الرابـــع الجديد وجيش الطريق الثامن بقيادة الحزب الشيوعي الصيني راحـــا يعبئان الجماهير وينظمان صفوفهم للقيام بالحرب الشعبية ضد الاعداء

.. وفعلا تغلب الشعب الصيني عـــلى نقاط ضعفه وارغـــم الغزاة اليابانيين على مواجهة مئات الملايين من الشعب الصيني الـذي ينهض من رقدته ويواجه العدو بجيش منظم وفرق من الميليشيا الشعبية تحجز امامها الطائرات والدبابات اليابانية وتمنعها من التقدم شبرا واحداً .

***

وفي فيلم « قطار السكة الحديد » قدم الشعب الكوري نموذجـــا آخر من الافلام التي تعبر عن المقاومة ، فهو يصور شريحة مـــن الحرب الكورية بأسلوب واقعي اعتمد فيه المخرج على الاماكن الحقيقية والمشاهد الطبيعية . وذلك لزيادة التاثير وبخاصة ان حوادث الفيلم كلها تصور الدور الذي قام به مجموعة من الفدائيين والفدائيات فـــي التصدي لعملية دبرها الامريكيون للاستيلاء على كمين من الذخيرة ينقلها قطار من موقع الى موقع آخر من اماكن المقاومة .. وقد صورها الفيلم بحبكـة فنية متميزة تعكس صورة متقدمة لدور الفيلم الكوري في قضايا كوريـا الثوريـة .

***

وتبرز كوبا وسط البلدان الثائرة التي ساهمت مساهمة ايجابيـة في تقديم افلام عن المقاومة على مستوى متقدم فنيا وموضوعيا .. فقد استطاعت ان تحرز بفيلمها « هانوي يوم الثلاثاء الساعة ١٣ » علـــى جوائز مهرجان ليبزج ست سنوات متتالية وهو فيلم رائع يحكى انـــه مخرجه « جارسيا سبينوزا » عندما وصل الى فيتنام ليصور كفـــاح شعبها تصادف وصول طائرته في الساعة « ١٣ » يوم الثلاثاء مع حدوث غارة امريكية على هانوي ، وفي الحال اخرج « سبينوزا » كاميرته وراح يصور الشعب الفيتنامي تحت وابل القنابل .. وكم كان رائعا ان نرى الشعب الفيتنامي في الفيلم وهو يصنع قوته فـي الوقت الذي يحارب فيه عن قوميته واستقلاله .. لقد جسد الفيلم نضال هـــذا الشعب بصورة رائعة وعبر عن حقه في الحرية والحيـــاة بشكل الهب حماس مشاهديه فلم يملكوا الا التصفيق الحاد في نهاية الفيلم ..

قدم سبينوزا ايضا فيلم عن « جيفارا » وهو فيلم تسجيلي لدور جيفارا النضالي الرائد وفيلم « الثائر الصغير » عن صبي يترك اهـل بلدته وعائلته ويذهب لينضم الى ثوار فيدل كاسترو في الجبل اثنـــاء حكم باتستا .

***

يتضح من هذه النماذج السريعة دور السينما فـي تجسيد المقاومة وبث روح الاقدام والبسالة ، فقـد كان هـذا استعراضا عامـا لبعض الجهود التي بذلتها السينما في معارك المقاومة التــي خاضتها شعوب كثيرة ضد العدوان العسكري والسياسي. ونحن لا نشك في أن موضوع المقاومة الذي فرض نفسه على السينما لم يكن مجـرد مصدر للقصص السينمائية ، بل نعتقد انه مصدر لتطورات واسعة فـي الفن السينمائي كما كان باعثا لكثير من الملامح الخاصة الجديدة اكتسبها هذا الفن مـن خلال اندماجه في معارك التحرير .

فقد اكتسب الفن السينمائي باعتباره فنا دراميا مـــن ناحيـة وباعتباره فنا قادرا على تجسيد مساحات واسعة مـن الواقع واعدادا ضخمة من الناس . اكتسب هذا الفن مفهوما خاصا وجديداً عن البطولة او انه قد استطاع اكثر من اي فن درامي آخر ان يجسد هذا المفهوم . ففي معارك المقاومة يصعب ان يكون هناك بطل فـــرد ، وحتى البطولات الفردية غالبا ما تشارك الجموع في صنعها او في تغذيتها ، واستخدمت السينما امكانياتها الكبيرة في تجسيد هـــذه الحقيقة . ورغـــم ان الجماهير من المتفرجين تفضل باستمرار أن تتعلق ببطل محدد غالبا مـا يكون بطلا فرديا ، فقد استطاعت السينما الثورية ان تخرج بين المفهوم الواقعي عن البطولة الجماعية وبين هذا المطلب السيكولوجي ، فخلقت ابطالها الفرديين المتزجين بصورة فعلية ببطولات جماهيرهم ، ولكـــن دون ان تحولهم الى نجوم أو الى بشر غير عاديين او افذاذ . والمثال الواضح على ذلك هو الاسلوب الذي وضحناه في تصوير بطل فيلـــم « معركة الجزائر » وفي اختيار الممثل الذي قام بدوره .

كذلك استطاعت سينما المقاومة اعتمادا على الامكانيات التكنيكيـة الصرفة للفن السينمائي ان تجسد المفهوم الواقعي العلمي عـــن علاقة

الانسان بظروفه الاجتماعية او عن علاقته بالطبيعة ، فقد استغلت قدرة الكاميرا على نقل الواقع كما هو تقريبا من اجل تصوير مواقف الصراع الاجتماعي أو الوطني أو صراع الانسان ضد الطبيعة حينما تقف القوى الانسانية قوى التحرر وقوى القهر وجها لوجه أو حينما يقف الانسان في وجه الطبيعة يروضها ويخضعها لمصلحته . ورغم ما كان يواجهه الانسان في البلاد التي انتجت سينما المقاومة من ظروف اجتماعية واقتصادية متخلفة يتجسد فيها البؤس والفقر والتخلف فان السينما استطاعت ان تكتشف شاعرية الصراع الملحمي بين هذه الجماهير البائسة وابطالها وبين من يصنعون لها البؤس والتخلف .

لقد سقط نهائيا على ايدي فناني سينما المقاومة ذلك المفهوم الرومانتيكي المتبذل عن القبح والجمال ، وتجسد المفهوم الواقعي المقابل بصورة لم يسبق اليها حينما اصبح من الممكن ان نرى في وقت واحد القبح الشكلي وفي مواجهته نرى محاولة الانسان للتخلص من هذا القبح . استطاعت سينما المقاومة اذن ان تجسد حقيقة ان القبح او التخلف او البؤس ليس قدرا على الانسان وانما هو نتيجة لعوامل موضوعية يستطيع الانسان ان يغيرها بارادته . وقد استطاعت السينما ان تصور عملية التغيير نفسها وان تجسدها في أثناء حدوثها ..

ومن الناحية العامة كان لسينما المقاومة فضل كبير في نشر الاحساس العالمي بوحدة الصراع الانساني ضد العدوان والاستعمار والاذلال وعناصر التخلف والبؤس حينما اكتشفت الشعوب التي تبادلت افلامها ان معاناتها وبطولاتها كانت واحدة وان مصيرها المشترك كان مصيرا واحدا وان قضيتها كانت قضية واحدة رغم اختلاف التفاصيل والجزئيات .

سينما تشويه المقاومة

واذا كانت السينما سلاحا استخدمته الشعوب الثائرة في شحذ عزائم ابنائها وتسجيل ملاحم بطولاتها فان هناك حدا آخر لهذا السلاح استخدمته الدول الاستعمارية وخاصة امريكا في احباط عزائم هذه الشعوب والترويج لسياستها الغادرة ضدها .. فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبينما الشعوب تكرس كل مواردها للتعمير السلمي وتنمية مواردها لبناء ما هدمته الحرب ، اخذت الولايات المتحدة تسير في تنفيذ خطة عدوانية للسيطرة على العالم بقوة السلاح وتطلب هذا تحولا سريعا في اتجاهات الثقافة السائدة . وكان التحول صارخا واضحا في الموقف من الدول والثورات الاشتراكية ومن حركات التحرر الوطني ... واذا كان الناقد الامريكي التقدمي جون هواردلوسون في كتابه « الفيلم في معركة الافكار » الذي ترجمه اسعد نديم يقول معبرا عن هذا الوضع « فبين عشية وضحاها تناسوا (الامريكيون) التضحيات البطولية التي قدمها الشعب السوفياتي في الكفاح المشترك ضد الفاشية واصبحت الامة التي لم تأل جهدا في المساهمة في هزيمة الاعداء تصور فجأة في صورة العدو » فاننا نضيف ايضا ان هجوم الولايات المتحدة لم يقتصر في الحقيقة على هجومها الموجه ضد الاتحاد السوفياتي وانما راحت تكيل ضرباتها العسكرية والسياسية والاقتصادية والتآمرية لكل القوى التي كانت قد اضطرت الى التحالف معها بالامس اثناء الصراع العالمي ضد القوى الفاشية .

لقد راحت شركات السينما الامريكية التي نالت اعانات ضخمة من البنتاجون ومن وكالة المخابرات المركزية ومن لجنة النشاط المعادي لامريكا ومن تروستات الاحتكارات المالية والصناعية الامريكية .. راحت هذه الشركات تنتج سيولا من الافلام التي كان هدفها الواضح وضوحا ساذجا هو تشويه حركات التحرر الوطني في أوروبا وآسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية وابطال هذه الثورات كما انها لم تبخل في محاولاتها لتشويه التاريخ ..

ويقول المؤلف الامريكي التقدمي عن دور السينما في هوليود : « ان نصف قرن من تاريخ السينما يطابق عصر الامبريالية وقد تحدد دور هذه الصناعة بوجه عام بالمصالح الثقافية لكبار سادتها واحتياجاتهم . فالدعاية للحرب والقهر وسيادة الجنس الابيض وكبت شعوب المستعمرات . كل هذه تميز تاريخ صناعة السينما في الولايات المتحدة ابتداء من فيلم (سقوط العلم الاسباني) عام ١٨٩٨ حتى آخر افلام الحرب الكورية » فيمكننا ان نضيف الى هذا الحصر قولنا ان هذه السياسة قد استمرت حتى آخر فيلم عن الجاسوسية أو عن الفضاء تنتجه استوديوهات هوليود الآن . وليس من الضروري ان تصنع امثال هذه الافلام بتوجيه من المخابرات الامريكية او من وزارة الدفاع او قيادة الجيش الامريكي ، ذلك لان الشركات السينمائية نفسها يملكها رأسماليون كبار يعرفون بالتحديد مصالح الاستعمار الامريكي ويمثلون عقلية هذه المصالح ووجهات نظرها الفكرية والاجتماعية اصدق تمثيل !.

ان تحقير نضال الشعوب ودوره في تحقيق التحرر الوطني والنزعات العنصرية والتركيز على الابطال الفرديين وتمجيد الابطال الاستعماريين ليست اكثر اهداف الافلام التي تنتجها اكبر هذه الشركات قذارة ووضوحا ، وان كانت اكثر تكرارا وترددا .

هناك فيلمان تناولا ثورتين عربيتين ليس هنا محل تقييمهما من الناحية السياسية . ولكن ما يهمنا في هذين الفيلمين هو الصورة التي ابرزت بها السينما الامريكية شخصيتين من الشخصيات التاريخية التي لعبت في التاريخ دورا هاما في سبيل تثبيت اقدام الاستعمار في بلادنا او فتح بلادنا بالخديعة والتآمر وبحد السلاح للتوسع الاستعماري .

الفيلم الاول هو فيلم «الخرطوم» الذي منع عرضه لحسن الحظ في القاهرة ، ولكن بعد ان تم تصويره في الجمهورية العربية المتحدة . يتحدث هذا الفيلم عن الثورية السودانية التي قادها السيد محمد المهدي في اواخر القرن الماضي ضد السيطرة التركية المستترة وراء الحكم المصري ، وهي الثورة ذات الاهداف الاجتماعية المستنيرة وان كانت قد اصطبغت بصبغة دينية واضحة فرضتها ظروف العصر وعقليته ثم انها هي الثورة التي اخمدها الانجليز بوحشية تفوق وحشية المغول واستغلوا فيها احتلالهم لمصر وسيطرتهم العسكرية على الجيش والادارة المصريين . يصور الفيلم شخصية هوردون باشا الجنرال الذي كان واحدا من ضباط الجيش الانجليزي الذي فرض على الصين بالقوة ان تشتري الافيون الذي تزرعه الشركات الانجليزية في الهند .. هذا الجنرال الذي استدعته وزارة المستعمرات الانجليزية من آسيا لثقتها في حنكته في معاملة الملونين كما يقول الفيلم حرفيا . ولكي تكل اليه مهمة قيادة الحملة التي قرر جيش الامبراطورية ارسالها من مصر لاخضاع السودان ولاخماد الثورة المصرية .. والمعروف في التاريخ ان الثوار السودانيين حاصروا جوردون في الخرطوم وهزموه وقتلوه ، ولكن الفيلم يصور هذا الجنرال الاستعماري الخائب في صورة القديس الشهيد الذي اغتالته الشعوب المتوحشة وهي لا تدري اية خسارة تخسرها بقتلها لهذا النبي الذي ارسلته السماء لانقاذهم من تخلفهم ..

اما الفيلم الثاني فهو فيلم « لورانس العرب » وهو الفيلم الذي تحول منه ضابط المخابرات الانجليزي المنحل الى بطل للشعب العربي علاوة على الصورة المنحطة التي ابرز بها الفيلم الشعب العربي .

***

وهكذا ظلت السينما على طول تاريخ تقدمها سواء في البلدان الاشتراكية والديمقراطيات الشعبية أو سواء في العالم الرأسمالي تلعب دورا هاما في التعبير عن قضايا الشعوب المكافحة من اجل حريتها او في التعبير عن وجهات نظر القوى الاستعمارية المعادية لهذه الشعوب.. وهكذا ستظل وسيلة مؤثرة من وسائل النضال على طول الجبهتين .. فماذا فعلت السينما العربية وماذا قدمت من أجل قضايا الكفاح والاستقلال الوطني ولمواجهة طوفان الاعمال السينمائية الدعائية التي تنتجها القوى الاستعمارية المعادية لنا ؟.

لقد كرست اسرائيل انتاجها السينمائي المحلي كله لاهدافها الخاصة بعد العدوان ولم تسمح لنفسها بتبديد طاقاتها على انتاج الافلام في افلام لا تستفيد فائدة سياسية مباشرة . هذا ما يفعله اعداؤنا فماذا نفعله نحن لمواجهتهم ولتغذية شعوبنا بالحقيقة وبروح الثورة والنضال ؟! ..

القاهرة

خيرية البشلاوي

اشياء عن الأرض والمقاومة

ـ مقدمة ـ

تنام أعين الجميع
وأعين الفتيان ترقب المدى
وينجلي الصباح والجميع في تثاؤب بليد
وجبهة الفتيان تشرب الندى

ـ نشيد ـ

لاجل برعم من الزهور في بلادنا نموت
لاجل ذرة من التراب في حقولنا نموت

ـ تحيــة ـ

أحييكم من القلب الذي غنى امانيكم
أحييكم ...
وبالعينين بالعينين أفديكم ...

ـ امنية قديمة ـ

لو ان الريح تأخذني
والمح مــرة بلدي
اعانقهــا ...
أضم صخورها .. أبكي ـ اقبل كل شبر في فيافيها
وأشرب قطرة من نبع قريتنا
وأقطف وردة من زهر بستاني
لو ان الريح تأخذني ...
لو ان الريح تأخذني ...

ـ حكايــــة ـ

يحكون عن شبيبة تنام في العراء
فراشها الثلوج تارة .. وتارة تلتحف المطر
ورغم ان دربهم طويلة وشائكه
لا يعرفون الخوف والوقوف والندم
زنودهم مناجل من غار
قلوبهم جداول من نار
الحب والشقاء والعذاب عندهم سلاح
والجرح خطوة الى الامام نحو شاطىء المنى

ـ موقف ـ

الموت لحظة انتصار
الموت لحظة انتصار

ـ حكاية أخرى ـ

يحدثنا شعاع الشمس عن وهج الزنود السمر اذ تمضي
تفجر في صحارانا
ينابيعا وازهارا ونيرانا —
وعن رحلاتكم يروي لنا القمر
وكيف تشق صمت الليل أرجلكم
وتنصب جذرها في الارض كالشجر

ـ اشاعة ـ

يشاع انهم بشر
وانهم كالناس من لحم ودم
ويحلمون مثلنا بالحب والزواج والصغار
وانهم متيمون .. مغرمون بالحياة
لكن في عروقهم دماء
وفي دمائهم غضب

ـ امنية اخيرة ـ

لو تقبلونني أنا اليتيم في صفوفكم
قد لا أجيد الحرب والقتال
لكنني أجيد جمع الطلقات الفارغه
لو تقبلونني أنظف السلاح أملأ المخازن ـ التي
تفرغن ـ رصاص
وأحمل المياه للعطاش
لو تقبلونني يا أيها الشموع في صفوفكم
لــو تقبلونني

دمشق — **سعد الله حرب**

هــذا التراب

ــ تتمة المنشور على الصفحة ١٣ ــ

★★★

فيه ، لصيقة للتصدير ، اما النظام فالاقتصاد الحر . وانه اخيــرا ليس باقتصاد مستقل ، السرة والحبل فيه موصــولان بالاقتصاد الاحتكاري الاميركي ، هذا الذي في الشرق العربي ليس الا استطالة شاذة للتراستات الاميركية وراء البحر ... انه لا يمشي حسب منطق الاقتصاد المألوف لا ثمة مثلا ارتفاعا في مستوى المعيشة اكثر بكثير مما يقبل الدخل القومي . وثمة تثميرات ضخمة جدا في مشاريع متعددة كثيرة تنوء بها لو شادتها اشباه الدول الكبرى ، وثمة تثميرات في مشاريع غير اقتصادية ابدا ومع ذلك تنفذ ... ويقــف الاقتصادي مشدوها امام المغامرة .. ولكن اسرائيل لا تقف ، اقتصادها غير محدود بها ، انه لا يخطط لاسرائيل هذه ولا يعمل ضمن حدود اسرائيل ولا يرتبط بموارد اسرائيل ولا يعتمد على العمل والانتاج في اسرائيل، هنا تفرده ... انه يهدف باستمرار الى استيعاب وامتصاص مئات الالوف من اليهود في مدى سنوات (استوعب حوالي المليونين في عشرين سنة ، بمعدل مئة الف كل سنة) ويعمل على اقوى تسليح ممكن يجعل طاقة اسرائيل العدوانية اضعاف مداها البشري والمادي والجغرافي . كما يطمح الى اوسع مقــدار مــن التنمية والتطور الاقتصادي ــ الاجتماعي ... واهم من كل ذلك ، يريد المشروع الصهيوني الى ان يثبت في النهاية انه مشروع اقتصادي رابح ... رابح جدا .. ذلك مبرر وجود اسرائيل الوحيد .

الاهتمامات التي تستأثر به هي : مشاكل الاستيعاب للمهاجرين الجدد التي تبتلع جهود الحكومة والوكالة اليهودية ، مشاكل الميــاه التي تزهق الاسرائيلي عطشا (ويعمل عليها شركة تاهل للــدراسة وميكوروث للتنفيذ ، وتعتمد خمسة مشاريع كبرى ، احدها مشروع تحويل الاردن للنقب ، واخرها محاولات تحلية مياه البحر على اساس الطاقة الذرية بالتعاون مع الولايات المتحدة) . ثم مشاكل الانتاجية المرتفعة الضخمة لمواجهة النقص الخطير في الميزان التجاري والتضخم الخطير في النقد ، واخيرا واهم من كل اولئك الحفاظ علــى دجاجة البيض الذهبي : على مزاريب المال الاجنبي لتبقى في مستواها العالي دوما فلا تنقص ، وتنصب بالمجان تبرعات وقروضا واسلحة وتعويضات ومعونات .. وما يبتكرون .. واسرائيل في هذه النواحي قد حققت الاعجوبة ، ما ذلك من عبقرية العمل ولكن من عبقرية الاستغلال. ولقد اعانها على ذلك ثلاثة عوامل :

١ ــ ان الاقتصاد الاسرائيلي لم ينطلق سنة ١٩٤٨ مــن الصفــر ، ولكنه انطلق وفي يده رأسمال قوامه اولا ما جمع من مال اليهود خــلال خمسين سنة وهو حوالي ١٥٠ مليون دولار ، وثانيا ما جمع مــن خيرات اليهود في فلسطين وهم ثروة بشرية من ٦٠٠ الف اوروبــي ، واهم من هذا وذاك ما اغتصبه من العرب النازحين من مال وعقــار وفرص اقتصادية ودخل قومي وحصة في المرافق والخدمات العامة تبلغ في التقدير الفين وثلاثمائة مليون جنيه استرليني (٦٤٤) مليار دولار. وبجانب كل اولئك اخذ قاعدة ارضية مجانية تبلغ عشرين الف كم٢ .

٢ ــ اضاف هذا الاقتصاد اليه من القروض والتبرعات الكثيــر الكثير ، ومن التعويضات والمعونات الخارجية الارقام المذهلة ، وقــد استطاع الاحتفاظ بها في مستوى عال من التمويل حتى الان عشريــن سنة ، انها « دجاجة البيض الذهبي » .. لقد اخذ مــن القروض والتبرعات مبلغ ٦٥٠٠ مليون دولار حتى ١٩٦٦ فــي اقــل التقديرات المعترف بها .واخذ من اموال التعويضات الالمانية مبلغ ٧١٠٠ مليون دولار (٢٩٤٨ مليون مارك) وسوف يأخذ حتى ١٩٧٥ ــ حسب الاتفاقات الاخيرة سنة ١٩٦٥ ــ (٤٥ الف مليون مارك اي ١١٤٢ مليون دولار).

هذه الارقام نفهم معناها ، نفهم من خلالها مدى صمود الاقتصاد الاسرائيلي حتى الان على الاقل ، اذا عرفنا انها تبلغ في المجمــوع حوالي ٢١ الف مليون دولار ، بينما لا يتجاوز مجموع ارقام الميزانيات الاسرائيلية ٩٥٠٠ مليون دولار منذ سنة ١٩٤٨ حتى ١٩٦٦ ...

٣ ــ ومن ناحية ثالثة تعطي اسرائيل تكوينها الاقتصادي صفــة الاشتراكية .. تتحدث دوما عن ذلك.. بعض الدول والقطاعات التقدمية في الغرب وفي اسيا وافريقيا تعتقد ان هذه الايديولوجية وحدهــا تكفي مبررا لوجود اسرائيل . واذا كان نوع التوطن اليهودي المتدرج في فلسطين وموارده واهدافه قــد اعطت الاستعمار الصهيوني بعض ملامح البروليتارية ، واذا كان التوجيه العقائدي الاستعماري قد جعل الزراعة تأخذ شكل (المستعمرة) الاشتراكية وجعــل الصناعة تحمــل الطابع العمالي فوراء هذه القشرة الاشتراكية تنظيم اخر مختلف كــل الاختلاف ، عقلية الاستغلال بلغ من براعتها التوفيقية ان جمعــت النقيضين في نظام معا . الطابع الاشتراكي يأخذه الاقتصاد الاسرائيلي من ان القطاع العام يملك ٩٠ بالمائة من ارض الزراعة ، ومن ان العمل الزراعي يقوم على اساس المستعمرات ذات الكفايــة الفنيــة والالية المتقدمة والتي يبلغ عددها حوالي ٩٦٠ مستعمرة اكثر من ٦٥٠ مستعمرة منها انشئت بعد عام ١٩٤٨ . انها مستعمرات تقوم على اساس العمل لا الاستغلال الانساني ، ما كان منها قائما على اساس تعاوني (الموشاف)، وما كان على اساس جماعي شيوعي (الكيبوتز) فهو سواء في اشتراكية التنظيم ... لكن الصهيونية لا تتحدث بالطبع عن ان هذه المستعمرات خاسرة اقتصاديا وان ٨٨٤ بالمائة من سكان اسرائيل لا يسكنون الريف، فليس ثمة في المستعمرات اكثر من ١١٤٦ بالمائة منهم ، وان هــذه المستعمرات ليست سوى ثكنات جنود موزعة في المراكز الاستراتيجية والدفاعية ، ليست سوى مسامير تثبت الاستعمار ، سوى محــاولة لايجاد فكرة الوطن لدى قبضة (الخالوتيزم) يستغلهم الايديولوجيون الصهيونيون لاثبات النظرية وانجاح مشــروع التجربة . ولا تقــول الصهيونية اخيرا ان كل مزارع يهودي كلفها ١٥ الف دولار .. ولكنهم انما يشترون بذلك الارض نفسها والصلة بالارض لا الانتاج وقبضــة من القمح . وتحمل اسرائيل صفة الاشتراكية من خلال مظهر اخــر : هو المظهر الحكومي العمالي ، فحصة القطاع الحكومي من الرسملــة والتثمير قد تزايدت باستمرار حتى بلغت ٦٠ بالمائة ، كما ان ثــلاثة اخماس المستخدمين يعملون في هذا القطاع ، اما نسبته في الدخــل القومي فتبلغ ٧٥ بالمائة ، وهو قطاع لا يهدف الى الربح ولكــن الــى الخدمات العامة ، ويظهر جهد ، في الزراعة وفي التنقل وفي تجــارة الجملة ثم في الصناعة لكن القطاع العام هنا لا يعني الحكومة فحسب، بل يعني ايضا الجمعية النقابية العمالية (الهستدروت) Histadrot هذه المؤسسة التي تضم ١٤٨٠٠ مليون وثمانماية الف عضو ... بينهم من العرب حوالي ٤٠ الف عضو ... الهستدروت هو كل العمال وكــل الاحزاب معا . مكاتبه ، مستوصفاته ، نواديه ، منظماته ، استثماراته ، تربط السكان جميعا في حبل واحد من وراء اسرائيل .. هــذه الهستدروت ، ان جاوزت المظاهر الى الخلفيات الاخرى ، الى الوجــه الاخر المدالية ، تكشفت عن انها ليست نقابة العمال ولكنها هي رب العمل الاكبر . اموالها التي تستغل المستعمرات والمصانع والمصــارف وشركات النقل والملاحة والصيد والمياه والبناء والتأمين لا يرى العمال من ارباحها شيئا ، توزيعها سر صهيوني ، الارباح مخصصة للدعــاية الدولية لاسرائيل ، ولتقديم الخدمات الداخلية وللمزيد من الاستثمار والتوسع ، وهكذا فان حوالي ٧٠ بالمائة من اراضي المستعمرات تديره (هيفرات عوفديم) للهستدروت . وشركة سوليل بونيه ، من اكبــر شركات البناء الدولية ، تتبع الهستدروت بميزانية سنوية تزيد علــى ٢٠٠ مليون دولار .. والبنك العمالي (هابوغيل بانك) ثاني بنــوك اسرائيل في الاهمية انما اسسته الهستدروت ، ان له ٨٢ فــرعا ، ويتفرع عنه عشرات البنوك والشركات ايضا . وشركة كور اكبر شركة للصناعة الثقيلة والصلب والمعادن والنسيج ، والتي تملك ٣٣ مصنعا في اسرائيل اسهمها الاساسية بيد هذه الهستدروت وشركة شيكــون (سكن) للاسكان ، وميكوروث للماء و (هاشنة) للتأمين . وشركــات النقل الداخلي . وهامبشبيرها مركزي لشراء حاجات المستعمرات . وتوفا للتسويق ولتصريف المنتجات الزراعية ، وحاقال (حقل) لخدمة المزارع ... كلها مؤسسات الهستدروت . على ان النافذة التي تفضح الزيف الاشتراكي في الهستدروت وتكشف الصفة الحقيقية للعلاقات

الاميركية الصهيونية هو هذه الحقائق التالية : وما نقدم منها الا الامثلة المحدودة : شركة امبال لتمويل المشاريع الاقتصادية هي من شركات الهستدروت وتعتبر اكبر شركة استثمار منفردة في اسرائيل ، ولكنها شركة اميركية ايضا ، تعرف شأنها أن عرفت ان ما قدمته من القروض بلغ حتى عام ١٩٦٣ حوالي ٥٥ مليون دولار وزاد حوالي ١٥٠ مليونا اخرى حتى ١٩٦٦ ... ويتفرع عنها ١٧ شركة للاعمار والبترول والنقل البحري (زيم) والمصائد والسماد والزيوت والسكر والضمان ... وشركة فلسطين الاقتصادية التي تزيد ارباحها السنوية عن ٥٠ مليون دولار شركة اميركية اسرائيلية تتبعها احدى وعشرون شركة ضخمة مثل تلك الاولى . وشركة كور الصناعية وسوليل بونيه للبناء وماير للضمان والتأمين كلها مؤسسات مشتركة مع هذه الشركة من ورائها شركات بعد شركات . وهي في التحليل الاخير شبكة معقدة من المصالح التي تربط بين اسرائيل كمشروع اقتصادي سياسي وبين كبار بيوتات الاقتصاد والمال الغربي .

في عام ١٩٥٨ اشترى الرأسماليون الاميركيون ١٢ مؤسسة اسرائيلية كبرى ، من جملتها زيم للنقل البحري ، و (يشموفيم) و (ويبلكس) ، ثم جاء دور ثلاثة من اهم مصانع صقل الماس سنة ١٩٦٠ ، ثم حصل الاميركيون على امتياز التنقيب عن الفوسفات في النقب واشتروا مصانع حيفا لانتاج المواد الكيماوية ، أن مجموع الاستثمارات الاجنبية في الاقتصاد الاسرائيلي يبلغ حوالي سبعة الاف مليون دولار . اما نصيب الاحتكارات الاميركية في القطاع الخاص وحده فقد ارتفع من ٣٢٫٨ بالمائة سنة ١٩٥٦ الى ٣٧ بالمائة عام ١٩٥٧ ثم زادت ، فهي تبلغ في بعض التقديرات ١٩٦٥ أكثر من ٧٢ بالمائة ، وهل تذكرون بعد هذا اولئك السبعين ملياردير الذين تداعوا من ١٤ دولة رأسمالية الى القدس في ٩ اب من صيف ١٩٦٧ لمنع انهيار الاقتصاد الاسرائيلي ؟ واحد منهم فقط من آل روتشيلد وضع تحت تصرف اسرائيل ٥٠٠ مليون دولار ... ترى هل جمعهم الحماس القومي الديني وحده ؟ ومنذ تسعة اشهر فقط جمعت اسرائيل مؤتمرا ماليا اخر حضره ٤٥٠ رأسماليا ضخما من ٢٠ بلدا ... ماذا فعلوا ؟ واحد من مؤتمر المليونيرات هذا كما سموه (وهو مليونير انكليزي) قرر استغلال ١٠٠ مليون دولار في اسرائيل ، لقد قرروا العمل على ان ينقذوا الاقتصاد الاسرائيلي من الانهيار ومن عجز الميزان التجاري البالغ سنويا ٧٢٥ مليون دولار .. واعلن بنحاس شابير وزير المالية عرض الحكومة بيع اربعة بنوك لها لمن يشاء ... أن اسرائيل من اجل البقاء تبيع الان الفرص الاقتصادية الموجودة فيها وتريد أن تشرك اكبر عدد من اصحاب المصالح معها في المغامرة ليدافعوا عن المغامرة. اوليس الاقتصاد الاسرائيلي بعد كل هذا بالظاهرة العجيبة الغريبة في دنيا الاقتصاد ؟ ..

***

اذا اطللنا الان من الزاوية الاخرى : زاوية العلم ، اطل علينا من اسرائيل وجه اخر ، لا يغيب عنه الاميركي البشع ، ولكنه بدوره ايضا احدى قواعد الجسور التي يقوم عليها بناء اسرائيل العمقي في الارض المحتلة ، منذ اللحظات الاولى ادركت الصهيونية أن العلم سيكون أجدى اسلحتها ضد العرب . ادركت انها يجب ان تستغل الفارق الحضاري العلمي بين المجموعات اليهودية الاوروبية وبين القوافل العربية الخارجة من عتمة الحكم العثماني . ومع المستعمرات الاولى التي سبقت الانتداب البريطاني كان ثمة مستعمرة من نوع خاص تظهر : الجامعة العبرية سنة ١٩١٧ وبعد ١٩٤٨ ظهرت ثلاث جامعات اخرى : في تل ابيب وفي باراىلان (رامات غان) سنة ١٩٥٣ ، ثم في حيفا سنة ١٩٦٤ ، تسير كلها على المنهاج الجامعي الاميركي وتؤلف نسيج التعليم العالي اليهودي ... نقطة اللقاء في هذه الجامعات هي محاولة تثبيت الوجود اليهودي في فلسطين ، ضرب جذوره في الارض . ولعل وجود جامعات اربع امر عادي في مليوني نسمة ونصف المليون بل ربما كان عاديا ايضا وجود فروع للجامعة العبرية في تل ابيب ودروجوبوت تجعل الجامعات في الواقع ستا ... وانما يلفت النظر امور اخرى في الميدان العلمي : في هذه الجامعات مثلا : ١٩١٨ استاذا ، قرابة النصف منهم في الجامعة الام . ولكن معظم هذه الكتلة العلمية بضاعة اوروبية مستوردة . بين ١٩٤ عالما فيزيائيا كيماويا هم مادة اسرائيل العلمية عددت ١٨٣ من الغرباء . لم يولد في اسرائيل منهم ، عددا ، سوى ١١ واحدا فقط واذا كان في اسرائيل حوالي ستة الاف طبيب بمعدل طبيب لكل ٤٠٠ شخص فانها لم تنفق شيئا في اعدادهم . فاكثر من ثلثي هؤلاء الاطباء كلهم مستوردون ... وجاهزون في الوقت نفسه للتصدير كخبراء وبعثات الى افريقيا واسيا ...

وفي تلك الجامعات ، مثلا اخر ، قرابة عشرين الف طالب اي بمعدل ١ بالمائة من عدد السكان . ولكنهم ينتمون الى خمسين بلدا من بلاد الله .. هم بدورهم جاؤوا نسيجا جاهزا للتفصيل على مقاس الحاجة الاسرائيلية ، أن القائمين على الهجرة لا يقبلون فيها الا الشباب الصغار ... وتلك الجامعات الى هذا وذاك تحوي الكليات ، التربية والاداب والحقوق والعلوم الانسانية بلى ، ولكنها تركز بصورة اساسية على الكليات الاخرى : على الطب والصيدلة والزراعة ، وعلى العلوم الفيزيائية واقسام الرياضيات ودوائر الكيمياء بالوانها (من تحليلية وعضوية ولاعضوية وفيزيائية وحيوية) وعلى دراسات النبات والجيولوجيا والارصاد والمناخيات والهدرولوجيا ، هنا كل هم الجامعات .. الجامعة العبرية وحدها اخرجت عام ١٩٦٦ (١٣٦) دكتورا في العلوم و ٣٠٦ متخرجين بدرجة ماجستير علوم ايضا ، وما هي وحدها في الميدان . وراءها للرفد والتعاون من المعاهد العليا الجامعية ايضا ستة عشر معهدا . منها ما هو للجغرافيا ومنها ما هو لعلوم الفضاء ، او اللدائن او الاليات او للمعادن او الدراسات النووية او ابحاث المناطق القاحلة ، او البحث البيولوجي ، ومن وراء هذه المعاهد اربعون مؤسسة ومختبرا ومركزا للثقافة العالية ، ولكن لحمة كل ذلك والنسيج انما هو البضاعة البشرية العلمية المستوردة . في القمة من كل هذا التكوين العلمي يبرز معهدان علميان ليست مهمتهما التعليم العالي ولكن خلق العلماء الكبار : معهد التكنيون على جبل الكرمل بحيفا ومعهد وايزمن في روحوبوت . الاول عتيق بدأ مع مطالع الاستعمار الصهيوني عام ١٩٠٧ فهو الان مدينة للعلوم والتكنولوجيا ، وليس المهم طلاب التكنيون الاربعة الاف ، ولكنهم اساتذته المائتان والخمسون ، انهم نواة التكنولوجيا الاسرائيلية . جميع فروع الهندسة في ايديهم : المدنية والميكانيكية والكهربائية والكيميائية والزراعة والطيران والصناعة والادارة وهندسة البناء عدا العلوم النووية وتكنولوجيا الغذاء ، ومؤسسة اينيشتاين للفيزياء ومؤسسة غولدبرغ الالكترونية ...

واما معهد وايزمن الثاني : الذي بدأ عام ١٩٣٤ فهو الان مركز عالمي علمي : هو اسرائيل العلم فيه وفيه علماؤها ، لا يدخله الا حملة الماجستير ، فهناك ٣٧٠ استاذا وخبيرا ، و ٣٢٠ طالبا فقط ، ويحوي المعهد عشرة اقسام في الحقول التالية : الرياضيات التطبيقية،الفيزياء النووية ، التأثير النووي ، الالكترونيك ، بلورات اشعة اكس، النظائر، التجمعات ، البيوفيزياء ، الكيمياء العضوية ، الاحياء التجريبية ... وفي المعهد احدث مسرع نووي لقذف النوى الذرية ، وفيه اكبر دماغ الكتروني تم تصميمه وصنعه في المعهد نفسه يقوم بربع مليون عملية حسابية في الثانية من ٧٥ رقما ، وفيه اضخم جهاز للتحليل الطيفي في العالم ، ولكن من الذي اقام هذا كله ؟ انما اقامه الاستيراد البشري والمعونة العلمية والمالية الاجنبية وراء هذا الاستيراد ..ولعل الاهم من كل هذا ليس العدد والكم ، ولكن سوية الابحاث وجدتها في الوسط العلمي . علماء تلك الجامعات والمعاهد ولو انهم ليسوا من اسرائيل في التكوين ، الا ان نظرياتهم التي اضحت اليوم جزءا من التراث العلمي العالمي : انما تحمل اسم اسرائيل وسمعتها في كل مكان .. ثمة نظريات شتى ، وتطوير لنظريات اخرى في الرياضيات : (في التحليل والاحتمال والمنطق الرياضي) والرياضة التطبيقية وحل

مشاكل المد والجزر في المحيطات – وهي المسائل المعلقة منذ قرنين.. وفي الفيزياء (دراسة الحلقة النووية ، استخراج الماء الثقيل ، وتؤمن اسرائيل ٩٥ بالمائة من حاجة العالم كله . وهي تستعمل كمعدل في التفاعلات النووية ، وفي الكيمياء (القياس اللامتجانس ، عمليات التبادل الايوني ، الهدروجين الذري ، تجمع الاوليفين ، والمركبات الكربونية ، وابحاث التجمع اي البلاستيك والنايلون) وفي البيولوجيا التجريبية ابحاث هامة حول استخدام الانسولين في علاج الغدد الصماء وحول فقر الدم وحول السرطان .. وغيرها في الطاقة ومصادرها المختلفة من شمس وهواء وكهرباء ، وفي التعدين وفي ابحاث الفضاء والجاذبية والاشعة الكونية وغيرها وغيرها .. ليس ينتهي الاحصاء.. وتعرض هذه النظريات في المؤتمرات الدولية العلمية التي لا تكاد اسرائيل تغيب عن واحد منها. فيما بين ١٩٥٥ و١٩٦٥ عقدحوالي ٥٥٠ مؤتمر علمي شاركت في ٨٨ بالمائة منها ، لم يسبقها سوى الولايات المتحدة التي كانت نسبة حضورها ٩٤ بالمائه . اما بريطانيا ٨٦٫٥ بالمائة والمانيا ٨٤ بالمائة وفرنسا ٨١ بالمائة فجاءت بعد اسرائيل . وهذا يعني ان اسرائيل اسمعت اذن صوتها العلمي في ٤٨٤٢ ندوة ومؤتمرا وحلقة واجتماعا ودورة ... ولم تنس ان تستغل لديها المؤتمرات ، ففي كل يوم جماعة علمية جديدة تصل الى اسرائيل لاجتماع جديد . من اخر مؤتمراتها الطبية ، ذلك الذي عقد اواخر عام ١٩٦٥ باشراف رابطة الاطباء وجمعية الاشعة ومؤسسة الطاقة الذرية ، وهو المؤتمر الطبي الاسرائيلي الثاني للطب النووي ، ودرسوا فيه استخدام الاشعاعات المؤينة في معالجة الاورام ، واستعمال النظائر المشعة القصيرة العمر ، واثر الاشعاع في دورات التحويل الغذائي . وفي حزيران الحزين نفسه ٦٧ كانت وفود من ٢٧ دولة في دورة تدريب في اسرائيل حول موضوع البيولوجيا الاشعاعية تضمنت دراسة الوسائل الدموية والخلايا في فحص التلف الذي يحدثه الاشعاع في الجسم .. وقد سبق هذه الدورة مؤتمر في اذار اشتركت فيه ٣٢ دولة حول فيزياء الطاقة العالية والبناء النووي ودرس فيه بين ما درس تفاعلات الالكترونات والميزنات والمويات مع النوى الذرية نظريا وعلميا .. وجاءت بعده دورة تدريبية في تموز حول التقدم في فيزياء الجسيمات باشراف حلف الاطلسي والحكومة الايطالية بلى ، لقد عقد معهد وايزمن هذه الدورة في صقلية باسم اسرائيل ... بسبب ظروف الحرب . واحسب هاهنا انكم تتصورون اني احوم ثم احوم حول موضوع الذرة في اسرائيل دون ان اقتحمه... وما هو بالهرب منه ولكنه ابقاء الاهم الى النهاية : بعد ثلاثة اشهر بالضبط من قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨ كانت مؤسسة الطاقة الذرية الاسرائيلية قد وجدت ، وبدأت نشاطها تحت اشراف وزارة الدفاع... حصاد عشرين سنة في هذا الميدان كان :

اولا : اربع مفاعلات ذرية بلغت تكاليفها ٣٦٢ مليون دولار ، ثلاث منها في وسط اسرائيل ، والرابع في الجنوب وهي : مفاعل ريشون لوسيون الذي انتهى بناؤه اخر ١٩٥٦ ومفاعل ناحال سوريك انتهى في ختام ١٩٥٨ ومفاعل النبي روبين الذي انتهى ١٩٦٧ ، وهذه المفاعلات الثلاثة ليست بذات الشأن من الناحية الحربية . ان مهمتها هي تهيئة الخبراء والفنيين والاجهزة العلمية اللازمة للمفاعل الرابع الاخطر ، مفاعل ديمونا في جنوب شرق بئر السبع . الذي انتهى في عام ١٩٥٩ ولم تعترف اسرائيل به الا بعد ان افتضح ١٩٦٠ ... مجموع طاقات هذه المفاعلات ٢٣٧ مليون واط حراري ، وقد عملت على تأسيسها اميركا . ثم تبنتها فرنسا ، ثم عادت اميركا فاخذتها في اطارها الواسع، وعنايتها الشاملة .

برنامج الذرة من اجل السلام الاميركي ، اخذت اسرائيل وحدها فيه ١١ بالمائة من شحنات النظائر المشعة التي يقدمها البرنامج ، اكثر من حصة ٦ دول مجتمعة .. واخذت ٢٦٥ طنا من الاورانيوم الطبيعي و ١٩٢ طنا من الاورانيوم المقوى و١١١ طنا من الاورانيوم الجاهز للتفجير و ٣٠ كيلوغراما من البلوتونيوم الخالص . كما حصلت على ٩٠ بالمائة من الوقود النووي اللازم لمفاعلاتها .

ثانيا : وتملك اسرائيل تجهيزات ذرية اخرى هامة ، قد لا تجدها دول اوروبية عديدة ، منها خمس مسرعات نووية وعدد من اجهزة فصل النظائر، والتحليل والتكسير النظائري والميكروسكوبات الالكترونية واجهزة رصد وقياس وكشف الاشعاع النووي ومولدات النترون .. وبين مشاريع العمل الذري الاسرائيلي تحلية مياه البحر وتهيئة النظائر المشعة وانتاج الطاقة الكهربائية .. وفتح قناة اخرى عبر وادي العربة يلغي قناة السويس ..

والقنبلة الذرية ... هذه القنبلة التي اضحت في العالم سلاحا سياسيا اكثر مما هو حربي تنقلنا بالتداعي الى النقطة الثالثة : الى التكوين العسكري لاسرائيل . ومبكرة جدا كانت الصهيونية في فلسطين تلبس اللون الكاكي وتحمل البندقية . في الحرب العالمية الاولى كان بن غوريون واشكول وشاريت يؤلفون فرقة عسكرية بجانب الحلفاء ، ثم بعد تلك الحرب مباشرة كانت فرقة عسكرية تحاول وضع حدود الدولة اليهودية بين سورية وفلسطين يقودها بيريت ترومبلدور ، ثم تعددت الفرق فمن وحدات الليل الى هاتساعير ، الى البالماخ الى شترن والى الارغون تزفاي لئومي والهاغانا ... ان نمو عملية الاستيطان والانزراع في الارض قد رافقتها بالضرورة نمو مقابل من حركة عسكرية، كان وجودها غير قابل للانفصام عن بناء المستوطن الزراعي . ادمغة التخطيط الصهيوني لم ترد بالقوى العسكرية الى الدفاع والهجوم فقط . انها كانت تريد لها ان تسهم في عملية الدمج ايضا ، ان تصهر الشتات اليهودي في البوتقة العسكرية الواحدة . ان تخلق اخوة السلاح ، عنصرا قوميا موحدا يلغي غربة الاجناس اليهودية التي تزيد على السبعين . وكانت تريد في الوقت نفسه ان تثبت الاستعمار اليهودي في الارض . روح الجندية والتقشف والدفاع هي وحدها التي تزرع اليهودي الغريب في الارض الغريبة ، وتقيم بينه وبينها بالدفاع ولذة الغصب والامتلاك صلة موازية لصلة الوطن . اشبه شيء بها . وقد تعدل وجود جذور من الاجداد فيها ، من هنا ظهرت المستعمرات وظهر القطاع الزراعي الذي يشبه الثكنات ، وظهرت الثكنات العسكرية التي تستر المدفع بالمحراث وتؤوي الناحال والجدناع ، وبرغم كل مظاهر السياسة والاقتصاد والعلم فالعقلية العسكرية هي السيدة في اسرائيل . العنصرية اليهودية لا تجد في هذه العقلية انتقاما لماضيها الذليل فقط ، ولكن تجد فيها السبيل الوحيد للبقاء . أوليس كل السياسيين الحاليين في اسرائيل قد تربوا في العصابات الاولى ؟ اوليس الارهاب الهمجي هو الذي اخرج بين ليلة وضحاها مليون انسان فترك لاسرائيل مجال الظهور المستقر على ارض خالية من البشر ، على طريقة طرد الهنود الحمر ؟ اوليس العسكريون هم الذين قدموا القاعدة الارضية الواسعة لتلك الدولة : اعطوها مجانا في شهر سبعة اضعاف ما حاولت جهود المال والسياسة والعقيدة والاقتصاد ان تأخذه في خمسين سنة ؟ أو ليست القوة اخيرا هي التي حققت انتصارات الصهيونية في سنة ٤٨ و ٥٦ و ١٩٦٧ ؟ الساسة ، قادة الامر ، مخططو الصهيونية ، رجال السيطرة الحزبية كلهم على القناعة الان بذلك . اضرب لكم الامثال من أقوالهم ؟ « نواة القومية اليهودية انما كان في الحركة الارهابية الاولى » كذلك قال كريستوفر سايكس المتصهين . « انتصارات اسرائيل بما في ذلك حرب الايام الستة ، انما تدين بالكثير الى روح (كتائب البالماخ) ... كذلك قال حاييم بارليف رئيس الاركان . « البت في الامور يتوقف على قوة السلاح لا على القرارات الرسمية » كذلك قال بن غوريون . ما عادت اولية الروح العسكرية في اسرائيل بحاجة الى تبرير ، لا سيما اذا كان فائض القوى في الكيبوتيزم والموشافيزم وكانت الاموال الخارجية تنهمر كمطر الذهب ، تقدم لتلك الروح الوقود اللازم من رجال وسلاح. تسمح لاسرائيل بخدمة عسكرية اجبارية لثلاث سنوات وبتجنيد ١٥ بالمائة من السكان . وبالاحتفاظ بالجيش في حالة استنفار دائم فترات طويلة ، وتقدم العدد والتدريب بل والرجال ... ان اسرائيل تنفق ١١٫٧ بالمائة من دخلها القومي في الجيش . واذا لم يكن هذا

الرقم يعني الكثير لديكم فانظروا معناه في هذه الارقام التي يقدمها معهد الدراسات الاستراتيجية في لندن : الولايات المتحدة لا تنفق اكثر من ٨،٩ بالمائة من دخلها القومي في الحرب . والاتحاد السوفياتي ٥،٧ بالمائة فقط . وكانت بريطانيا تنفق حتى السنة قبل الماضية ٦،٧بالمائة ثم خففت الحاجة نسبتها . فرنسا تنفق ٥،١ بالمائة ، والمانيا ٥ بالمائة ، وبلدان اوروبا الشرقية بين ٢،٤ و ٥،٣ بالمائة ، ايطاليا ٣،٣ بالمائة ، الهند ٤،٧ بالمائة ، يوغوسلافيا ٦ بالمائة . رقم اسرائيل اعلى رقم في الدنيا لا سيما اذا عرفنا ان نسبة البطالة التي بلغت ٩٦ الف عامل خلال العام الماضي تشكل ١٠ بالمائة من الطاقة العمالية وتترك اثرها القاسي في الدخل القومي . ان نفقات اسرائيل العسكرية لو وزعت على مساحة الارض لكانت تكاليف الاحتفاظ بكل ميل مربع فيها تصل الى ١١٣ الف ليرة اسرائيلية . هذا في الارقام المعلنة ، عدا السرية وعدا حسبان المعونات العسكرية الاجنبية . ولو وزعت النفقات على الافراد لكان تكاليف الابقاء على الفرد الواحد في فلسطين يبلغ ٣٤٤ ليرة اسرائيلية سنويا . ومع ذلك فان هذه الميزانية قد ارتفعت ايضا في هذه السنة المالية التي سوف تنتهي بعد ثلاثة اشهر . ميزانية ٦٨ ــ ٦٩ بعد ان كانت تشكل ٢٤،٤ بالمائة من ميزانية السنة الماضية اضحت الان تشكل ٦٥،٧ بالمائة من الميزانية الحالية .. لا .. لم تنشر النفقات الفعلية ... ما نشر فقط هو الذي ظهرت فيه الزيادة ٨٠ بالمائة خلال عامين ...

هذا والجيش يسير منذ عام ١٩٤٨ على الاقل ضمن حركة لولبية متزايدة المحيط من السيطرة والتوطد : المزيد من محاولة التوسع والنصر ، والمزيد من التوسع والنصر يدفعه بالمقابل الى المزيد من القوة ... واذا كان دايان الذي تحول فجأة الى بطل قومي يتهيأ لاستلام الحكم في اسرائيل فثمة من مثله اخرون : ثمة سيمون بيريز خاصة واسحق رابين وييغال آلون وحاييم بارليف هم نجوم الجو السياسي اليهودي في الغد ...

ترى ، هل استطعت ان القي ببعض الاضواء على خطة التغلغل العمقي في الارض ؟ وهل تكشفت علاقاتها الخلفية : علاقات البداهة والتكامل مع الخطة الاخرى : خطة الانسياح الافقي في الارض ، خطة التوسع العدواني ؟ هذه الخطة الاخرى ، لقد يكون من التنبؤ المتشائم ان نلاحقها ، ولقد نرفض في نوع من طرد المخاوف السوداء تصديق خطوطها التي تبين ولا تبين . كل ضربات الصهيونية ابقيناها لدينا بين الشك واليقين حتى فاجأتنا بغتة عند الوريد ...

هذا التكوين الاقتصادي ــ العلمي ــ العسكري الذي سموه اسرائيل ، ليس بالتكوين المحدود المكان ، اطماعه في الارض اوسع من واقعه الحالي بكثير . اوليس بالواضح انه ما دام الهدف الصهيوني تجميع اليهود أجمعين من المنفى فان الحاجة سوف تظل مستمرة الى المزيد من المجال الحيوي ، والمزيد من الاتساع باستمرار ، أي الى المزيد من الارض لعمليات الاستيطان والاستثمار ؟ ومما دامت هذه الحاجة قائمة فلا بد اذن من أن يلازمها تطوير القوة العسكرية الهجومية بشكل يضمن الاستيلاء على هذه الارض بالمجان ، على الطريقة التي اثبتت نجاحها ، بدلا من التربص ، في الارض المحدودة للدفاع ؟

اذا كانت اسرائيل لم تقنع حتى في هيكل الدستور من حدود لها ، فلانه ليس لها في الاطماع من حدود . الفرات والنيل في التوراة وعلى باب الكنيست من ذا الذي قال انهما لا يعنيان اكثر من ملامسة النهرين ؟ او انهما لا يعنيان ملك الحوضين اجمعين بين خليج البصرة والنيلين في السودان ؟ ولست لاذكر بمصور اسرائيل الذي يضعه حزب حيروت رمزا لجماعته ، والذي يلف شرقي الاردن وجنوب لبنان وسورية وتمتد في وسط بندقية تشقه من العقبة حتى اقصى البقاع.. لا .. ولكني اشير ايضا الى مصور جديد ظهر منذ اسبوع فقط في كتاب صهيوني بالولايات المتحدة : اسرائيل الغد حدودها انما هي مع تركيا في الشمال .. ذلك القدر من الله ولا راد لقدر الله . كذلك يقولون الان ... فلا لبنان اذن هناك ولا الاردن ولا سورية سوى شيء من البادية ... ومذ الان بدات النظريات الصهيونية الدعائية لهذا المخطط تنزل السوق تبريرا وتكريسا ، كل خطوة يخطوها الصهيونيون فانما يصوغونها في نظرية واطار علمي مما يبتكرون . الجهد التنظيري يعينهم على أن يلبسوا اطماعهم والعدوان ثوب العلم والمنطق ... نظرية الردع ، نظرية الحرب الوقائية ، نظرية الغارة الانتقامية لتوطيد الامن الداخلي . سجلوها حتى في كتاب حكومة اسرائيل الرسمي حتى استقرت .. منذ حزيران تغيرت النظرية : النظرية اليوم خطوة اكثر جرأة وصفاقة .. اسحق دويتشر اعطى الجانب السلبي من النظرية الجديدة في قوله « في مقال بمجلة الازمنة الحديثة تشرين ثاني عام ١٩٦٧ » « سلامة اسرائيل لا يمكن توفرها الا بحروب متوالية دائمة تؤدي في النهاية الى القضاء على قوة البلاد العربية قضاء تاما ». اما الجانب الايجابي فكان من نصيب بنيامين أكسين استاذ العلومالسياسية والحقوق الدستورية في الجامعة العبرية والاستاذ الزائر الان في باريس ، منذ اشهر بالضبط خرج في الهيرالد تريبيون بالنظرية ، انه لا يتحدث عن المدى الحيوي للشعب الاسرائيلي . مثل هذه الفكرة جديرة بأن ترفض لما تحمل من ظلال الجو النازي والاستعماري ولكنه يتحدث في أطار العدل العالمي وتوزيع الثروات العالمية بين بني الانسان . يقول« ان العالم يعيد توزيع الثروات والارض بين الشعوب، والان من حقنا ان نأخذ حصتنا . لم نفعل بعد سوى ان نأخذ قطعة صغيرة من الارض العربية الواسعة التي تزيد مرتين عن حاجة العرب ... ويضيف قوله متظلما : من هذا يرى العالم مدى الظلم في هذه الحرب التي يشنها علينا العرب منذ عشرين سنة .. تلك الحجة التي نرميهم بها من ان فلسطين لا تتسع لليهود الارض تنقلب الان ضدنا ، هم يرموننا نحن الان بضدها : لئن لم تكن تتسع لخمسة عشر مليونا فاعطونا اذن ما يكفي ... من الحق الانساني ان نأخذ الباقي ... كذلك الان يقولون .

***

حصاد هذا الشوك كله ان عملية زرع اصطناعية لعضوية ملتهمة متوسعة تتوضع بين الشغاف والقلب من عضوية اخرى . كل ما يمكن ان تهبه الوسائل الحديثة من امكان النجاح يوفرونه لهذه العملية، كل ما يشترى بالمال او يستثار بالدين ، او يملك بالضغط والاكراه او يوصل اليه بالمؤامرة وبالسياسة أو يغتصب بالقوة المدمرة او يلغى بالتشويه وخداع الرأي العام كله وصلوا اليه ... ومع ذلك فان اسرائيل تجد نفسها الان ، رغم كل هذا النصر المذهل ، امام نقطة ما حسبت يوما من الايام حسابها الحقيقي : اما أصحاب الارض . كل ما كسبته فانما هو مهدد بكابوس اصحاب الارض ، ساسة اسرائيل يدورون منذ حزيران الماضي حتى اليوم حول كلمة : « المفاوضات المباشرة » . انها لا تعني سوى اننا نريد اعتراف اهل هذه الارض بنا جزءا منهم ومنها ان يقبلوا بنا فلا قتال من بعد . يريدون ان يحولوا عدوانهم العسكري الى علاقة سلم ، لانهم آمنوا اخيرا ان منالمستحيل بقاء لدولة في اطار من العداء . ووراء رغبتهم في ترجمة النصر العسكري الى نصر نهائي تقع الرغبة الاهم في أن يعترف اصحابالارض لهم بالارض . ان يطمئنوا انهم وصلوا اخيرا الى الوطن ... وانهم اخيرا في هذا الوطن آمنون ... هذا الاصرار على المفاوضات المباشرة انما هو اعتراف لاول مرة من قبل الصهيونية بالعرب كقوة .. بلى.. ادركوا انه ان لم يكن هذا الاعتراف فليس من امل على المدى البعيد بالوطن : لا قرار الامم المتحدة لهم بالضمانة ولا اعتراف الدول بالنهائي ولا البيان الثلاثي بالعاصم ولا القوة العسكرية بالوقاء ولو ابتلعت الرحاب .. بن غوريون حين رفض ورقة هوية ١٩٥٨ لانها مكتوبة بالعربية مع العبرية انما كان يعبر عن موقف الرفض لكل ما هو عربي .. خطوط العمل الصهيوني منذ كانت طرقت جميع الابواب الا العرب فقد اهملوا مرة واحدة ، وتحت ضغوط الحلفاء تحدث وايزمن مع فيصل بن الحسين ثم أغلقالباب ... توجهت الصهيونية الىالوسائل الاخرى التي تنتهي بارغام العرب . كل ما حظي به سكان فلسطين

من تفكير هرتزل هو قوله : « حين ينتقل اليهود الى منطقة تكثر فيها الحيوانات البرية التي لم يعتدها اليهود كالافاعي (والغوييم عند اليهود هم اولاد الافاعي) فسوف نستخدم الوطنيين لابادة هذه الحيوانات ... » وقد اتبعت الصهيونية من بعد ، هذه الوصية ، الابادة والارغام والقوة ... ما حسبوا يوما من الايام حسابا للعرب مواطنين او مجاورين . وايزمن حين ذهب الى اينشتاين يحدثه عام ١٩٤٧ في امر الدولة التي سوف تنشأ قال اينشتاين : « ولكن ماذا سيكون موقف العرب اذا أعطيت فلسطين لليهود ؟؟ » فأجاب وايزمن : « من هم هؤلاء العرب الذين تتحدث عنهم ؟ ليس لهم أدنى أهمية ... »

أيجرح الكرامة أن نعترف ان العرب لم يعملوا على ان يكون لهم ادنى اهمية ؟؟

ان القضية اليهودية كلها قد تحولت عام ١٩٤٨ . تغير جذري كامل قد دخل على العمل الصهيوني واليهودي كله حين استطاعت الصهيونية ان ترفع على ارض معينة محتلة ، علما يمثل اليهود . وحين اجتمع لهذا العلم والاحتلال والارض اعتراف الدول ... ومن المآسي ان الوعي العربي الذي لم يدرك خمسين سنة قبل ١٩٤٨ ان الهدف هو تسليم فلسطين خالية من العرب لليهود . لم يدرك بعد سنة ١٩٤٨ ضرورة تغيير الاستراتيجية العربية كلها تجاه هذا الحدث العدواني الارضي ، لان العالم انما تصور ان الكيان اليهودي انما يقوم على ارض فارغة خواء او انه قديم فيها قدم الابد . وحين فوجئت الامم المتحدة سنة ١٩٤٨ بأن في تلك الارض التي قسمتها ثم سكتت عن اغتصاب باقيها ، شعبا وبشرا ومن ينطق ومن يتألم ... حين فوجئت بانها انما خلقت مشكلة لمليون انسان مستقر ، في محاولاتها حل مشكلة ٦٠٠ الف انسان غريب ، لم تجد من علاج للغلطة احسن من أن تقيم مؤسسة اغاثة تحمل الى ابناء النكبة عدة الاف من الخيام وعدة اطنان من الحليب المجفف ... وجدت انها هدأت الوجدان القلق حين عوضتهم بالوطن خيمة ، وبالتراب الابوي مسحوق اللبن . استطاعت الصهيونية ، مع القصور السياسي العربي ، أن تلغي الشعب العربي في فلسطين فما يبين له وجود ، وان تمحو الارض المغصوبة فما يستبين لها ظل . الفت ومحت ذلك في كل مكان ... الا هنا ، لدى أبناء النكبة . المفاوضات المباشرة انما هي النقطة الاخيرة التي تريد ان تبصم بها ختام المأساة بتوقيع ابناء المأساة .

***

ان المشكلة كلية تتناول الوجود العربي ، معقدة فلا اشد اشتباكا من عواملها والعقابيل ، متسارعة تتغير باستمرار قد يجاوز القدرة على التحليل والتدبير .. بلى ، ولكني مؤمن بالنصر . ولست ابني على الامور العريضة العابرة . ان مصائر الشعوب لا تبنى على الامراض والازمات ولكن على الاسس الثابتة الخالدة .

في هذه البقعة من الارض اسس حضارية عريقة اعطت الدنيا منذ ستة الاف سنة الى اليوم كل ما تؤمن به في الروح وما تعرف في الفكر . اعطت الدنيا زراعة الارض وخطوط الهندسة والصناعة والحرف كما اعطته اعلى درجات السمو الروحي يوم علمته الايمان بالوحدانية ، هذه البقعة الخلاقة لا تموت .

والشعب في هذه الارض ، ما من شعب مثله في الديناميكية المتصلة وفي الثبات على الخطوب ، رغم الخطوب . لقد مر الفرس بهذه البقاع ، ومر اليونان ، ثم جاء الرومان والروم ، ثم كر الصليبيون وكر المغول وكر التتار وجاء اخيرا المستعمرون الغربيون ... ذبحوا ذبحوا الارض والبشر والشجر ... ومع ذلك زالوا وبقي أهل الارض والارض ... ولئن كانت نقطة الانطلاق الصهيونية في الهجوم ، انما كانت من كلمة « الارض المقدسة » فما تلك الارض باقل قدسية لدينا منهم .

واعرف ثالثا انه ما من قوم او جماعة عاشت الى الابد في عداء مع الشعوب المجاورة ، وبالرغم من تلك الشعوب . في التاريخ انها اما ان ترحل او أن تخضع او تذوب ... واذا كان الصدام القائم اليوم بين الصهيونية والعروبة نضالا مريرا بين قوميتين ، كلاهما في طور النمو ، وكان للصهيونية بعض أسباب النصر ، بسبب السبق العلمي والتخطيطي ، فما من قوة في الدنيا تستطيع ان تمنع مائة مليون عربي من اتمام الطريق ، ومن الوقوف ذات يوم قريب او بعيد ، موقف الاقوى من الفئة الباغية . والمسألة في التحليل الاخير مسألة زمن وارادة ليس غير .

ويتساءلون عن طريق الخلاص ؟ انها المريرة المريرة ، الطويلة الطويلة . نحن في الواقع محصورون في الزاوية وبالرغم منا أمام طريقين ولا ثالث : نضال ضار حتى النصر او مصير كمصير الهنود الحمر ! اما ما يزعمون من حل سلمي او من سلام دائم وراءه قد يكون فليس بالطريق الثالث . انه المصير الثاني ولكن بالاستعباد والموت البطيء . انه لا ينهي المشكلة ولكن يبدؤها لان اسرائيل ، يوم يكون السلم سوف تمارس هدفها الحقيقي الذي أنشئت من اجله : استثمار الشرق العربي وابتلاعه موارد وقوى بشرية.وهي اذن النهاية. ليس امامنا الا النضال الضاري سبيلا وحيدا ... وانا لنحتاج فيه كل القوى ، بلى كل القوى . ما من سلاح يحق لنا أو نستطيع ان نستغني عنه . ما من سلاح الا وله مكانه وقيمته في المعركة .وان اسس العمل فيما احسب ، وفي اطار ما اثارت الصهيونية ذاتها ، وما استخدمت ، هي :

اولا : اعطاء القضية البعد الروحي المفقود . اعطاء الدين مكانه في النضال . تجنيد العقيدة . ان الدين في جوهره حركة خلق وتفجير وامل ونزوع الى الاسمى . والاسلام خاصة متصل بجوهر الوجود القومي العربي ارتباط هذا الوجود به . والمسيحية متصلة الرحم بتلك الارض ولا اتصال اي دين بأرض واقداس . ان وضع القضية على انها عربية او اسلامية ، قومية او دينية ، خطأ في الاستراتيجية النضالية خطير . هي هذا وذاك معا . على الا يعني هذا ولا ذاك تمييع النضال بتركه للمسلمين جميعا حتى يجمعوا عليه ، او تبتغي المسيحية لاقداسها انقاذا ... او انتظار الوحدة العربية فيه حتى يبدأ . اني انما اعني بوضوح ان تلتهب كل النيران الداخلية فينا قبسا ونورا وبركانا اتيا . النضال السابق حتى الآن انما افتقد في الواقع الروح . اهملها ثم لم يستطع ان يعوض بها ، رغم الجهد الثوري ، عقيدة تحل محلها في السمو والعمق والصمود ، ولا في الديناميكية المحرضة الشاملة .

ثانيا : تحويل القضية الى هم قومي شامل . ان تصبح قضية شكسبيرية ، قضية وجود او لا وجود قومي . ان تفتضح ابعاد الخطر فيها على الوجود العربي ككل . ان يعرف انها في الواقع الاخير ، انما هي الصراع من اجل البقاء لان الصهيونية هي الاستعمار المطلق . ليست عملية تحد حضاري — قومي فقط ، هذه الكارثة ، ولكنها عملية ابادة تزحف ... الهنود الحمر ، واهلنا في الاندلس ، والانسان الاسترالي ، امثلة من الامثلة ، ان شئنا الامثال . ولسوف يكون الرد الطبيعي على هذا الزحف الابادي الوحدة . الوحدة على اي صورة شاؤوا تصوروها. كتلة المقاومة هنا ، على ارضنا الكبرى وفي ضلوعنا يجب ان تكون . وليس اغبى ممن تكون النار في داره والتلابيب ، فاذا هو يطلب اطفاءها في فييتنام او كوبا او مع قضية الزنج في ارض الزنج .

ثالثا : جعل القضية مطلبا شعبيا ثوريا . ان تعبئة كل القوى الشعبية هي السبيل الوحيد . تحرير الشعب وتنظيمه هو الثورة ، لا اثارة الغرائز الغوغائية فيه ، وركوبها لحكمه . العمل الواعي العميق في اطار الشعب العربي كله هو الضمانة ، لا سوق الناس بالارهاب الى حيث لا يعلمون ولا يؤمنون . التحرر الاقتصادي — الاجتماعي الشعبي الشامل ، والتنظيم الاشتراكي العلمي للموارد القومية ، ووضع القوى الكبرى في وجه الاخطار الكبرى ، هو وحدة الطريق .

رابعا : ليست القضية عسكرية فحسب . ولو كانت ، اذن ارتضينا — طائعين او مرغمين ، وان يكن ذلك غير صحيح — ان يلي امرها وامرنا

العسكريون والعسكريون فحسب . انها اوسع بكثير منهم . وما كانوا ولن يكونوا الا الجزء الايسر – ولا اقول الاتفه – منها . انها تنظيم اقتصادي – علمي – اجتماعي قبل كل اولئك وفوق كل اولئك . والرد الوحيد عليها هو « عصرنة » الدفاع العربي ، هو التجاوب العميق مع المرحلة التاريخية للعصر ، التجاوب مع التكنية التي تمسك الدروب ، ومع العلم في اعمق حدوده ، ومع العالمية سواء في الاعلام والدعوة او في ربط المشكلة مع مشاكل الامم الاخرى . انها التخطيط الشامل الذي يعطي كل انسان عربي دوره الكامل في المعركة .

خامسا : اعطاء القوى العربية المادية مكانها ودورها في الصمود والنضال : الارض الواسعة . التكاثر الديمغرافي . المواقع الاستراتيجية الثروات الطبيعية العديدة ، الخبرات البشرية المتزايدة ... كلها قوى معطلة ، لئن لم يستغلها العرب اليوم لمصلحتهم ، استغلها العدو في الغد ضدهم ، ونهب وذبح واستباح . ولكم في مياه الاردن ، وفي خليج العقبة وفي املاح البحر الميت موعظة بعد موعظة بعد موعظة ! اعلم انني انما أخوض الآن ميدان التنمية الاوسع ، ودنيا التخلف العربي وكيف علاجها والخلاص ؟ ولكن ايجهل احد كيف اتصال الوجهين في المشكلة ومدى اتصال الوجهين ؟ أليست القضية ، على الجانبين السلبي والايجابي كصفحتي قطعة النقد الواحدة ؟

سادسا : ان نعرف للقوى العالمية مكانها في الميزان والحساب . ان نحسب القوى المعادية والموالية والممكنة الولاء او العداء على مستوى واحد من الموضوعية والواقعية . ما من شعب يعيش اليوم وحده واننا لنفتقر ، ولنفتقر الفقر الشديد الى هجوم شامل على العالم . اننا مجهولون حتى الموت ، على كرة الطين هذه . وليس بالسلاح وحده يمتنع الانسان ، ذلك من ملامح الماضي الذي انقضى. اما اليوم فالضمانة ان تصبح قضيتنا احد هموم العالم الاولى . واذا كان ما من انسان يتبنى قضية يجهلها فما من انسان ايضا الا وفي صدره زاوية – مهما صغرت – للحق والمنطق او المصلحة او للمثل العليا . استراتيجيتنا في الهجوم ، هجوم الحب والدعوة في الناس ، يجب ان تبنى على سياسة النفس الطويل : عدم اليأس من أي عدو وعدم الاهمال لاي صداقة . ان يعرف الناس مأساتنا ليس جزءا من واجبنا فحسب ولكنه كذلك جزء أساسي من تكتيك النضال المنتصر . التصميم على ان يفهمنا الآخرون وعلى ان نفهم الآخرين هو بعض المعركة ، وبعضها أيضا توحيد النضال والتعاون مع كل الجبهات المظلومة على الارض . من مهماتنا نحن ان نبني مدماكا بعد مدماك ، هذا الدرع الواقي من الرأي العام العطوف ، الذي لا يكون النصر نصرا نهائيا الا به . ان نكون في آذان الناس واسماعهم باستمرار وبكل وسيلة ومناسبة وفي كل فج ، ان نبني من المصالح الاقتصادية ومن العلاقات الفكرية جسورا تجاه ، ان نجعل قضيتنا قضية كل حر وان يدافع عن حقنا الانساني كل انسان ، وسائل قد استخدمها الباطل فانتصر ، فهل يمكن ان تفشل في يد الحق ؟ ان سيطرة الصهيونية على وسائل الاعلام في الدنيا ، ليست اكثر من كذبة صهيونية كبرى . هي من وسائلهم في حربنا النفسية ، وما يزينها لنا الا اليأس والكسل . وموقف العالم بجانبنا انما يكون بمقدار ما نعمل نحن على ان يكون بجانبنا . واننا اليوم لاحوج الى هذا الموقف العالمي العطوف من اليهود انفسهم على تفاوت ما بين نوع علاقاتنا تاريخيا مع الناس ونوع علاقات هؤلاء اليهود .

أوتحسبون انها اهداف بعيدة ؟ ما هي بالبعيدة ابدا لقوم يؤمنون. اني على النطاق المرحلي لاعتقد ان ثمة طريقا . ثمة استراتيجية لمطالع الطريق . ما دامت الصهيونية انما تهاجم الارض وهذه الارض بالذات ، وما دامت تلغى أو تحاول ان تلغى الوجود العربي المتصل بها ، فسبيل الدفاع انما هو التشبث بالارض نفسها ، والانطلاق منها ، واثبات الوجود العربي عليها . غلطة الدول العربية التي تبنت القضية منذ ثلاثين سنة (منذ سنة ١٩٣٧ على الاقل) فأورثتنا اربع هزائم كبرى ، غلطتها المميتة يجب ان تنتهي . لقد أخذت صفة الوكيلة وليست بالوكيلة ولا حكامها بالذين يحسون عمق المأساة ، وابعدت الى الوراء أصحاب الارض فما يبينون . ثم اغرقت القضية في مستنقع مشاكلها الداخلية فما تتذكرها الا لالهاب المقاطع في الخطب واشعال التصفيق للانقلابات . ثم لم تتنبه – وعجيب الا تتنبه – الى انها لا تستطيع كدول ان تتصرف بحرية ، على المستوى الدولي ، ضد دولة قائمة دون ان تثير عليها مجمع الدول . وان عليها – بعد سنة ١٩٤٨ على الاقل – ان تطور استراتيجيتها ليكون اصحاب الارض والنكبة في المقدمة وتكون المعركة حرب تحرير !! ان الطريق اذن ان يبرز ، وبقوة ، اصحاب الارض على الارض نفسها ، وان تنشأ قبل ذلك ، وفورا ، المؤسسة المالية التي تمول هذا الظهور باستمرار وتصب فيها كل اموال الدفاع.

واذا كان هدف الصهيونية هو الوطن والاستقرار ، فيجب ان تكون التكتيك الدفاعي المباشر تدمير ذلك الحس بالاطمئنان الذي يحاولون اقامته في المهاجرين . يجب ان يكون الهدف ابقاء حس الغربة قائما بينهم وبين ذلك التراب . اشعارهم ، كل لحظة ، وبكل وسيلة ، انها مغامرة فاشلة هذه المغامرة . انها مرحلة خاسرة مدمرة هذه التي يخوضون ! حتى الآن ربحوا كل ما يمكن ربحه بالمال والقوة شيء واحد لا يمكن كسبه الا بالثقة والا على الزمن الاطول هو الشعور بالوطن . الذكريات الاثرية لا تكفي . هم يعرفون ذلك . فالخطة الآن اذن هي ابقاء شعور « المنفى » قائما في « اليهودي التائه » . لا وطن له على ارضنا ذلكم هو الشعار . آشيل الصهيوني الذي غطسته آلهة الغرب ودعم المستعمرين بنهر الخلود ، وبالطلاسم ضد الموت ، هنا عرقوبه والمقتل . وهنا يجب ان تنزل فورا وبالحاح مطرقة الفدائي الساحقة ، فلا تزول غربة الصهيوني ابدا .

اذ ذاك ، واذ ذاك فقط يظهر ، ولسوف يظهر الكاتب الآخر ولعله يكون ابنة موشى دايان نفسها ، الذي يكتب في رواية اخرى ، قد يكون عنوانها : « طوبى للهاربين » ، يقول بطلها لابنه وهو يحاوره :

« هذا التراب ! احذره يا بني . أنه التراب الغريب المرعب ، ان ربك بعيد عنه ، بعيد جدا » !

شاكر مصطفى